

المركز القومى للترجمة

لوكريتيوس

فى طبيعة الأشياء

ترجمة

على عبد التواب على صلاح رمضان السيد

سيد أحمد صادق

مراجعة وتقديم

عبد المعطى أحمد شعراوى

2501

فى طبيعة الأشياء

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2501
- فى طبيعة الأشياء
- لوكريتيوس
- على عبد التواب على، وصلاح رمضان السيد، وسيد أحمد صادق
- عبد المعطى أحمد شعراوى
- الطبعة الأولى 2018

هذه ترجمة كتاب:
De Rerum Natura
Lucretius

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

لوكريتيوس

فى طبيعة الأشياء

ترجمة : على عبد التواب على
صلاح رمضان السيد
سيد أحمد صادق

مراجعة وتقديم: عبد المعطى أحمد شعراوى

2018

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

لوكريتيوس .
فى طبيعة الأشياء/ تأليف لوكريتيوس، ترجمة على عبد التواب على، صلاح رمضان السيد، سيد أحمد صادق ، مراجعة وتقديم عبد المعطى أحمد شعراوى. القاهرة المركز القومي للترجمة ٢٠١٨ .
٦٠٤ ص ، ٢٤ سم
أ- على ، على عبد التواب (مترجم)
ب- السيد، صلاح رمضان (مترجم مشارك)
جـ- صادق، سيد أحمد (مترجم مشارك)
د- شعراوى، عبد المعطى أحمد (مراجع ، مقدم)
(ج) العنوان ٨٥٩,١

رقم الإيداع ٢٢٥٤٤ / ٢٠١٤
الترقيم الدولى: I.S.B.N – 978 - 977- 718 - 968- 2
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم 7

- حياة لوكريتيوس 7
- عدم اكتمال القصيدة 13
- شخصية لوكريتيوس 15
- لوكريتيوس والجنون 32
- لوكريتيوس والانتحار 40
- لوكريتيوس والحب 45
- شخصية مميوس 53
- إبيقوروس 60
- بناء القصيدة 69
- لوكريتيوس وا بيقوروس 73
- موضوع القصيدة 79
- تأثير لوكريتيوس فى لاحقيه 84

الكتاب الأول 91

الكتاب الثانى 165

الكتاب الثالث 239

الكتاب الرابع 317

الكتاب الخامس 401

الكتاب السادس 497

– قائمة المصادر والمراجع 581

تقديم

حياة لوكريتيوس:

تيتوس لوكزيتيوس كاروس "**Titus Lucretius Carus**" واحـد مـن أشـهر الشخصيات الرومانية التى عاشت فى أثناء القرن الأول قبل مولد المسيح. قال عنه معاصره الأصغر الشاعر الرومانى الشهير فرجيليوس (٧٠-١٩ ق.م.): سعيدٌ هـو ذاك مَنْ استطاع أن يدرك عِلــة الأشياء، ويسحق تحت قدميْه كل المخاوف والقدَر العنيد وزئير السعير اللــُّهام [١]. عرفه بعض الأجيال من بعده شاعرا، وبعض آخر فيلسوفًا، وبعض آخر عالما طبيعيا أو منظـرا سياسيا، كما عرفته أجيـال أخـرى دارسًا لتاريخ العقائد والأديان أو محللاً نفسيًا. بالاختصار رأت فيه كل مجموعة من الدارسين جانبًا مختلفًا من جوانب المعرفة المتعددة والمتباينة. على الرغم من كـل ذلك فإنه فى الحقيقة لم يترك لنا سوى قصيدة واحدة اتفقت كل الآراء بالإجماع على أنها قد وصلت إلينا غير كاملة، بل وتظهر بوضوح أن ناظمها لم يستطع قبل موته أن يراجعها أو ينقّحها أو ينسّق بين أجزائها. وصلتنا هذه القصيدة تحت عنوان "فى طبيعة الأشياء "أو" فى طبيعة الكون" **De Rerum Natura**. ترجمت هذه القصيدة إلى كل لغات العالم تقريبًا ما عدا – بقدر ما أعلم – اللغة العربية. ظهرت مئات بل آلاف الدراسات عنها وحولها، ناقشتها كل الموسـوعات العلميـة المتخصـصة وغيـر المتخصصة. تناولها دارسون أكاديميون وجامعيون ونالوا درجات علمية وجامعيـة برسائل عديدة موضوعاتها دراسات متخصصة لهذه القصيدة. منحت – على سبيل المثال – بعض الجامعات الأمريكية أثناء العقدين الماضيين فقط درجـة الـدكتوراه لأكثر من ثلاثين دارسا. من بين هذه الدراسات التى أجيزت ونال أصحابها درجات الدكتوراه – على سبيل المثال لا الحصر:[٢]

---

(١) "Vergil,Georgics,II,490-492."، السعير اللــُّهام: أى نار جهنم التى تلتهم كل شيء. لا يذكر فرجيليوس لوكريتيوس هنا بالاسم ربما كان لديه بعض المبررات.(انظر صـ :١٠٢ أدناه).

(٢) انظر قائمة المراجع.

في مجال الفلسفة:

- Ward , Epicurus Transformed: Lucretius' Appeal to the Roman Audience ,Yale University 1990.

في مجال المعرفة البشرية:

- Solomon , Lucretius and the Deception of Rome: Adaptation of Epicurean Epistemology in the De Rerum Natura , Yale University 1998.

في مجال الشعر التعليمي:

- Volk , Carmen et Res: The Poetic of Latin Didactic (Lucretius , Vergil , Ovid) , Princeton University 1999.

في مجال الدراسات الكونية:

- Clark ; Natura Creatric: The Matter of Meaning of the De Rerum Natura , Columbia University 2000.

في مجال الشعر الهللينستي:

- Tang Wang , Hellenistic Aesthetic and the Poetic Composition -
- of Lucretius' De Rerum Natura , Indiana University 2002.

في مجال الخطابة:

- Markovic , The Rhetoric of Explanation in Lucretius' De Rerum Natura , University of Illionois Urban-Champaign 2006.

في مجال السياسة:

- Colman , Science , Politics , and Poetry , A Study of Lucretius' On The Nature Of Things , Boston College 2006.

في مجال علوم الذرّة:

- Shearin , Atomic , Politics: Speech Acts in Lucretius' De Rerum Natura , University of California , Berkley 2007.

مَن هو هذا الــ "لوكريتيوس" – إذن – صاحب هذا العمل الصادم الذى لفت – وما زال يلفت – أنظار الدارسين على مرّ العصور القديمة والحديثة والمعاصرة على حدّ سواء[1] لعل ما يثير العجب الشديد هو أن معلوماتنا عن تاريخ حياته أو شخصيته أو أسرته أو نشأته قليلة جدا، بل تكاد تكون على قلتها مجرد حدس أو تخمين لا أكثر. وربما أيضًا لا نكون مبالغين إذا وافقنا على ما يقوله أحد الدارسين فى العصر الحديث: إن قصة حياة لوكريتيوس تصور شخصية "مخلِّــص" وصل بعد فوات الأوان، شخصية بطل ألقى نفسه بنفسه فىَ غياهب الماضى السحيق[2]. لقد حاول الدارسون تفسير هذه الظاهرة ومعرفة أسباب ضآلة المعلومات التى وصلتنا عن حياة لوكريتيوس.. قيل إن فلسفة لوكريتيوس جاءت على عكس فلسفة أعضاء الطبقة الحاكمة فى روما، ومن هنا نشأ ما يعرف بــ "مؤامرة الصمت" ضد لوكريتيوس[3]، لكن ذلك الرأى من السهل رفضه إذ إن قصيدة لوكريتيوس فى طبيعة الأشياء – العمل الوحيد الذى يعرض فلسفته – كان قد تمّ الاعتراف بها فور ظهورها بين أهل روما على أنها عمل أدبى رائع وأن ناظمها هو لوكريتيوس. قيل أيضًا إن سبب قلة المعلومات عنه هو أنه كان يحيا حياة الناسك المعتكف وبمعزل عن المجتمع الذى يعيش فيه[4]؛ لكن ذلك السبب أيضًا يبدو غير مقنع؛ إذ إن قصيدته تؤكد – كما سوف يظهر فيما بعد[5] – أنه كان ملمّا إلمامًا كاملاً بالمتاعب التى يعانيها معاصروه ومدركًا تمامًا لمطالبهم وحاجاتهم الضرورية فى المجتمع، وأنه كان راغبًا ومهتما ومستعدا كل الاستعداد لتقديم كل معونة ممكنة. ما هو جدير بالذكر أن هذه ليست حالة فريدة بالنسبة للوكريتيوس فقط، بل هناك حالات مشابهة

---

(1) Leonard & Smith , De Rerum Natura, pp.5-6.

(2) L. Leroy , La personalite de Lucrece , p.20.

(3) Rouse , Lucretius' De Rerum Natura ,p.ix.

(4) Ibid. p. xxvi.

(٥) انظر صـــ : ٩٥ أدناه.

كثيرة فى تاريخ الأدبين الإغريقى واللاتينى. هوميروس – على سبيل المثال – الشاعر الملحمى الإغريقى الشهير، صاحب أضخم وأقدم إنتاج أدبى وصلنا على الإطلاق – الإلياذة والأوديسيا – تتنازع حول تحديد مسقط رأسه سبع مدن إغريقية وغير إغريقية، كما تخيّم ظلال الشكّ أيضًا حول وجود شخصية حقيقية تحمل ذلك الاسم، يحدث ذلك لأنه لم يتحدث عن نفسه، لأن طبيعة الشعر الملحمى لا تسمح للشاعر بأن يتحدث عن ذاته. لكن الأمر قد يختلف فيما يتعلق بالشاعر الغنائى كاتوللوس (٨٤–٥٤ ق.م.) الذى عاصر لوكريتيوس وربما مات بعده بعام واحد فقط[1]. إن معلوماتنا عن حياة هذا الشاعر ضئيلة جدًا عن طريق المصادر الخارجية – أى عن طريق المصادر التاريخية والأدبية والنقدية – لكنها كثيرة وكافية عن طريق المصادر الداخلية – أى عن طريق المعلومات التى يذكرها الشاعر بين ثنايا قصائده[2]. إن كاتوللوس يذكر لنا فى قصائده معلومات كثيرة ومتنوعة مباشرة عن حياته وأسرته ومغامراته النسائية وغيرها؛ لذلك فإننا لا نشعر بضآلة المعلومات التى وصلتنا عن حياته عن طريق المصادر الخارجية. أما فيما يتعلق بلوكريتيوس فإنه لا يتحدث عن ذاته فى قصيدته الفريدة التى وصلتنا؛ لأن طبيعة موضوع القصيدة لا تسمح بذلك. لقد دفعت ضآلة المعلومات وقلتها الملحوظة عن حياة لوكريتيوس أحد الدارسين إلى حدّ أنه ينكر وجود شخصية حقيقية تدعى لوكريتيوس، ويعتقد أن قصيدة عن طبيعة الأشياء إنما قد نظمها – من باب الخديعة أو التسلية – أحد أعضاء مدرسة الخطيب الرومانى ماركوس شيشرون أو الشاعر الغنائى كاتوللوس أو السياسى المعتزل أتيكوس[3]. لكن مثل هذا الرأى ربما لا يجد قبولا لدى الأغلب الأعم بين جمهور الدارسين.

---

(1) Hermann , Catulle et Lucrece, pp. 465-480.

(2) Leonard ,Op. Cit. , pp. 15 sqq.

(3) Gerlo , Pseudo-Lucretuis ,pp. 41-72.

إذا ما بحثنا عن مصادر خارجية تمدّنا ببعض المعلومات عن حياة لوكريتيوس؛ فربما سوف لا نجد سوى ثلاثة مصادر تشير إليه إشارات مختصرة وغامضة بل وأيضًا ملغزة. هذا بالإضافة إلى مصدر رابع حيث يمدحه ويشير إليه فرجيليوس – كما أسلفنا من قبل – دون أن يذكر اسمه أو حتى لقبه. وربما يكون فرجيليوس قد فعل ذلك عن عمد أثناء مديحه للوكريتيوس تفاديًا للمساءلة؛ أو لكى لا يبدو رافضًا لـــ "مؤامرة الصمت" التى يتخيلها بعض الدارسين دون وجه حق.

المصدر الأول: القديس جيروم. قرب نهاية القرن الرابع بعد ميلاد المسيح كتب القديس جيروم فى حولياته يقول[1]: (فى هذا العام) وُلد الشاعر تيتوس لوكريتيوس. كان قد أصيب بالجنون بسبب تناول جرعة "مانع للحب"، وأثناء فترات الهدوء بين كل نوبة وأخرى من نوبات الجنون كان ينظم بعض "aliquot" الكتب التى قام شيشرون فيما بعد بتنقيحها، ثم انتحر وهو فى الرابعة والأربعين من عمره[٢]. فى أغلب المخطوطات التى وصلتنا لنص القديس جيروم يذكر النسّاخ أن عبارة (فى هذا العام) – التى اختفت من سياق النص – تشير إلى عام ٩٤ ق.م.، بينما يقترح نسّاخ آخرون فى مخطوطات أخرى أنها تشير إلى عام ٩٣ق.م.، ومجموعة قليلة من النسّاخ تعتقد أنها تشير إلى عام ٩٦ ق.م..

ومن ثم فإذا كان لوكريتيوس قد عاش أربعة وأربعين عامًا – على حدّ قول جيروم[٣] – فإن ذلك يعنى أنه قد مات فى عام ٥٠/٥١ أو ٤٩/٥٠ أو ٥٢/٥٣ ق.م.[٤]، لكن هناك مصدرا ثانيًا قد يلقى بعض ظلال الشكّ حول مقولة القديس جيروم؛ هذا المصدر هو أشهر علماء النحو والمعلقين الذين عاشوا فى القرن

---

(1) Jerume ,Chronicle , p. 149 Helm.

(٢) انظر: مناقشة موضوع الجنون(صـــ: ٣٤) والانتحار(صـــ :٤٤) والحب(صـــ: ٥٢).

(3) Leonard , Op. Cit. , 15 :قارن

(4) Hutchinson,The Date of De Rerum Natura , pp.150-162.

الرابع بعد مولد المسيح – دوناتوس – الذى أصبح القديس جيروم فيما بعد يعتبر أحد أشهر تلاميذه. يؤرخ دوناتوس لحياة الشاعر الملحمى الرومانى فرجيليوس، كما يؤرخ أيضًا لحياة الشاعر الدرامى الكوميدى اللاتينى ترنتيوس. فى عمله الأول يقول دوناتوس: إن تاريخ موت لوكريتيوس يتزامن مع العام السابع عشر لمولد فرجيليوس[1]. ربما يكون دوناتوس قد نقل بدوره هذه المعلومة عن أشهر كاتب معروف بتسجيل سيَر العظماء – سويتونيوس – والذى عاش أثناء النصف الثانى من القرن الأول والنصف الأول من القرن الثانى بعد ميلاد المسيح (٦٩–١٤٠ م). ويذكر دوناتوس أيضًا أن موت لوكريتيوس يتزامن مع الولاية الثانية للقنصليْن بومبى وكراسوس، أى فى عام ٥٥ ق.م.. لو أن دوناتوس توقف فى مقولته عند هذا الحد لربما أصبح الأمر مقبولاً، لكنه يواصل روايته قائلاً: إن موت لوكريتيوس يتزامن أيضًا مع تاريخ حصول فرجيليوس على عباءة الشباب " toga virilis" – (أى بلوغ سن الشباب)، والذى يؤرّخ له بعض المصادر بعام ٥٣ ق.م. ومن هنا جاء التعارض بين جزئىْ مقولة دوناتوس. أما المصدر الثالث فربما يلقى بعض الضوء فى تحديد تاريخ وفاة لوكريتيوس. ذلك المصدر هو رسالة أرسلها الخطيب الرومانى الشهير ماركوس شيشرون (١٠٦–٤٣ق.م.) إلى شقيقه كوينتوس شيشرون فى اليوم العاشر أو الحادى عشر من شهر فبراير من عام ٥٤ ق.م.[2]. يقول ماركوس شيشرون إلى شقيقه كوينتوس: إن قصيدة لوكريتيوس – كما تقول فى رسالتك – عبقرية بارعة وهى فى الوقت نفسه منمّقة إلى درجة فائقة[3]، فإذا ربطنا بين ما جاء عند القديس جيروم فى المصدر الأول وهو أن شيشرون نقح قصيدة لوكريتيوس وأن لوكريتيوس قد عرض قصيدته على شيشرون وشقيقه ثم مات – أو انتحر – قبل أن يضعها فى صورتها النهائية

(1) Donatus , Life of Vergil , 6.

(2) Sandback ,Lucreti Poemata and The Poet's Death , pp.72-77.

(3) Cicero , Epistulae ad Quintum Fratrem , II ,9.

مستجيبًا لرأى شيشرون، فإن من المحتمل أن يكون ذلك قد حدث قبل موت لوكريتيوس؛ بفترة قصيرة جدا[1]؛ ومن ثم فمن المحتمل أن يكون لوكريتيوس قد مات فى شهر فبراير من عام ٥٤ ق.م. ولما كان قد مات وعمره أربعة وأربعون عامًا – طبقًا لرواية القديس جيروم – فإن تاريخ مولده المحتمل هو عـــام ٩٩ أو ٩٨ ق.م.[2].

ومن ثم فمن الواضح أنه نظم قصيدته أثناء النصف الأول من القرن الأول قبل ميلاد المسيح.

عدم اكتمال القصيدة:

اختلفت الآراء حول عبارة جاءت فى مقولة القديس جيروم؛ حيث يقول: إن شيشرون نقـــح بعد ذلك "postea Cicero emendavit" بعض كتب أو أجزاء من قصيدة لوكريتيوس. يفسر بعض هذه العبارة بأن لوكريتيوس عرض قصيدته على شيشرون؛ وأن شيشرون أبدى بعض الملاحظات أو أشار إليه ببعض التعديلات، لكن الموت لم يمهل لوكريتيوس كى ينقحها طبقًا لهذه الملاحظات أو ينفـــذ تلك التعديلات[3]. لكن بعض آخر يعتقد أن القصيدة عُرضت على شيشرون بعد موت ناظمها كى ينقحها أو يعدّها للنشر كما حدث – على سبيل المثال – فى ملحمة الإنيادة التى مات ناظمها فرجيليوس قبل إكمالها ومراجعتها؛ وقام بهـــذه العمليـــة – طبقًا لرواية القديس جيروم أيضًا[4] – الناشران فاريوس وتوكا. لكن قد يكون

---

(1) Bailey , Tuti Lucreti Cari De Rerum Natura , Libri Six,II,p.18.

(2) Rouse , Op.Cit.,p.xi.

(3) Merill,Cicer's Knowledge of Lucretius's Poem,pp.35-42.

(4) Jerome , Op.Cit.,p.166 Helm.

هناك فرق بين الحالتين – حالة فرجيليوس وحالة لوكريتيوس – إذ من الواضح أنه على الرغم من أن شيشرون كان كارهًا للمذهب الإبيقورى الذى يعتنقه لوكريتيوس؛ فإنه من المحتمل أنه كان صديقا للوكريتيوس(١)؛ إذ إنه ربما كان يتقابل معه عبر صداقته لراعى الأدباء أتيكوس، الذى نفسه كان إبيقوريا مثل لوكريتيوس والذى كان بدوره صديقًا حميمًا؛ وفى الوقت نفسه كان قريبا أو نسيبا لكوينتوس شقيق شيشرون والذى كان هو أيضًا بدوره شاعرا وكان يشعر بالرضا لأن لوكريتيوس كان متأثرا ببعض أشعاره عندما نظم قصيدته عن طبيعة الأشياء، الذى كان أيضًا مستعدا دائمًا لتقديم العون وفروض العرفان لأصحاب المذهب الإبيقورى. بالإضافة إلى ذلك فإن كان شيشرون قد أدخل تعديلات أو قام بتصحيحات مهمة على القصيدة؛ لكان قد أفاض فى رسالته إلى شقيقه كوينتوس وربما كان قد ذكر له بعض تلك التعديلات أو التصحيحات، لكنه فى رسالته لا يفعل سوى الثناء على القصيدة ومدحها(٢). لعل الأمر كان يمكن أن يزداد وضوحا لو أن رسالة كوينتوس إلى شقيقه شيشرون كانت قد وصلتنا(٣).

قد يبدو – إذن – أن قصة تنقيح الخطيب الرومانى شيشرون لقصيدة لوكريتيوس قصة مختلقة ابتكرها جيروم – أو مصدره سويتونيوس – عندما لاحظ أن القصيدة لم تكن مكتملة وأنها كانت فى حاجة إلى مراجعة، وأنه علم بما جاء فى رسالة الخطيب شيشرون إلى شقيقه، عندئذ رأى جيروم أنه من المحتمل أن يكون شيشرون قد قام بالمراجعة والتنقيح. وما يساهم فى إلقاء مزيد من ظلال الشك هو أن جيروم لم

---

(1) Howe , Amafinius , Lucretius , and Cicero pp. 57-62 ; Malowski , Cicero ,Philodemus , Lucretius , pp. 215-226.

(2) Preau , Le jugement de Ciceron sur Lucrece et sur Salluste , pp. 57-73.

(3) Rouse , Op.Cit. , pp.xii-xiii.

يذكر الاسم الأول للشقيق الذى كتب الرسالة وأرسلها إلى شقيقه؛ هل كان يقصد الخطيب الرومانى الشهير ماركوس شيشرون أم شقيقه الشاعر المغمور كوينتوس شيشرون، خاصة أن الاثنيْن – كما هو واضح من الرسالة – قد قرآ القصيدة وعلّقا على ما جاء بها. لعل هذه المناقشة – فى النهاية – لا تنفى فكرة أن الخطيب الرومانى الشهير شيشرون قد اطلع على القصيدة قبل نشرها وبعد موت مؤلفها لوكريتيوس. كما أنه من الممكن أن يكون راعى الأدباء أتيكوس هو الذى قام بنشرها بعد موت مؤلفها، إذ إنه كان يعمل فى مجال نشر الأعمال الأدبية وأنه قد نشر فعلا عددا لا بأس به من أعمال الخطيب شيشرون. كما أن من المحتمل أيضًا أن يكون قد قام بنسخها أحد العبيد الذين كانوا يقومون بالنسخ تحت إشراف أتيكوس(١).

شخصية لوكريتيوس:

لاحظنا أن ما لدينا من معلومات عن تاريخ مولد لوكريتيوس ضئيل للغاية، لكنه ليس أكثر مما لدينا من معلومات عن مسقط رأسه أو نشأته أو تربيته أو ثقافته. بل ويمكن القول بأنه ليست لدينا – حتى كتابة هذه السطور – معلومة واحدة عن طريق المصادر الخارجية. علينا إذن أن نلجأ إلى المصادر الداخلية، إلى القصيدة ذاتها عساها تستطيع أن تقدم لنا شيئا ذا قيمة من هذه الناحية. يبدأ لوكريتيوس قصيدته بدعاء إلى الربة فينوس والدة آينياس الجد الأكبر للرومان (بيت "١" وما بعده) وزوجها إله الحرب مارس؛ كى تساعده هى فى نظم قصيدته وكى يقى زوجُها الإله مارس؛ الرومان ويلات الحرب، إذ إن شاعرنا لا يستطيع أن يفكر بعقل راجح وسط الاضطرابات التى تعانيها روما – مستخدما كلمة وطنى "patria" – (بيت١).

---

(1) Leonard , Op.Cit. , pp. 9 sqq.

واضح من هذه المقدمة أن لوكريتيوس يعتبر روما وطنه والرومان – مستخدما كلمة "Romani" – أهله؛ ومن ثم فهو ليس فلاحا من كامبانيا[١] ولا عتيقا كِلتيًا[٢] كما يزعم بعض الدارسين فى العصر الحديث[٣]. من المحتمل أيضًا أنه كان من أصل أرستقراطى، فهو يخاطب مميوس الأرستقراطى مخاطبة الند للند. كما أن النغمة السائدة فى كل أنحاء القصيدة توحى بأن ناظمها يعيش فى بحبوحة من العيش ويألف حياة البهجة والرفاهية على الرغم من أنه راغب عنها[٤]. كما يظهر من القصيدة أيضًا أنه على قدر كبير من الثقافة والتعليم الذى لا يسمح به إلا لذوى الطبقات الثرية والأسر النبيلة فى روما[٥]. ربما تتأكد صحة ذلك الرأى عندما نلاحظ أنه يتقن اللغتين اليونانية واللاتينية؛ وأنه على إلمام كامل بكل مراحل آداب هاتين اللغتين[٦]. وغالبًا ما يستخدم مصطلحات قانونية وسياسية وعبارات توحى بأنه ربما يكون قد تدرّب على ممارسة العمل فى المجال السياسى وساحات القضاء[٧]. بالإضافة إلى ذلك؛ فإن من المعروف أن قبيلة لوكريتيوس "gens Lucretia" كانت من القبائل الأرستقراطية، لذا فإن من الطبيعى الاعتقاد أن شاعرنا لوكريتيوس كان واحدا من أفرادها أى أرستقراطيا.

---

(١) كامبانيا "Campania": المنطقة الواقعة على الساحل الشرقى لوسط إيطاليا.

(٢) الكلت "Celtae": مجموعة من القبائل الهند أوروبية التى كانت تسكن فى وسط بلاد الغال.

(٣) يرى بعض الدارسين أن لوكريتيوس لم يكن رومانيًا، بل ربما كان فلاحًا من كامبانيا أو كان ينتمى إلى قبائل الكلتيين ووقع أسيرا أو أصبح عبدًا ثم أصبح فيما بعد عتيقا.

(4) Sellar , The Roman Poets of the Republic , p. 288.

(5) Leonard , Op.Cit. ,16 sqq.

(6) Kennedy , Doctus Lucretius , pp. 366-392.

(٧) فيما يتعلق بالسياسة انظر على سبيل المثال الكتاب الثالث، البيت رقم ٩٩٦ والحاشية هناك، والبيت رقم ١٠٠٢ والحاشية هناك. وفيما يتعلق بساحات القضاء انظر الكتاب نفسه البيت رقم ٩٥١ والحاشية هناك.

هناك فقرات كثيرة فى قصيدة "فى طبيعة الأشياء "ترجح أن لوكريتيوس كان دائم التردد على أماكن كثيرة فى روما؛ وأنه كان ملمّا بسلوكيات أهل المدينة. فى الكتاب الثانى (٢٦٤-٢٦٥) يصف لوكريتيوس سباق الخيل وكيف تنطلق الخيول المتسابقة فى لحظة واحدة:

" ألا تلاحظ كيف أن خيول السباق – عندما تُفتح الحواجز –

لا تستطيع أن تنطلق فجأة كما تتوق قلوبها رغم رغبتها القوية فى ذلك؟".

وفى الكتاب الرابع (٩٩٠) يُشبِّه اندفاع الرغبة البشرية والحيوانية بالجياد القوية المشتركة فى السباق:

"وكأن حواجز نقطة البداية قد فُتحت أمامها (إشارة لبدء السباق)".

وهناك فقرات كثيرة تشير بوضوح إلى أنه كان من رواد المسرح الرومانى والمشاهدين للعروض المسرحية، إذ يقول فى الكتاب الرابع (٩٧٤-٩٨٣):

" وأيّا كان الأشخاص الذين يولون اهتمامهم المتواصل

بالعروض المسرحية لعدة أيام على التوالى،

فحين يتوقفون عن ملاحظة تلك الأشياء بحواسهم،

فإننا نرى أنه لا تزال هناك ممرات باقية ومفتوحة فى عقولهم

يمكن أن تأتى من خلالها أطياف تلك العروض.

ولهذا تُعرض تلك الأطياف نفسها أمام عيونهم أيامًا طويلة،

حتى يبدو لهم – وهم أيقاظ – أنهم يشاهدون راقصين

يتراقصون أمامهم ويحركون أطرافهم المرنة، ويسمعون بآذانهم الموسيقى العذبة ونغمات أوتار القيثارة المعبّرة،

وفوق ذلك يرون نفس الحشد من الجمهور وديكورات المشهد المسرحى المتنوعة وهى تتلألأ أمامهم".

وفى الكتاب نفسه يقول(٧٥-٨٣):

" فذلك ما تحدثه الستائر الصفراء والحمراء والقرمزية بوضوح حين تُنشر فى المسارح الكبيرة، وتوضع فوق العوارض الخشبية فى السوارى، إذ تنقلب الستائر بحركة مضطربة، ومن ثم تصبغ بألوانها جموع الجالسين أسفل خشبة المسرح، والجالسين فى الأماكن المميزة، كما تصبغ كل المشهد المسرحى. وكلما أُحكمت جدران المسرح بهذه الستائر، اندمجت تلك الأشياء مع ألوان الستائر - حيث إن ضوء النهار يؤثر فى تلك الألوان - فبدت مرحة تدعو إلى السرور".

إن الفقرتين السابقتين[١] ربما تؤكدان أن لوكريتيوس كان دائم التردد على مسارح روما، وأنه كان يتذوق الموسيقى المصاحبة للعرض المسرحى ويتابع الممثلين والراقصين أثناء العرض، ويميّز بين أماكن العامة من رواد المسرح وأماكن الشخصيات البارزة التى تجلس فى أماكن متميزة وتشغل المقاعد الأمامية

---

(١) وأيضًا هناك فقرة ثالثة فى الكتاب نفسه؛ البيتان (٤١٦-٤١٧).

فى قاعات العرض[1]. ومن المرجح أيضًا أن لوكريتيوس عاصر المسارح المؤقتة؛ حيث كانت المقاعد وخشبة المسرح مصنوعة من الأخشاب وذلك قبل أن تقام مسارح ثابتة مبنية بالأحجار فى عام ٥٥ ق.م.. وهناك فقرة فى الكتاب السادس (١٠٩–١١٠)؛ ربما تؤكد ولع لوكريتيوس بحضور العروض المسرحية التى كانت تقام فى روما حيث يشبِّه حركة السحب فوق سطح العالم الفسيح:

"مثلما هى الحال عندما تُحدث الستائر المعلقة بامتداد المسارح العظيمة جلبة بسقوطها بين الأعمدة والقوائم الخشبية المتقاطعة".

لم يكنْ لوكريتيوس يشاهد سباق الخيول والعروض المسرحية فقط؛ بل ومن المرجح أيضًا أنه كان يواظب على مشاهدة التدريبات العسكرية التى كانت تقام فى ساحة الإله مارس العسكرية الواقعة فى قلب مدينة روما – مثلما كان يشاهدها غيره من أهل روما. إنه يخاطب محدثه فى الكتاب الثانى قائلاً (٣٩–٤٥):

"فلتخبرنى يا مميوس، عندما ترى فيالقك وهى ٣٩
تحتشد فى الساحة الواسعة أثناء المناورات الحربية ٤٠
وقد مُدّت بإمدادات كبيرة، وسُلحت تسليحًا عظيمًا
وانطلقت لهدف عام، هل يطرد هذا المنظر من عقلك الخوف
من الخزعبلات وهل تتراجع خشية الموت خارجة
من صدرك وتتركه حُرًّا خاليا من الهَمّ، فى اللحظة التى ٤٤
ترى فيها سفنك الحربية تصطف على مدى البصر؟". ٤٥

---

(1) Taylor , Lucretius and the Roman Theatre , pp. 91 sqq.

ويواصل فى الكتاب نفسه (٣٢٣-٣٣٢) وصفه للقوات الحربية التى تستعرض قوتها فى ساحة مارس العسكرية إذ يقول:

" خذ مثلاً آخر، الجيوش الجبارة، وهى تخوض مناورة حربية

تحتشد فتملأ السهل بمناوراتها، البريق الوضّاء يضوى لامعًا

حتى السماء، كل شئ حول الأرض يتلألأ بلمعان الأسلحة.

وتحت ذلك تسمع هناك وقع أقدام آلاف الجنود،

بينما يعجّ ضجيج الصياح فوق التلال ويتردد منعكسًا نحو صفحة

السماء. والفرسان العادية تدور مراوغة وفجأة تنعطف عابرة

قلب ساحات المعارك، حتى تخور الأرض مهتزة

تحت هجومها الضارى، ولا يزال هناك مكان مميز

فوق الجبال العالية، منه تبدو هذه الجيوش واقفة،

وتبدو بمثابة بريق مستقر كنقطة ضوء فوق سهل منبسط".

هناك فقرة فى الكتاب الثالث تشير إلى مَنْ يقيم فى منزله فى المدينة ويشعر بالضيق؛ فيحاول الهرب من حالة الضيق فيسرع إلى منزل ريفى يملكه خارج المدينة، لكنه لا يستطيع أن يتخلص من حالته النفسية السيئة. إن هذه الفقرة إما أنها تعبّر عن خبرة شخصية وإما عن ظاهرة لاحظها لوكريتيوس. فإن كانت تعبّر عن خبرة شخصية فإنها تدل على أنه كان أحد أفراد طبقة الرومان الأثرياء؛ لدرجة أنه يملك منزلاً فى المدينة ومنزلا آخر فى الريف. أما إذا كانت تعبّر عن مجرد ملحوظة، وهذا غير محتمل، فإنها – إذن – تشير إلى عادة جرت بين الأثرياء الرومان؛ حيث كانت الحياة المدنية تبعث أحيانا على الضيق والملل فيهرب

أصحابها إلى خارج المدينة ليقيموا فى مقارهم الريفية عسى أن يتخلصوا من حالات الضيق والملل (١٠٦٠-١٠٦٧):

" **فالرجل الذى يشعر بالملل فى منزله كثيرًا ما يخرج**

من قصره المنيف، ولكنه يعود فجأة،

وذلك لأنه لم يشعر بأنه أفضل حالاً بالخارج ولو بمقدار ضئيل.

فهو يسرع فى قيادة جياده الغاليَّة بأقصى سرعة نحو منزله الريفى،

وكأنه يحمل إغاثة عاجلة إلى منزل تشتعل فيه النيران،

لكنه بمجرد أن يبلغ عتبة منزله الريفى فإنه يتثاءب على الفور،

أو يأوى إلى نوم عميق وينشد النسيان

أو يسعى مهرولاً مرة أخرى ويعود أدراجه إلى المدينة".

هكذا نلاحظ أن لوكريتيوس كان من مرتادى حلبات السباق فى روما، ومن رواد المسارح فى المدينة، ومن مشاهدى العروض العسكرية فى ساحة الإله مارس فى قلب روما، وربما كان من أصحاب المنازل فيها وفى الريف أيضًا. ومن الطريف أن هناك فقرتين - على الأقل - فى الكتاب الرابع يتعرض فيهما لوكريتيوس لبنات الهوى وبائعات المتعة. إنه يسهب فى الحديث عن ذلك النوع من النسوة اللائى كن ينتشرن فى قلب مدينة روما وشوارعها(١). الفقرة الأولى طويلة وتشغل سبعين بيتًا (١١٢١-١١٩١)، وهى أطول فقرة يتناول فيها لوكريتيوس وصف فئة معينة من فئات المجتمع الرومانى. ليس من السهل عرض هذه الفقرة بأكملها، لكن لا بأس أن نقرأ منها على سبيل المثال:

---

(١) انظر صـ٥٢ أدناه.

" ولكى لا تقع فى فخاخ الحب فإن تفادى ذلك ليس ١١٤٧
أشقّ من الوقوع فى هذه الشباك والخروج منها وتحطيم
قيود فينوس. ومع ذلك – وحتى وأنت متورّط فى العشق –
بمقدورك أن تفلت من خطره ما لم تقف أنت فى طريق نفسك
وتفحص فى بادئ الأمر العيوب الموجودة فى
عقل وجسد تلك المعشوقة التى تفضلها وترغب فيها.
وعكس هذا ما يفعله الرجال عموما بعد أن تصيبهم الشهوة
فينسبون للمحظيات تلك الصفات التى لا تكون فى الحقيقة أهلاً لهن". ١١٥٤
"ولكن لا طائل من وراء ذلك، لأن بمقدورك برغم من ذلك أن ١١٨٨
تستحضر فى عقلك كل هذه الأمور الخادعة إلى النور
وتسخر منها، ولكن إذا كانت المعشوقة ذات قلب ودود وغير منفـّـرة
فتتغاضى بدورك عن عيوبها وتسلّم بعيوبها الخلقية". ١١٩١

فى الفقرة الثانية يقارن لوكريتيوس بين الزوجة والعاهرة (١٢٦٨-١٢٧٥):

" أما الحركات التى تقوم بها اللعوب أيّا كانت هذه الحركات
فلا أهمية لها عند زوجاتنا. فالعاهرة تمتنع عن الحمل وتقاومه
إذا تناولت فى بهجة الموضعَ الأثير للرجل بين فخذيْها،
وتثير تدفّق مَنِيَّه بكلتىْ ثدييها اللدنين،
فتحوّل حرثها مباشرة عن طريق محراثه،

وتتفادى قذف منَيِّه فى عورتها.

وهذا غاية ما تستأثر الغانيات بحبه فى الإثارة،

خشية أن يحملن مرة أخرى ويرقدن حبَالى....".

ذلك هو نوع العاهرات وبنات الهوى الذى يتحدث عنه لوكريتيوس دون أن يشعر بشئ من الخجل(١). إنه نوع قد لا يوجد فى أقاليم إيطاليا الريفية لكنه يوجد فى مدينة روما(٢). كانت العاهرات يمثلن طبقة معترفا بها من طبقات المجتمع الرومانى، لا يعرفهن ولا يكون على دراية بسلوكهن إلا من عاش فى قلب مدينة روما وتجول فى شوارعها وخَبِر سهرات المجون واللهو أو علِم بها من بعيد وهذا أضعف الاحتمالات(٣). ها هو يوجز فى بيتين اثنين (الكتاب الرابع، ١١٣١-١١٣٢) ما يحدث أثناء تلك السهرات الماجنة:

" ويتم إعداد الولائم حيث السجاجيد الفاخرة والطعام الشهى،

ووسائل اللهو والأقداح الوفيرة وأكاليل الزهور والفستون(٤)".

هناك فقرة طويلة أيضًا – لكنها لا تبلغ فى طولها طول الفقرة الأولى من الفقرات الثلاث السابقة – فى الكتاب الخامس (١٣٠٧-١٣٤٠) يقارن فيها لوكريتيوس بين سلوكيات أفراد البشر وسلوكيات الحيوانات المفترسة:

---

(1) Adams , The Latin Sexual Vocabulary , pp.12 sqq.

(2) Dupont , Daily Life in Ancient Rome , pp.75 sqq.

(3) Snyder , Lucretius and the Status of Women ,pp.17-19.

(٤) الفستون: حبل من الزهور أو من أشرطة تعلق على الأكتاف على سبيل الزينة.

"ففى كل يوم كانت هناك إضافة تزيد من الرعب فى ميدان القتال. ١٣٠٧

جرّبوا الثيران أيضًا فى ميدان الحرب

وخبروا توجيه الخنازير البرية ضد عدوهم

وهناك البارثيون الذين ساقوا أمامهم أسود قوية ١٣١٠

وبرفقتها مدرِّبون مسلحون وحراسا أشداء".

ولكن جاء ذلك دون جدوى، لأن تلك الوحوش الكاسرة تثيرها

رائحة الدماء فتهزّ لِبَدها المرعبة فى كل اتجاه،

وتفرّق المحاربين – الأصدقاء والأعداء – على حدٍ سواء وبلا تمييز". ١٣١٥

ويطول شرح لوكريتيوس لاستخدام البشر للوحوش الكاسرة مثل: الخنازير البرية والأسود الضارية وغيرها. ولعل فى ذلك إشارات واضحة لهواية كانت منتشرة بين الرومان وهى هواية الصيد. فكما استخدم الرومان كلاب الصيد الشرسة لمهاجمة الفرائس كذلك استخدموا الخنازير البرية والأسود الشرسة لمهاجمة أعدائهم أثناء المعارك الحربية[1]. كما أن هناك إشارة مختصرة للفكرة نفسها (الكتاب الرابع، ١٠١٦–١٠١٨) حيث يقول:

" يقاوم ملوك كثيرون فى يأس، ويطلقون الأنّات فى ألم،

ويملأون كل المكان بصرخات مدوّية وكأنهم يمزَّقون بعَضَّةٍ

من نمر أو أسد مفترس......".

---

(1) Betensky , The Literary Use of Animals in Lucretius' De Rerum Natura and Vergil's Geirgics , pp.92 sqq.

على الرغم من أن لوكريتيوس كان ملمًا بمعالم روما وربما كان أيضًا يمتلك منزلا فى المدينة، فإن من المرجح أنه كان يقضى بعض الأوقات فى المناطق الريفية خارج روما. لدينا فقرات كثيرة تكشف عن أن الحياة فى الريف لم تكن غريبة عنه، كما أن ملاحظاته عن هذه الحياة الريفية تكشف أيضًا عن علاقة عاطفية ووجدانية بكل شئ فيها. هناك صور أدبية بليغة مؤثرة تكشف عن ذلك الحب والإعجاب عندما يصف – على سبيل المثال – سلوكيات الحيوانات الأليفة.. عندما يصف لوعة البقرة الأم وهى تنظر فى حسرة وأسى وحزن لوليدها الذى انتزعه الإنسان من حضنها(الكتاب الثانى، ٣٥٢-٣٦٦):

"أسوق إليك مثالا شائعا، أمام أضرحة الآلهة المقدسة
نجد عجلاً يسقط على الأرض مذبوحًا بجانب المذابح
المحملة بالبخور المحترق، ومن صدره ينفجر سيل من الدماء،
بينما أمه التى حُرمت منه، تهيم عبر الممرات الخضراء.
فى الغابات، تفحص الأرض عساها تتعرّف على أثار أقدامه
التى طبعها على الأرض بحوافره المشقوقة، عيناها تطوفان
هذا الطريق وذاك تبحث عن صغيرها المفقود. تتوقف وتتفحّص
بعينيها الأشجار العتيقة المورقة، وهى تتفجّع، وغالبًا ما
تعود إلى الحظيرة بجرح لا يندمل وبحنين إلى صغيرها.
إن أشجار الصفصاف والأعشاب الريّانة الطازجة
المبللة بالندى والمجارى التى تفيض بالمياه على

ضفافها؛ كل ذلك لا يكفى لمواساتها ولإزاحة حزنها

الذى تنوء به. إن مشهد العجول الأخرى فى وسط المروج

النديّة تعجز عن أن تُذهب الحزن عن عقلها أو أن تخلصها منه"

من الواضح أنها تبحث عن شئ عزيز عليها، تعرفه جيدا".

أو عندما يصور(الكتاب الأول،٢٥٦-٢٦٠):

"... قطعان الماشية المثقلة بشحومها تلقى

فوق المراعى الغنية بأجسادها، ويفيض اللبن السائل

ناصع البياض من ضروعها المنتفخة؛ لذا فإن الذرّية الوليدة

تلهو بأطرافها الضعيفة فى مرح فوق الأعشاب الناعمة

وقد انتشت عقولها الصغيرة بلبن كالخمر".

أو عندما يصور صغار الحيوانات وهى تجرى وتمرح ثم تبحث بعد ذلك عن ضروع أمهاتها المليئة باللبن، البعض يخطئ فى الوصول إلى أمه ويذهب إلى أمهات أخريات، وبعض آخر يصيب الهدف ويصل إلى أمه (الكتاب الثانى، ٣٦٧-٣٧٠):

"......... الوليدان الرضيعان يبحثان عن أمِّهما ذات القرنين

الطويلين بأصوات مرتعشة. الحملان التى تمرح مبتهجة تلتقط

أمهاتها من بين القطيع الذى يثغو. هكذا بأمر الطبيعة،

كلٌّ يجرى نحو ضرعه الخاص الممتلئ باللبن".

إن مثل هذه الفقرات تشير إلى أن لوكريتيوس لم يكن مجرد شاعر يصف مشهدا من الذاكرة، بل وربما تؤكد أنه كان عبقريًا قوى الملاحظة قادرًا على تسجيل المشهد الذى يراه تسجيلاً أدبيًا فنيًا بتفاصيله الدقيقة، وأنه كان يشاهد ويراقب باستمرار مثل هذه السلوكيات الريفية؛ لذا فربما ليس من المستبعد أن يكون له منزل ريفى حيث كان يقضى فترات لا بأس بها من حياته عندما يشعر بالضيق والملل جراء طول البقاء فى المدينة، وعندما يرغب فى الهروب من ضوضاء المدينة وصخب أهلها.

أما عن سفريات وتحركات لوكريتيوس خارج إيطاليا؛ فليس هناك فى القصيدة ما يشير إليها من قريب أو بعيد. لكن يمكن الزعم بأن هناك بعض الأماكن التى لم يذهب إليها، إذ عندما يأتى ذكرها فى القصيدة فإنه يستخدم الفعل **"fertur"** ويعنى "يُقال" أو العبارة **"fama est"** وتعنى "من المعروف"، فهو لم يذهب إلى جزيرة صقلية ومن ثم لم يشاهد بركان إتنا الثائر (الكتاب الأول، ٧٢٥-٧٢٨):

" هناك يوجد بركان إتنا الثائر بألسنة لهبه الغاضبة

الآخذة فى الاهتياج مرة أخرى، مفرغا نيرانه من فوهته مندفعة

وهى تومض نحو السماء. هذا البلد العظيم الذى اشتهر بين أمم

البشر لأسباب عديدة ويُقال "fertur" **إنه جدير بالزيارة لأنه غنى بأشياء طيبة".**

كما أنه لم يقم أيضًا بزيارة سوريا، فهو يقول (الكتاب السادس، ٧٥٦):

" فى سوريا أيضًا – كما يُقال "fertur" **– يوجد مكان آخر... ".**

كما أن من المرجح أيضًا أنه لم يقم بزيارة معبد آمون الواقع فى صحراء شمال إفريقيا – مصر – (الكتاب السادس، ٨٤٨-٨٤٩):

" وبالقرب من معبد آمون يُقال "fertur" بوجود نبع هناك حيث يكون باردا أثناء النهار، ودافئا فى وقت الليل".

وبالمثل؛ فإنه لم يقم أيضًا بزيارة جبل إيدا الواقع فـى المنطقـة المحيطـة بطروادة (الكتاب الخامس،٦٦٣-٦٦٤) حيث يقول:

" كما هو معروف "fama est" بين الناس؛ فإنه من قمة جبل إيدا الشاهقة يمكن رؤية أشعة الشمس المنتشرة جهة الشرق وقت الفجر".

هذا ما يمكن أن يكشف عنه بعض ما جاء فى القصيدة مـن إشـارات إلـى مناطق داخل روما وخارجها، لكن هناك إشارات أخرى إلى بعض الأمـاكن مثـل مدينة كوماى (الكتاب السادس،٧٤٧) الواقعة على شاطئ كمبانيا والـشهيرة بأنهـا مركز عبادة العرّافة سيبولا، وأثينا كبرى مدن بـلاد اليونـان (الكتـاب الـسادس، ٧٤٩)، وجبل هليكون الواقع فى منطقة بيوتيا والمعروف بأنه مركز عبـادة الإلـه أبوللون (الكتاب السادس،٧٨٦) وغيرها الكثير من الأماكن التى ليس من السهل أن نقطع برأى فيما إذا كان لوكريتيوس قد زارها أم لا. ومع ذلك ليس مـن المـستبعد أن يكون حبه للفلسفة قد دفعه إلى زيارة أثينا مهد الفلسفة، وزيارة جارتها كومـاى المقدسة؛ بل ربما يكون قد جرفه الشوق إلى زيارة تلك الحديقة حيث كـان سـيده ومعلمه إبيقوروس يقابل تلاميذه وينقل إليهم تعاليمه الفلسفية[1]. ربما يكون قـد زار أثينا كبرى المدن الإغريقية ومهد الفلسفة القديمة لتلقى العلم هناك. أما فيمـا يتعلـق بمدينة كوماى فهى ليست بعيدة عن هركيولانيوم ونابولى؛ حيـث عـاش معلمـو المذهب الإبيقورى – فيلوديموس وسيرو[2]. كما يقال إنه ربمـا ذهـب بمـصاحبة محدِّثه مميوس لزيارة منطقة بيثينيا فى عام٥٧ ق.م، لكن كل ذلك ليس إلا مجـرد

---

(١) انظر صـ : ٧٤ أدناه.
(٢) انظر صـ : ٨٨ أدناه.

اعتقاد أو حدس أو استنتاج عشوائى، وقد يكون صحيحًا أو غير صحيح. إن كل ما يقال عن حياة لوكريتيوس ليس إلا مجرد خيالات تداعب أعين الدارسين على مدى الأجيال المتعاقبة فى العصور القديمة والحديثة.

يبقى شئ وحيد تجدر الإشارة إليه وله علاقة بحياة لوكريتيوس الشخصية، حياته الأسرية والعائلية[١]. إذا تذكرنا رأى أستاذه ومعلمه إبيقوروس فسوف نعتقد أن لوكريتيوس لم يتزوج ولم يكن أبًا[٢]. لكن هناك فقرات فى قصيدته تثير الشك والحيرة حول موقفه من المرأة؛ فعندما يتحدث عن الفرق بين الزوجات والعاهرات فإنه يرى أن الحركات التى تأتى بها العاهرات أثناء لقائهن بالرجال "لا أهمية لها عند زوجاتنا" (الكتاب الرابع،١٢٦٨-١٢٦٩)، ثم يختتم مناقشته لهذا الموضوع قائلاً (الكتاب نفسه، ١٢٧٥-١٢٧٧)

"..... وفى الوقت ذاته

يصير الجنس أكثر متعة للرجال، وهو أمر

يبدو غائبا عن فطنة زوجاتنا".

هذا بالإضافة إلى فقرات أخرى كثيرة متناثرة فى كل أجزاء القصيدة تصف بالتفاصيل الدقيقة الممارسات العاطفية والجنسية بين الرجل والمرأة [٣]. إذن ما موقفه من المرأة؟ هل تكشف هذه التفاصيل الدقيقة عن خبرة شخصية أم تأتى نتيجة قراءات أو استفسارات يجيبه عنها رجال مجرِّبون. لا بد أن نشير إلى أحد أمرين: إما أن لوكريتيوس كان فى فترة من فترات حياته زوجا وإما كان عاشقا

(1) Wormell , Lucretius : The Personality of The Poet , pp.57 sqq.

(2) Snyder , Op.Cit. , pp.17-19.

(٣) انظر صـ :٢٢ أعلاه.

وإما معشوقا. أما فيما يتعلق بالأطفال فهناك فقرات عديدة أيضًا فى قصيدته تشير إلى أنه مغرم بالأطفال سعيد بهم مؤمن بأن الوجود قد خُلق لإسعادهم (الكتاب الأول، ٢٤٩-٢٥٥):

"أخيرًا فإن الأمطار تنزل بلا رجعة، حين يكون الأثير

الأب قد قذفها فى رحم الأم الأرض ٢٥٠

....

....

ومن ثم نرى المدن السعيدة تزدهر بالصبية، ونرى

الغابات المورقة تغنّى من كل جانب مع الطيور الوليدة". ٢٥٥

كما يرى أيضًا أن الأطباء رحماء أثناء علاجهم للأطفال (الكتاب الأول، ٩٣٧- ٩٤٥):

" فمثلما يفعل الأطباء حين يرغبون فى علاج ٩٣٧

الأطفال.................. فإنهم فى

بداية الأمر يدهنون حافة الكأس بدهنة من

العسل المصفى، والأطفال – بما أنهم تنقصهم

البصيرة – فإن مذاق العسل يغريهم

فيتجرّعون الشراب المر (الدواء)............

حيث إن الدواء يعيد إليهم الصحة والعافية...". ٩٤٥

وأن الرجال والنساء الأزواج والزوجات دائمًا ينتظرون الذرية الحلوة ويسعدون بالإنجاب، ويشعرون بالأمان فى شيخوختهم بفضل إنجاب الأطفال (الكتاب الرابع، ١٢٥١-١٢٥٧):

"... ونساء كثيرات كنَّ من قبل

عاقرات فى زيجات سابقة متعددة، إلاّ أنهن فيما بعد أنجبن،

وأصبح لهن أولاد صغار، واستطعن أن يكن ذوات وفرة

من الذرية الحلوة. ورجال آخرون كانت فى بيوتهم فى الماضى

زوجات غير عاقرات كثيرا ما فشلن فى الإنجاب،

لكنهن فيما بعد عثرن على الزوج الطبيعى السوىّ،

فاستطعن الحصول على الأمان فى شيخوختهن بفضل إنجاب الأطفال".

وأن وجود الأطفال فى الأسرة يخفف من حدة النزاع بين الزوجين ويهدّئ من غضب الزوج نحو زوجته (الكتاب الخامس،١٠١٧-١٠٢١):

" دغدغ الحب قواهم، وبكل سهولة حطمت مداعبة

الأطفال طباع الوالدين الحادة.

بعد ذلك سادت روح الود بين الجيران، واتفقوا فيما بينهم

على عدم الاعتداء أو إلحاق الأذى ببعضهم البعض.

واستوصوا بالأطفال وبجنس النساء خيرًا".

لوكريتيوس والجنون:

نعود إلى مقولة القديس جيروم حيث يقول عن لوكريتيوس: إنه قد أُصيب بالجنون بسبب تناول جرعة "مانعة للحب"، وأثناء فترات الهدوء بين كل نوبة وأخرى من نوبات الجنون كان ينظم بعض الكتب التى قام شيشرون بتنقيحها، ثم انتحر وهو فى الرابعة والأربعين من العمر(١). ثلاثة موضوعات فى هذه الفقرة القصيرة جديرة بالمناقشة: الجنون والانتحار والحب.

تقول موسوعة التشخيص الطبى الأمريكية(٢): إن الجنون هو صورة من صور السلوكيات المصحوبة بشكل من أشكال الشذوذ العقلى أو السلوكى. قد يظهر الجنون فى شكل انتهاكات للقواعد أو الأعراف المجتمعية من جانب شخص فيصبح مصدر خطر لنفسه أو للآخرين" على الرغم من ذلك فإن مثل هذه السلوكيات كلها قد لا تعتبر شكلا من أشكال الجنون. يستعمل لفظ جنون فى العصر الحاضر فى الأغلب الأعم كمصطلح خارج مجال العلم وخارج مجال الطب للإشارة إلى عدم الاتزان العقلى، وفى مجال المصطلحات القانونية قد يستخدم فى الإشارة إلى "الدفاع المجنون". أما فى المجال المهنى الطبى فإن اللفظ لا يستعمل الآن فى تشخيص بعض الاضطرابات العقلية الخاصة، فإن ظاهرة الوهم أو الهلوسة يُشار إليها على نطاق واسع بما يسمى "الذُهان" – أى الاضطراب العقلى الذى يتسم باختلال الصلة بالواقع أو انقطاعها. وعند مناقشة كل صور المرض العقلى بشكل عام فى الوقت الحاضر؛ فإن الدارسين يفضلون استخدام مصطلحات ذلك الفرع الحديث من فروع العلوم المعروف بـ "علم النفس المرضى" (٣).

---

(١) انظر صـ :٧ أعلاه.

(2) Tierny & Mc Phee & Papadakis , Current Medical Diagnosis & Treatment , pp. 1078-1086.

(3) David Shankborn , Wikinews ,.October 5 , 2007.

فى اللغة العربية يقال جُنَّ أى زال عقله، وجُنَّ جنونه للمبالغة، ويقال جُـنَّ به أى أُعجب به ويصير كالمجنون[١]. ويقال أيضًا جُنَّ أى زال عقله أو أُفسِدَ فهـو مجنون، وتجنّن أى صار مجنونًا، والجِنّة أى الجنون، والجنون هو زوال العقـل أو فساده[٢]. أما فى اللغات الأوروبية – الإنجليزية على سبيل المثـال – فـإن اللفـظ المفضل هو "madness أوcraziness" أو "insanity" ويعود أصل الكلمة الأخيـرة – وهى أكثر شيوعا – إلى الكلمة اللاتينيـة "insania" وتعنـى الجنـون و"sanus" وتعنى سليم. وهناك مثل لاتينـى يقـول "mens sana in corpore sano"؛ ويعنـى "العقل السليم فى الجسم السليم" وهى مقولة معروفة لدى العرب وأهل الغرب علـى حد سواء. منْ ذلك المنطلق الأخير يمكن أن يقال إن الجنون هـو اعـتلال صـحة العقل، لكنه لا يعنى بالضرورة اعتلال صحة المخ كعضو من أعضاء الجسد، بـل يشير إلى اختلال وظيفة السلوك العقلى مثل التفكير السليم. وهناك مصطلح لاتينـى آخر يعنى الجنون وهو "non compos mentis" أى ذو عقل غير منظم؛ وهو تعبير مهذب مأخوذ من عبارة "compos mentis" أى ذو عقل مـنظم. أمـا فـى مجـال القانون فكان الرومان يستخدمون عبارة "mens rea" والتى تعنى"القصد الإجرامـى" – أى السلوك الإجرامى أى "الجريمة". هذا بالإضافة إلـى بعـض الاسـتخدامات الأخرى التى قد تعبِّر عن المبالغة أو المجاز أو الإعجاب أو عدم الرضا فى عـالم السياسة أو العقيدة أو الحب مثل: "سلوك جنونى" أو "مغامرة جنونيـة" أو "اقتـراح جنونى" أو "فكرة جنونية" أو غيرها[٣].

---

(١) المعجم الوسيط، الطبعة الخامسة منقحة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ٢٠١٠، انظر كلمة: جُنَّ.

(٢). المنجد فى اللغة والأعلام، الطبعة الحادية والأربعون، طبعة منقحة ومزيّد عليها، دار المشرق، بيروت ٢٠٠٥، انظر كلمة: جُنَّ.

(3) Weinstein , "Madness" in George Ritzer (ed.) , The Blackwell Encyclopedia of Sociology , pp.2693-2695.

فى المجتمعات البدائية كان أهل المريض يلجأون إلى المشعوذين أو السحرة لعلاج الجنون بواسطة السحر أو الأعشاب، إذ كانوا يعتقدون أن الجنون يحدث نتيجة اختراق أرواح شريرة للجمجمة والاستقرار فى المخ. ولقد تمّ اكتشاف بعض الجماجم التى يرجع تاريخها إلى سبعة آلاف عام والتى يوجد فى السطح العلوى لكل منها ثقب، ما دفع علماء الآثار إلى الاعتقاد أن ذلك الثقب مصنوع بواسطة المعالج، وكان الهدف منه إتاحة الفرصة لهروب الأرواح الشريرة التى تسبب الجنون لصاحب الجمجمة[1]. وقد لوحظ فى بعض الأبحاث العلمية الحديثة الخاصة بتاريخ علاج عظام الجمجمة أن مثل تلك الإجراءات كانت متبعة فى علاج كسور الجمجمة[2]. أما الإغريق فقد استبدلوا بفكرة الجنون الميتافيزيقي – أى الناتج عن أسباب خارجة عن إرادة البشر أو خارقة للطبيعة – فكرة أخرى علمانية. فقد اعتقدوا أن أمراض المخ لا تختلف عن أمراض الجسد. كانوا يرون أن الأمراض العقلية والجسدية تأتى نتيجة أسباب طبيعية، عن اختلال فى نسب الأخلاط الجسدية الأربعة وهى: الدم والبلغم والصفراء والسوداء. فقد أعلن هيبّوكراتوس أكثر من مرة أن زيادة مادة السوداء ينتج عنها سلوك غير عقلانى وتفكير غير متزن[3]. أما الرومان فقد أسهموا مساهمة فعالة فى العلاج النفسى خاصة فيما يتعلق ببعض الممارسات المعاصرة. إنهم أول من نادى بفكرة أن الانفعالات الشديدة قد تؤدى إلى أمراض جسدية، وهى الفكرة التى تأسست عليها فى العصر الحديث فكرة الأمراض النفسجسدية – أى السيكوسوماتية "**psychosomatic**" – وأوصى الرومان بضرورة المعاملة الطيبة والإنسانية للمريض الذى يعانى من مرض عقلى، كما أوصوا أيضًا باتباع ما ينصّ عليه القانون الرومانى وهو مبدأ عدم مسئولية

---

(1) Portei (Roy) , Madness – A Brief History , p.10.

(2) Andrushko , Prehistoric Trepanation in The Cuzco region of Peru , pp.11-12.

(3) Weinstein , Op. Cit. pp.2693.

الشخص المجنون مسئولية كاملة عن الجرائم التي يرتكبها[1]، ذلك على الرغم مَن أن حدود الجنون كانت تتحدد فى رأى المجنى عليه بأنها تخص بشخص "non compos mentis" أى ذى عقل غير منظم[2].

هذا عن الجنون بشكلٍ عام ونظرة كل من الإغريق والرومان إلى الجنون. لكن ماذا عن جنون لوكريتيوس، وأى نوع من أنواع ذلك الجنون الذى يتحدث عنه القديس جيروم فى مقولته الشهيرة؟ لقد دار – وما زال يدور – نقاش حاد حول هذه المقولة، لكن أغلب الآراء يرجح أن قصة جنون لوكريتيوس ليست حقيقية وليس هناك ما يرجح صحتها[3]. يرى أغلب الدارسين أنها قصة مختلقة، لكن هناك فى الوقت نفسه من يثق فى صحة رواية القديس جيروم[4]. هناك من يعتقد أن فى قصيدة لوكريتيوس بعض فقرات يعكس نظرة تشاؤمية قاتمة لناظمها؛ وينمّ عن حالة عقلية غير متزنة أو متوازنة، أو أن بعض الدارسين يستنتجون أن التشاؤم يؤدى إلى الانتحار، أو أن الانتحار يأتى نتيجة للتشاؤم، وهكذا يربط بعض بين الجنون والانتحار.

إن المصدر الأقدم الوحيد – كما أسلفنا – الذى يتحدث عن جنون لوكريتيوس هو القديس جيروم الذى عاش قرب نهاية القرن الرابع بعد الميلاد، أى بعد موت لوكريتيوس بأكثر من أربعمئة عام. لكن هذه المعلومة لا تشكّل – فى نظر بعض – أهمية كبيرة، إذ يرون أن من المرجح أن يكون القديس جيروم قد نقل هذه المعلومة عن سويتونيوس – الذى مات فى النصف الأول من القرن الثانى الميلادى، أى بعد موت لوكريتيوس بنحو مئتى عام فقط. وحتى إذا كان مصدر

(1) Craighead , The Corsini Encyclopedia of Psychology and Behavioral Science , p.941.
(2) Robinson , An Intellectual History of Psychology , p.305.
(3) Luck , Was Lucretius Really Mad ? , pp. 289-294.
(4) Gain , The Life and Death of Lucretius , pp.545-553.

القديس جيروم هو سويتونيوس؛ فإن ذلك لا يعنى بالضرورة صدق هـذه الروايـة. فعلى الرغم من أن سويتونيوس يمتاز بين كتاب السيَر القدامى بأنه أقل بعدا بكثير عن عدم الكفاءة وعن الالتزام بالصدق والأمانة فى رواياته؛ فإنه غالبًا مـا يعتمـد على مصادر غير موثوق فيها أو أنه ينقل معلومات يستنتجها هو وبطريقـة غيـر مباشرة من أعمال بعض الكُتّاب الذين لا يتطرق الشك إلى صدقهم. لعل ما يـرجح صحة هذه الفكرة ما يبدو واضحا فى كتابته لسيرة الـشاعر الكوميـدى الرومـانى ترنتيوس والتى حفظها لنا دوناتوس جنبا إلى جنب مع العمل الـذى يُنـسب إليـه بعنوان فرجيليوس. وفيما يتعلق بلوكريتيوس فإن من الواضح أن اعتناقـه للمـذهب الإبيقورى قد جعله هدفًا طبيعيًا لكل أنواع الهجوم الشرير والشرس، وربما يكـون من أهم هذه الأنواع قصة اتهامه زورًا وبهتانًا بالجنون وتجرُّع شراب مانع الحـب والانتحار، وربما أيضًا العلاقة بين شيشرون وقصيدة "عن طبيعة الأشـياء" التـى يمكن أن يقال عنها إنها مستخلصة من حالة القصيدة ذاتها أو منقولة عما كتبه عنـه كتاب آخرون لم تصلنا أعمالهم. من المحتمـل أن يكـون المـصدر الأول لقـصة الجنون هو الشاعر ستاتيوس الذى عاش فى النصف الأخير من القـرن الأول بعـد مولد المسيح (٤٥-٩٦م) الذى يـصف لوكريتيـوس قـائلاً: **docti furor arduus "Lucreti"** [١] – أى إن لوكريتيوس كان لديه حماس زائد. هنا قد لا يعنى ستاتيوس بلفظ "**furor**" أنه الجنون بالمعنى المرضى المعروف بل ربمـا يعنـى الإلهـام[٢]. وهناك أيضًا من يترجم عبارة "**furorem ... ... proprium**" – (الكتـاب الثالـث، ٨٢٨-٨٢٩) على أنها تعنى "الجنون الخاص بى" – أى أن لوكريتيوس يتحدث عن

---

(1) Statius , Silvae ,2,7,76.

(٢) هناك بعض الآراء التى تزعم أن الشاعر الملهم هو الذى تسيطر الآلهة على مشاعره وأفكاره. انظر: Plato, Ion, 535e sqq; Phaedrus, 245a ; Cicero, De Oratore , 2,46,194;De Devinatione,1,37,80 ..

الجنون الذى أصيب به هو ذاته. إن الصفة "**proprius**" هنــا تكــون – فــى رأى هؤلاء – مرادفة للضمير "**meus**"، وهو رأى يبدو مرفوضا لعــدد مــن الأســباب، أولها وأهمها: إن المصاب بالجنون لا يعترف بمرضه، فــالمجنون إذا أعلــن أنــه مجنون فهو عاقل بلا جدال. أضف إلى ذلــك أن ســتاتيوس لــو كــان يعتقــد أن لوكريتيوس يعانى فعلا من مرض عقلى ما كان قد اختار لفظ "**furor**" أثناء الحديث عن نظم الشعر وبراعة لوكريتيوس كشاعر(١). وأيضًا فرجيليوس الشاعر الرومانى الشهير المعاصر للوكريتوس، والمعجب به أيّما إعجاب، والذى مدحــه فــى فقــرة تعتبر من أروع ما كُــتب فى مديح لوكريتيوس حيث يقول عنه إنه ســعيد "**felix**" لأنه استطاع أن يدرك علل الأشياء ويسحق تحت قدميه كل المخــاوف، ويتحــدى القدر اللعين وزئير جهنم الذى يلتهم كل شــىء(٢)، هــل مــن الممكــن أن يكتــب فرجيليوس المعاصر الأصغر للوكريتيوس كل عبارات المديح هذه وهو يعلم أن من يمدحه كانت تنتابه أثناء حياته نوبات من الجنون وتــسيطر عليــه موجــات مــن التشاؤم؛ وقد أدت به إلى الانتحار!! قد تصبح عبارات فرجيليوس مثيرة للــسخرية والتهكم لو أن لوكريتيوس "السعيد"، "قاهر كل المخاوف"، "الذى يتحدى القدر" هــو ذاته الذى انتابته موجات من الجنون والتشاؤم وأدت به إلى الانتحار.

ليس هناك – إذن – أي إشارة إلى جنون لوكريتيوس سوى ما جــاء فــى عبارة القديس جيروم. فلو كانت قصة الجنون حقيقية لكانــت قــد انتــشرت فــى الأوساط الأدبية وعرفها الجميع، فلماذا إذن كان ذلك الصمت الذى التزم بــه كــل المصادر القديمة؟ إن المثل الأعلى عند أصحاب المذهب الإبيقــورى هــو هــدوء العقل، والخوف من الموت هو أحد أهم المعوقات من أجل الوصول إلى تحقيق هذا المثل الأعلى. ولقد رأينا أن لوكريتيوس يهاجم الخوف من الموت هجومــا شــديدا

---

(1) Zeigler , Der Tod des Lucretius , p.427.

(٢) انظر صـــ ١: أعلاه.

ويرى أن الخوف من الموت غالبًا من يدفع الإنسان إلى الانتحار[١]. فإذا كان لوكريتيوس نفسه حقيقةً مضطربًا عقليًا، وأن فكرة الخوف من الموت كانت تستبد به وتسيطر عليه وتقلقه لدرجة أنه قد أقدم على الانتحار، فهل كانت تفوت الكتّاب الذين لا يعتنقون المذهب الإبيقورى هذه الفرصة الثمينة وهى الإشارة إلى أكبر وأشهر مروّج رومانى للمذهب الإبيقورى الذى يسلك سلوكا غير إبيقورى ويقدم على الانتحار دون خوف من الموت[٢]! فلقد أشاد الكاتب الرومانى سنيكا – الرواقى المعروف بمعارضته الشديدة للإبيقورية – بالنقد الذى وجّهه معاصروه إلى أحد أتباع المذهب الإبيقورى ويدعى ديودوروس الذى ارتكب جريمة الانتحار[٣]. وعلى الرغم من أن القديس جيروم قد نقل مقولته عن سويتونيوس؛ فإن هذه النقطة أيضًا تحتاج إلى مناقشة. إذا كانت عملية مراجعة شيشرون لقصيدة "فى طبيعة الأشياء" قد نقلها القديس جيروم عن سويتونيوس؛ فإن ذلك لا يؤكد بالضرورة أنه قد نقل عنه أيضًا قصة الجنون وشراب مانع الحب والانتقام. هناك من الدارسين[٤] مَنْ يلاحظ أنه إذا كان سويتونيوس قد سجّل حقًا هذه القصة لما كان قد تجاهلها بعض الكُتّاب مثل: الكاتب المسيحى أرنوبيوس الذى عاش فى بداية القرن الثالث بعد مولد المسيح وتلميذه لاكتانتيوس. فقد كتب أرنوبيوس فى عام ٣٠٥م مؤلفا يتكون من سبعة كتب بعنوان الأجناس المتضادة "**Adversus Nationes**"؛ حيث يناقش بالتفصيل صور الهجوم الشديد على الوثنية بأسلوب قريب جدًا من أسلوب قصيدة "عن طبيعة الأشياء"؛ ما يؤكد أنه كان على علم تام بهذه القصيدة وأنه كان عدوًا لدودًا للوثنية. كما كتب تلميذه لاكتانتيوس (٢٥٠-٣١٧م تقريبًا) – الذى

---

(١) الكتاب الثالث، ٧٩-٨٢.

(2) Rouse , Op. Cit. ,pp.xx sqq.

(3) Senaca , Vita Beata , 19 ,1.

(4) Ziegler, Op.Cit., pp.427-435.

اعتنق المسيحية وهو فى سن النضوج – عدة أعمال من بينها: عن إنجازات الــرب "De Opificio Dei" حيث يتحدث عن الروح والجسد فى الإنسان، وأيــضًا التعــاليم المقدسة "Diviniae Institutiones" حيث يهاجم اثنين مــن المعارضــين للمــسيحية والذى يرى فيه النقاد أنه سجل شامل لكل المناقشات التى تدافع عن الدين الجديــد، وأيضًا عن غضب الرب "De Ira Dei" حيث يــستعرض المناقــشات والحــوارات المتعددة حول هذا الدين الجديد والتى تعتبر تصحيحًا لكل ما توصلت إليه المدارس الفلسفية الرئيسية من آراء. إن كلا من أرنوبيوس وتلميذه لاكتانتيوس يهاجم الفلسفة الإبيقورية هجومًا شديدًا، بل وإن لاكتانتيوس يندفع ويتمــادى فــى هجومــه علــى الوثنية فيشير إلى جنون كل من إبيقوروس ولوكريتيوس دون أن يؤكد أنهما فعــلا مجنونين بكل ما تعنيه الكلمة، بل ومن الواضح أنه كان يعنى أن الفلاسفة يكونــون دائمًا ذوى عقول غير عادية. وأكثر من ذلك فلو أن لاكتانتيوس كان قــد علــم أن لوكريتيوس كان فعلا مصابا بالجنون لكان قد استغل هذه المعلومة أبــشع اســتغلال لتبرير هجومه على المذهب الإبيقورى. لذلك فربما كان – وما زال – علــى حــق مَنْ يعتقد من الدارسين أن قصة جنون لوكريتيوس لم تكن سوى ابتكــار مــسيحى خرج من عباءة مسيحيةِ القرن الرابع الميلادى.. قد يؤكد ذلــك قــول بروفــسور أوسلر – وهو من أشهر علماء الطب النفسى منذ أوائل القرن العشرين: "أمــا عــن ذلك النوع من الجنون – الذى يترك العقل قادرا أثناء فترات الهدوء بين كل نوبــة ونوبة على نظم مثل هذه الأشعار الرائعة مثل أشعار قصيدة فى طبيعة الأشــياء – فإننى لا أعرف عنه شيئا"(1). كما يقول أيضًا بروفسور لى: "هناك ابتكارات قليلــة يبتكرها عقل الأديب يقال عنها بوجه حق إن قوة الإحساس المستقل والفكر المتّسق يكشفان عن سلامة فى العقل ومقدرة فى الفهم"(2). كما يقول بيلى أيضًا: "إن قصيدة

---

(1) Osler , The Old Humanities and the New Science ,p.5.

(2) Lee , T. Lucreti Cari De Rerum Natura Libri I-III , p.xiii.

فى طبيعة الأشياء بترتيبها المنطقى وبنائها المتقن وانتقالها المتسلسل من نقطة إلى نقطة لا يمكن أن تكون إنتاج شخص مجنون"(١). أما فيما يتعلق بوجود بعض أوجه النقص التى تعترى نص القصيدة؛ فهو راجع إلى عدم مراجعتها مراجعة نهائية بسبب وفاة مؤلفها المفاجئة(٢).

لوكريتيوس والانتحار:

الانتحار هو عملية متعمَّدة أو مقصودة ومع سبق الإصرار لقضاء شخص على ذاته أو للتخلص من حياته. قد يقدم الشخص على الانتحار نتيجة اليأس الذى قد يكون بدوره نتيجة لاعتلال عقلى، مثل: الإحساس بالكآبة أو اضطراب فى السلوك أو عدم اتزان فى التفكير أو مرض شيزوفرينيا – أى ما يسمى بالفصام؛ وهو انشطار الشخصية – أو إدمان تعاطى المسكرات أو المخدرات أو سوء استخدام العقاقير الطبية(٣). وقد يحدث أيضًا نتيجة الضغوط النفسية الناتجة عن ضائقة مادية أو إفلاس اقتصادى أو متاعب نتيجة علاقات شخصية أو عاطفية أو عائلية غير مستقرة(٤). هناك تقرير لمنظمة الصحة العالمية يقول: إن أكثر من مليون شخص يموت منتحرًا فى كل عام، وإن الانتحار يأتى فى الترتيب الثالث عشر كسبب من أسباب الموت فى العالم، بينما يضعه مجلس الصحة القومى فى الولايات المتحدة فى الترتيب السادس(٥). والانتحار من أهم الأسباب الرئيسية للموت بين المراهقين والبالغين الذين تقل أعمارهم عن خمسة وثلاثين عاما(٦). نسبة الانتحار بين الذكور

---

(1) Baily , Op.Cit. , p.9.

(٢) انظر صـ :٨٣ أدناه.

(3) Berrios & Mohanna , Durkheim and French Psychiatric Views on Suicide During the 19th century , a conceptual history , pp.1-9.

(4) Bruce Gross , Forensic Hawton & van Heeringen , Suicide , pp.1372-1381.

(5) Examiner , Summer 2006.

(6) O'connor, Understanding Suicidal Behavior, pp.33-37.

أكبر بكثير من نسبته بين الإناث، وقد تبلغ نسبة الذكور المنتحرين إلى الإناث المنتحرات ٤ إلى ١[١]. هناك ما بين عشرة ملايين وعشرين مليون محاولة فاشلة للانتحار فى كل عام على مستوى العالم[٢]. تختلف الآراء بشأن الانتحار باختلاف نظرة الأفراد إلى الموضوعات الحياتية مثل: العقيدة أو الشرف أو معنى الحياة. فى أغلب العقائد والديانات القديمة يعتبر الانتحار خطيئة فى حق الآلهة، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون فى قدسية الحياة. كان الانتحار يعتبر فى أغلب الأحيان جريمة خطيرة، ولقد ظل كذلك حتى الآن – بوجه عام – فى المجتمع الغربى[٣]. قبل ظهور المسيحية لم يكن الانتحار يعتبر عملاً لا أخلاقيا فى الحضارتين الإغريقية والرومانية. فى غصر الساموراى فى اليابان كان الانتحار "**seppuku**" يعتبر وسيلة من وسائل العقاب بسبب الفشل أو صورة من صور الاحتجاج. فى الهند القديمة كان على الأرملة أن تموت طواعية أو رغم أنفها – سواء بأمر الأسرة أو بأمر المجتمع – جنبا إلى جنب بجوار جثة زوجها أثناء الحرق "**sati**"، لكن ذلك أصبح الآن فى الهند عملاً مخالفا للقانون. فى القرنين العشرين والحادى والعشرين بعد الميلاد ظهرت أنواع حديثة من الانتحار، مثل: الانتحار بالحزام الناسف لأسباب سياسية أو عسكرية "**kamikaze**". كما ظهر نوع آخر يسمى الموت الرحيم "**euthanasia**" والذى قد يمنح العذر أو الإذن للمريض بمرض ميئوس من شفائه بإزهاق روحه بنفسه أو بمساعدة أحد ذويه أو أطبائه، وعادة ما يحدث ذلك لإراحة المريض من آلام شديدة مزمنة. وهناك أيضًا الانتحار الذى يقدم عليه شخص دفاعا عن نفسه أو عن غيره، وهو ما يسمى انتحار الإيثار "**altruistic suicide**"[٤].

---

(1) Gelder , Psychiatry , pp.69-70.

(2) Bertolote & Fleischmann , Suicide and Psychiatric Diagnosis: a worldwide perspective , pp.181-185.

(3) Stone , Suicide and Attempted Suicide , pp.68-70.

(4) Blake , Death by hand grenade: altruistic suicide in combat , pp.46-59.

كما لاحظنا من قبل؛ فليس هناك أي إشارة فى المصادر الخارجية إلى انتحار لوكريتيوس سوى مقولة القديس جيروم. ليس لدينا أى مصدر سابق أو معاصر للوكريتيوس سوى هذا المصدر، فالمصادر الخارجية تكاد تكون غير ذات قيمة. إذن ليس لدينا سوى البحث عن المصادر الداخلية. لدينا ثلاث فقرات فى قصيدة فى طبيعة الأشياء تتعرض لفكرة الانتحار، وجميعها توجد فى الكتاب الثالث. فى الفقرة الأولى يقول لوكريتيوس(٧٩-٨٤):

"وغالبًا ما يبلغ الخوف من الموت إلى حد أن

تسيطر على البشر كراهية الحياة ورؤية نورها،

ولدرجة أنهم يقدمون على الانتحار بفؤاد قانط

متناسين أن ذلك الخوف هو مصدر كل الهموم؛

فهو يدفع الفرد نحو انتهاك الحرمات، ويحث الآخر على

تحطيم أواصر الصداقة، بالاختصار يحثه على هدم فضيلة البِرّ".

يرى لوكريتيوس (٥٩ وما بعده) أن الطمع والرغبة العمياء فى تحقيق النجاح؛ تدفعان أفراد البشر البائسين إلى تحدى القوانين، فيتمادون فى غيّهم ويرتكبون الجريمة تلى الأخرى، فتحاصرهم الشدائد من كل صوب. يحدث كل ذلك بسبب الخوف من الموت(1). إن الخوف من الموت هو الدافع وراء كل هذه الجرائم، فهو الذى يدفعهم إلى السعى من أجل الاحتفاظ بمناصبهم السامية إلى أطول فترة ممكنة، ويجعلهم يخافون من الموت لدرجة أنهم يصبحون كارهين لحياتهم المليئة بالقلاقل والاضطرابات. وهنا يصل لوكريتيوس إلى نتيجة لذلك الصراع حيث يقول:

---

(1) Segal , Lucretius on Death and Anxiety , Poetry and Philosophy ,pp.12 sqq.; Idem , Poetic Immortality and the Fear of Death , pp.193-212.

"وغالبًا ما يبلغ الخوف من الموت إلى حد أن

تسيطرعلى البشر كراهية الحياة ورؤية نورها،

ولدرجة أنهم يقدمون على الانتحار بفؤاد قانط".

من الواضح أن لوكريتيوس ينقل هذه الفكرة عن إحدى شذرات الفيلسوف الإغريقى ديموكريتوس (٤٦٠-٣٧٠ق.م. تقريبًا)، ذلك المواطن الثراكى الثرى الذى تبنّى نظرية الذرّة التى نادى بها أستاذه ليوكيبّوس، والذى ارتبط اسمه دائمًا باسم أستاذه.

يقول ديموكريتوس إن "أفراد البشر أثناء هروبهم من الموت يلحقون به"[1]. ويسخر شيشرون فى إحدى رسائله من هذه الظاهرة؛ حيث يربط بين الخوف من الموت ذاته وإبيقوروس[2]. ولعل لوكريتيوس هنا يتحدث - بوجه عام - عن البشر الذين يخدعهم الطمع والطموح الزائد ويهرولون وراء المجد الزائف؛ فيصبحون غير راضين عن حياتهم[3]. وبالطبع ليس من العدل الاعتقاد أن هذه الفقرة تشير إلى أن لوكريتيوس قد مات منتحرا.

فى الفقرة الثانية يقول لوكريتيوس(٩٤٠-٩٤٣):

"لكن لو أن كل ما استمتعتَ به قد ولّى وزال،

ولو أنك اعتبرتَ أن حياتك بغيضة، فلماذا تسعى إلى إطالة أمدها

لكى تمضى ما هو آت أيضًا على نحو بغيض وينتهى كل شئ وأنت ساخط؟

ولماذا لا تضع - كما هو حرىّ بك - حدّا لحياتك وللشقاء؟".

---

(1) Democritus , frag. 68b 203(DK).

(2) Cicero, Epistulae , xxiv , 22-23.

(3) Segal, War,Death,and Savagery in Lucretius , pp.1-34.

هذه هى نهاية الفقرة الثانية، التى يبدأها لوكريتيوس بالبيتين رقم ٩٣١و٩٣٢ قائلا:

" فضلاً عن ذلك هب أن طبيعة الكون أصدرت فجأة

صوتا وقامت بنفسها بتوبيخ أحدنا على النحو التالى:".

ثم يواصل لوكريتيوس قوله (٩٥٢–٩٥٥):

" لكن لو أن هذا الرجل الذى تخاطبه الطبيعة كان حقًا شيخًا طاعنًا فى السن،

وكان هذا البائس يشكو وينتحب أكثر مما ينبغى على دنو أجله،

فهل سيكون للطبيعة الحق فى أن تصرخ فى وجهه وتؤنبه بصوت أكثر حدّة:

أغربْ بعيدًا بدموعك، أيها الوغد، واوقفْ نحيبك".

ثم يختتم لوكريتيوس هذه الفقرة قائلاً (٩٧٦–٩٧٧):

" هل هناك ما يبدو مخيفا فى ذلك؟ هل ثمّة شىء

يبدو محزنا؟ أليس الموت أكثر أمانا من النوم؟".

إن الموت هنا فى رأى لوكريتيوس راحة وأمان للبشر، لكن لـــ "مَنْ من البشر"، إنه راحة وأمان لمن كان حقًا "شيخًا طاعنًا فى السن"، ولم يكن لوكريتيوس فى ذلك الوقت قد أصبح شيخًا طاعنًا فى السن – هذا إن صدقت رواية جيروم الذى يقول إنه مات وهو فى الرابعة والأربعين من العمر ولم يكن قد راجع قصيدته المراجعة النهائية.

فى الفقرة الثالثة يقول لوكريتيوس (١٠٣٩–١٠٤١):

" وأخيرًا فإن ديموكريتوس بعد أن

حذره طول عمره أن قدرات التذكر بعقله بدأت تخور،

قدّم رأسه بنفسه للموت طواعية".

فى هذه الفقرة أيضًا يربط لوكريتيوس بين الانتحار والشيخوخة، ويرى أن ديموكريتوس قد أقدم على الانتحار عندما أحسّ أن شيخوخته سوف تأتى على قدرة ذاكرته(١).

إن هذه الفقرات الثلاث التى تشير إلى الانتحار لا يمكن أن تؤخذ دليلاً قاطعًا على انتحار لوكريتيوس خاصة أن معاصره الأصغر فرجيليوس - كما أسلفنا - يصفه بأنه سعيد "**felix**"، فكيف يوصف بالسعادة مَنْ أقدم على الانتحار ومات وهو ما زال فى الرابعة والأربعين من عمره؛ وهو ما زال أيضًا ينقح قصيدته ويراجعها ويعدها للنشر!(٢). لقد صدق ليونارد حين يقول: "لكى يحيا الفرد يجب أن تكون لديه الرغبة فى الحياة، وليس هناك سبب ما - ولا قصيدة ما - يستطيع أن يصلح بين الرغبة فى الحياة وحتمية الموت. إن من يستطيع أن يحقق هذه المعادلة - فى رأيى - هو الشيخوخة الطاعنة أو الألم الشديد"(٣). ومن المرجح أن لوكريتيوس لم يكن يقاسى من الشيخوخة الطاعنة أو الألم الشديد.

لوكريتيوس والحب:

نعود مرة ثانية إلى مقولة القديس جيروم والنقاط الثلاث التى تدور حولها المناقشة: الجنون والانتحار والحب. تقول المقولة إن لوكريتيوس تناول جرعة من شراب "مانع الحب"(٤).

---

(1) Nussbaum, Mortal , Immortals , Lucretius on Death and the Voice of Nature , pp.303-351.

(٢) إن تأثير لوكريتيوس على فرجيليوس واضح خاصة فى ملحمة الإنيادة.انظر: Cleary , The Poetic Influence of the De Rerum Natura on The Aeneid IV , pp.77-79.

(3) Leonard, Op.Cit , p.29.

(4) Brown , Lucrtiüs on Love and Sex , pp.110 sqq.

يقول معجم أوكسفورد الأمريكى المصور إن الحب هو الإحساس بعاطفة قوية ومودة شخصية[1]. يقول معجم مريام وبستر إن الحب فضيلة يتمثل فيها كل أنواع التراحم الإنسانى والحنان والمودة، إنه "الاهتمام اللا أنانى الخالص الخيّر الذى يهدف إلى تحقيق ما فيه صالح الآخرين[2]. يقال أيضًا إن الحب قد يصف أفعالا مليئة بالعواطف والأحاسيس تجاه أفراد البشر الآخرين أو تجاه الحيوانات أو تجاه ذات الفرد[3]. فى اللغة العربية الحُبُّ هو الوداد.. والحُبُّ عند الفلاسفة ميل إلى الأشخاص أو الأشياء العزيزة أو الجذابة أو النافعة[4]. ويقال حَبَّ الشئ أى وَدَّه، وحَبَّ الشئ أى رغب فيه، وحُبِّبَ إليه أى صار حبيبًا له أى صار محبوبا، وحَبَّ أى أظهر المحبة له، وحَبَّ هو أكثر استعمالا من أَحَبَّ[5]. فى اللغات الأوروبية – الإنجليزية على سبيل المثال – الحُبُّ يشير إلى مشاعر مختلفة وحالات نفسية ومواقف شخصية تتراوح ما بين الإحساس بالسعادة الطبيعية، مثل: حب الطعام أو ممارسة الرياضة أو الانجذاب والتآلف بين الأشخاص. وقد يعنى الحب الرغبة الحسّية أو الرغبة فى ممارسة سلوك رومانسى أو محاولة إشباع رغبة جنسية، وقد يعنى أيضًا الحب العائلى أو الحب الأفلاطونى الذى لا يتعدّى حدود الصداقة البريئة، وقد يعنى أيضًا التوحُّد الكامل بالإله[6] أو التكريس الكامل للنفس لعبادة الذات الإلهية[7]. وقد تستخدم كلمة حُب للتعبير عن كل هذه المشاعر والانفعالات والأحاسيس المختلفة. إن كل هذه المعانى التى يحتويها لفظ "حُب" قد جعلت منه لفظا من الصعب تعريفه تعريفًا جامعًا شاملاً. فالحب أيضًا عامل مساعد فى خلق

---

(1) Oxford Illustrated American Dictionary, Oxford 1998.
(2) Merriam Webster Dictionary , London 2000.
(3) Fromm , The Art of Loving , p.8

(٤) المعجم الوسيط، المرجع السابق.
(٥) المنجد فى اللغة والأعلام، المرجع السابق.

(6) Kristeller , Renaissance Thought and the Arts , Collected Essays , pp.136-137
(7) Mascaro , The Bhagaved Gita ,. p.51.

العلاقات الشخصية بين الأفراد. والحب – لِمَا له من أهمية سيكولوجية خاصة – قد أصبح من أكثر الموضوعات انتشارا فى الأعمال الأدبية والفنية والفنون التشكيلية. والحب هو جزء من الغريزة الأبقي التى وظيفتها الجمع بين أفراد البشر صفا واحدا ضد تهديدات الحياة وتسهيل الاتصال بين الأجناس المختلفة[١]. وعلى الرغم من عدم وجود اتفاق عام حول تعريف الحب، وعلى الرغم من عدم إمكانية وصفه وصفًا كاملاً شاملاً يحدد ماهية الحب أو طبيعته؛ فإنه قد يكون من السهل تعريف "ما هو ليس حُبًّا"[٢]. إن ما ليس حبا" هو "كراهية" أو "لا مبالاة حيادية". وهناك مقولات شهيرة أخرى تحاول إيجاد تعريف للحب. يقول الشاعر فرجيليوس: "الحب يهزم كل شيء"، يقول القديس توماس الأكويني(١٢٢٥-١٢٧٤تقريبًا) نقلاً عن أرسطو: "الحب هو العمل من أجل خير الآخر"[٣]. يصف الفيلسوف البريطانى برتراند راسل (١٨٧٢) الحب بأنه "قيمة مطلقة" فى مقابل "القيمة النسبية". يرى الفيلسوف وعالم الرياضيات الألمانى جوتفريد ليبنيز(١٦٤٦-١٧١٦م) أن الحب هو "الإحساس بالسعادة لسعادة الآخرين"[٤]. هناك أنواع كثيرة من الحب .. الحب الذى ينتج عن بعض الاضطرابات النفسية – مثلاً – يُطلق عليه "جنون الحب "**erotomania**". والحب الذى تحركه الشهوة الجنسية يُطلق عليه بارافيليا "**paraphilia**".

على مدى العصور المتعاقبة كان الفلاسفة ورجال الدين أكثر الباحثين الذين تأملوا فى ماهية الحب وطبيعته[٥]. ومع بدايات القرن العشرين دخل هذا الميدان علماء النفس، وتبعهم بعد ذلك قرب نهاية القرن الماضى وأوائل القرن الحالى علماء الأنثروبولوجيا وأطباء الأمراض العصبية وعلماء البيولوجيا الذين أسهموا

---

(1) Fisher , Why We Love: the nature and chemistry of romantic love , pp.15 sqq.

(2) Kay & Kempton , What is Spir-Whorf Hypothesis ? , pp.65-79.

(3) St. Thomas Aquinas , sth I-II , 26 , 4 , corp.art.

(4) Leibniz , Confessio philosophi.

(5) Fenves , Arresting Language :From Leibniz to Benjamin , pp.18 sqq.

بدرجة بالغة فى فهم ماهية الحب وطبيعته ووظائفه(١). كما أن بعض الأمراض النفسية مثل النرجسية؛ يمكن أن تعتبر ذات علاقة بعاطفة الحب. استخدم الإغريق أكثر من لفظ للتعبير عن الحب. فى اللغة اليونانية الحديثة يستخدم لفظ أغابى "agape" بمعنى الحب أو العشق ، وأغابو "agapo" بمعنى أحب. ويشير هذا اللفظ – فى أغلب الأحيان – إلى نوع نقىّ من أنواع الحب(٢)؛ لذلك يمكن تسميته "عشق الروح". يستخدم لفظ إروس "eros" – وهو اسم إله الحب عند الإغريق – للتعبيرعن الحب الشهوانى المصحوب بالرغبة الحسية وعشق الجسد، لكن أفلاطون حاول تهذيب طبيعته. ومن ثم فإن إروس عند الإغريق لم يعُد – كما كان فى بداية الأمر – موجَّها نحو شخص بذاته، بل يعبر عن التمتع بالجمال المطلق من خلال ذلك الشخص أو حتى التمتع بالجمال المطلق من أجل ذاته. إن إروس يساعد الروح من أجل استعادة التعرّف على الجمال ويساهم فى فهم ماهية الروح. إن كل المحبين والفلاسفة يستمدون الإلهام من البحث عن ماهية إروس؛ لذا يمكن أن يطلق عليه "عشق الجسد". هناك أيضًا لفظ فيليا "philia" بمعنى الحب الهادئ العفيف الذى اكتسب ذلك المفهوم عند أرسطو. إنه يعبر عن الإخلاص للأصدقاء والأسرة والمجتمع ويشترط الفضيلة والألفة وتحركه النفعية المتبادلة؛ حيث يكون ذا فائدة لأحد المحبين أو لكليْهما، ويمكن أن يطلق على هذا النوع من الحب "الحب العاقل". وهناك لفظ ستورجى "storge" ويعنى العاطفة الطبيعية مثل حب الوالدين لأولادهم والأولاد لآبائهم وأمهاتهم ويطلق عليه "الحب العائلى". وهناك لفظ كسينيا "xenia" ويعنى "حب الضيافة"، كان ذلك النوع أهم أنواع الحب عند الإغريق فى عصورهم القديمة؛ كان يعبّر عن الصداقة التقليدية بين الضيف

---

(1) Sternberg, A triangular theory of love, pp.119-135.

(2) Rubin , Measurement of Romantic Love , pp.265-274.

والمضيف، فحُسْن استقبال الغريب وتقديم كل وسائل الراحة له والترحيب به؛ كان عملاً وجوبيًا قد يصل إلى درجة الواجب الدينى، والأساطير الإغريقية مليئة بصور مختلفة من ذلك النوع من الحب، ويمكن أن يطلق عليه "حب أو واجب الضيافة".

عند الرومان الفعل الرئيسى الذى يعبّر عن الحب هو فعل أمو "amo" ومصدره أمارى "amare" وهو لا يختلف عنه فى اللغة الإيطالية فى الوقت الحاضر. استخدم الرومان هذا اللفظ للتعبير عن الحب العاطفى أو الحب الرومانسى أو الرغبة الجنسية. وهناك اسم الفاعل "amans" أو "amator" ويعنى المحب، وقد يعنى أيضًا المحب "المحترف" أو المحب "الفاسق" أو "الشهوانى". والاسم "amor" – ويعنى الحب – يقال إنه كان يستخدم فى العصور القديمة كاسم "حركى" لمدينة روما فى بعض الأوساط الرومانية (إذ إن كلا من لفظ "amor" والاسم اللاتينى لمدينة روما "Roma" يمكن أن يكونا متساويين فى النطق إذا نُطِق كل منهما مرة من اليمين إلى اليسار ومرة من اليسار إلى اليمين)(1). وقد يستخدم الاسم نفسه فى صيغة الجمع "amores" ليعنى المعاشرة الجنسية أو المغامرات النسائية. ومن الجذع نفسه يأتى لفظ "amicus" ويعنى صديق و"amicitia" وتعنى صداقة أو مصلحة متبادلة. ولقد كتب الخطيب الرومانى شيشرون مقالا بعنوان عن الصداقة "de amicitia" حيث يناقش بالتفصيل هذه الفكرة. كما نظم الشاعر الغنائى أوفيديوس ديوانًا بعنوان فن الحب "Amatoria Ars"؛ حيث يناقش مناقشة عميقة مفصّلة كل ما يتعلق بالحب بدءا من الإجراءات التى تسبق عملية الزواج؛ مرورًا بالعلاقات الحميمية بين الأزواج وما يتبعها من إنجاب الأطفال وتصرفات الآباء والأمهات.

يرى القديس جيروم أن لوكريتيوس قد أصيب بالجنون؛ بسبب جرعة من شراب الحب "amatoria poculo". كانت فكرة استخدام سائل معين لتحقيق تأثير

---

(1) Koves-Zulauf, Reden und Schweigen, pp.18 sqq.

معين سائدة بين الإغريق والرومان(١). فقد استخدم الإغريق لفظ "**poton**" بمعنى شراب أو سائل، واستخدم الرومان اللفظ نفسه "**potus**" كما استخدموا لفظا آخر وهو "**poculum**" وهو ما يستخدمه القديس جيروم في عبارته الشهيرة. إن الأساطير والأعمال الأدبية الإغريقية والرومانية مليئة باستخدامات جميع أنواع الشراب التى كان يستخدمها السحرة والمشعوذون وفصائل الجن والشياطين والعرافون والدجالون. كان لها تأثير السحر إما فى أوجه الخير وإما الشر. ولقد استخدمت هذه الأنواع من الشراب لعلاج الأفراد من بعض الأمراض العضوية أو النفسية؛ أو كسموم تؤذى شاربها وتسبب له الموت أو كتعويذة سحرية تحمى شاربها من الاندفاع وراء عاطفة معينة مثل عاطفة الحب أو الرغبة الجنسية أو عكس ذلك، أى تجعله يندفع فى حركات جنونية نحو منْ يحب أو منْ يشتهى. وقد تستخدم هذه الجرعات لعلاج الأمراض أو لعلاج مرض فقدان الذاكرة أو أيضًا لكى تسبب فقدان الذاكرة أو لتغيير الشكل الخارجى لشاربها أو لإخفاء شاربها عن الأنظار أو لتحصينه ضد الجروح والإصابات(٢). لقد ذكر القديس جيروم أن لوكريتيوس قد تناول جرعة خاصة بالحب "**amatorio poculo**"، ولم يذكر إن كانت هذه الجرعة تهدف إلى إشعال الرغبة فى الحب أم الرغبة عنه؛ لكن أغلب آراء الدارسين استقرت على أن هذه الجرعة كان الهدف منها تحصينه ضد الحب فأصابته بالجنون واستشهدوا ببعض فقرات فى قصيدة فى طبيعة الأشياء ليؤكدوا صحة اعتقادهم، إذ إنه – فى رأيهم – يشنّ هجوما قاسيا ضد الحب(٣).

يخصص لوكريتيوس الجزء الأخير من الكتاب الرابع (١٠٣٧– ١٣٨٧) للهجوم على الحب والرغبة الجنسية. يبدأ بالحديث عن ماهية الرغبة الجنسية (١٠٣٧–١٠٥٧)، ثم يوضح كيف يجب الحرص الشديد من الحب (١٠٥٨–

---

(1) Nussbaum , The Therapy of Desire: theory and practice in Hellenistic Ethics·, pp.31 sqq.

(2) John Grant & John Clute , The Encyclopedia of Fantasy , s.v. Potion , p.779.

(3) Stearns , Epicurus and Lucretius on Love , p.48 sqq.

١١٢٠)، والضياع الذى يسببه الحب (١١٢١-١١٤٠)، وتأثير الحب على عدم تحقيق العدالة (١١٤١-١١٩١)، وعدم وجود المشاعر الصادقة فى مجال الحب (١١٩٢-١٢٠٨)، ثم يتساءل: هل تكون ثمرة ذلك الاتصال الجنسى طفلا يشبه والده أو والدته (١٢٠٩-١٢٧٧)، ثم أخيرا تأثير عادة ممارسة الحب (١٢٧٨-١٣٨٧). يرى لوكريتيوس أن غريزة الجنس تولد فى الإنسان مع سن البلوغ، إنها- فى رأيه - إصابة يصاب بها الإنسان، ومن الغريب أن الرجل دائمًا ينجذب نحو مصدر إصابته(١). فالغريزة الجنسية هى إصابة بسهام فينوس، وفينوس هى الغريزة الجنسية التى تصيب الرجل البالغ بسهامها؛ تنطلق داخل القلب "قطرة من حلاوة فينوس "ثم يليها "الهمّ البارد"(٢). وهكذا تدبّ الحياة فى الجرح الذى أحدثته فينوس إذا دأب الرجل على تغذيته فيصير جرحا راسخا وتتوهج منه نوبة من الجنون تزداد يوما بعد يوم(٣). فإذا ما حُرم الرجل من معشوقته فسوف يشعر بالعذاب، فيصبح عليه أن يبحث عن معشوقة أخرى فيداوى جراح الحب الأولى بطعنات أخرى جديدة. وهكذا فإن علاج الحب (أى الجرح) القديم حب جديد. وهكذا تكسر فينوس بسهولة تامة حِدَّة العذاب عن طريق اللذة(٤). فالجنس هو الشئ الوحيد الذى كلما أخذنا منه أكثر أحرق صدورنا بشهوته الرهيبة. فالطعام يملأ المعدة فيشعر الإنسان بالشبع، لكن ممارسة الجنس لا تشبع أجساد البشر مهما تكررت مرارا وتكرارا، فإن أطراف العاشقين تذوب تحت سطوة اللذة المدمّرة. بالإضافة إلى ذلك فإن العاشقين يستنفدون قواهم ويهلكونها بالمشقة، وبالإضافة إلى ذلك أيضًا فإن كل عاشق يعيش رهن إشارة معشوقه فيهمل الجميع واجباتهم وتصيب العِلّة سمعتهم، وتتبدد ثرواتهم(٥).

---

(1) Gordon , Some Unseen Monster: Rereading Lucretius on Sex , pp.89 sqq.

(2) Boyance , Epicure , La poesie et la Venus de Lucrece , pp.404-440.

(3) Fitzgerald , Lucretius' Cure for Love in the De Rerum Natura , pp.78 sqq.

(4) Farrington , The Meaning of Voluptas in Lucretius , pp. 30-31.

(5) Betensky , Lucretius and Love , 294 sqq.

هذا هو رأى لوكريتيوس فى الرغبة الجنسية، إنها جرح مؤلم لا يبرأ لكنه جرح يحقق اللذة، ويجعل الرجل والدا فيصبح – كما يقول فى مكان آخر من القصيدة – سعيدا بأطفاله وتخفف ذريته من الشجار الدائم بينه وبين زوجته أو معشوقته. هذه هى الفقرة الوحيدة التى يظهر فيها لوكريتيوس كأنه يهاجم الحب. لكن من الواضح أنه لا يهاجم الحب من أجل مجرد الكراهية فى الحب؛ بل إنه يحاول أن يرصد بالتفصيل العلاقة بين الرجل والمرأة؛ ومراحل تطورها وتأثيراتها ونتائجها المختلفة البيولوجية والنفسية والصحية للأسرة. ولقد لاحظنا أنه يمدح الحياة الزوجية والأطفال والذرية فى أماكن عديدة أخرى من القصيدة[١]. فليس من العدل أن يُساء الظن به، وتوجَّه ضده سهام الاتهامات الكاذبة بأنه كان محصّنا ضد الحب أو ممارسة الرغبة الجنسية خاصة أن هناك بعض فقرات أخرى فى القصيدة ترجح – كما سبقت الإشارة – أنه ربما كان فى فترة من فترات حياته زوجًا أو عشيقًا[٢]. من ناحية أخرى؛ هناك مَنْ يحاول أن ينفى عنه هذا الاتهام بزعمٍ لا يعدو أن يكون سوى مجرد حدس غير مقبول. يعتقد أصحاب هذا الرأى أن القديس جيروم قد خلط بين الشاعر لوكريتيوس "**Lucretius**" والشاعر لوكوللوس "**Lucullus**" الذى مات فى عام ٥٦ ق.م. أيضًا والذى تجرَّع أيضًا جرعة مانعة للحب[٣]. إنه رأى قد لا يبدو سوى مجرد ملاحظة قد لا تجد ما يبررها سوى فى خيال صاحبها. الجنون والانتحار – إذن – لم يكن لهما مكان فى حياة لوكريتيوس، بينما كان الحب هو الشاغل الرئيسى والموجِّه العام فى حياته، مثله فى ذلك مثل باقى أفراد البشر الأسوياء.

---

(١) انظر صـ :٣٠ وما بعدها أعلاه.

(٢) انظر صـ :٢٢ وما بعدها أعلاه.

(3) Wilkinson , Lucretius and the Love-Philtre , pp. 47-48.

شخصية مميوس:

يوجّه لوكريتيوس قصيدته إلى شخصية تسمى مميوس[1]. يرد اسم هذه الشخصية إحدى عشرة مرة فى القصيدة[٢]. مع بداية الكتاب الأول يوجه لوكريتيوس الدعاء إلى الربة فينوس كى تمنح الخلود لقصيدته التى ينظمها من أجل صديقه مميوس **memmiadas nostro** الذى ترغب الربة فينوس فى أن تمنحه التوفيق والنجاح إلى الأبد وأن تجعله ذا صفات طيبة، وأن توفق أسرة مميوس ذات الأصل النبيل (٤٢) إلى ما فيه خير البلاد أثناء فترة الحرب الأهلية بين قيصر وبومبى. وفى منتصف الكتاب ذاته يواصل لوكريتيوس نصائحه إلى مميوس (٤١١)؛ راجيا أن يكون قادرا على إقناعه بصحة آرائه. وقرب نهاية الكتاب (١٠٥٢) يحذره من الآراء التى يحاول الرواقيون ترويجها. وقرب بداية الكتاب الثانى (١٤٣) يلفت لوكريتيوس نظر مميوس إلى السرعة المسموح بها لحركة الذرات، ثم (١٨٢) يعِدُه بأنه سوف يثبت له فيما بعد خطأ الرأى القائل إن الآلهة هى التى خلقت العالم وأحسنت إعداده من أجل سعادة البشر. وفى الكتاب الخامس (٨) يؤكد لوكريتيوس لمميوس الشهير "**inclute Memmi**" أن إبيقوروس لم يولد أحد مثله قط، وبعد أبيات قليلة (٩٣) يحذره من أن العالم سوف يلحق به الدمار بسبب اختلاف تلك الكيانات الثلاثة التى يتكون منها، ثم (١٦٤) يعود فيؤكد مرة أخرى خطأ الاعتقاد أن الآلهة هى التى خلقت العالم من أجل سعادة البشر. وفى منتصف الكتاب ذاته (٨٦٧) يؤكد أن الحيوانات الشجاعة والذكية مثل الأسود والثعالب؛ ظلت تعتمد على شجاعتها وذكائها من أجل مواصلة حياة حرّة طليقة،

---

(1) Allen , On the Friendship of Lucretius with Memmius , pp.170 sqq.

(٢) الكتاب الأول، ٢٦، ٤٢، ٤١١، ١٠٥٢؛ الكتاب الثانى، ١٤٣، ١٨٢؛ الكتاب الخامس، ٨، ٩٣، ١٦٤، ٨٦٧، ١٢٨٢.

بينما اضطرت الحيوانات الضعيفة مثل الأغنام والحمير إلى أن تعيش فى حماية أفراد البشر. وفى نهاية الكتاب ذاته (١٢٨٢) يخاطب لوكريتيوس مميوس مؤكدا له أنه – بعد أن شرح فكرته – يستطيع أن يدرك بنفسه كيف اكتشف الإنسان طبيعة معدن الحديد وخصائصه.

مَنْ هوَ – إذن – مميوس النبيل والشهير وصديق لوكريتيوس الذى يوجه إليه نصيحته منذ بدايتها وحتى نهايتها ![1] لدينا ثلاثة أشخاص – على الأقل – يحملون اسم مميوس. الأول: بوبليوس رجيولوس مميوس الذى كان قنصلاً فى العام الحادى والثلاثين بعد مولد المسيح. والثانى والثالث يحملان الاسم نفسه جايوس مميوس. من المؤكد استبعاد الشخصية الأولى بثقة بالغة إذ إن لوكريتيوس ربما مات قبل أن يولد رجيولوس مميوس بفترة طويلة. تبقى لدينا شخصيتان الأولى جايوس مميوس الشخصية الديمقراطية الشهيرة.. كان يشغل منصب تريبيون فى عام ١١١ ق.م. حيث قاد حملة عسكرية ضد مجموعة من القادة المتمردين الذين كان أغلبهم قد اشتركوا فى اضطرابات مدنية تحت قيادة أوبيميوس؛ فى عام ١٢١ ق.م. اقترح مميوس إرسال البريتور كاسيوس لونجينوس إلى نوميديا ليستدرج يوجورتا لزيارة روما ضامنا له السلامة والأمان. ثم شغل منصب بريتور فى عام ١٠٤ ق.م. ونافس على منصب القنصل فى عام ٩٩ ق.م. (وربما يكون ذلك العام هو تاريخ ميلاد لوكريتيوس)[2]. الشخصية الثانية هى جايوس مميوس الذى كان زوجا لفتاة تدعى فاوستا كورنيليا وهى ابنة الزعيم الرومانى سوللا. عارض مميوس سَعْىَ لوكيوس لوكيللوس للنصر فى عام ٦٦ ق.م.، شغل منصب بريتور فى عام ٥٨ ق.م.، وكان فى موقف عدائى ليوليوس

---

(1) Roller ,Gaius Memmius:Patron of Lucretius,pp.250sqq.

(٢) انظر صـ: ٩ أعلاه.

قيصر. فى عام ٥٧ ق.م. عُيِّن بروبريتور فى منطقة بيثينيا، قيل إنه اصطحب معه الشاعريْن هلفيوس كينا وكاتوللوس. قيل أيضًا إنه ربما اصطحب معه لوكريتيوس. فى عام ٥٥ ق.م. طلق زوجته فاوستا وتحول إلى مؤازرة يوليوس قيصر. فى عام ٥٤ ق.م. نافس على منصب القنصل ولم يحالفه النصر. فى عام ٥٣ ق.م. ثارت حوله الشبهات أثناء فضيحة الانتخابات وحُكم عليه بالنفى، ثم عاد إلى إيطاليا فى عام ٤٩ ق.م. تجمع أغلب الآراء على أن هذه الشخصية الأخيرة هى التى يوجّه إليها لوكريتيوس قصيدته الخالدة عن طبيعة الأشياء(١).

كان مميوس من هواة نظم الشعر، وغالبًا ما كان ينظم بعض قصائد فى الحب والغزل.. كان يهوى الثقافة والأدب.. كان راعيا للشاعر كاتوللوس والشاعر كينا. كان لوكريتويوس وكاتوللوس متعاصرين ويعرف كل منهما الآخر(٢)؛ من ثم فإن من المرجح أن هذه المعرفة كانت السبب فى بداية نشأة صلة بين لوكريتيوس ومميوس. ويبدو أن هذه الصلةِ سرعان ما تطورت حتى أصبحت صداقة متينة بين الطرفين. ويلاحظ بعض الدارسين وجود أوجه تشابه متعددة بين أشعار لوكريتيوس وكاتوللوس(٣). كما يلاحظون أن أغلب أوجه التشابه موجودة فى قصيدة بليوس وثيتيس للشاعر كاتوللوس، وأن هذا يعنى أن كاتوللوس هو الذى تأثر بلوكريتيوس وليس العكس. مميوس هو رجل سياسة، وشاعر من شعراء الغزل، وواحد من أشهر رعاة الشعر والشعراء. يقول عنه شيشرون إنه ضليع فى معرفة الأدب الإغريقى، وأن لديه موهبة ابتكارية خلاقة لم يحاول مميوس أن يستغلها بالقدر الكافى(٤). كانت سلوكياته فيما يتعلق بحياته الخاصة مجالاً خصبًا للشبهات.. كان

---

(1) Rouse, Op.Cit. , p.xvii ; Leonard Op.Cit. , p.18.

(2) Munro , De Rerum Natura , note on 3.57 ; Bailey , Epicurus , pp.1753-1754.

(3) Fordyce , Catullus , p.276;Dudley , Lucretius ,pp.42-43.

(4) Cicero , Brutus , 70,247.

بسلوكياته يتسبب دائمًا فى ارتكاب فضائح أخلاقية فى مجال المغامرات النسائية[1]. فى عام ٥٤ ق.م. اتجهت نحوه أصابع الاتهام باستخدام الرشوة أثناء سعيه للوصول إلى منصب القنصل العام. وأثناء فترة وجوده منفيًا فى فأثينا أثار غضب الإبيقوريين عندما حاول الاستيلاء على أطلال المقر المهيب لرائدهم ومعلمهم إبيقوروس، وأراد أن يزيلها ويقيم فى مكانها مقرًا حديثًا لإقامته. وبسبب سوء أخلاقه وسلوكياته وكراهيته للإبيقوريين والمدرسة الإبيقورية فقد استبعد مجموعة كبيرة من الدارسين مجرد فكرة أن يكون هذا الشخص هو مميوس الذى يخاطبه لوكريتيوس فى قصيدته فى طبيعة الأشياء. كما أن مجموعة أخرى استولت عليها الدهشة وتساءلت كيف ينظم لوكريتيوس – الذى يدافع بحماس شديد عن إبيقوروس والمدرسة الإبيقورية – هذه القصيدة الرائعة ويهديها إلى هذه الشخصية التى لا تعترف بالمبادئ السامية ولا بالسلوكيات القويمة.

على الرغم من ذلك فإن الدليل الداخلى قد يشير إلى غير ذلك[2]. ففى بداية القصيدة (الكتاب الأول، ٤٢-٤٣) يوجه لوكريتيوس حديثه إلى الربة فينوس قائلا:

" ليس فى استطاعتى أن أفكر بعقل راجح

وسط المشاكل التى يعانيها وطنى، وأيضًا ليس بإمكان أسرة مميوس

ذات الأصل النبيل أن تتدبّر الصالح العام فى مثل هذه الظروف".

من الواضح أن الإشارة هنا إلى شخصية سياسية مرموقة ذات أصل أرستقراطى. وهناك مجموعة أخرى من الملاحظات الجديرة بالاهتمام.. يهاجم لوكريتيوس هجوما شديدا الطموح الزائد عن الحد "**ambitio**" والجشع البشع

(1) Townend , The Fading of Memmius, pp. 270.

(2) Rouse , Op.Cit. , xlvi sqq.

"avaritia" [١]، والرغبة الجنسية العارمة[٢]. كما أنه يؤكد مرارًا وتكرارًا ضـــرورة أن يركز مميوس انتباهه إلى ما يقوله لوكريتيوس[٣]. ويعبّر لوكريتيوس أيضًا عـــن شكّه فى أن مَنْ يوجّه إليه الحديث ليس لديه الاستعداد لدراسة المذهب الإبيقـــورى دراسة جادة [٤]. على الرغم من أن كل ذلك قد يبدو أنه موجَّه إلى القارئ العـــادى بوجه عام؛ فإنه من الممكن أن يُفهم ضمنا أنه موجّه بطريقة غيـــر مباشـــرة إلـــى مميوس الذى يتصف بالنقائص الأخلاقية والسلوكية نفسها، مثل: الطموح الزائد عن الحد والجشع البشع والرغبة الجنسية العارمة والكسل الذهنى غير المـستعد للقيـــام بدراسة جادة لأى مِذهب جاد[٥]. وفى فقرات أخرى يعتذر لوكريتيوس لفقر اللغـــة اللاتينية وعدم قدرتها على التعبير مقارنة باللغة اليونانية[٦]، وربما كـــان المقـــصود بذلك هو إحساس لوكريتيوس بالأسف من أجل احتقار وعدم احترام مميوس للأدب اللاتينى واهتمامه وضلوعه فى الأدب اليونانى[٧]. وهنـــاك مـــن يـــرى أن حادثـــة محاولة مميوس الاستيلاء على مقر إبيقوروس الأثرى فى أثينا؛ تقدم مبررا لـــرفض فكرة أن هذه الشخصية ذاتها هى التى يوجه إليها لوكريتيوس قـــصيدته، لكـــن قـــد يكون هناك أيضًا ما يبرر عدم رفض هذه الفكرة. يمكن تفسير كراهيتـــه للمـــذهب الإبيقورى أثناء وجوده منفيا فى أثينا؛ بأنه كـــان يـــشعر بالغـــضب الـــشديد؛ لأن لوكريتيوس الإبيقورى قد وصفه بتلك الصفات الشائنة وأنه قد حذره مـــن أن هـــذه

---

(١) الكتاب الثانى، ١-٥٤؛ الكتاب الثالث، ٥٩-٨٦، ٩٩٥-١٠٠٢؛ الكتاب الخامس، ١١٢٠- ١١٣٥.
(٢) الكتاب الرابع، ١٠٣٧-١١٩١.
(٣) الكتاب الثانى، ٦٦؛ الثالث، ١٨٥؛ الرابع، ٩٣١؛ السادس، ٩٢٠.
(٤) الكتاب الأول، ٥٠-٥٣، ٤١٠-٤١٧.
(5) Monti , Lucretius on Greed , Political Ambition and Society , pp.50 sqq.
(٦) الكتاب الأول، ١٣٩، ٨٣٢؛ الثالث، ٢٦٠.
(7) Adkins , Lucretius(1.136-139) and the Problems of Writing Versus Latini , pp.145-158.

الصفات الشائنة لا تؤدى بصاحبها سوى إلى خيبة الأمل والكوارث والخزى والعار. وعندما وافق مميوس على أن يهدى لوكريتيوس إليه قصيدته فربما لم يكن يعلم حقيقة قصد لوكريتيوس، أو ربما قد جذبه إلى الموافقة اعتقاده أن المذهب الإبيقورى يرى أى الخير الأسمى هو اللذة، ولم يكن يعلم أن مفهوم اللذة عند كل من إبيقوروس ولوكريتيوس يختلف تمامًا عن مفهوم اللذة عند مميوس. وعندما اكتشف الفارق الشاسع بين المفهومين، واكتشف أنه كان يعيش فى وهم خادع سيطر عليه الغضب فى منفاه؛ فقرر القضاء على أطلال مقر إبيقوروس ومحو آثاره. هناك أيضًا عبارة وردت فى بداية القصيدة (٢٦-٢٧)؛ حيث يقول لوكريتيوس إلى الربة فينوس إنه ينظم قصيدته:

"من أجل صديقنا مميوس، الذى ترغبين - أيتها الربة -

أن يبزّ الجميع على الدوام وأن يزدان بكل الصفات الجيدة".

بالإضافة إلى ذلك فإنه يمكن القول إن لوكريتيوس لم يهدِ قصيدته إلى مميوس بصفته راعيا للشاعر، بل بصفته صديق أرستقراطى يهدى قصيدته إلى صديقه الأرستقراطى، على أمل أن يقلع مميوس عن سلوكياته الشائنة أو يعتنق المذهب الإبيقورى. إنه إهداء الندّ إلى الندّ[1].

إن إهداء لوكريتيوس قصيدته إلى شخصية مثل شخصية مميوس، يؤكد ذكاء الشاعر ورغبته الأكيدة فى أن يكسب المذهب الإبيقورى عضوًا مهمًّا ونصيرًا قويًا يروّج لمبادئه. فالإهداء - كما أسلفنا - ليس إهداء شاعر إلى راعيه، ولا هو إهداء شاعر إلى شخصية مرموقة كى ترعاه، بل هو إهداء شخص يشعر ببهجة ولذة فى صداقة صافية بين الهادى والمهدى إليه تجعله يتحمّل كل جهد وعناء من أجل إلقاء الضوء على الموضوعات الغامضة (الكتاب الأول، ١٤٠-١٤٥):

---

(1) Parret , L'amour de l'argent ,l'ambition,et la crainte de la mort , pp. 277 sqq.

" مع ذلك فإن جدارتك والبهجة المأمولة للصداقة ١٤٠

الصافية بيننا هى التى تدفعنى إلى أن أتحمل أى جهد ١٤١

...... لعلك تتمكن من

أن تبصر بعمق الموضوعات الغامضة". ١٤٥

فالإشارة هنا ليست إلى صداقة عادية بين شخصين ينتميان إلى مذهب واحد وهو المذهب الإبيقورى[1]. وبذلك يهدف لوكريتيوس إلى الإيحاء لغير أصحاب المذهب الإبيقورى أنه يأمل فى التأثير فى مميوس كى يتحول إلى المذهب الإبيقورى. وبذلك أيضًا يختفى أى مبرر للدهشة لاختيار لوكريتيوس لشخص بعيد كل البعد عن الفضيلة وغير متعاطف تمامًا مع المذهب الإبيقورى؛ فإن من العبث أن يحاول مُصلِح أن يصلح من سلوكيات شخص هو حسن السلوك فعلا، أو أن يحاول أن يثنيه عن مذهبه ويجعله يعتنق مذهبًا آخر؛ وهو قد تحول من مذهبه فعلاً واعتنق المذهب الآخر. قد يكون السبب الرئيسى الذى جعل لوكريتيوس يختار مميوس هو أن مميوس ذو شخصية غير سوية وأنه ذو مكانة سامية فى المجتمع؛ ما يعنى أن من الصعب التأثير فيه، فإذا استطاع لوكريتيوس التأثير فيه فسوف يصبح من السهل بعد ذلك التأثير فى أى شخص آخر. ولكن للأسف الشديد يبدو أن مميوس لم يتأثر بحديث لوكريتيوس، ولم يتحول إلى المذهب الإبيقورى، بل حاول أن يأتى على المقر المهيب لصاحب المذهب ويخفى معالمه ويقيم مكانه مقرا دائمًا لنفسه.

---

(1) Boyance , Lucrece et son disciple , pp.230-231; Farrington , Lucretius and Memmius , pp.15-16.

إبيقوروس:

من المؤكد أن لوكريتيوس كان من أشد المعجبين بإبيقوروس، صاحب ذلك الاسم "epikouros" الذى يعنى باللغة اليونانية "المساعد" أو "المعين". إبيقوروس هو فيلسوف إغريقى ومؤسس مدرسة من أشهر المدارس الفلسفية فى العالم القديم والحديث وهى المدرسة الإبيقورية. تزيد أعماله على ثلاثمئة عمل لم يبق منها سوى مجموعة من الشذرات وعدد لا بأس به من الرسائل. إن أغلب المعلومات التى لدينا عن تعاليمه وآرائه وصلتنا عن طريق كتابات أتباعه من أعضاء المذهب الإبيقورى أو المعلقين عليها فيما بعد. الهدف من الفلسفة – فى رأى إبيقوروس – هو تحقيق السعادة والحياة الهادئة التى تتميز بما يسمى "ataraxia" – أى السلام والتحرر من الخوف؛ وأيضًا ما يسمى "aponia" – أى التخلص من الألم، وذلك عن طريق حياة تتميز بالاكتفاء الذاتى وسط مجموعة من الأصدقاء. إن اللذة والألم – فى رأى إبيقوروس – هما مقياس الخير والشر، والموت هو نهاية الجسد والروح، لذلك يجب عدم الخوف منه. الآلهة لا تكافئ ولا تعاقب أفراد البشر، والكون أبدى ولا نهائى. تتوقف الأحداث المهمة فى العالم – إلى حد كبير – على حركات الذرّات وتفاعلاتها أثناء حركتها فى الفراغ الخالى[١].

انحدر إبيقوروس من والدين آثينيين بالمولد هما نيوكليس وخايرستراتى. هاجر والده إلى جزيرة ساموس فى البحر الإيجى قبل مولد إبيقوروس بعشرة أعوام. ولد إبيقوروس فى اليوم الرابع من شهر فبراير من العام الثالث للدورة الأوليمبية التاسعة بعد المئة – أى فى عام ٣٤١ق.م. أثناء أرخونية موسيجينيس[٢]. درس أثناء

---

(1) Scott , The Physical Constitution of the Epicurean Gods , pp.212 sqq.

(2) Diogenes Laertius , 10,14-15.

صباه الفلسفة لمدة أربعة أعوام على يدىْ المعلم الأفلاطونى بامفيلوس. عندما بلـغ عامه الثامن عشر ذهب إلى أثينا حيث قضى الخدمة العـسكرية لمـدة عـامين[1]. صاحبه فى الفرقة نفسها الكاتب الكوميدى الإغريقى مناندروس. بعد موت الإسكندر الأكبر طرد برديكّاس كل المستوطنين الآثينيين من جزيرة ساموس إلى كولوفـون الواقعة على شاطئ آسيا الصغرى. بعد أن انقضت مدة خدمتـه العـسكرية لحـق إبيقوروس بأسرته هناك، حيث درس على يدىْ نوسيفانيس الذى كان يقوم بتـدريس تعاليم ديموكريتوس. فى عام ٣١١/٣١٠ ق.م. عمل معلما فى مدينة ميتيلينى حيـث تسبب فى قيام صراع اضطر بسببه إلى أن يرحل من هناك. حينئذ أنـشأ مدرسـة خاصة فى لامبساكوس وظل هناك حتى عاد إلى أثينا فى عام ٣٠٦ق.م. هناك أسس ما يعرف بالحديقة "kepos"؛ إذ إنه استخدم حديقة منزله مقرا لمدرسته ومكانا للقـاء تلاميذه[٢]. كانت الحديقة تقع فى منتصف الطريق بين مدرستين من أشهر المدارس الفلسفية – المدرسة الرواقية وأكاديمية أفلاطون. من الواضح أنه كان متـأثرا فـى آرائه وتعاليمه بآراء بعض من سبقوه من المفكرين خاصة المفكر ديموكريتوس، لكنه كان يختلف عن ديموكريتوس اختلافًا واضحًا فيما يتعلق بمـذهب الحتميـة؛ لكـن إبيقوروس كان ينكر ذلك التأثير وغالبًا ما كان يقلل من شأن سابقيه من المفكـرين ويتهمهم بأن أفكارهم كانت مشوّشة، ويدّعى أنه علم نفسه بنفسه. وهب إبيقـوروس حياته للعلم والمعرفة، لم يتزوج ولم يكن له ذرية، ولم تنسب المصادر إليه القيام بأي مغامرات نسائية. قيل إنه كان يعانى من أمراض فى الكلى ووجود بعض الحـصى

---

(1) Blickman, Lucretius,Epicurus,and Prehistory,pp157 sqq

(2) Dalzell , Lucretius and the History of Epicureanism, pp.22 sqq.

فى إحدى كليتيْه[1]. مات متأثرا بمرضه فى العام الثانى من الدورة الأوليمبية السابعة والعشرين بعد المئة (أى عام ٢٧٠ق.م.) وهو فى عامه الثانى والسبعين[2]. وعلى الرغم من الألم الشديد الذى كان يعانيه؛ فقد كتب إلى صديقه إدومينيوس قائلا: لقد كتبت إليك هذه الرسالة فى يوم سعيد بالنسبة لى وهو آخر يوم فى حياتى.. فلقد أصابنى ألم شديد يصاحبه عدم القدرة على التبوّل وأيضًا نوبة من الدوسونتاريا والإسهال، إنه ألم شديد لا يضاهيه سوى شدّة تحمّلى. لكن البهجة التى يتميز بها عقلى والتى هى نتيجة تآزر كل تأملاتى الفلسفية تجعلنى قادرا على تحمل كل هذه المتاعب والآلام[3].

الحديقة هو ذلك الاسم الذى عرفت به مدرسة إبيقوروس، لأنه أنشأها فى حديقة منزله[4]. كانت له مجموعة من التابعين أو المريدين الذين ظلوا يحيطون به طوال حياته[5]. أول من انضم إليه فى مدرسته هرمارخوس والرأسمالى إدومينيوس وليونتيوس وزوجته ثميستا والشاعر الهجائى كولوتيس وعالم الرياضيات بولياينوس من لامبساكوس، وأيضًا ليونتيون وميترودوروس من لامبساكوس. الأخيران هما أشهر من حاول نشر المذهب الإبيقورى وتبسيطه وشرحه حتى يلقى قبولا لدى الجميع. إن مدرسة إبيقوروس هى أول مدرسة فلسفية إغريقية قديمة تسمح بانضمام الإناث إليها كقاعدة معترف بها لا استثناء[6]، فلقد سبق أن سمح أفلاطون لامرأتين فقط

(1) Bitsori & Galanakis, Epicurus' death, pp.466-469.
(2) Diogenes Laertius, 10,15.
(3) Idem, 10,22.
(4) Monet, Le Jardin Romain, Epicurisme et poesie a Rome, pp.43 sqq.
(5) Long, Hellenistic Philosophy: Stoics, Epicureans, Sceptics, pp.15 sq.
(6) Jones, The Epicurean Tradition, pp.30 sqq.

أكسيوثيا ولاستيسيا – بالانضمام بصفة استثنائية، كما قيل أيضًا إن فيثاغورس قد سمح لامرأة واحدة – ثيانو – أن تتابع ما يلقيه من دروس بصفة استثنائية أيضًا[1]، أول مقر لمدرسة إبيقوروس كان فى حديقة منزله، ولقد حفظ لنا المفكر الرومانى سنيكا فى إحدى رسائله نص نقش كان محفورًا أعلى بوابة الحديقة يقول[2]:

" أيها الضيف، سوف تسعد إن مكثت هنا،

هنا تصبح اللذة هى الخير الأسمى".

يؤكد إبيقوروس أهمية الصداقة كعنصر عام من عناصر السعادة، لذلك فإن مدرسته كانت تشبه فى أوجه كثيرة مجتمعًا من الأصدقاء يعيشون معًا. ومع ذلك فقد وضع نظامًا هرميصًا متسلسلاً لمستوى أعضاء المدرسة، وكان عليهم أن يقسموا علىّ أن يحافظوا على هيبة هذا النظام واحترام تقاليده.

يعتبر إبيقوروس رائدًا فى مجال تطور العلم والمنهج العلمى؛ وذلك بسبب إصراره على أنه لا يمكن الإيمان بصحة رأى أو حقيقة شئ إلا بعد أن يكون قد تمّ اختباره من خلال ملاحظات مباشرة واستنتاجات منطقية[3]. إن كثيرا من آرائه فى الطبيعة والعلوم الطبيعية قد تنبّأت بظهور مفاهيم مهمة فى وقتنا الحاضر.

كان إبيقوروس شخصية رائدة أثناء عصر من أهم عصور الحضارة القديمة – من ٨٠٠ إلى ٢٠٠ق.م. – حيث ظهرت آراء ثورية مشابهة فى مناطق متعددة من العالم القديم، مثل: الصين والهند وفارس وبلاد ما بين النهرين وبلاد

---

(1) Hadot ,Qu'est que la philosophie antique ? , p.99.

(2) Cicero , Epistulae morales ad Lucilium ,epistula xxi.

(3) Bailey , The Greek Atomists and Epicurus , pp.26 sqq.

الإغريق[1]. اختلفت آراء إبيقوروس عن آراء عظماء المفكرين الإغريق المعاصرين له والسابقين عليه، لكنها كانت مبنية – إلى حد كبير – على المبادئ نفسها التى نادى بها ديموكريتوس[2]. كان – مثل ديموكريتوس – يؤمن بأن العالم يتكون من ذرات وهى أجسام متناهية فى الصغر لا يمكن أن تتجزأ وتتطاير فى الفضاء الخالى، وكل ما يحدث فى العالم ليس سوى نتيجة تصادم هذه الذرات وارتدادها؛ ثم تشابك بعضها مع بعض آخر دون أن تحدث هذه التحركات طبقًا لخطة معينة أو من أجل غرض معين. يختلف إبيقوروس عن ديموكريتوس فى أن الأول يزعم أن الذرات لا تتحرك دائمًا فى خطوط مستقيمة؛ لكنها قد تنحرف أحيانا فى حركتها وتحيد عن طريقها. ولعل ذلك قد جعل إبيقوروس يتفادى فكرة الحتمية الكامنة فى نظرية الذرة التى ظهرت قبله وتؤكد نظرية الإرادة الحرّة[3]. لقد دأب – كما أسلفنا – على السماح للنساء والعبيد بالانضمام إلى مدرسته، وكان من أوائل المفكرين الإغريق الذين نادوا بعدم الخوف من الآلهة والإقلاع عن تقاليد عبادة المقدسات التى كانت سائدة حينذاك. لكنه فى الوقت نفسه أكد أن الأنشطة الدينية ذات فائدة كوسيلة فقط كى نتذكر الآلهة ونعتبرهم مثالا للحياة السعيدة[4]. لقد شارك إبيقوروس فى ممارسة الأنشطة الدينية التقليدية الإغريقية، لكنه علم أتباعه كيف يتحاشون اعتناق معتقدات زائفة عن الآلهة. إن الآلهة خالدة ومقدسة، وأفراد البشر الذين ينسبون إليهم قدرات وكفاءات غير الخلود والقدسية يصبحون – فى رأى إبيقوروس – كافرين وعاقين. إن الآلهة لا تعاقب الشريرين ولا تكافئ الخيّرين

---

(1) Konston , Some Aspects of Epicurean Psychology , pp.19 sqq.

(2) Kleve , Bony from the Garden of Epicurus , pp.211 sqq.

(3) Oenoanda inscription ,fragment 54,Smith edition ; cf. Lucretius on the Nature of Things , 2,216-224,284-293.

(4) Friendlander , The Epicurean Theology in Lucretius' First Prooemium (Lucretius 1,44-45) , pp.368 sqq.

كما يعتقد الرجل العادى. إن الرجل العادى يرى أن الآلهة تصيب الأشــرار بكــوارث مروعة والأخيار – الذين يتشبّهون بالآلهة – بخيرات كثيرة. لا يعتــرف إبيقــوروس بهذا الرأى، إنه يعتقد أن الآلهة موجودة لكنها لا تهتم من قريب أو بعيد بمصائر أفــراد البشر. "ليس من ينكر أن الآلهة يجب عبادتها بواسطة الجميع يكون عاقًا أو كافرا، بــل العاق أوالكافر هو الذى يؤكد أن الآلهة هى كما يراهــا الجميــع"، تلــك هــى إحــدى العبارات التى وصلتنا من رسائل إبيقوروس إلى صديقه منويكيــوس[1].. إنهــا تــوجز رأى إبيقوروس وموقفه من الآلهة.

تتأسس فلسفة إبيقوروس على النظرية القائلة إن كل ألوان الخير وكل ألــوان الشر ناتجة عن كل ألوان الإحساس باللذة والألم، إن ما هو خير هو أيــضًا باعــث للذة، وما هو شر هو أيضًا مسبب للألم؛ فاللذة والألم – فى رأى إبيقوروس – همــا أساس التمييز الأخلاقى بين الخير والشر؛ فإذا كان الألم مفضلاً على اللذة فى بعض الحالات فإن ذلك يؤدى إلى مزيد من اللذة. وعلى الرغم من أن البعض قد أساء فهم رأى إبيقوروس وفسّره على أنه دفاع عن السعى المندفع وراء اللذة؛ فإنه فى الواقع كان دفاعا عن تفادى الألم – سواء الألم الجسدى أو الألم العقلى – أى تحقيق حالــة من الإشباع والهدوء تجعله متحررًا من الخوف من الموت ومن عقــاب الآلهــة[2]. فعندما لا نقاسى من الألم فإننا لا نصبح فى حاجة إلى اللذة، وعندئذ نصل إلى حالة من السلام العقلى الكامل "**ataraxia**".

كان لآراء إبيقوروس أثرها البالغ فى مجال الطب؛ فقد طبق آراء إبيقوروس الطبيب الإبيقورى أسكلبياديس من بيثينيا وهو أول طبيب أدخل الطب الإغريقى فى

---

(1) Diogenes Laertius , 10,123.

(2) Furley , Lucretius the Epicurean: on the history of man, pp.1-37.

روما. استخدم أسكلبياديس مع مرضاه العلاج الذى يعتمد على الصداقة والإحساس باللذة وعدم الإحساس بالألم كما يعتمد أيضًا على التعاطف مع الآخرين. نادى بالمعاملة الطيبة لمرضى الأمراض العقلية، نهى عن عزل الأشخاص المجانين، وعالجهم بوسائل العلاج الطبيعى، مثل: اتباع نظام غذائى معين أو التدليك الطبى أى المساج؛ لذلك فإن أسكلبياديس يعتبر رائدًا فى مجال العلاج النفسى والعلاج الطبيعى والطب النووى[1]. لقد حذر إبيقوروس بطريقة مباشرة من التمادى فى الاستمتاع بأساليب الترف لأنها تؤدى غالبًا إلى الإحساس بالألم. على سبيل المثال؛ فقد حذر إبيقوروس من السعى وراء الحب بشغف شديد. دافع عن الصداقة كحصن أمان للاحتفاظ باللذة لكنه أنكرها كقيمة أدبية[2].. نادى بالتحرر من الخوف من الموت[3]. فعندما يموت الإنسان فإنه لا يشعر بألم الموت إذ إنه يصبح لا شئ فلا يشعر بشئ؛ لذلك فإن إبيقوروس يقول: "إن الموت لا شئ بالنسبة لنا". فعندما نكون فالموت لا يكون، وعندما يكون الموت فنحن لا نكون. إن كل المشاعر والأحاسيس تختفى بالموت، لذلك فأثناء الموت لا تكون هناك لذة ولا ألم. إن الخوف من الموت ينشأ من الاعتقاد أن أثناء الموت يكون الشخص واعيًا[4]. من ذلك المذهب الإبيقورى نشأت مرثية كانت تنقش دائمًا على قبور الإبيقوريين وعلى أغلب قبور الرومان أثناء العصر الإمبراطورى تقول:

Non fui , fui , non sum , non curo

"لم أكن، كنتُ، لا أكون، لا أهتم".

---

(1) Yapijakis , Hippocrates of Kos and Asclepiades of Bithynia. Review , pp.507-514.

(2) Cicero , De Finibus bomorum et malorum , II,82.

(3) Wettstein ,Life and Death: Metaphysics And Ethics , p.153.

(4) Warren , Facing Death: Epicurus and his Critics, pp. 23 sqq.

من ناحية أخرى، هناك مقولة متناقضة لا تتفق مع المذهب الإبيقورى كان يرددها المتشككون، وكان ينسبها خطأ إلى إبيقوروس الكاتب المسيحى لاكتانتيوس – الذى كان عدوًا لدودا للإبيقوريين ويرى أن إبيقوروس ملحدًا[1]. المقولة هى: "الإله قادر على كل شئ، الإله هو الخير، لكن الشر موجود". يرى بعض أن هذه المقولة ربما يكون قد صاغها أحد الكتاب الشكاكين الأوائل، وربما يكون ذلك الكاتب هو كارنياديس[2]. ويرى بعض آخر أنه لا علاقة لها بأى مصدر دينى أو بإبيقوروس أو بأى أحد من أتباعه، بل إنها ترجع إلى مصدر مضاد للمذهب الإبيقورى[3]. ظهر نص هذه المقولة للمرة الأولى فى أعمال الكاتب الشكاك سكستوس إمبيريكوس[4]. إن إبيقوروس لا ينكر وجود الآلهة؛ لكنه يرى أن الآلهة مهما كانت صفاتها فإنها لا تهتم بشئون البشر، ومن ثم فإنها لا تسعى إلى عقاب أفراد البشر لا أثناء حياتهم ولا بعد موتهم. إن إبيقوروس يؤكد أهمية الحواس فى نظريته عن المعرفة، ومبدأه هو تعدد الشروح (إذا اتفقت مجموعة من النظريات حول طبيعة مادة بعد فحصها فلك أن تتبع أيًا منها)؛ وهو ما يعتبر إرهاصًا لفلسفة العلم. على عكس الرواقيين لم يوجه الإبيقوريون اهتمامًا كبيرًا إلى الأمور السياسية، إذ إن ذلك كان – فى رأيهم – يؤدى إلى المتاعب[5]؛ لذلك فقد شجعوا على العزلة. يمكن القول إن حديقة إبيقوروس كانت تشبه تجمعًا منعزلاً عن بقية الدولة، أو معسكرًا خاصا غير مسموح بدخوله لغير الإبيقوريين. لقد شرح بلوتارخوس موقف الإبيقوريين[6]. وأيضًا فعل

---

(1) Larrimore , The Problem of Evil , pp.xix-xxi.

(2) Ibid., pp. xx.

(3) Reinhold , Et invidus et inbecillus , Virgiliae Christianae 42 (1988) , pp.47-58.

(4) Sextus Empiricus , Outlines of Pyrrhonism , 175.

(5) Fowler , Lucretius and Politics , pp.120-150.

(6) Plutarch , 1128c.

فيلوستراتوس[١] "عِشْ فى غموض"، "عشْ حياتــك دون أن تلفــت إليــك أنظــار الآخرين".. لعل المقصود بذلك هو أن يعيش الإنسان دون أن يسعى وراء المجد أو الثروة أو السلطان، بل يعيش غير معروف للآخرين يستمتع بأشياء قليلة مثل الطعام والصداقة فقط. يرى ديوجينيس لائرتيوس أن إبيقوروس كان قانعا بأن يقتات علــى الماء والخبز، وأنه كتب ذات مرة إلى صديق له يقول: "ارسلْ إلىَّ قطعة من الجبن القديم حتى يمكن أن تتاح لى فرصة لإقامة وليمة فاخرة حينما أشاء"[٢]. لقد فــضل إبيقوروس أن يعيش الإنسان "دون أن يؤذى أحدًا أو يؤذيه أحد"[٣]. لقد أعلن أن من المستحيل أن يعيش الإنسان بحكمة وسعادة وعدالة دون أن يقضى حياة سعيدة[٤]. لقد ربط بين حرية الإنسان فى اتخاذ القرار وحركة الذرات فى الفضاء، ويبدو أن هذه الفكرة – وربما أيضًا غيرها – جذبت لوكريتيوس فصاغ قصيدته الرائعة فى طبيعة الأشياء[٥]. يقول لوكريتيوس فى الكتاب الثانى (٢٥١ وما بعده):

"مرة أخرى، إذا كانت الحركة هى دائمًا سلسلة طويلة
متصلة فيما بينها، والحركة الجديدة تتولد دائمًا من الحركة
القديمة فى نظام لا يتبدل، وإذا كانت الذرات لا تنحرف أبدًا
حتى تنشأ من جديد حركة جديدة ما وهى التى سوف تحطم
قيود القدر والتتابع الدائم للسبب والنتيجة،

---

(1) Flavius Philostratus , Vita Apollini , 8,28,12.

(2) Diogenes Laertius , 10-11.

(3) O'Keefe , Epicurus on Freedom , p.134.

(4) Epicurus Principal Doctrines , translated by Robert Drew (1925).

(٥) الكتاب الثانى، ٢٥١-٢٦٢، ٢٨٩-٢٩٢.

إذن فما مصدر الإدارة الحرة التى توجد فى المخلوقات فوق
سطح الأرض؟ وما – أكرر – مصدر هذه الإرادة الحرة
المنتزعة من الأقدار، والتى بواسطتها نسير على طول
الطريق الذى نقَاد فوقه فراداً بواسطة الشهوة،
منحرفين عن مسارنا فى وقت أو مكان غير محددين؟
لكننا ننحرف بناء على أمر من قلوبنا؟ ليس هناك شك فى أن فى
هذه المناسبات تنتج إرادة الفرد حركات تتسلل حثيثا خلال أعضائنا".

ثم يواصل بعد أبيات قليلة قائلاً:

" لكن العقل نفسه ليست لديه فى الحقيقة ضرورة داخلية
لتقرر كل تصرف له وتجبره على أن يعانى فى سلبية عاجزة.
إذ إن هذا الشئ يرجع إلى الانحراف الطفيف للذرات فى
وقت غير محدد ومكان غير محدد".

بناء القصيدة:

على الرغم من أن من المؤكد أن الموت لم يمهل لوكريتيوس كى يراجع قصيدته وينقحها ويعدها للنشر، وعلى الرغم من أن هذه الحقيقة واضحة تمامًا فى عدة أماكن من القصيدة، وعلى الرغم من أنه لا يمكن الزعم إن كان لوكريتيوس راضيا عن ترتيب أجزائها أم كان ينوى إجراء تغييرات عليها أو إعادة ترتيبها، فإن القصيدة بحالتها الراهنة والتى وصلت بها إلينا تؤكد أن لوكريتيوس قام بالتخطيط لها تخطيطا جيدا قبل أن يبدأ فى نظمها(1).

(1) West , Imagery and Poetry of Lucretius , pp.83 sqq.

تنقسم القصيدة إلى ستة أجزاء أو ستة كتب. الأول: عن المكوّنات الدائمة للعالم: الذرّة والفراغ، والثانى: عن كيفية تعليل الذرات لحدوث الظواهر، والثالث: عن طبيعة الروح وفنائيّتها، والرابع: عن مظاهر الروح، والخامس: عن الكون وفنائيّته، والسادس والأخير عن الظواهر الكونية. هكذا يظهر أن القصيدة تتكون من ثلاثية – أى من ثلاثة أزواج من الكتب. الجزء الأول من الثلاثية يضم الكتابين الأول والثانى ويتناول العالم الميكروسكوبى (بالغ الصغر) للذرات، والثانى ويضم الثالث والرابع ويتناول عالم البشر، والثالث والأخير ويضم الكتابين الخامس والسادس ويتناول الكون كوحدة متكاملة. ومن خلال كل جزء من أجزاء الثلاثية فإن الجزء الأول من كل جزء بدوره يشرح الطبيعة الأساسية للكينونة أو الكينونيات التى يتناولها؛ ثم يبحث الجزء الثانى منه فى مجموعة من الظواهر الخاصة المتعلقة بها. وهناك نسق آخر نلاحظه فيما يتعلق بموضوع فناء الأشياء وهو مطبّق فى الكتب ذات الترتيب الفردى. ففى الكتاب الأول اهتمام بالغ بالعناصر الأساسية غير القابلة للفناء، وفى الكتاب الثالث اهتمام زائد بفنائية وسرعة زوال الروح، وفى الكتاب الخامس اهتمام زائد أيضًا بفنائية وسرعة زوال الكون. بالإضافة إلى انقسام القصيدة إلى ثلاثة أزواج متكافئة من الكتب، فإن من الممكن أيضًا ملاحظة أنها يمكن أن تنقسم إلى نصفين متوازيين ينسقان بين فكرة الحياة والموت. تبدأ القصيدة بترنيمة ودعاء إلى الربة فينوس كقوة باعثة للميلاد والحياة(١). وينتهى النصف الأول – نهاية الكتاب الثالث – بخطاب طويل وبليغ للوكريتيوس حيث يشجب الخوف من الموت، ثم يعود لوكريتيوس مرة أخرى فى نهاية الكتاب السادس – أى فى نهاية القصيدة – إلى موضوع الموت ويلقى خطابًا طويلاً مزعجًا؛ حيث

---

(1) Grimal , Lucrece et l'hymne a Venus , pp184-195 ; Hadzits , The Lucretian invocation of Venus , pp.187-192 ; Williams , The Nature of Roman Poetry , p.32.

يتحدث عن وباء الطاعون المخيف الذى هاجم أثينا أثناء الحروب البلوبونيسية(١). لقد ثارت مناقشات حادة حول هذه النهاية، بعض يرى أنها شاعرية مؤثرة بينما يرى بعض آخر أن لوكريتيوس – لو كانت قد أتيحت له الفرصة لاستكمال القصيدة ومراجعتها – ربما كان قد صاغ نهاية أخرى(٢).

قصيدة "فى طبيعة الأشياء" عمل فلسفى شعرى ينتمى إلى القرن الأول قبل الميلاد، الهدف منه شرح المذهب الإبيقورى للمواطن الرومانى. القصيدة منظومة فى الوزن السداسى الداكتولى(٣). استخدم هذا الوزن الشعراء الإغريق وعلى رأسهم هوميروس. أول من استخدمه فى اللغة اللاتينية الشاعر إنيوس (٢٣٩– ١٦٩ ق.م.). يُستخدم هذا الوزن بأساليب متعددة فى الملاحم والشعر الإنشادى والشعر التعليمى وأشعار الساتورا وفى تشكيل البيت الأول من وحدة الوزن الإليجى. يتكون البيت من ستة أقدام، ويتكون كل قدم من مقاطع طويلة أو قصيرة. يتكون القدم الداكتولى من مقطع طويل (ـــ) متبوعًا بمقطعين قصيرين (u u)، والقدم الإسبوندى من مقطعين طويلين (ـــ ـــ)، بينما يتكون القدم التروخى من مقطع طويل يتبعه مقطع قصير (u ـــ). قد تكون الأقدام الأربعة الأولى أقدامًا داكتولية وإما إسبوندية ويكون القدم الخامس داكتولي ثم يكون القدم السادس والأخير إما إسبوندى وإما تروخى. غالبًا ما يكون القدم الخامس إسبوندى عند كاتوللوس، أما عند لوكريتيوس فغالبًا ما يكون داكتولى، ومن ثم فالبيت فى قصيدة لوكريتيوس يكون:

– – / – – / – – / - - / - uu / - u

- u u / - u u / - u u / - u u / - u u / – –

---

(1) Bright , The Plague and the Structure of the De Rerum Natura , pp.607-632.

(2) Commager , Lucretius' Interpretation of the Plague , pp.105-121.

(3) Maas , Greek Metre , pp.82 sqq.

تتكون قصيدة "فى طبيعة الأشياء" من ستة كتب غيـر متـساوية الطـول. الأول: ١١١٧ بيتا، والثانى: ١١٧٤، والثالث: ١٠٩٤، والرابع: ١٢٨٧، والخامس: ١٤٥٧، والسادس والأخير: ١٢٨٦. ومن ثم يبلغ طول القصيدة كلها ٧٤١٩ بيتًـا. وتعتبر قصيدة "فى طبيعة الأشياء" أقل الملاحم الكلاسيكية التى وصلتنا طولاً إذا ما استثنينا ملحمة الأرجوناوتيكا (رحلة السفينة أرجو) للشاعر السكندرى أبوللونيـوس الرودسى؛ إذ يبلغ عدد أبياتها ٥٨٣٥ بيتًا موزعة على أربعة كتب.. الأول: ١٣٦٢ بيتا، والثانى: ١٢٨٥، والثالث: ١٤٠٧، والرابع والأخير: ١٧٨١؛ السبب فى ذلـك هو أن التقاليد الأدبية والميول الثقافية وموقف الأدباء من الأعمال الأدبية الطويلـة؛ كانت لا تشجع على صياغة الأعمال الأدبية الطويلة وتعتبر العمل الطويل شرا غير مقبول. وتبلغ ملحمة الإنيادة التى نظمها الشاعر فرجيليوس المعاصر للوكريتيـوس ٩٨٥٧ بيتًا موزعة على اثنى عشر كتابا. الأول: ٧٦٠ بيتا، والثانى: ٨٠٤، والثالث: ٧١٨، والرابع: ٧٠٥، والخامس: ٨٧١، والسادس: ٩٠٣، والسابع: ٨١٥، والثامن: ٧٣١، والتاسع: ٨١٥، والعاشر: ٩٠٧، والحادى عـشر: ٩١٣، والثـانى عـشر: والأخير: ٩١٥. أما شعراء الإغريق فكانوا مغرمين بنظم ملاحم بالغة الطول، فلدينا إلياذة هوميروس التى يبلغ عدد أبياتها ١٥٦٦٩ بيتًا موزعة على أربعـة وعـشرين أنشودة. الأولى يبلغ عدد أبياتها ٦١١ بيتا، والثانية: ٨٧٧، والثالثة: ٤٦١، والرابعة: ٥٤٤، والخامسة: ٩٠٤، والـسادسة: ٥٢٩، والـسابعة: ٤٨٢، والثامنـة: ٥٦٥، والتاسعة: ٧١٣، والعاشرة: ٥٧٩، والحادية عشرة: ٨٢٩، والثانية عـشرة: ٤٧١، والثالثة عشرة: ٨٣٧، والرابعة عشرة: ٥٢٢، والخامسة عشرة: ٧٤٦، والـسادسة عشرة: ٨٦٧، والسابعة غشرة: ٧٦١، والثامنة عشرة: ٦١٧، والتاسـعة عـشرة: ٤٢٤، والعشرون: ٥٠٣، والحادية والعشرون: ٦١١، والثانية والعـشرون: ٥١٥، والثالثة والعشرون: ٨٩٧، والرابعة والعشرون: ٨٠٤. ولدينا ملحمة الأوديسيا لنفس

الشاعر والتى يبلغ عدد أبياتها ١٢١١٠ بيتًا موزعة على أربع وعشرين أنشودة. عدد أبيات الأنشودة الأولى: ٤٤٤ بيتا، والثانية: ٤٣٤، والثالثة: ٤٩٧، والرابعة: ٨٤٧، والخامسة: ٤٩٣، والسادسة: ٣٣١، والسابعة: ٣٤٧، والثامنة: ٥٨٦، والتاسعة: ٥٦٦، والعاشرة: ٥٧٤، والحادية عشرة: ٦٤٠، والثانية عشرة: ٤٥٣، والثالثة عشرة: ٤٤٠، والرابعة عشرة: ٥٣٣، والخامسة عشرة: ٥٥٧، والسادسة عشرة: ٤٨١، والسابعة عشرة: ٦٠٦، والثامنة عشرة: ٤٢٨، والتاسعة عشرة: ٦٠٤، والعشرون: ٣٩٤، والحادية والعشرون: ٤٣٤، والثانية والعشرون: ٥٠١، والثالثة والعشرون: ٣٧٢، والرابعة والعشرون: ٥٤٨.

لوكريتيوس وإبيقوروس:

أسس إبيقوروس مدرسته فى بدايات القرن الثالث قبل الميلاد، وسرعان ما ازدهرت هذه المدرسة حتى أصبحت من أقوى المدارس الفلسفية تأثيرا أثناء العصر الهللينستى. عاش لوكريتيوس فى إيطاليا فى عصر كان المذهب الإبيقورى مزدهرًا خاصة فى المنطقة المحيطة بخليج نابولى؛ حيث كانت قد تكونت "حلقة فلسفية إبيقورية" ضخمة حول الفيلسوف فيلوديموس (١١٠–٤٠ تقريبًا). ولد فيلوديموس فى مدينة جادارا ومات فى مدينة هركيولانيوم. جاء إلى روما فى أعقاب حرب مثرياديس وسرعان ما اكتسب صداقة كل أفراد أسرة بيزو، ومنحه أحدهم ضيعة فى مدينة هركيولانيوم. يتحدث عنه شيشرون – عدوه ومنافسه ومعارضه – فى عام ٥٥ ق.م. على أنه شخصية معروفة ومرموقة اجتماعيًا[1]. أعانته صداقته لأسرة بيزو على نشر الأدب الإغريقى والفلسفة الإغريقية بين شباب الرومان الذين تحلّقوا حوله وحول الفيلسوف سيرو فى هركيولانيوم ونابولى. ظل معظم أعماله مجهولاً

---

(1) Cicero , In Pisonem , 28,68 sqq.

للدارسين فى العصور الحديثة؛ حتى تمّ اكتشاف بعضه فى هركيولانيوم أثناء القرن الثامن عشر الميلادى .. بالإضافة إلى ذلك فقد ظلت مدرسة إبيقوروس الرئيسية مزدهرة فى أثينا وذلك على الرغم من رحيل أغلب المدارس الفلسفية الأخرى من مواقعها الرئيسية فى المدينة، لكن ظلت لها فروع إقليمية أخرى يمكن أن يذهب إليها طالبو العلم الرومان. كانت الإبيقورية فى ذلك الوقت واحدة من أربعة مذاهب فلسفية رئيسية كان على المواطن الرومانى أن يقوم بدراستها دراسة وافية(١). من بين الشخصيات الرومانية البارزة التى اعتنقت المذهب الإبيقورى راعى الأدباء أتيكوس صديق شيشرون(٢)، وكاسيوس الذى اشترك بعد ذلك فى اغتيال يوليوس قيصر؛ لذلك ربما يكون من السهل إدراك أحد الأسباب التى دفعت لوكريتيوس أيضًا إلى اعتناق المذهب نفسه؛ إذ إنه ربما وجد فى ذلك فرصة للسير فى طريق أهل روما البارزين فى مجال السياسة والفكر.

من الملاحظ عند قراءة قصيدة "فى طبيعة الأشياء" أنه لا يوجد سوى إشارات نادرة إلى المناقشات التى كانت تدور بين تلك المذاهب المختلفة؛ مثل تلك المناقشات الضارية التى كانت تدور بين أتباع المذهب الرواقى وأتباع المذهب الإبيقورى حول المنهج العلمى ومنهج الرياضيات(٣). فمن الواضح أن لوكريتيوس لم يكن يهتم بمثل هذه المناقشات أو المناظرات. وعلى الرغم من أنه يتناول أحيانا فى قصيدته نقدًا مباشرًا وغير مباشر لبعض معارضى المذهب الإبيقورى؛ فإن من المحتمل أنه ربما لم يكن متابعا للمراحل المختلفة لتطور هذه المناقشات والمناظرات خاصة تلك التى لها صلة وطيدة بالمذهب الرواقى؛ ومن ثم فإن

---

(1) Furely , Lucretius and the Stoics , pp.13 sqq.

(٢) انظر صـ: ١١ أعلاه.

(3) De Lacy , Lucretius and The History of Epicureanism , pp.12-35.

لوكريتيوس قد يبدو كأنه كان يعيش فى معزل عما يدور أثناء حياته وأثناء القـــرنين السابقين عليه؛ وأنه إنما كان يستلهم معلوماته ومناقشاته – وحتى نقده للآخـــرين – من أعمال إبيقوروس ويصوغها بأسلوبه حتى تبدو كأنها من بنـــات أفكـــاره(١). إن هذه الظاهرة ربما تكشف بسهولة عن مصادر لوكريتيوس(٢) فالمعلومات الخاصـــة بالعلوم الطبيعية ربما تكون منقولة عن خمسة عشر كتابا الأولى من العمل الـــضخم الذى كتبه إبيقوروس والذى يضم سبعة وثلاثين كتابا تحت عنوان عن الطبيعـــة(٣). ومن فقرتين متتاليتين تصوران خطة الكتاب الرابع فى قصيدة لوكريتيـــوس يمكـــن الزعم أن هذا الكتاب الرابع كان مقصودا به فى البداية أن يأتى مباشرة بعد الكتـــاب الثانى، وبذلك يحدث التتابع بين أجزاء القصيدة مما يعبّر عن فكرة إبيقوروس فـــى كتابه عن الطبيعة، لكن يبدو أن لوكريتيوس أعاد ترتيب مادته فيما بعـــد فـــرأى أن يدسّ الكتاب الثالث بين الكتابين الأول والثانى(٤). وفيما يبدو أيضًا أن الكتـــب الأول والثانى والثالث قد تمّ استكمالها ومراجعتها؛ بينما الكتب الرابع والخامس والـــسادس كانت فى طريقها إلى المراجعة والتنقيح عندما داهم الموت لوكريتيـــوس(٥). ومـــا يرجح صحة هذا الزعم أن الكتب الثلاثة الأخيرة تتـــصف بـــالطول وربمـــا كـــان لوكريتيوس ينوى أثناء المراجعة النهائية الحد من أطوالها حتى تتناسب أطوالها مع أطوال الكتب الثلاثة الأولى؛ وإن لم يكن ذلك فرضًا ضروريًا فى صياغة الملاحم.

---

(1) Algra & Koenen & Schrijvers , Lucretius and His Intellectual Background , pp.75 sqq.

(2) Leonard, Op.Cit. ,pp.27 sqq.; Clay , The Sources of Lucretius Inspiration , pp.203 sqq.; Roller , The Sources of Lucretius , pp.51 sq.

(3) Sedley, The Structure of Epicurus' On Nature,pp.89-92

(4) Townend , The Original Plan of Lucretius'De Rerum Natura , pp.101-111.

(5) Sedley , Lucretius and The Transformation of Greek Wisdom , pp.52 sqq.

وربما يكون من الواضح أن المحتوى الفلسفى الرئيسى لقصيدة "فى طبيعة الأشياء" يصور ما رآه لوكريتيوس فى مقال عن الطبيعة لإبيقوروس[1]. ولا يختلف لوكريتيوس عن إبيقوروس إلا فى ترتيب خطوات المناقشة وليس فى ماهية المذهب الإبيقورى أو فى فحوى المناقشة ذاتها[2]. ويتضح ذلك التقارب الروحى والفكرى الشديد بين لوكريتيوس وإبيقوروس من عبارات الاحترام والتقدير – بل والتقديس أيضًا – التى يطلقها لوكريتيوس عندما يأتى ذكر معلمه إبيقوروس. يقول لوكريتيوس فى الكتاب الثالث (٣-١٧) موجهًا حديثه إلى إبيقوروس:

" إننى على أثرك، يا مجد الجنس الإغريقى، وعلى آثار
أقدامك أخطو الآن خطواتى الثابتة،
ليس رغبة فى منافستك، بل بدافع الحب
أتوق إلى محاكاتك، أنىَّ للسنونو أن ينافس البجعة
فى الغناء؟ وكيف يمكن للجدى ذى الأطراف المرتجفة
أن يبارى فى العدْو قوة بأس الجواد !
فأنت ربى، كاشف الحقيقة، وأنت أيها المجيد
مَنْ أمدّنا بتعاليمه الأبوية فى صحائفه.
وكالنحل الذى يرتشف الرحيق من البساتين المزهرة،
فإننا بالمثل ننهل من كل أقوالك الذهبية،

---

(1) Rouse , Op.Cit. , p.li.

(2) Clay , Lucretius and Epicurus , pp.101 sqq.; Boyance , Lucrece et l'Epicurisme , pp/63 sqq.

إنها ذهبية بحق، وهى خليقة بحياة سرمدية.
فبمجرد أن شرع مذهبك الفلسفى فى توضيح طبيعة
الأشياء، تلك الفلسفة التى بزغت من عقلك الإلهى،
تبددت مخاوف العقل، وتلاشت أسوار العالم،
وغدوتُ أرى كل ما يجرى فى أرجاء الفضاء الفسيح".

فى البيت رقم (٩) من الفقرة السابقة يصف لوكريتيوس معلمه إبيقوروس بالوالد أو الرب المجيد "**inclutus**" وهى صفة من صفات الآلهة، بل إنه يستخدم الصفة نفسها فى الكتاب الأول (البيت رقم ٤٠) عندما يصف الربة فينوس. وفى البيت رقم (١٠) من الفقرة السابقة أيضًا يستخدم لوكريتيوس لفظ صحائف "**chartis**" فى الإشارة إلى مؤلفات معلمه إبيقوروس؛ وهو لفظ يستخدم فى الإشارة إلى الكتب المقدسة.

فى فقرة من الكتاب الأول[١] فى قصيدة لوكريتيوس يتحدث مؤلفها عن منهجه فى نظم الشعر على أنه ابتكار ثورى[٢]. ربما يقصد بذلك أنه أول شاعر ينظم عملاً فلسفيا يتناول المذهب الإبيقورى[٣]، فلقد سبقه فى نظم قصائد شعر فلسفية بعض الكتاب الأوائل مثل: كسينوفانيس وبارمينيديس وإمبيدوكليس الذى يقدّره لوكريتيوس ويحترمه ويقلده أيضًا، لكن لم ينظم أحد من الشعراء قبله شعرا دفاعا عن المذهب الإبيقورى، أو ربما لأنه أول من ينظم شعرا فلسفيا باللغة

---

(١) انظر: ٩٢١-٩٥٠.

(2) Amory, Obscura de re lucida Carmina: Science and Poetry in De Rerum Natura, pp.143-168.

(3) Bergson, Philosophy and Poetry, The Genius of Lucretius, pp.36 sqq.; Arragon, Poetic Art as a Philosophic Medium for Lucretius, pp.371 sqq.

اللاتينية[١]. لقد سبق أن نشأت مناقشات حول رأى إبيقوروس القائل: إن نظم شعر فلسفى إبيقورى إنما هو سلوك يحوى بين ثناياه بعض المعتقدات غير القويمة. لقد حفظ لنا ديوجينيس لائرتيوس قول إبيقوروس: "إن الرجل الحكيم هو الذى يستطيع أن يناقش فقط الموسيقى والشعر؛ لكنه قد لا يكون فى الحقيقة قادرا على نظم الشعر[٢]؛ لكن فى الوقت نفسه لم يصلنا أي تعليقات تستنكر أن لوكريتيوس قد خرج عن تقاليد المدرسة الإبيقورية. يبدو أن كراهية إبيقوروس للشعر قد ترجع إلى تأثره برأى أفلاطون الذى يرى أن للشعر بعض الأضرار الأخلاقية، وأن أشعار هوميروس وغيره من الشعراء كان لها تأثير ضار على الأخلاق من خلال نظام التعليم عند الإغريق، لكن تبرير لوكريتيوس لاستخدام الشعر فى مجال الفلسفة هو أن الشعر يشبه الدواء للروح، وأن ما يبعثه الشعر فى الروح من بهجة يشبه ما يبعثه الدواء فى الجسد. إن الشعر مثل عسل النحل الذى يدهن الأطباء به حافة الكأس الذى يحمل الدواء المرّ إلى فم الطفل المريض[٣]. هنا يذكّر لوكريتيوس القارئ أن الإنسان عندما يخشى المجهول؛ فإنه يكون كالطفل الذى يخاف من الأماكن المظلمة. وعلى الرغم من أن لوكريتيوس يصوغ آراءه شعرا؛ فإنه يستخدم أساليب نثرية مناسبة للمناقشات الفلسفية؛ وهو ترتيب موجز لسلسلة من المناقشات لكل نقطة يكون توضيحها مطلوبًا وواجبًا، وأيضًا الدفاع عن نظرية من النظريات عن طريق اللجوء إلى القياس بمعلومة توضيحية مألوفة. إن مثل ذلك المنهج التقليدى – الذى كان جزءًا لا يتجزأ من المنهج الإبيقورى – يمنح لوكريتيوس فرصا عديدة لتطوير تشبيهات شعرية ثرية ومتعددة، وهو من أجمل جوانب أسلوبه فى الكتابة وأرقّها.

---

(1) Asmis , Rhetoric and Reason in Lucretius , pp.36-66.

(2) Diogenes Laertius , 10,121b.

(٣) انظر ص٣٢ أعلاه.

موضوع القصيدة:

ليس من السهل عرض محتويات قصيدة "فى طبيعة الأشياء" للوكريتيـوس عرضًا موجزًا، إذ إنها تستعرض مجموعة ضخمة من المعلومات الفلسفية والعلمية والأدبية، كما أنها تستشهد بكم هائل من الأساطير الإغريقية(١). وتلمّح إلى أحـداث تاريخية، وتشير إلى بعض العادات والتقاليد الإغريقية والرومانية، هذا بالإضافة إلى بعض الآراء فى الطب والصيدلة والعلوم الرياضية. ولعل ما تحتويه هذه القـصيدة من ذلك الكم الهائل من معلومات؛ يؤكد سعة اطلاع لوكريتيوس ويشير إلى أنه كان قارئا نَهما.. ومع ذلك لا بأس من محاولة عرض بعض الموضوعات الرئيسية التى تتناولها القصيدة فى حدود الخطوط الرئيسية للعمل ككل. فى هذه القـصيدة يـسبر لوكريتيوس أغوار علوم الفيزياء كما يراها الإبيقوريون؛ وذلك من خـلال أسـاليب واستعارات شعرية تتصف بالعمق(٢). إنه يتناول مبادئ المذهب الـذرّى، وطبيعـة العقل والروح، وشروح المشاعر والأفكار، وتطور العالم ومظاهره الطبيعية؛ ويقدم تفسيرات وشروحًا متعددة للظواهر السماوية والأرضية. إن العالم فى هذه القـصيدة يعمل ويتحرك طبقًا لهذه المبادئ الطبيعية، وتقوده الصدفة "**fortuna**" وليست المشيئة المقدسة للآلهة الرومانية المبجلة(٣). يرى لوكريتيوس أن شـقاء الجـنس البـشرى وانهيار أفكاره يرجع – إلى حدّ كبير – إلى الخوف من تسلط الآلهة والفـزع مـن غضبهم، ذلك الغضب الذى يكشف عن نفسه فيما يصيب أفراد الجنس البشرى مـن مصائب أثناء حياتهم؛ وما ينتظرهم من عذاب أبدى يصيب المـذنبين مـنهم أثنـاء حياتهم الأخرى بعد الموت. إن لوكريتيوس يرى أن الهدف من هذه القـصيدة هـو

(1) Gale , Myth and Poetry in Lucretius , pp.30 sqq.

(2) Monica , Myth and Poetry in Lucretius , pp.213 ; 223-224.

(٣) عن طبيعة الأشياء، الكتاب الخامس، ١٠٧.

تخليص أفراد الجنس البشرى من تلك المخاوف ومن ثم توطيد الإحساس بالطمأنينة فى قلوبهم. وهكذا فإن الآلهة – التى لا ينكر لوكريتيوس وجودها – تستمتع أبدًا بسلام دائم بعيد كل البعد عن المشاعر والأحاسيس والرغبات والمخاوف التى تقلق قلوب البشر، غير عابئ تمامًا بما يدور فى العالم وما يفعله سكانه، غير متأثرة بما يفعلون من حسنات أو سيئات. وكى يثبت لوكريتيوس صحة هذه الفكرة فإنه يستدعى نظرية الذرة لديموقريتوس الذى أراد أن يثبت أن العالم المادى لا يتكون من كينونة أسمى؛ ولكن عن طريق عملية خلط بين جزيئات مختلفة العناصر كانت فى الأصل بقايا عناصر أبدية تحكمها قوانين خاصة غاية فى البساطة. إن كل ما يفعله لوكريتيوس هو تحديد وتطوير هذه الآراء ووصفها فى شكل جذاب مقبول. إن هذه القصيدة هى محاولة للدلالة على أن كل شئ فى الطبيعة يمكن تفسيره طبقًا لقوانين طبيعية دون حاجة إلى تدخل أىّ من الآلهة(١).

تبدأ القصيدة بدعاء مهيب للربة فينوس؛ حيث يخاطبها لوكريتيوس على أنها الممثل المجازى للقوة المنتجة التى يبدأ من عندها عمل الجُزَئ ليعلن الافتراض المهم حول طبيعة الآلهة وكينونتها والتى تؤدى إلى الرفض التام لذلك الوحش الأسطورى الضخم المسمّى بالخزعبلات؛ وإلى صورة مثيرة للمخاوف التى تنتظر الترنّح الاستبدادى لتلك الخزعبلات(٢)، ثم يأتى بعد ذلك شرح مستفيض لبديهية معروفة تقول: إنه لا شئ ينتج عن لا شئ وأنه لا شئ يمكن أن يتحول إلى لا شئ (الكتاب الأول، ١٥٠-١٥١):

nil fieri ex nihilo , in nihilum nil posse reverti

---

(1) Ramsay , Lucretius in William Smith (editor , 1867) ,Dictionary of Greek and Roman Biology and Mythology ,vol. II pp.829-830.

(2) Williams , The Nature of Roman Poetry , pp.31 sqq.

ثم يتبع ذلك تعريف للذرات المطلقة – غير محددة العدد – التى بالاشتراك مع الفضاء الخالى "**inane**" – غير محدود المساحة – يتكون منها العالم(١). إن أشكال هذه الجزيئات وصفاتها المميزة وتحركاتها والقوانين التى تخضع لها فى ارتباطاتها وفى اتخاذها لأشكال وكيفيّات تتقبّلها الحواس؛ وأيضًا بعض الأمور الأساسية الخاصة بطبيعتها ونزعاتها وأيضًا تفنيد لنظريات معارضة ورافضة – إن كل ذلك يناقشه لوكريتيوس فى الكتابين الأول والثانى من القصيدة. في الكتاب الثالث يطبق لوكريتيوس تلك المفاهيم العامة المقترَحة فى الكتابين الأول والثانى؛ كى يبرهن على أن المبادئ الحيوية "**anima**" والفكرية "**animus**" هى أعضاء من أعضائنا تمامًا مثل أطرافنا وأعضائنا الجسدية، ولكنها – تمامًا مثل أطرافنا وأعضائنا الجسدية – ليس لها كيان متميز ومستقل، بمعنى أن الروح والجسد يعيشان ويموتان معًا. ثم تنتهى هذه المناقشة بشرح منمّق رائع للغباء الذى يكون سببًا فى الخوف من الموت؛ فالموت سوف يقضى على مشاعرنا وأحاسيسنا إلى الأبد. وربما يكون الكتاب الرابع هو أفضل جزء فى القصيدة؛ فقد خصصه لوكريتيوس لعرض نظرية الحواس: السمع والذوق والشمّ والنوم والأحلام، ثم يختتمه ببحث رائع عن الحب والجنس. أما الكتاب الخامس – الذى يمكن اعتباره بوجه عام أكثر أجزاء القصيدة اكتمالاً وتأثيرًا – فإنه يتناول أصل العالم وجميع الأشياء الكائنة فيه. يتناول حركات الأجسام السماوية وتغيّر الفصول وتعاقب الليل والنهار ونشأة الجنس البشرى وتطوره، كما يتناول المجتمع والتنظيمات السياسية وابتكار الفنون والعلوم المختلفة التى تزيّن الحياة وتجعلها حياة راقية. أما الكتاب السادس والأخير؛ فإنه يُجمِل تفسيرات وتعريفات لأكثر الظواهر الطبيعية إثارة خاصة الرعد والبرق والبرَد والمطر والثلوج والجليد والبرودة والحرارة والرياح

---

(1) Rouse ,De Rerum Natura , pp. xxxi sqq.

والبراكين والزلازل والينابيع، والمواقع الضارة لحياة الحيوانات والتى تـؤدى فـى النهاية إلى مناقشة الأمراض والأوبئة.. ويمهد كل ذلك إلى الوصـول فـى نهايـة القصيدة إلى وصف الوباء الخطير الذى دمّر الحيـاة فـى أثينـا أثنـاء الحـروب البلوبونيسية.. وهكذا ينتهى الكتاب السادس والأخير. ربما تبـدو نهايـة القـصيدة مفاجئة، وتشير – كما أسلفنا – إلى أن لوكريتيوس ربما كان فى وسعه الإبقاء على هذه النهاية المحزنة أو إدخال تعديلات عليها إذا لم يكن قد فاجأه الموت.

يعتقد لوكريتيوس أنه قادر على تحرير الجنس البشرى من الخـوف مـن الآلهة؛ عن طريق إثبات أن جميع الأشياء تحدث لأسباب طبيعية دون تـدخل مـن الآلهة، بذلك يكون لوكريتيوس قد زجّ بنفسه فى مجال العلم ويكون فى الوقت نفسه قد أصبح عرضة لهجوم بعض المتخصصين فى تاريخ العلوم. يرى بعض أنه قـد تعدّى حدوده كأديب أو كفيلسوف ودخل إلى مجال بعيد بعض الشئ عن تخصـصه كشاعر وفيلسوف، خاصة عندما يتناول المجالات الفلكية التى يعتبرها من الأشـياء غير واضحة المعالم والتى تعتمد في حركتها على أسباب واضـحة[1]. إنـه يبـدأ مناقشة هذا الموضوع قائلاً (الكتاب الخامس،٧٦-٨١):

"علاوة على ذلك سأوضح بأى قوة توجِّه الطبيعة ٧٦
الهادية مدار الشمس ومنازل القمر.
خشية أن نعتقد أن تلك الأشياء الواقعة بين السماء والأرض
(الشمس والقمر) تدور بحُريَّة وبإرادتها الذاتية فى مدار سرمدى،
آخذة على عاتقها نماء الزروع وتكاثر الكائنات الحية،

(1) Lloyd , Greek Science and Aristotle , pp.26 sqq.

أو نعتقد أنها تتعاقب بتدبير من الآلهة".

ومع ذلك فإنه عندما يبدأ فى تنفيذ هذه الخطة؛ فإنه يكتفى بالقول إن هناك سببًا أو أسبابا عديدة مختلفة تكشف عن طبيعة حدوث الظواهر الطبيعية، ولكنه لم يستطع أن يحدد للقارئ أى سبب من هذه الأسباب يمكن أن يكون السبب الحقيقى(١). وعندما يبدأ فى شرح أسباب حركات النجوم فإنه يفترض أولاً أن قبة السماء الضخمة تدور (الكتاب الخامس،٥١٠):

"أولاً إذا افترضنا أن قبة السماء الضخمة تدور".

ثم يواصل (الكتاب نفسه، ٥١٧-٥١٨) قائلاً:

"هناك احتمال آخر؛ فمن الممكن أيضًا أن تكون السماء ثابتة فى مكانها بلا حراك، بينما النجوم المضيئة هى التى تدور".

فى الاحتمال الأول يعتقد لوكريتيوس أن ذلك يحدث بسبب أن تيارات الهواء الحبيسة داخل السماء تتحرك فى شكل دائرى بحثًا عن الطريق؛ وهى تدير معها النجوم عبر أقطار الليل الشاسعة (٥١٩-٥٢١) أو بسبب تيار هواء خارجى يصدر من أحد الجوانب يدور ويقود النجوم أثناء دورانه (٥٢٢-٥٢٣)؛ أو لأن النجوم ذاتها لديها قدرة على الحركة فهى تذهب إلى حيث يناديها طعامها ويجذبها نحوه؛ وبذلك تطعم أجسادها المستعرة فى كل مكان فى السماء (٥٢٣-٥٢٥)، ثم يعلق لوكريتيوس على هذه الاحتمالات قائلاً (٥٢٦-٥٢٨):

" على أي حال فإنه لمِنَ الصعب تحديد السبب الحقيقى وراء حركة النجوم فى هذا العالم، لكن مناقشتى تُظهر أن أى شئ قابل للحدوث

---

(1) Alioto, A History of Western Science , pp.97 sqq.

أو يحدث بالفعل فى كل أرجاء الكون........"

هنا يعلق أحد علماء الطبيعة وليام شتال "William Stahl" قائلاً: "إن الأشكال الشاذة والثانوية للأجزاء العلمية فى قصيدة لوكريتيوس تجعلنا نختتم – بكل ثقة – مناقشات الموضوعات العلمية؛ قائلين إن صاحب هذه الآراء هو شاعر وليس رجل علم"[1]. من الواضح أن مفهوم الحتمية يتعارض مع مفهوم حرية الإرادة، لذلك فإن لوكريتيوس يحاول ألا يسمح بوجود الحتمية؛ ويرى أن حرية الإرادة هى التى تحكم عالمه الطبيعى حيث تتحرك الذرات وتنحرف فى مسارها بطريقة لا حتمية.

إن لوكريتيوس يؤكد أن حرية الإرادة هى التى توجِّه الإنسان؛ كما توجه أيضًا كل الكائنات الحية فى العالم (الكتاب الثانى، ٢٤٥ وما بعده).

تأثير لوكريتيوس فى لاحقيه:

اختلفت الآراء أثناء العصور التالية لعصر لوكريتيوس حول ما جاء فى قصيدته عن طبيعة الآلهة. عندما ظهرت المسيحية انقسم المفكرون المسيحيون فيما بينهم. اختلفت الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانتية حول ما جاء عند هؤلاء الكتاب "الوثنيين"، إذ إن كل ما جاء من أفكار قبل ظهور المسيحية ليست – فى رأيهم – سوى أفكار وثنية، حينئذ ثار ذلك السؤال الشهير: هل هؤلاء الشعراء الوثنيون لا يعلّمون شيئًا سوى الشر ولذا يجب أن نقاطعهم؟ أم هل يعلّمون بعض الخير ولذا يجب قبول تعاليمهم وتعديلها حتى تتفق مع التعاليم المسيحية؟ يرى القديس أوجستين أن تعاليمهم ليست جميعها شرا ، وأن فلسفتهم ليست كلها مضلّلة

---

(1) Stahl , Roman Science , p.83.

ولذا يمكن استخدام أعمالهم لتوسيع آفاق المسيحيين وإثراء مداركهم؛ وهذا ما فعله كثير من المفكرين المسيحيين أثناء العصور الوسطى. من ناحية أخرى اعتقد بعض – وعلى رأسهم القديس جيروم – أن كل ما جاء من عند الوثنيين شر؛ بل إنهم هم أنفسهم ليسوا سوى "أصوات العالم الذى جاء المسيح للقضاء عليها". إن كل مواطن الجمال فيهم ليست إلا شرًا، بل وإن فرجيليوس نفسه ليس سوى "إناء لزهور الزينة ملئ بالحيَّات السامة". وحتى بداية الإمبراطورية الرومانية فقد انقسم الرومان أيضًا إلى مجموعتين؛ ففى رأى المفكرين الرومان التابعين للكنيسة – مثل لاكتانتيوس – كان لوكريتيوس المتحدث الرسمى للفلسفة الإبيقورية التى لا تعترف بالآلهة[١]، لكن يبدو أن لوكريتيوس ظل اسمه ضمن قائمة بالأسماء التى كانت تدرّس أعمالهم فى المدارس مثل: بلاوتوس وفلاكوس وبرسيوس ولوكانوس. ويرى بروفسور هرمان ديلز "**Hermann Diels**" أن كاتب الموسوعات الشهير إيزيدور "**Isidore of Seville**" الذى مات فى عام ٦٣٦ بعد الميلاد؛ هو آخر كاتب مسيحى يقرأ لوكريتيوس[٢].

إن أقدم مخطوط لقصيدة "فى طبيعة الأشياء" ربما يعود تاريخ نسْخِه إلى القرن التاسع الميلادى؛ والذى اكتشفه فى عام ١٤١٧ ميلاديا بوجيو براكيولينى "**Poggio Bracciolini**" والذى يُعرف بمخطوط "**Oblong**" – أى المستطيل، ويرمز له بالحرف **O**[٣]. ويضاهيه فى القِدَم مخطوط "**Quadratus**" – أى المربع، ويرمز له بالحرف **Q**. ولا يدل اسم المخطوط على شئ سوى على شكل اللفافات المنسوخ عليها النص، فالمخطوط الأول (O) منسوخ فيه النص على عمود واحد، أما فى

---

(1) Leonard , Op.Cit. , pp.80 sqq.

(2) Diels , De Rerum Natura , pp.27 sqq.

(3) Cini , La posizione degli' Italici ' nello stemma lucreziano , pp.115-169

الثانى (Q) فهو منسوخ على عمودين. هذان المخطوطان هما المصدر الوحيد لنصوص القصيدة المنشورة أثناء عصر النهضة الأوروبية. ومن خلال قصيدة لوكريتيوس والترجمة اللاتينية لكتاب ديوجينيس لائرتيوس عن حياة إبيقوروس وصلت آراء الفلسفة الإبيقورية إلى المجالات الرئيسية للفلسفة – خاصة الفلسفة الأخلاقية – فى ذلك العصر. وعلى الرغم من أنها متعمّقة فى المناقشات الأدبية والحلقات الفلسفية؛ فإن لوكريتيوس قد ظل يكافح بقصيدته – التى تروّج للمذهب الإبيقوري – لمدة قرنين كاملين تقريبًا من الزمان؛ ليتخلص من ذلك اللقب الجائر الذى أطلق عليه وهو "لوكريتيوس الملحد". لقد كان لوكريتيوس الباعث والملهم للعالِم بيير كاسّندى "Pierre Cassendi" عندما توصل إلى نظريته عن النظام الذرّى والتى سبق أن صاغها إبيقوروس ولوكريتيوس من قبل. وربما يكون بيير كاسّندى قد أدخل بعض التعديلات عليها كى تتفق مع الأيديولوجيا المسيحية. وفى عام ١٩٨٩ ميلاديا نشر العالم كليف "K.Kleve" ست عشرة شذرة بردية؛ كان قد تمّ اكتشافها فى مدينة هركيولانيوم فى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى[١]. يرى الناشر أن هذه البرديات تحتوى على فقرات من الكتب الأول والثالث والرابع والخامس من قصيدة لوكريتيوس[٢]. كما يرى أن تاريخ نسخها قد يعود إلى ما قبل عام ٤٠ ميلاديا؛ ما يدل على أن قصيدة لوكريتيوس قد ظلت تدرس بعد موته فى مدارس نابولى.

كان تأثير لوكريتيوس ومصادره الإغريقية – وما زال – واضحًا فى مجال العلوم فى العصرين الحديث والمعاصر[٣]. إن رأى الإغريق فى مجال الذرة

(1) Leonard , Op.Cit. , pp.80 sqq.

(2) Diels , De Rerum Natura , pp.27 sqq.

(3) Johnson , Lucretius and The Modern World , pp. 14 sqq.

ملحوظ[١]، وليس المقصود هنا بمجال الذرة النظرية النووية فقط بل وأيضًا أغلب الأفكار العلمية فى مجالات علوم الفلك والحيوان والتشريح والأنثروبولوجيا وأيضًا علم تسمية الأشياء التى يرد ذكرها فى قصيدة لوكريتيوس[٢]. فنظرية انحراف الذرة يمكن مقارنتها بالحركات السريعة التى لا تعَدّ ولا تحصى من مجال إلكترونى إلى مجال إلكترونى آخر طبقًا لنظرية التحليل الكمّى للعالم الشهير أينشتاين[٣]. وكذلك نظرياته عن الزمان اللا محدود والمكان اللا محدود، ونظرية العلّة والتأثير، ونظرية النشوء والتطور عند داروين، لعل ذلك يختلف تمامًا عن نظرة القدماء إلى لوكريتيوس[٤]، فالعالم الحديث يرى فى لوكريتيوس "رجل علم" لكن العالم القديم يختلف فى نظرته عن العالم الحديث. إن الشعراء الرومان الثلاثة الذين يذكرونه بالاسم هم: أوفيديوس (٤٣ق.م.-١٧م) وستاتيوس (٤٥-٩٦م) وسيدونيوس (٤٣٠-٤٧٩م)؛ وهم يشيرون إليه كزميل فى المهنة وإن كان أوفيديوس يشير إليه كشاعر ينظم قصيدة "الأسباب والعلل"[٥]، هذا بالإضافة إلى فرجيليوس الذى يشير إليه – دون أن يذكر اسمه – على أنه أيضًا شاعر "الأسباب والعلل – **causas**" [٦]، أى تفسير أسباب الظواهر الطبيعية. ويقارن أوفيديوس بينه وبين إنيوس كشاعر للحروب[٧] وكاتوللوس كشاعر مفتون بعشيقته ليسبيا. أما

---

(1) Serres , The Birth of Physics , pp. 35.

(2) Lowenstein , The Pre-socratics ,Lucretius , and Modern Science , pp.1-17.

(3) Hadzsits,Lucretius and His Influenc,pp.23 sqq ;Fowler, Lucretius on Atomic Motion, pp. 15 sqq.

(4) Campbell , Lucretius on Creation and Evolution , pp.116 sqq.

(5) Ovid , Tristia ,II,425-426.

(6) Vergil , Georgics , II, 490-493.

(7) Gale , Lucretius and the Didactic Epic , pp.23 sqq.; Murley , Lucretius' De Rerum Natura ,viewed as Epic , pp.336-346.

فرجيليوس فإنه يقارنه بالشاعر الرعوى ويقارن قصيدته بالأشعار الرعوية(١). ربما الإشارة الوحيدة إليه كشارح أو كمناقش للأفكار والمفاهيم – وليس كمجرد شاعر – هى التى ترد عند فيتروفيوس (بدايات القرن الأول الميلادى تقريبًا)؛ ذلك المهندس الرومانى والخبير العسكرى الذى عاش فى العصر الأوغسطى، وصاحب العمل الشهير "عن الهندسة – **De Architectura**" الذى يتحدث فيه عن الهندسة المعمارية والهندسة الميكانيكية من واقع خبرته العملية ومن حصيلة قراءاته للكتاب السابقين خاصة الإغريق. يرى فتروفيوس أنه كما يستشير أفراد البشر شيشرون فى مجال الخطابة ويستشيرون فارّو فى مجال علم اللغة اللاتينية، فكذلك يستشير الكثيرون لوكريتيوس فى مجال الآراء المختلفة والمناقشات العديدة الخاصة بطبيعة الأشياء(٢)؛ ومع ذلك فإن إشارة فتروفيوس تأتى مباشرة بعد اسمىْ شاعريْن هما إنيوس وأكيوس. أما أثناء العصور الوسطى فليس من المرجح إن كانت هناك إشارات إلى لوكريتيوس على أنه رجل علم أو رجل أدب. فإذا ما وصلنا إلى القرن السابع عشر الميلادى فسوف نجد أن كاسندى يعتبر أول من أعاد الحياة إلى لوكريتيوس كرجل علم، وإن كان يصبّ اهتمامًا أكبر على إبيقوروس الأستاذ أكثر من تلميذه لوكريتيوس. أما فى القرنين التاسع عشر والعشرين فإننا نجد اهتمامًا بالغا بلوكريتيوس كرجل علم وصاحب نظريات علمية؛ وإن كان ذلك الاهتمام يختلف من دارس إلى آخر حول قبول هذه النظريات أو رفضها أو محاولة إدخال تعديلات عليها.

---

(1) Gillis , Pastoral Poetry in Lucretius , pp.339-362.

(2) Vitruvius , De Architectura , ix ,praef.17.

إذا ما طرحنا العلم جانبا واتجهنا نحو الأدب فسوف نلاحظ أن لوكريتيوس كان له أثر بالغ على عدد لا بأس به من الأدباء والشعراء[1]. فى الكتاب السادس من قصيدته يهبط لوكريتيوس بالقارئ إلى كهوف فى باطن الأرض؛ قد لا يعرف علماء الجيولوجيا عنها الآن شيئا والتى تشبه المسطحات الأرضية التى تنبعث منها الأبخرة وأعمدة الدخان فى العالم الآخر، وهى مثل جحيم "**inferno**" دانتى. إنها تهتز فى سطحها بسبب اصطدام التجمعات المتصدّعة وانقلابها رأسا على عقب، عندما يقوّض الزمن تلك الكهوف الضخمة فى جوف الأرض، وعندما تتداعى الجبال جميعا إلى السقوط، كما تزحف إلى خارج المكان – بسبب ذلك الارتطام العنيف – تموّرات على نحو عشوائى فتبدأ الأبنية القائمة فى الاهتزاز وتتراقص الأمتعة داخل المنازل. إن الأرض تتحرك وتهتز بسبب تموّر المياه – كما لو كانت وعاء ليس بمقدوره الاستقرار – حتى يكفّ الماء بداخله عن الاهتزاز؛ عندئذ تجنح الأبنية التى شيّدت فوق سطح الأرض منهارة وهى معلقة فى الاتجاه نفسه[2]. ليس ذلك تحليلاً ولا هو وصف علمي للزلازل والهزات الأرضية، بل هو مجرد خيال علمى يصور قوة الأرض وتهديدات الزلازل. وكذلك أيضًا عندما يصف لوكريتيوس الضجيج والنيران التى تنبعث عاليا فى السماء، فإن ذلك ليس وصفًا علميا للرعد والبرق بل هو مجرد خيال علمى يصور قوة السماء وتهديدات العواصف.. لعل ذلك لا يختلف كثيرا عما يرد عند الشاعر البريطانى جون ميلتون (١٦٠٨-١٦٧٤م)؛ عندما يصف تأثير المدافع العسكرية وهى تتدفع فى "سهول السماء". هناك فقرات كثيرة فى قصيدة لوكريتيوس يمكن مقارنتها بفقرات فى قصيدة الفردوس المفقود للشاعر ميلتون. هناك فقرتان تصور كل منهما حلما لكل

---

(1) Leonard , Op.Cit. , pp.64 sqq. ; Turner , Shelly and Lucretius , pp.269-282.

(٢) الكتاب السادس، ٥٤١-٥٦٤.

من لوكريتيوس وميلتون[١]. هاتان الفقرتان قد تبدوان غير ذات قيمة إذا ما نوقشتا علميًا، لكن إذا ما نوقشتا كحلم أو كرؤية أدبية أو فنية فإنهما تبدوان غاية في الروعة والجمال[٢]. إن حلم لوكريتيوس في الفقرة الأولى ممهور بطابع إمبيدوكليس وليس ممهورًا بطابع ميلتون ولا دانتي ولا حتى إبيقوروس[٣].

كانت الفلسفة الإبيقورية – إلى حد كبير – تهتم بالعلوم الطبيعية من أجل مبادئ الأخلاق – وليس بالدين أو العقائد[٤]. ولقد ظلت مبادئ الأخلاق الإبيقورية – كما ظلت مبادئ الأخلاق الرواقية – حتى بعد زوال الفلسفة ذاتها وحتى القرن الثاني بعد ظهور المسيحية؛ حيث احتلت مقعدا من المقاعد الأربعة الشهيرة في أثينا. ولقد أخذت المسيحية بعض الآراء من تلك الفلسفات – سواء أكانت فلسفات شرقية أم غربية –،لكنها لم تأخذ شيئا من الفلسفة الإبيقورية سوى اسمها الذي استخدمته كمرادف للفظيْ "الفسق" أو "الخلاعة"[٥]؛ لكننا نعتقد أنه كان استخداما جائرا مختلفا عن طبيعة الفلسفة الإبيقورية التي كان لشاعرنا لوكريتيوس الفضل في المحافظة عليها من خلال قصيدته الخالدة عن طبيعة الأشياء.

د / عبد المعطي شعراوي

---

(١) قارن لوكريتيوس، عن طبيعة الأشياء، الكتاب الخامس، ٨٠٥–٨١٥، ٨٣٧–٨٤٦ بقصيدة ميلتون، الفردوس المفقود، ٧، ٤٥٣–٤٧٤.

(2) Segal, Dream and Poets in Lucretius, pp.254 sqq

(3) Edwards, Lucretius, Empedocles, and Epicurean Polemic, pp.104-115 ; Furley, Variations on Themes From Empedocles in Lucretius, proem, pp. 55-64

(4) Stehle , The Unity of Physics and Ethics in Lucretius, pp.22 sqq.

(5) Leonard, Op.Cit. , pp.78 sqq.

الكتاب الأول

ترجمة: د. صلاح رمضان السيد

ملخص الكتاب الأول

أولا: الاستهلال (١ – ١٤٥):

١- ابتهال إلى الربة فينوس (١ – ٤٩).

٢- خطاب إلى مميوس (٥٠ – ٦١).

٣- الثناء على إبيقوروس (٦٢ – ٧٩).

٤- آثام تُرتكب باسم الدين (٨٠ – ١٠١).

٥- أسباب قبول تعاليم إبيقوروس (١٠٢ – ١٣٥).

٦- صعوبة تناول الفلسفة الإغريقية فى الشعر اللاتينى (١٣٦ – ١٤٥).

ثانيًا: مقدمة للنظرية الذرية (١٤٦ – ٩٢٠):

أ. تعريفات عامة (١٤٦ – ٦٣٤):

١- خلود المادة (١٤٦ – ٣٢٨).

٢- وجود الفراغ (٣٢٩ – ٤١٧).

٣- يتكون الكون من المادة والفراغ (٤١٨ – ٤٤٨).

٤- جميع الموجودات فى الكون إما أنها خواص أساسية للمادة والفراغ وإما حوادث ناجمة عنهما (٤٤٩ – ٤٨٢).

٥- الأجسام الأولية (الذرات) صلبة وغير قابلة للتلف ولا تتجزأ (٤٨٣ – ٦٣٤)

ب. دحض آراء بعض الفلاسفة (٦٣٥ - ٩٢٠):

١- هيرا كليتوس (٦٣٥ - ٧٠٤).

٢- إمبيدوقليس (٧٠٥ - ٨٢٩).

٣- أناكساجوراس (٨٣٠ - ٩٢٠).

ثالثا: لا نهائية الكون (٩٢١ – ١١١٧):

١- تمهيد للموضوع (٩٢١ - ٩٥٠).

٢- لا محدودية الكون (٩٥١ - ١٠٠١).

٣- خصائص الكون اللا محدود (١٠٠٢ - ١١١٧).

يا أم أينياس[١] وذريته، يا بهجة البشر والآلهة، فينوس[٢] يا واهبة الحياة،
يا من تملأين – من خلف برجك السماوى المتحرك برشاقة –
البحر الملئ بالسفن، والأرض المحملة بالثمار،
إذ إنه من خلالك تنشأ كل أنواع الكائنات الحية
وتنمو وترى الشمس بعد مولدها.
أيتها الربة، إن الرياح تتحاشاكِ، وسحب السماء تخشاكِ
وتخشى قدومك، إليكِ تقدم الأرض المبدعة
زهورا جميلة، ولكِ تبتسم صفحة المحيط الشاسعة،
وتتلألأ السماء الهادئة الساكنة بنورها المنتشر.
إذْ حَالَ ما يلوح فى الأفق وجه فصل الربيع،

---

(١) أينياس: أمير طروادى، ابن الربة فينوس والراعى أنخيسيس. بعد تدمير الإغريق لمدينة طروادة رحل عنها أينياس وأفراد أسرته، وحمل معه تماثيل الآلهة الطروادية، وبعد أن جاب العديد من البلدان وصل إلى إقليم لاتيوم حيث شيد مدينة للشعب الطروادى، ومن نسل أينياس وُلد رومولوس المؤسس الأسطورى لمدينة روما.

(٢) فينوس: ربة الحب والجمال عند الرومان، هى الربة أفروديتى عند الإغريق. فى إحدى الليالى دخلت أفروديتى خيمة الراعى الطروادى أنخيسيس فوجدته وحده يعزف على مزماره، رحب بها أنخيسيس وسألها عن هويتها فأجابته أنها أميرة فريجية، وادعت أن الإله هرميس قد حملها من بين رفيقات أرتميس لتكون زوجة لأنخيسيس، غير أنها ناشدت الراعى بألا يمسها حتى يراها والداه قبل إتمام الزواج. نفذ أنخيسيس طلبها ثم قادها إلى فراشه وتساوره الشكوك فى أنها ليست من البشر وأنها إحدى الربات. بعد أن قضى وقته معها نام أنخيسيس، ولما حان ميعاد إياب الرعاه أيقظت أفروديتى عشيقها النائم ثم تمثلت له فى هيئتها الإلهية، استولى الرعب على أنخيسيس عندما علم أنها ربة وخشى على نفسه من الهلاك. أنجبت أفروديتى من هذا الزواج القصير أحد أبطال طروادة وهو أينياس أبو الجنس الرومانى.

وتنساب النسمات العليلة للرياح الغربية فى خفة ورشاقة،
عندئذ تعلن طيور السماء قدومكِ - أيتها المقدسة -
وتنفذ قوة سهم قدومكِ إلى القلب.
بعد ذلك ترقص الحيوانات البرية والمستأنسة فى المراعى الغنية،
وتسبح فى مجارى الأنهار السريعة.. وتتبعكِ بلهفة فائقة،
أسيرة لسحركِ، حيث تقودينها واحدة بعد الأخرى.
وأخيرًا فإنكِ - عبر البحار، والجبال، والأنهار الفياضة،
وأوكار الطيور المورقة، والسهول الخضراء -
تغرسين الحب الساحر فى قلوب كل المخلوقات،
وتتسببين فى جعلهم يحافظون بلهفة على أجناسهم، كل حسب جنسه.
حيث إنكِ وحدكِ مَنْ يتحكم فى طبيعة الأشياء،
وحيث بدونكِ لا يولد شئ داخل حدود الضوء اللامعة،
ولا يُخْلَق شئ يُدخل السرور والبهجة،
فإننى حريص على أن تكونى شريكتى فى نظم قصيدتى
- التى أحاول صياغتها عن طبيعة الأشياء -
من أجل صديقنا مميوس[1]، الذى ترغبين - أيتها الربة -

(١) جايوس مميوس: انظر المقدمة صـــ :٦٢ وما بعدها أعلاه.

أن يبز الجميع على الدوام وأن يزدان بكل الصفات الطيبة.
لذلك امنحى، أيتها الربة، كلماتى سحرا أكثر خلودا.
فى الوقت ذاته؛ كونى سببًا فى أن تهدأ أعمال الحرب
الهمجية وتتوقف، فى البر والبحر.
فبإمكانكِ أنتِ وحدكِ أن تبهجى البشر بالسلام الهادئ،
إذ إن مارس[1] شديد البأس هو الذى يتحكم فى أعمال
الحرب الهمجية، وهو الذى يلقى بنفسه دائمًا
بين أحضانكِ وقد قهره جرح الحب الذى لا يندمل،
هو الذى يلف رقبته الجميلة ويحدق فيكِ
وهو فاغر فاه، ويملأ عينيه المتلهفتين بحبكِ –
أيتها الربة – وتتعلق أنفاسه بشفتيكِ.
وبينما هو يستلقى – أيتها الربة – فوق جسدكِ المقدس،
وأنتِ تلفِّين جسدك نحوه أغمريه من ثغركِ بكلماتكِ العذبة،
واسأليه عندئذ، أيتها المجيدة، السلام الآمن لأحبابكِ الرومان.

---

(١) مارس: إله الحرب عند الرومان، آريس عند الإغريق؛ ارتبطت أفروديتى بعلاقة عاطفية بإله الحرب آريس، وعندما عرف زوجها هيفايستوس بتلك العلاقة صنع شبكة من الحديد دقيقة الصنع لا تراها العيون ووضعها فى موضع لقائهما، ثم دعا الآلهة إلى ذلك المكان ليروا خيانة زوجته له، وبالفعل تنجح خطة الزوج الذى فضح زوجته وهى عارية فى أحضان عشيقها، وهنا تمنى كل الأرباب لو أنهم كانوا فى مكان آريس. ويجدر بالذكر أن أفروديتى قد أنجبت من آريس إله الحب والرغبة وهو إروس.

إذ ليس فى استطاعتى أن أفكر بعقل راجح
وسط الاضطرابات التى يعانيها وطنى، وأيضًا ليس بإمكان أسرة مميوس
ذات الأصل النبيل أن تتدبر الصالح العام فى مثل هذه الظروف[١].
إننى أدعو لكِ بالأمان؛ لأن جل طبيعة الآلهة ينبغى أن تتمتع
فى ذاتها بحياة خالدة وبأقصى درجات السكينة،
فهى فى معزلٍ وبعيدة كل البعد عن شئوننا؛
إذ إنها لا يصيبها أى ألم، ولا تتعرض للخطر،
فهى ذاتها قوية بقدراتها الذاتية، ولا تحتاج إلينا فى شئ على الإطلاق،
فلا تُسترضى بصلوات (العبد الصالح) ولا يعتريها الغضب (من المسىء).
يبقى أن توجه أذنيكَ الخاليتين من الأفكار وعقلك
الحصيف المتحرر من الهموم نحو الفلسفة الحقيقية[٢]،
وذلك لكيلا تهجر هباتى التى ازدريتها من قبل أن
تعيها، تلك الهبات التى عرضتها عليك بعناية مفرطة خالصة.
إذْ سأبدأ بمناقشة النظام الأسمى للسماء والآلهة،
وسأكشف لك عن بدايات الأشياء، من أين أتت
الطبيعة بجميع الموجودات، وكيف ترعاها وتجعلها تتكاثر،

---

(١) يقصد الحرب الأهلية بين قيصر وبومبى، وربما كان مميوس فى ذلك الوقت (عام ٥٨ ق.م.) يشغل منصب برايتور.
(٢) يتحول الشاعر هنا من مخاطبة الربة فينوس إلى مخاطبة مميوس.

وإلى أى شئ تتحول الطبيعة نفسها مرة أخرى بعد تحللها،
تلك الأشياء هى التى اعتدنا نحن أن نطلق عليها "المادة"،
والتى تُدعى فى الفلسفة الأجسام المنتجة للأشياء، ونسميها
أصل الموجودات، كما اعتدنا أن نطلق على هذه الأشياء
العناصر الأولى، لأن كل الموجودات تنشأ من تلك الأجسام الأولى.
عندما دَّبتْ حياة البشر على نحو خاطِئ على الأرض فإنها،
كما هو واضح للعيان، قد عانت من وطأة المعتقدات الخاطئة،
التى كانت تطل برأسها من أنحاء السماء،
وتزعج البشر بمظهرها المخيف،
فى البداية تجاسر رجل إغريقى[1] بأن رفع عينيه البشريتين
فى وجه المعتقدات، وكان أول إنسان يقف فى مواجهتها،
لم تثنه عن موقفه قصص الآلهة والصواعق والسماء بهزيم
رعدها ذى الوعيد، بل إن ذلك قد أثار – إلى حد بعيد –
شجاعة عقله القوية، لدرجة أنه صار أول إنسان يرغب
فى تحطيم الأقفال محكمة الإغلاق لأبواب الطبيعة.
لذلك فإن قدراته العقلية المفعمة بالنشاط كانت لها الغلبة،

---

(١) يقصد الفيلسوف الإغريقى إبيقوروس (٣٤١ – ٢٧٠ق.م.)، مؤسس الفلسفة الإبيقورية وهى من الفلسفات الذرية، وهو معلم الشاعر لوكريتيوس، وقد صوره هنا بطلاً من أبطال الملاحم يقف بثبات فى مواجهة خصمه (انظر المقدمة صـــ:٨٨ وما بعدها أعلاه).

وذهب إلى ما وراء حصون السماء المستعرة،
وتجاوز بفكره وخياله الكون اللا متناهى كله،
ومنه يعود إلينا منتصراً فيعلمنا ما بإمكانه الظهور فى الكون،
وما ليس بإمكانه، وخلاصة القول بأى حكمة صار لكل شئ
قدرة محدودة، وبأى حكمة صار لكل شئ نهاية محددة.
ولذلك فإن المعتقدات بعد أن طُرحت أرضاً بدورها قد
وطأتها الأقدام، بينما انتصار فكرنا يجعلنا نصل إلى عنان السماء.
من بين هذه الأمور أخشى ذلك الأمر: قد تظن أن
دراستك للفلسفة تمثل عدم التقوى، وأنها تمهد الطريق
نحو الجريمة. بل على العكس إن تلك المعتقدات هى
أكبر أسباب ارتكاب أفعال تتسم بالجرم وعدم التقوى.
فبأى حق لطخ صفوة القادة الدانائيين (الإغريق)،
قادة الحملة العسكرية، مذبح الربة تريفيا العذراء[1] فى أوليس
على نحو آثم بدماء إفيجينيا[2].
وبمجرد أن ربط الشريط ضفيرتيها العذريتين

---

(١) تريفيا: أحد ألقاب الربة ديانا (أرتميس عند الإغريق)، عذراء تسكن الغابات والأحراش. هى توأم الإله أبوللو، وابنة كبير الآلهة جوبيتر من التيتنة ليتو، وهى ربة الصيد والقنص.

(٢) إفيجينيا هى ابنة أجاممنون وكليتيمنسترا، وقد عاقبت أرتميس الجيش الإغريقى بأن منعتهم الريح فلم يتمكنوا من الإبحار، وذلك لأن أجاممنون اصطاد وعلاً بضربة سهم بارعة وقال إنه فاق فى رميته للسهم الربة أرتميس نفسها، وقال العراف إن الريح لن تعود إلا إذا قدَّم أجاممنون ابنته العذراء قرباناً لأرتميس.

المتدليتين بالتساوى من كل جانب على وجنتيها،
وبمجرد أن رأت أباها المكلوم وهو واقف أمام
المذبح، والأتباع بجواره يخفون السكين،
والجنود يذرفون الدمع لظهورها،
جثت على ركبتيها من الخوف ثم انبطحت أرضاً فى صمت.
لم يكن بمقدور أى شئ فى ذلك الوقت أن ينفع الفتاة البائسة،
وقد كانت أول من خلع على الملك لقب الأب.
إذ حملتها أيدى الرجال وأحضروها إلى المذبح
وهى ترتعد، ولم يكن باستطاعتها أن تُزف بأنشودة الزواج
المهيبة، كما كان يجرى العرف المقدس للشعائر الدينية،
بل إن الفتاة الطاهرة، وهى فى أوج سن للزواج، سقطت
على نحو آثم كقربان حزين كى تُذبح بيد أبيها،
كل ذلك كى يحصل الأسطول على مخرج موفق وميمون.
لقد استطاعت المعتقدات البالية أن تقنع الناس بارتكاب شرور كثيرة،
أنت نفسك الآن، أو فى أى وقت آخر، وقد أُثقلت
بأقوال الكهنة المرعبة، سوف تنشد الابتعاد عنّا.
نعم بالتأكيد، كم هى كثيرة الأوهام التى يستطيع الكهنة أن
يخترعوها كذباً فى التو، أوهام كافية لأن تحول مبادئ الحياة،

وأن تقلب، بالخوف، رأساً على عقب، كل أقدارك!
وإنه لمن الواجب، لو أن الناس أمكنهم أن يروا أن
هناك حداً محدداً للمنغصات، لأصبحوا، ببعض
التفكير، أقوياء إلى درجة تمكنهم أن يقاوموا
المعتقدات الخاطئة وتهديدات الكهنة أيضًا.
لكن ليس هناك الآن سبيل ولا قدرة للمقاومة،
وذلك بسبب الخوف من العقوبات الأبدية بعد الموت.
وبسبب جهل الناس بطبيعة الروح:
هل تولد معنا، أم أنها على العكس تأخذ طريقها إلى داخلنا عند مولدنا؟
وهل تهلك الروح معنا فى الوقت نفسه بعد أن يحطمها الموت؟
أم أنها تزور غياهب[١] أوركوس[٢] وهوّاته الشاسعة؟
أم أنها تولج نفسها بأمر إلهى فى أعماق بعض أفراد من مواشينا؟

---

(١) استخدم لوكريتيوس هنا كلمة "templa" – (غياهب) التى تعنى مناطق أو محل إقامة، وهى كلمة كان يستخدمها العرافون للإشارة إلى مناطق السماء – أى محل إقامة الآلهة فى السماء، وهكذا استخدم لوكريتيوس لغة العرافين الدينية المهيبة.

(٢) أوركوس: اسم قديم لإله العالم السفلى – أى إله الموت بلوتو (هاديس عند الإغريق). ويبدو أن اسمه هو بلوتون وأن هاديس هو أحد ألقابه، وكان الإغريق يتحاشون ذكر اسمه هاديس من باب الخوف أو التشاؤم. وهو ابن كرونوس من ريا وقد ابتلعه والده عقب مولده وحرره زيوس بعد ذلك. وهاديس هو ملك عالم الموتى وعالم الظلام، وكان لا يغادره إلا نادراً. لم يكن هاديس مثل شقيقيه، زيوس وبوسيدون، شهوانياً يسعى خلف النساء، كما أنه لم يكن يهوى إثارة المتاعب أو إيذاء البشر.

كما أنشد شاعرنا إنيوس[1] – أول من جلب من
جبل هليكون[2] الميمون إكليلاً ذا أوراق لا تذبل، ذلك الإكليل
الأشهر، الذى ذاع صيته بين قبائل الجنس الإيطالى.
علاوة على ذلك فإن إنيوس يؤكد فى أشعاره الخالدة
أن ثمة منازل لأخيرون[3]، موجودة بالفعل،
حيث لا يمكن أن تتحمّل أرواحنا ولا أجسادنا أن تصل إليها.
بل توجد هناك أشباح تشبهها، تظهر فى صور عجيبة،
من حيث – كما يذكر إنيوس – أن شبيه هوميروس[4]
الخالد دوماً قد ظهر له وقد بدأ يذرف دموعاً مالحة،
وتميط اللثام بكلماتها عن طبيعة الأشياء.
لذا يجب علينا فقط ألا نضع مبادئ أساسية فيما يخص
الموجودات السماوية، وكيفية سير دورات الشمس والقمر،
وبأي قوة تجرى كل الأمور على وجه الأرض،

---

(١) هو كوينتوس إنيوس (٢٣٩ – ١٦٩ ق.م.)، وُلد فى روديای – وهى مدينة أوسكية بجنوب إيطاليا، وقد أطلقوا عليه لقب "أبو الأدب اللاتينى"، وأهم مؤلفاته ملحمة الحوليات، وهى ملحمة تاريخية.

(٢) يقع جبل هليكون فى إقليم بيوتيا، وهو يرمز للإلهام الشعرى، وقد ذكر الشاعر هيسيودوس أن ربات الشعر (الموساى) قد قابلنه فوق جبل هليكون ومنحنه غصن الغار رمزاً لإلهامه.

(٣) نهر أخيرون: نهر الألم وهو أحد الأنهار الخمسة الموجودة فى العالم السفلى.

(٤) هوميروس هو أقدم وأشهر الشعراء الإغريق، مؤلف الإلياذة والأوديسيا، يقول الشاعر الرومانى إنيوس المؤمن بنظرية تناسخ الأرواح: إن روح هوميروس قد تنقلت بين الأبدان إلى أن حلت فى بدنه هو، فهو هوميروس الرومان.

بل يجب علينا أيضًا أن نتفحص بتفكير عميق، من أى شئ
تتكون الروح وما طبيعة العقل،
وما الشئ الذى يقابلنا أثناء يقظتنا فيخيف عقولنا،
ونحن تحت تأثير المرض، أو نحن غارقون فى النوم،
حتى إننا نبدو وكأننا نرى ونسمع وجهاً لوجه أولئك
الذين ذاقوا الموت وضمَّت الأرض عظامهم.
إننى أعرف أنه من الصعب أن أعرض اكتشافات
الإغريق الغامضة فى أشعار لاتينية، حيث إنه من الضرورى، فى أحيان كثيرة، أن نستخدم بصفة خاصة كلمات جديدة، وذلك بسبب فقر اللغة اللاتينية وجِدة الموضوعات.
لكن مع ذلك فإن جدارتك والبهجة المأمولة للصداقة
الصافية بيننا هى التى تدفعنى إلى أن أتحمل أى جهد،
وتحثنى على أن أبقى الليالى البهيجة مستيقظاً، متساءلاً،
بأي كلمات وبأى شعر عساى أتمكن فى نهاية الأمر
من أن ألقى أضواءً ساطعة أمام عقلك، لعلك تتمكن
بهذه الأضواء من أن تبصر بعمق الموضوعات الغامضة!
ولذلك فإن ظلمة العقل وخوفه هذا ليس بالإمكان
تبديدهما بأشعة الشمس، أو بضوء النهار الساطع،

بل بتأمل الطبيعة وفهم قوانينها.
من هنا؛ فإن مبدأ دراستنا الأول سوف يوصلنا إلى حقيقة هى أنه لا شئ أبداً قــد وُجد بأمر إلهى من عدم.
لأن هناك بالتأكيد خوفاً عظيماً يتملك كل البشر،
وذلك لأنهم يبصرون أشياءً كثيرة تحدث فى الأرض والسماء،
ولا يستطيعون بأى منطق أن يروا أسباب تلك الأعمال،
ويظنون أنها قد حدثت بقدرة إلهية.
ولهذه الأسباب، عندما نكون قد لاحظنا أن لا شئ يمكن أن
يُخلق من عدم، عندئذ سوف ندرك فى الحال، وعلى نحو أصوب
من هذا المبدأ، ما نبحث عنه، أن كلاً من المصدر الذى منه يمكن
للشئ أن يُخلق، وكذلك كيفية ظهور الأشياء للوجود ليسا من صنع الآلهة.
لأن الأشياء إن تكن تأتى من العدم، فإن كل نوع يمكنه
أن يولد من كل الأشياء، ولا شئ فى حاجة إلى بذرة.
فى البداية يمكن للبشر أن يولدوا من البحر، ومن الأرض يمكن
أن تنشأ فصيلة القشريات ومن السماء يمكن للطيور أن تبرز للوجود، أما الماشية والبهائم الأخرى وكل نوع من الحيوانات المفترسة
ربما تملأ الصحراوات والحقول دون ميلاد مؤكد.
وربما لا تحمل الأشجار دائمًا الثمار نفسها،

بل ربما كانت الثمار تتبادل، فالكل ربما يستطيع أن يحمل الكل.
وحيث إنه لا يمكن أن توجد أجسام مناسبة لولادة كل نوع على حدة،
فكيف يتأتى أن توجد أم ثابتة لا تتغير للأشياء؟
وما دام الأمر كذلك، ولأن كل الأنواع تُخلق من بذور بعينها،
فإن المصدر – الذى منه يأتى كل شئ ويخرج إلى أشعة النور –
إنما يوجد حيث توجد مادته وحيث توجد أجسامه الأولى (أى الذرات).
وعلى هذا المنوال فمن غير الممكن أن تولد كل الأشياء من
كل الأشياء، لأن ثمة قوة خفية توجد فى أشياء بعينها.
إلى جانب ذلك، لماذا نرى الوردة تظهر فى الربيع؟
والقمح فى الصيف، والكَرْم فى المزرعة يخرج بسبب إغراء الخريف؟
إن لم يكن الأمر كذلك، فهل لأن الشئ المخلوق يكشف عن
نفسه عندما تكون بذور معينة لأشياء قد انبثقت مجتمعة فى وقتها
المحدد؛ بينما تكون الفصول قد حلت، وتخرج الأرض
الخصوب فى أمانٍ أشياء صغيرة رقيقة إلى أشعة الشمس.
لكنها إن تكن قد أتت من عدم لكانت قد ظهرت فجأة،
فى فترة غير محددة وفى أوقاتٍ غير مناسبة من العام،
حيث إنه بطبيعة الحال لم تكن هناك بدايات أولى، تلك التى

كان من الممكن استعادتها من وحدة ولادة فى وقت غير مواتٍ.
علاوة على ذلك، لم تكن هناك حاجة إلى وقت لازم لنمو الأشياء
أو للبذور كى تتجمع إذا كان للأشياء أن تنمو من لا شئ؛
وذلك لأن البراعم الشابة كانت ستتكون فجأة من الأجنة الصغيرة،
والأشجار الباسقة كانت ستقفز فجأة من الأرض.
لكن من الواضح عدم وجود مثل هذه الأشياء،
إذ إن كل الأشياء تنمو شيئاً فشيئاً، من بذرة محددة، وأثناء نموها تحفظ نوعها،
لدرجة أنك يمكنك أن تدرك أن كل نوع يكبر ويتغذى من مادة خاصة به.
أضف إلى ذلك أنه بدون أمطار منتظمة طوال العام،
لا تستطيع الأرض أن تؤتى ثمارها البهيجة،
بل أكثر من ذلك أن الكائنات الحية - بمنأى عن
الطعام - لا تستطيع أن تنجب نوعها وتحفظ حياتها،
بل إنك ربما تظن أن أجساماً كثيرة يمكن أن تكون مألوفة
لأشياء كثيرة، كما نرى حروف الهجاء مألوفة للكلمات،
قبل أن تظن أن أى شئ يمكنه أن يوجد بدون بدايات.
باختصار، لماذا لم تستطع الطبيعة أن تمدنا برجال ضخام جدًا
حيث يمكنهم أن يخوضوا البحر حتى الأعماق بأقدامهم، وأن

يمزقوا الجبال الهائلة بأيديهم، وتمر عليهم أجيال عديدة
وهم ما زالوا أحياء، إن لم يكن الأمر كذلك، ألا يكون ذلك
بسبب المادة المخصصة لإنتاج الأشياء التى منها
يستطيع أى شئ أن يبرز للوجود ويبقى؟
لذلك علينا أن نعترف أن لا شئ يمكن أن يأتى من عدم
إذ يجب أن يكون هناك أصل لكل شئ،
ومنه يُخلق كل كائن ويأتى إلى نسمات الهواء العليلة.
أخيراً، بما أننا نرى أن الأراضى المزروعة بعناية
تكون أفضل من الأراضى غير المزروعة،
وأنها تعطى - بعمل أيدينا - ثمراً أفضل،
فمن الواضح إذن أن ندرك أن فى الأرض توجد
بدايات العناصر الأولى (أى الذرات)،التى
نأتى بها نحن فقط إلى الوجود عن طريق تقليبها
بالمحراث وتحريك تربة الأرض الخصبة
إلى أعلى وأعلاها إلى أسفل.
أما إذا لم يكن هناك شئ من ذلك، فإنك قد ترى كل شئ -
دون جهد منا - ينمو طواعية على نحو أفضل بكثير.

أضف إلى ذلك أن الطبيعة تحلل كل شئ مرة أخرى
إلى عناصرها، ولا تحول الأشياء إلى العدم.
لأنه لو أن أى شئ كان هالكاً كليةً لهلك كل شئ
فى لمح البصر حالما اختفى من أمام ناظرينا، ولن تكون هناك حاجة إلى قوة من شأنها أن تسبب تمزق أجزائه وتستطيع أن تفكك أوصاله.
ولكن بما أن بذرة كل شئ خالدة، فإن الطبيعة لا تسمح لدمار أى شئ
يمكن رؤيته، حتى تقابله قوة تكون قادرة على تحطيم الشئ إما بالعنف
أو بأن تتغلغل داخله من خلال الأماكن الفارغة وتحلله.
أضف إلى ذلك أن أى شئ يمحوه الزمن بتقادم السنين،
إذا كان – وهو يستهلك كل مادة – قد أهلكه تمامًا،
وعلى ذلك هل تعيد فينوس الكائنات الحية إلى نور الحياة كلاً
حسب نوعه، أم أن الأرض بارعة الصنع تغذيهم بعد إعادتهم،
وتنميهم كلاً حسب نوعه بينما تمدهم بالغذاء؟
وعلى ذلك هل تمد الينابيع البحر من داخله والأنهار تمده من خارجه،
تلك التى تفيض من بعيد؟ وهل يغذى الأثير النجوم؟
لأن كل الأشياء التى لها جسد فانٍ يجب أن
تُستهلك بفعل الزمن اللا نهائى والزمن الفائت.

ولكن إذا كانت - خلال تلك الفترة الزمنية والعمر المنصرم - هناك أجساد،
تُبعث من هذه الأجساد وتقوم هذه المجموعة من الأشياء المخلوقة من جديد،
فلا شك أن هذه الأشياء الموجودة تكون ذات طبيعة غير فانية.
وهكذا فإن الأشياء لا يمكن أن تتحول أبداً إلى العدم.
خلاصة القول، فإن القوة والسبب نفسهما قد تدمران كل الأشياء بلا تمييز،
وذلك إن لم تلصقها المادة الخالدة فيما بينها بمادة لاصقة تربطها بقدر أكثر
أو أقل، إذ إن مجرد لمسة قد تكون بالتأكيد سببًا كافياً لدمارها،
نظراً لأن لا شئ من هذه الأشياء سيكون ذا جسد خالد،
فأى قوة سوف تبدد بالضرورة نسيجها الداخلى.
لكن الآن، بما أن الروابط التى تربط العناصر
فيما بينها مختلفة، ومادتها خالدة،
فإن الأشياء تظل باقية بالجسد السليم، حتى تقابلها قوة
عنيفة بدرجة كافية فتؤثر فى النسيج الداخلى لكل منها.
وعلى ذلك فلا شئ مهما يكن يصير إلى العدم،
ولكن كل الأشياء تعود بالانفصال إلى عناصر المادة.
أخيراً فإن الأمطار تنزل بلا رجعة، حين يكون الأثير
الأب قد قذفها فى رحم الأرض الأم.
عندئذ تظهر المحاصيل النضرة، وتخضر الأغصان فوق

الأشجار، والأشجار نفسها تنمو وتثقل بالثمار.
ومن ثمَّ فإن جنسنا والوحوش بالمثل تُغذَّى،
ومن ثمَّ نرى المدن السعيدة تزدهر بالصبية، ونرى
الغابات المورقة تغنى من كل جانب مع الطيور الوليدة.
ولهذا السبب فإن قطعان الماشية المثقلة بشحومها تلقى
فوق المراعى الغنية بأجسادها، ويفيض اللبن السائل
ناصع البياض من ضروعها المنتفخة؛ لذا فإن الذرية الوليدة
تلهو بأطرافها الضعيفة فى مرح فوق الأعشاب الناعمة،
وقد انتشت عقولها الصغيرة بلبنٍ كالخمر.
على ذلك فإن الأشياء لا تهلك تمامًا وإن كانت تبدو كذلك،
إذ إن الطبيعة تستعيد الشئ من شئ آخر، ولا تسمح لأى
شئ أن يُولد إلا أن يكون قد أُعين بموت آخر.
اصغ إلىَّ الآن، بما أننى قد علمت أن الأشياء لا يمكن أن تُخلق من
العدم، وهى بالمثل عندما تكون قد وُلدت لا يمكن أن تُعاد إلى العدم،
ولعلك، رغم ذلك، لا تبدأ بحالٍ من الأحوال،
فى أن تفقد الثقة فى أقوالى.
وذلك لأن الذرات الأولى للأشياء

لا يمكن أن تُرى بالعين. اعلم كذلك أن الأجساد،
التى عليك أن تعترف بوجودها، لا يمكن رؤيتها.
فى البداية، عندما تدفع قوة الريح العاتية العواصف
فى المحيط وتقلب السفن الضخمة وتبعثر السحب،
وهى تكتسح الأودية أحياناً بإعصارٍ سريع،
فتغطيها بأشجارٍ ضخمة مقتلعة، وتضرب
قمم الجبال الشاهقة بعواصف تحطم الأشجار،
ثم تهتاج بشدة بزئير عنيف، وتتوحش الريح بهمهمةٍ مهددة.
على ذلك لا شك أن الرياح لها أجساد غير مرئية،
وهى التى تجتاح البحر، وتجتاح الأرض،
وتجتاح السحب فى السماء أيضا، ضاربة إياهم فجأة وممسكة بهم فى إعصارٍ،
وتفيض بلا حساب وتوزع الدمار مثلما تفعل المياه
التى تبدو لنا هادئة، لكنها تدور فجأة فى
مجرى يفيض، حين يزداد الماء ويندفع هابطاً من
الجبال العالية، إذ ينزل سيل هائل من الماء
دافعا أمامه فتات الغابات والأشجار الكاملة، ولا تستطيع
الجسور المتينة أن تصمد أمام القوة المفاجئة للمياه المنحدرة ..

هكذا يندفع النهر المضطرب بمياهه العظيمة وبقوة
هائلة حاملاً معه الأعمدة القوية، إنه يشيع الدمار
بزئير عظيم ويطوى الصخور الضخمة تحت
أمواجه، ويدمر كل شئ يعترض طريقه.
إلى هذا الحد لا بد أن تولد عواصف الريح أيضًا،
وهى التى مثل النهر القوى.. عندما تحل فى أى
اتجاه، تدفع كل شئ أمامها بقوة وتكتسح كل شىء
بضرباتٍ متلاحقة، فى بعض الأحيان تدفع الأشياء إلى
أعلى فى دوامة عنيفة وتحملها فى زوبعة لولبية سريعة.
لذا فإننى أقول وأكرر القول إن الرياح هى أجسام لا تُرى،
بما أنها فى أعمالها وفى طبيعتها قد وُجدت لتنافس الأنهار
العظيمة، الأنهار التى لها أجسام مرئية.
الأكثر من ذلك، أننا نشم الروائح المختلفة للأشياء،
لكننا مع ذلك لا نراها أبداً وهى تقترب من أنوفنا،
ولا نرى الحرارة الشديدة ولا نستطيع أن نبصر البرد بأعيننا،
ولم نعهد أن نرى الأصوات؛ ومع ذلك فإن كل هذه الأشياء
هى بالضرورة ذات طبيعة مادية، ما دامت قادرة على أن

تؤثر فى حواسنا، ذلك لأنه فى الحقيقة لا يستطيع شئ
أن يلمس وأن يُلمس، إن لم يكن جسما.
مرة أخرى، إن الملابس المعلقة فوق الشاطئ الذى يصد
الأمواج تصبح رطبة، وفى الوقت نفسه الملابس المنشورة
تحت الشمس تصبح جافة .. فى الحالتين لم يَرَ أحدٌ كيف تخللتها
رطوبة الماء ولا كيف غادرتها فى الحر مرة أخرى.
على ذلك فإن الماء قد تبخّرَ إلى جزيئات صغيرة،
تلكم الجزيئات التى لم تستطع العيون أن تراها بأي طريقة.
الأكثر من ذلك، بدورات الشمس المتعددة عبر السنين،
نجد أن الخاتم فى الأصبع يصبح رقيقاً من أسفله بتكرار لبسه،
كما أن سقوط قطرات المياه ينحت الحجر،
وشفرة المحراث المعقوفة الحديدية تُبرَى خلسة فى الحقول،
ونلاحظ أن الرصيف الحجرى يتآكل بأقدام العامة من الناس،
وأيضًا نرى التماثيل البرونزية بالقرب من بوابات
الطرق تبدو وقد تآكلت أياديها اليمنى
بفعل اللمس المتكرر ممن يقبلونها[١] ومن المارة.

---

(١) كانت عادة الرومان أن يُقَبِلوا شفاه أو ذقون تماثيل الآلهة أو الأبطال، وهنا أيضًا – كما يذكر لوكريتيوس – يقبلون أيادى هذه التماثيل، وقد حافظ المسيحيون على هذا التقليد نفسه حين كانوا يقبلون تماثيل رجل الدين بطرس فى الكنيسة التى تحمل اسمه فى روما.

إن هذه الأشياء نراها هكذا تتضاءل، بسبب أنها قد مُحيت.
لكن ما هذه الجزيئات التى تختفى فى كل مرة!
إن طبيعة بصرنا المحدودة قد أعاقت رؤيتها.
أخيراً، فإن ما يضيفه الزمن والطبيعة شيئاً فشيئاً إلى
الأشياء – ملزماً إياها أن تنمو تدريجياً – لا تستطيع
أي قوة بصر للعيون أن تدركه مهما كانت حادة،
والأكثر من ذلك، أنك لا تدرك الأشياء وهى تشيخ بفعل العمر
والفساد، ولا الصخور المعلقة فوق البحر وقد تآكلت بفعل الملح
الناعم، ولا تستطيع أن تدرك كم تفقد هذه الأشياء فى كل مرة.
وهكذا فإن الطبيعة تعمل من خلال ذرات غير مرئية.
ورغم ذلك فإن كل الأشياء ليست ممسوكة بطبيعة جسدية
مضغوطة فى صلابة فى كل أجزائها، حيث إن هناك فى الحقيقة
فراغاً فى الأشياء؛ وهى المعلومة التى ستكون نافعة لك
فى موضوعات كثيرة، ولن تدعك تضل – وتشك وتتساءل
دوماً عن الكون – وتفقد الثقة فى كلماتى.
هكذا فهناك مساحة غير مدركة هى الفراغ والخلاء[1].

(١) يرى لوكريتيوس أن هناك فراغاً غير مرئى بين ذرات الشىء الواحد المتماسكة.

هكذا الأمر وإلا لم يكن أى شئ ليستطيع أن يتحرك إلى الأمام،
لكن إذا لم يكن هناك فراغ، فإن الأشياء لم تكن تستطيع
أن تتحرك بأي طريقة، وذلك كى تكون وظيفة الجسم القائمة –
وهى أن يعيق وأن يعترض – متاحة فى كل وقت فى كل الأشياء،
بما أنه لا يوجد شئ يستطيع أن يعطى المبادرة بالتنازل عن مكانه.
لكن الأمر هو كما نراه الآن أمام أعيننا، فى البحر وفى البر
وفى عنان السماء، حيث نرى أشياء كثيرة تتحرك فى طرق
عديدة وفى أساليب مختلفة، هذه الأشياء إذ لم يكن هناك فراغ،
لم تكن لتحتاج مطلقاً إلى حركتها الخاصة التى لا تهدأ،
كما أنها لم تكن قد أُخرجت إلى الوجود على الإطلاق بأي وسيلة،
وذلك بما أن المادة فى أجزائها متماسكة وساكنة.
الأكثر من ذلك، ورغم أن الأشياء الصلبة ربما يُعتقد أنها صلبة،
إلا أن هناك دليلاً على أنه من الممكن أن نراها أقل صلابة مما نعتقد.
ففى الصخور والكهوف نجد الرطوبة السائلة للمياه تتخلل هذه الأشياء،
ونجد أن كل شئ تفيض منه الكثير من قطرات المياه.
فالطعام ينتشر خلال كل الجسم إلى خلايا حية.
والأشجار تنمو، وفى أوانها تطرح الأفنان الجديدة،

وذلك لأن غذاءها قد وُزّع خلالها من الجذور السفلى
وعبر الجذوع وخلال الفروع. والأصوات تمر عبر الحوائط وتطير عبر المنازل المغلقة،
والبرد القاسى يتسلل إلى داخل العظام.
لكن إذا لم تكن هناك فراغات من خلالها يمكن أن تمر الذرات
فى كل حالة ذكرناها، لما استطعت أنتَ أن
ترى هذه الظواهر وهى تحدث أمامك بأي طريقة.
أخيراً، لماذا نرى بعض الأشياء تفوق أشياءً أخرى فى الوزن،
بينما لا تفوقها فى الحجم؟ لأنه إذا كان هناك نفس الجسم
فى داخل كرة من الصوف وفى داخل كرة من الرصاص،
فإنها ستزن الوزن نفسه، بما أنه من خصائص الجسم أن
يجذب كل الأشياء إلى أسفل، لكن العكس صحيح فإن
طبيعة الجسم الفارغ أن يظل بلا وزن.
على ذلك فإن الشئ الضخم يبدو فى الوقت نفسه أخف وزنا،
فإنه بلا شك سوف يبدو من داخله أكثر فراغاً.
لكن على العكس أيضًا فإن الشئ الأثقل وزناً يبدو بوضوح
أن بداخله توجد مادة أكبر، وفراغ أقل.
على ذلك فمن المؤكد وجود تمازج بين الأشياء – وهو الأمر

الذى نستكشفه بمنطقٍ حساس – أى ما نطلق عليه الفراغ.
وهنا، فيما يخص هذه الموضوعات، فإنه يكون لزاماً علىَّ أن
أفند ما يزعمه البعض، حتى لا يمكنهم قيادتك بعيدًا عن الحقيقة.
إنهم يقولون إن المياه تفسح الطريق للمخلوقات القشرية
العالقة بها، وتفتح طرقاً سائلة، لأن الأسماك تترك
وراءها فراغات للأمواج المتراجعة كى تستطيع أن
تتدفق مجتمعة، وأن أشياء كثيرة جدًا
أخرى تستطيع أن تتحرك فيما بينها وأن تغير مكانها،
على الرغم من أن كل الفراغات تكون مليئة.
من المعروف أن هذا قد قُبل على أساسٍ زائف تمامًا،
إذ كيف – إنى أسأل – تستطيع الأسماك القشرية أن تتقدم نحو الأمام؟
إن لم تمنحها المياه المساحة اللازمة؟
كذلك كيف تستطيع الأمواج أن تتراجع؛
بينما الأسماك لا تستطيع أن تسير؟
إمَّا أن كل الأجسام – أياً كانت – يتحتم أن تُحرم من الحركة؟
وإما أننا يجب أن نقول إن الفراغ متمازج فى الأشياء ..
ومن هذا المنطلق الأول يستطيع أى شئ أن يتحرك.

فى النهاية، إذا ما انفصل جسمان عن بعضهما
بسرعة بعد احتكاك، فمن الطبيعى أن يصبح من الضرورى
أن الهواء سوف يشغل كل الفراغ الذى سينتج بين الجسمين.
والأكثر من ذلك، على الرغم من أن هذا الهواء يندفع بسرعة
بالتفافٍ مع التيارات السريعة، فإن المساحة الخالية كلها لن
يمكنها أن تُملأ فى وقتٍ واحد، لأن الهواء لا بد له أن يحتل
أقرب الفراغات، الواحدة تلى الأخرى قبل أن يحتل الكل.
لكن إن حدث وفكر أحد أن هذا الأمر يحدث فى اللحظة التى فيها
يكون الجسمان قد انفصلا لأن الهواء قد أصبح مضغوطاً،
فإنه يكون على خطأ، وذلك لأن فراغاً يحدث ولم يكن موجوداً من قبل،
وفراغاً يُملأ أيضًا وكان موجوداً من قبل، فلا الهواء يستطيع أن
يُضغَطَ بمثل هذه الطريقة، ولا نوافق على أنه
يمكن أن يحدث، دون فراغٍ ينسحب إلى داخل نفسه
ويكثف أجزاءه مع بعضها بعض.
لذا رغم أنك يمكنك أن تتردد بأن تثير اعتراضات
كثيرة، فإنك – على أيِ حال – يجب أن تعترف بأن هناك
فراغاً فى الأشياء. وإننى أستطيع أن أذكر دلائل
أخرى كثيرة كى أثبت مصداقية أقوالى.

لكن بالنسبة لعقل متقد بما فيه الكفاية؛ فإن هذه المداخل القليلة تكون كافية
حتى تُمكنك من أن تدرك المداخل الأخرى لنفسك.
مثل كلاب الصيد التى فى أحيان كثيرة تكتشف بحاسة
الشم – التى عندها – مداخل المغارات المختبئة تحت أوراق
الشجر داخل الجبال، فقط بمجرد أن يقفوا على
آثار معينة فى طريقهم، هكذا ستتمكن بنفسك من
اكتشاف الشئ تلى الآخر فى هذه الموضوعات،
وأن تتبع كل الأماكن المختبئة وغير المرئية،
وأن تستخلص الحقيقة منها، ولكنك إن تك متباطئاً
أو متراجعاً قليلاً عن المهمة، فهذا ما أستطيع أن أعدك،
يا مميوس، دونما لغطٍ أكثر، جرعات سخية جدًا من
ينابيع فياضة سوف يصبها حديثى الشجى من صميم
عقلى، حيث إننى أخشى أن تزحف الشيخوخة
الحثيثة على أعضائنا وتدمر حدود حياتنا، قبل أن
يكون كل مخزون البراهين فى موضوع واحد
أياً كان قد صُب فى أشعارى عبر أذنيك.
لكننا الآن وكى نوجز ما سقناه فى بداية أقوالى،

نقول إنه طبقًا لما سبق فإن كل طبيعةٍ فى نفسها قد نشأت
من شيئين، حيثِ إن هناك أجساماً وهناك أيضًا فراغ،
فى هذا الفراغ قد وُضعت الأشياء وهى تتحرك
فيه فى اتجاهات مختلفة؛ حيث إن الحس العام لدى البشر
يصرح بأن للجسم وجوده المستقل؛ وإن لم يكن اعتقادنا
الأول فيه مؤسساَ جيدا، فلن تكون هناك دلائل على الأمور
الغامضة نستطيع من خلالها أن نؤكد أى شئ بمنطق العقل.
إذن، إلى جانب ذلك، فإنه إن لم يكن هناك مكان ومساحة،
وهما ما يسميان بالفراغ، فإن الأجسام لم تكن لتوضع فى أى
مكان ولا أن تتحرك فى أى مكان على الإطلاق فى
اتجاهات مختلفة، كما أوضحنا لك فيما سبق قبل قليل.
هذا بالإضافة إلى أنه لا يوجد شئ تستطيع أن
تقول إنه منفصل عن الجسم أو عن الفراغ، حتى يمكن
أن نعتبره، من هذا القبيل، نوعاً من طبيعة ثالثة.
فمهما كان ذلك الشئ، لا بد أن يكون شيئاً ما فى حد ذاته،
وأن يقع عليه اللمس مهما كان خفيفاً وصغيراً، فإنه (أى الشىء)
سوف يزيد من مقدار الجسم وسيتمم فى المجموع، سواءِ بزيادة كبيرة

أو بزيادة ضئيلة، ما دمت ستفترض أنه موجود. أما إذا كان غير
قابل للمس، غير قادر، من أي ناحية، على أن يعيق أى شئ
متحرك عن المرور من خلاله، فلا شك أن هذا الشئ سيكون
هو ذلك الذى نطلق عليه الفراغ الخاوى.
هذا إلى جانب أنه مهما كان الشئ الذى سيوجد منفصلاً، فإما أنه
سيفعل شيئاً، وإما أنه لا بد أن يكون هو نفسه بالضرورة محل الفعل
لأشياء أخرى فاعلة، أو أن الأشياء من الممكن أن توجد وأن تُصنع فيه.
لكن لا شئ من الممكن أن يؤثر أو أن يُؤثر فيه
دون جسم، ولا أن يتيح مكاناً سوى الفراغ والخواء.
على ذلك فإلى جانب الفراغ والأجسام، لا شئ ذا طبيعة ثالثة
يمكن أن يوجد ولا أن يُعد فى عداد الموجودات، ولا شئ واحد
يمكن أن يقع أبداً فى أى وقت تحت حواسنا، ولا شىء
يمكن لأى إنسان أن يدركه عن طريق تفكير العقل.
فأى أشياء يُقال بوجودها، إما أن تجدها خواص
لهذين الشيئين وإما ستراها أحداثاً طارئة لهما.
فالخاصية هى ذلك الشئ الذى، دون تحلل مدمرٍ، لا يمكن
أبداً أن ينفصل أو أن يتفكك، مثل الوزن بالنسبة إلى الصخرة،

والحرارة بالنسبة إلى النار، والسيولة بالنسبة إلى الماء،
واللمس بالنسبة إلى كل الأجسام، وعدم اللمس بالنسبة للفراغ.
من ناحية أخرى إن العبودية، الفقر، الثروة، الحرية
والحرب، والوئام، كلها من الممكن أن تأتى وأن تذهب،
بينما طبيعة الأشياء تبقى كما هى، هذه الأشياء السابقة،
كما هو مطابق للواقع، تعودنا نحن أن نسميها حوادث.
إن الزمن أيضًا لا يوجد من تلقاءِ نفسه، لكن من الأشياء
نفسها يأتى المعنى، معنى ما حدث فى الماضى،
ثم معنى ما يحدث الآن، ثم الأبعد من ذلك معنى ما سيحدث.
ويجب ألا نُسَلِّمَ أن أى شخص يمكن أن يكون لديه الإحساس
بالزمن بمعزلٍ من حركة الأشياء وفى سكون واطمئنان.
فعندما يقولون إن هيلينا قد خُطفت وإن القبائل الطروادية
قد هُزمت فى الحرب، فلا بد من النظر إلى هذا الكلام
حيث لا يجبروننا على أن نُسَلم أن هذه الأشياء قد حدثت من نفسها،
إنما فى وقت ما عندما كانت هذه القرون من الناس تعيش،
لذا حدثت منهم هذه الأحداث حيث جادت بها
الأزمنة الغابرة الماضية، حيث إن أى شىء

يحدث من الممكن أن نطلق عليه حادثة،
سواء كان من الطرواديين أو من الأماكن.
مرة أخرى، إذا لم تكن هناك مادة للأشياء،
ولا مكان ولا مساحة يُصنع فيها كل شئ،
لَماَ كانت نيران الحب المستعرة فى صدر أليكساندر
الفريجى (باريس) قد تأججت بجمال هيلينا، وأشعلت المعارك
الشهيرة فى حرب ضروس، ولَماَ كان الحصان
الخشبى قد أشعل النيران خلسة فى طروادة
على أيدى ذرية الإغريق الليلية[1] .. أقول هذا
عساك تدرك أن الأشياء إذا ما أُنجزت، فهى

---

(١) فى يوم عرس البطل بيليوس من الحورية ثيتيس حدث نزاع بين الربات الثلاث: هيرا وأفروديتى وأثينا حول التفاحة الذهبية التى ألقتها ربة الشقاق إيريس بين الحضور، فاحتكمن إلى باريس ابن ملك طروادة الذى أعطى التفاحة للربة أفروديتى بعد أن وعدته بالزواج من أجمل نساء الأرض. وكانت هيلينا زوجة مينيلاوس ملك موكيناى هى أجمل نساء الأرض، سافر باريس إلى موكيناى بناءً على أوامر أفروديتى وفى غياب مينيلاوس خطف باريس هيلينا وسافر بها إلى طروادة. حث أجاممنون كل أمراء الإغريق على قتال طروادة واستعادة هيلينا، شارك فى الحرب كل ملوك وأمراء وأبطال الإغريق مثل: أخيلليوس وأوديسيوس وأياكس وفيلوكتيتيس وديوميديس، وشارك فى الحرب من الجانب الطروادى هكتور وباريس وأينياس وممنون وتورنوس وهيلينوس وديفيبوس. وقد تمكن الإغريق من الاستيلاء على طروادة بحيلة الحصان الخشبى الذى قدموه كهدية للربة أثينا ووضعوه أمام أسوار طروادة بحجة إرضاء الربة الغاضبة لسرقة تمثال الباللاديوم من معبدها بطروادة بعد أن تمكن أوديسيوس من دخول طروادة متنكراً فى هيئة عبد هارب من بطش الإغريق.

لا تتكون أبداً ولا توجد بنفسها، فهى ليست
مثل المادة أو مثل الفراغ توجد بنفسها،
لكنك أحرى أن تسميها بدقة حوادث للمادة
والمكان اللذين فيهما يحدث كل شئ بمفرده.
بالإضافة إلى ذلك فإن الأجسام هى جزئياً البدايات الأولى للأشياء،
ثم الأشياء التى تكونت جزئياً باتحاد البدايات الأولى، لكن تلكم
البدايات الأولى للأشياء لا توجد قوة تستطيع أن تخمدها، حيث تتغلب
فى النهاية بواسطة جسمها الصلب. ولا يزال يبدو من الصعب أن نصدق
أن أى شئ ذا جسم صلب من الممكن أن يوجد بين الأشياء الموجودة؛
حيث إن الصواعق السماوية تمر خلال منازل ذات أسوار،
كما يفعل ذلك أيضًا الصخب والأصوات، والحديد يتوهج فى النار،
والحجارة عادة ما تتشقق بالحرارة العالية، إذن فصلابة
الذهب تلين وتنصهر بالحرارة، ونعومة البرونز الذى يشبه الجليد
تُقهر بفعل النار وتتميّع، والحرارة تتسرب خلال الفضة
وكذلك البرودة، بما أننا قد شعرنا بالاثنين، بالضبط مثلما نقبض
بأيدينا على الكأس، إذ نشعر ببرودة أو سخونةٍ [١]،

(١) نشعر بأن الكأس يكتسب بعض الحرارة فى أيدينا، لكن عندما نسكب فيه السائل يصبح الكأس باردا.

بينما يتدفق السائلِ الذى يُصب فيه من أعلى.

إنه لحقيقى جدًا أن لا شئ صلب يمكن أن يُرى
موجوداً بين الأشياء، لكن لأن السبب ٥٠٠
الحقيقى وطبيعة الأشياء تلزم بوجوده،
فلتكن معى حتى أوضح فى أبيات قليلة وجود
مثل هذه الأشياء التى تتكون من جسد صلب وخالد،
وهو ما نعلمها بأنها بذور الأشياء وبداياتها الأولى،
التى تكونت منها كل الأشياء التى تقوم أمامنا الآن.
فى البداية حيث إنه أُسست طبيعة مزدوجة ذات
وجهين مختلفين للأجسام .. طبيعة الجسم ٥٠٦
والمساحة، المساحة التى فيها تحدث
كل الأشياء، فمن الضرورى أن كل شىء
يوجد من تلقاء نفسه وبنفسه غير مختلط بشئ آخر.
فحيثما توجد مساحة فارغة التى نسميها الفراغ،
فليس هناك جسم، وحيثما يوجد جسم يحافظ على بقائه،
فليست هناك مساحة فارغة على الإطلاق.
فالأجساد الأولى على ذلك تكون صلبة وبدون فراغ. ٥١٠

بالإضافة إلى ذلك، فبما أنه يوجد فراغ فى الأشياء المخلوقة،
فلا بد أن تكون هناك مادة صلبة حول هذا الفراغ، ولا يستطيع أى شئ،
بالتفكير المنطقى الحقيقى أن يثبت أنه يلغى الفراغ فى داخله وأن يحبسه
فى داخله، إلا إذا سلمت أن هذا الشئ المحبوس يكون صلباً.
الأكثر من ذلك، لا يمكن أن يوجد أى شئ إن لم يكن هناك اتحاد للمادة، هذا
الاتحاد الذى يمكنه أن يحوى فراغ الأشياء فى داخله.
إذن فالمادة التى تتكون من جسد صلب، من الممكن أن تكون خالدة،
هذا على الرغم من أن كل الأشياء ما عداها تتحلل.
إذن إذا لم يكن هناك شئ من الممكن أن يكون فارغا وخاويا،
فإن الكون يكون بالأحرى صلباً، ومن ناحية أخرى إذا لم تكن
هناك ذرات معينة كى تملأ الأماكن التى تحتلها،
عندئذٍ يكون الكون الموجود كله فارغاً وبمثابة مساحة خالية.
على ذلك يكون الجسم دون شك مميزاً عن الفراغ كليةً، هذا بما أن
الكون ليس ممتلأً تمامًا وليس فارغاً تماماً. هناك إذن ذرات بعينها
هى التى يمكنها أن تميز المساحة الخالية من المساحة الملآنة.
هذه الذرات لا يمكن أن تتحلل بضربات من خارجها،
ولا أن تهلك مرة أخرى من داخلها وتتفكك، ولا يمكن
أن تُهاجم وتتأثر بأيِ طريقة، كما بينت لك سلفاً مَنذ وقت قليل.

فلقد ظهر أنه بدون الفراغ لا يمكن لأى شئ أن يُسحق
أو أن يتحطم أو أن ينشطر – عند قَطْعِه – إلى نصفين،
ولا يمكن أن يقبل الرطوبة ولا أن يتخلله
البرد ولا النار، التى بها تتحطم كل الأشياء.
وأكبر الأشياء هو الذى يحوى بداخله الفراغ،
وعلى هذا يكون هو أكثر الأشياء تأثراً حين
تهاجمه هذه الأشياء. إذن فلو أن الذرات كانت
صلبة وبدون فراغ كما بينت أنا، فإن هذه
الذرات لا بد أنها تتمتع بعدم الفناء.
علاوة على ذلك، لو لم تكن المادة خالدة لكانت
كل الأشياء قبل ذلك راجعة كليةً لا محال إلى العدم،
ولكان أى شئ نراه الآن لا بد قد وُلد مرة أخرى من لا شيء.
لكن بما أننى قد وضحت من قبل أنه لا يمكن لشئ أن
يأتى من العدم، وأن ما صُنع لا يمكن أن يعود أدراجه
إلى العدم، إذاً لا بد أن هناك بدايات أولى لجسم خالد،
فى هذه البدايات كل شئ يمكن تحلله عند لحظته الأخيرة،
وذلك الجسم الخالد ربما كان هو المادة الواعدة لعمل أشياء جديدة.

وعلى ذلك فالذرات تكون ذات وحدانية صلبة، ولا تستطيع
هذه الذرات بأى طريقة أخرى أن تُحفَظ عبر العصور
منذ الوقت اللا نهائى الفائت وأن تجدد الأشياء.
علاوة على ذلك، إذا كانت الطبيعة لم تضع حداً
زمنياً لتحطُم الأشياء، وهو الوقت الذى عنده تكون
ذرات المادة قد تقلصت للغاية بفعل تحطيم العصور الفائتة،
فإن من هذا التحطيم لم يستطع أى شئ فى أى وقت
محدد أن يترابط وأن يحصل على الزيادة القصوى لعمره.
وحيث إننا نلاحظ أن أى شئ يمكن أن يتحلل بسرعة أكبر
مما يمكنه من أن يعود من جديد، فإن كل ما حطمته قبل الآن
العصور الطويلة للزمن اللا نهائى الفائت – التى ما زالت
تزعج وتحلل – قد لا يمكن أبداً أن يُجَدد فى الوقت الباقى.
لكن الآن وفى الحقيقة؛ يبقى حد زمنى محدد للتحطيم،
ما دمنا نرى أن كل شئ يُصنع من جديد،
ونرى مواعيد محددة للأشياء حسب أنواعها،
فى هذه المواعيد يمكن للأشياء أن تبلغ زهرة عمرها.
أضف إلى ذلك أنه بينما نجد عناصر المادة صلبة جداً،

فإن – رغم ذلك – من الممكن أن نعطى تفسيراً للسؤال:
كيف تتشكل كل الأشياء اللينة، كالهواء والماء
والأرض والنار[١]؟ وبأي قوة تصبح هكذا؟
وذلك عندما يتمازج الفراغ فى كل الأشياء.
لكن على العكس لو أن ذرات الأشياء كانت لينة، فسيكون من
غير الممكن تفسير من أى شئ جاءت أحجار الصوان والحديد ..
فهكذا ستفتقد الطبيعة مبدأ تأسيسها الأول؛ لذا فإن ذرات الأشياء
تستمد قوتها من دقتها الصلبة، وبتجميع أكبر كثافة لهذه الذرات
تتمكن من الاحتشاد وإظهار قوتها المؤثرة.
إذا ما افترضنا أنه ليس هناك حد قد وُضع لتحطيم الأجسام،
فلا بد أن نسلم مع هذا حتى الآن، وبعد هذا الزمن اللا محدود،
أن ذرات قد بقيت فى الأشياء، وأن تلك الذرات لم تعان أى خطر.
لكننا إن نَقُلْ إنها ذرات قابلة للتحطيم،
فإن هذا القول لا يتسق مع حقيقة أنها قد
استطاعت أن تظل موجودة عبر الزمن اللا نهائى،
رغم تعرضها لوابل من الضربات التى لا تحصى عبر العصور.

---

(١) ذكر هوراتيوس هذه العناصر بأسمائها؛ لأن بعض الفلاسفة زعموا أنها العناصر الأولى فى الخلق.

مرة أخرى، بما أنه من المتفق عليه أن
هناك يوجد لكل شئ حد مقرر لنموه، حسب نوعه،
ولتشبثه بالحياة، وبما أنه مقررٌ، وطبقًا لقوانين الطبيعة،
ما بمقدور كل شئ، وما ليس بمقدوره، وأن كل شئ
ثابت كما هو منذ الأزل، وأن أى شئ لم يتغير،
وأن الحقيقة أن كل الأشياء قائمة كما هى،
إلى حد أن الطيور مختلفة الأنواع تظهر علامات
مشتركة فيما بينها فوق أجسادها تميز نوعها، فلا ريب،
أن هذه الطيور تحوز أيضًا جسداً ذا مادة غير قابلة للتغيير.
لأنه، إذا كانت الذرات يمكن أن تخضع للتغيير، فلن
يكون هناك يقين فيما هو بإمكانه الظهور فى الكون
وما ليس بإمكانه، وخلاصة القول بأى حكمة صار لكل شئ
قدرة محدودة، وبأى حكمة صار لكل شئ نهاية محددة.
ولن تستطيع الأجيال المتعاقبة أن تكرر، فى رتابة منتظمة،
طبيعتها وسلوكها، وعاداتها وحركة والديها.
كى نتقدم فى موضوعنا، حيث يوجد دائمًا فى
الأجسام المرئية نقطة نهائية، وهى التى تمثل أدق شئ يمكن
رؤيته (أى الذرة)، إذاً فلا بد أن تكون هناك نقطة صغيرة جدًا

فى الذرة تكون خارج حدود إدراكنا الحسى. وهذا المثقال من الذرة يكون بلا شك بلا أجزاء، وهو أصغر شئ يمكن لنا تصور وجوده. وحيث إن هذا الشئ المتناهى فى الصغر لم يكن له قط وجود بذاته ولن يتسنى له فى المستقبل، لذلك يمكنه أن يوجد فقط كجزء أولى من شئ آخر، وبما أنه بالضرورة يشكل جزءاً من شئ آخر، هو جزء أول لديه وحدته الذاتية فى نفسه، فهكذا يكون جزء آخر وجزء آخر متماثلين، كل فى مكانه المخصص له، يملأ الطبيعة، أى طبيعة الذرة فى كتلة كثيفة. وبما أن هذه الأجزاء كلها، لا تستطيع أن توجد منفصلة عن بعضها، فلا بد بالضرورة أن تلتحم بالكل الذى لا يمكن بأي حال أن يُفتت[1]. وهكذا فإن الذرات تكون ذات صلابة شديدة وهى منفردة، وتتكون من كتلة من الأجزاء الدقيقة المشدودة إلى بعضها بإحكام، وهى ليست مُركّبات مكونة بواسطة اتحاد أجزائها، ولكنها أجسام ذات صلابة بالغة ومستمرة، ولا تتيح الطبيعة لهذه الذرات أى نقص أو تضاؤل، لكنها تحرسها باعتبارها هى بذور الأشياء. حتى إن لم تكن هناك مثل هذه الأجزاء الصغيرة جدا، فإن الأجسام

(١) يفسر لوكريتيوس هنا بناء الذرة بتشبيهها بأشياء مادية، لكن حيث أن نظريته تقول إن الذرات تختلف من حيث الحجم والشكل فإنه مضطر للقول إن كل ذرة تحتوى على عدد من الوحدات متفاوتة الحجم والمختلفة فى الشكل، لكنها لا تنفصل عن الذرة التى لا تتفتت.

الصغيرة جدًا كانت ستتكون من عدد لا نهائى من الأجزاء،
بما أنها تستطيع دائمًا أن تنشطر إلى نصفين، وهذه الأنصاف
تنقسم هى أيضًا مرة أخرى بدون حد لهذا الانقسام.
إذاً أى فرق يمكن أن يوجد بين الكون ككل وبين
أدق الأشياء حجماً؟ لا فَرق على الإطلاق!
ذلك، مهما كان الكون لا نهائى وغير محدود،
فإن الأشياء بالغة الدقة سوف تتكون فى المقابل من عددٍ
لا محدودٍ من الأجزاء. وبما أن الفهم المستقيم سوف
يعترض وينكر على العقل أن يعتقد فى صحة ما سبق،
فإنه لا بد للمرء أن يسلم ويعترف بأنه فى نهاية الأمر توجد
أجزاء غاية فى الدقة وهى نفسها لا أجزاء لها.
إذا ما افترضنا أن هذه الأجزاء الدقيقة موجودة، فلا بد أن نسلم أن
الذرات التى تُكوِّن هذه الأجزاء ذرات صلبة أيضًا ودائمة الوجود.
وأخيرا، إذا كانت كل الأشياء وبحكم الطبيعة، لا بد لها أن تتحطم فتكون
هذه الأجزاء الدقيقة، فإن الطبيعة سوف تحتاج إلى القوة التى تعيد بها
بناء أى شئ من هذه الأجزاء الدقيقة. حيث إن الأشياء التى لا أجزاء
لها لا يمكن أن تتمتع بالخواص الضرورية التى تتسم بها المادة

التى لها خاصية التوالد، مثل: الروابط المتعددة، والأوزان، والقوة
الدافعة، والانجذاب والحركة التى يعتمد عليها كل شئ كى يظهر فى الوجود.
لكل هذه الأسباب، فإن هؤلاء الذين ظنوا أن النار هى المادة
الأصلية للأشياء، وأن الكون كله يتكون من النار فقط، قد ظهروا
بوضوح أنهم ابتعدوا تمامًا عن الحقيقة. من هؤلاء: هيراكليتوس[١]
أول قائد اندفع نحو هذا الشجار، وهو المشهور أكثر بسبب
غموض حديثه، إنه من بين المتهورين الإغريق، أكثر منه
من بين هؤلاء الجادين الذين يبتغون الحقيقة.
إذ إن الحمقى يتأثرون أكثر وينخدعون ويعجبون أكثر
بالشئ الذى يرونه مخفياً بين الكلمات الملغزة،
ويتقبلون كحقيقة ما يداعب آذانهم بلطف، وكل ما هو
مطلى من الحديث بعبارات ذات صوت ونغم لطيف.
إننى أود أن أعرف كيف يتسنى للأشياء أن تكون
متنوعة ومختلفة إذا ما كانت مخلوقة من لا شىء
فيما عدا النار الخالصة؛ لأنه سيكون عديم الفائدة

---

(١) زعم هيراكليتوس من إفيسوس أن النار هى أصل كل الموجودات، وأن كل الأشياء فى حالة تحول مستمر، فالنار تتحول إلى الماء عن طريق التكاثف، والماء يصير أرضاً بالتصلب، ثم يحدث العكس.. وهنا يفند لوكريتيوس هذا الرأى ويقول إن النار لا ينتج عنها إلا النار.

سواء كانت النار الساخنة كثيفة أم متخلخلة، ما دامت
جزيئات النار لها أيضًا طبيعة النار نفسها ككل.
إن حرارة النار سوف تكون ببساطة أكثر ضراوة إذا
ما كانت أجزاؤها أكثر كثافة، وأكثر لطفاً إذا ما كانت
أجزاؤها مبعثرة ومبددة. ولن تكون هنا نتيجة لما سبق
أكثر من أن تعزو إلى مثل هذه الأسباب، أنه لا يمكن
للتنوع الضخم فى الأشياء أن ينتج من تنوعات فى الكثافة أو الرقة.
إن هذه التنوعات فى الكثافة لا يمكن أن توجد
فى النار إلا إذا سمحنا للأشياء بتمازج الفراغ.
لكن لأن هؤلاء المُنَظِّرون يرون أشياءً كثيرة تسير متعارضة
مع نظرياتهم، فإنهم يتجنبون المسألة ويتراجعون عن القبول
بوجود أى فراغ خالٍ فى الأشياء.. ولأنهم يخشون الانزلاق،
فإنهم يفقدون الطريق السليم؛ فإنهم لا يرون أنه بدون الفراغ
فإن كل شئ سيصبح كثيفاً، وسيصبح جسماً واحداً من شأنه ألا
يستطيع أن يُخرِجَ أى شئ ذى سرعة عالية من خلاله، ذلك كما
تُخرج النار المستعرة من خلال نفسها الضوء والحرارة،
لذا فإنك تستطيع أن ترى أن أجزاءَها ليست متحدة فى صلابة.
من ناحية أخرى، إذا ما اعتقدوا أن هناك سبيلاً آخر،

الذى فيه يمكن للنار وهى متحدة أن تُخمد وأن تغير مادتها،
إذنِ وبوضوح، إذا لم يتملصوا من أى مضمون لهذا الرأى،
فإن الحرارة سوف تتلاشى كليةً إلى لا شئ، وأى شئ يبرز
إلى الوجود سيكون بالضرورة خلقاً جديداً من العدم؛
لأن الشئ الذى طرأ عليه التغيير بالفعل يكون قد تخطى حدود طبيعته،
وهذا يعد بمثابة الموت الفورى للطبيعة التى كان عليها من قبل؛
ومن ثم فإنه لا بد لهؤلاء المُتَظِّرين أن يتركوا شيئاً ما يبقى آمناً وسليماً،
وإلا ستجد أن كل شئ قد عاد كلية إلى العدم،
وأن أصل الأشياء يُعاد ولادته ويحيا من العدم.
الآن، وعلى ما تقدم، فإنه توجد ذرات بعينها وهى التى تحتفظ دوماً
بطبيعتها نفسها فلا تتغير، وأنه بتراجع أو بتقدم هذه الذرات
ولطبيعتها المتغيرة تُغير الأشياء طبيعتها وتحول الذرات أنفسها.
ومن المؤكد أن هذه الذرات لا يمكن أن تكون نارية؛ إذ لن يكون ذا فائدة أن
بعض هذه الذرات
يجب أن تتحرك أو أن تنحرف، وأن تأتى عناصر أخرى، والبعض يغير مكانه، إذا
كان الكل، أياً كان، سوف يحتفظ بطبيعته النارية، لكن الحقيقة حسبما أظن هى:
أن هناك ذرات باجتماعها وحركتها وترتيبها
وأشكالها تُنتِج النار، وعندما يتغير ترتيبها،

تتغير طبيعة الشئ، ولكنها هى فى ذاتها
لا تماثل النار أو تماثل أى شئ آخر يمكنه
أن يطلق ذرات تدخل فى نطاق حواسنا
أو تمس حواس اللمس عندنا.
أن نقول، كما يقول ذلك الرجل[١]، إن كل شئ من النار،
وأن لا شئ من الممكن أن نُعده حقيقة
واقعة عدا النار، إن هذا القول يبدو جنوناً تمامًا.
ومعتمداً على الحواس فإنه يهاجم الحواس ويشكك فيها،
الحواس التى هى أساس كل اعتقاد وهي المصدر الوحيد
لإدراكه الشئ الذى يسميه نارا.
إنه يعتقد أن الحواس تدرك النار بوضوح،
لكنها لا تدرك بقية الأشياء التى هى فى الحقيقة ليست غامضة:
هذا القول الذى يبدو لى على الفور قولاً أحمق وهاذياً.
وإلا فعلى أي مرجعية لمعرفتنا نستند؟ أى شئ سيكون
أكثر يقيناً لتحديد الحقيقى من الزائف من حواسنا ذاتها؟
لماذا يجب علينا أن نستبعد أى شئ آخر

---

(١) كان لوكريتيوس يتحاشى ذكر اسم الفيلسوف هيراكليتوس لما يشعره نحوه من كراهية واحتقار.

ونختار أن نُبْقِىَ فقط طبيعة النار؟
أو أننا نستبعد النار ونختار شيئاً آخر؟
إن كلاً من الاختيارين يبدو غير صائب مثل الآخر تمامًا.
لهذا السبب، فإن هؤلاء الذين اعتقدوا أن النار
هى المادة الخام للأشياء وأن الكون
من الممكن أن يتكون من النار، وهؤلاء الذين
جعلوا الهواء هو نقطة البداية لنمو الأشياء(١)،
أو اقترحوا أن الماء بمفرده من الممكن أن
يُشكل كل شىء(٢)، أو أن الأرض من الممكن أن
تخلق كل الأشياء التى بدورها قد تحولت
حيث اكتسبت خصائصها(٣)، إن كل هؤلاء
قد ذهبوا بوضوح بعيدًا عن الحقيقة.
أضف إلى ما سبق، هؤلاء الذين يجعلون العناصر

(١) كان الفيلسوف أناكسيمينيس من ميليتوس (٥٨٥ – ٥٢٨ ق.م.) يعتقد أن الهواء هو أصل كل الموجودات.
(٢) الفيلسوف طاليس من ميليتوس (٦٢٤ – ٥٤٦ ق.م.) أحد حكماء الإغريق السبعة، كان يعتقد أن الماء هو أصل الكون.
(٣) عاش الفيلسوف فيريكيدوس فى جزيرة سيروس فى القرن السادس قبل الميلاد، وكان يعتقد أن الأرض هى أصل الموجودات.

الأولى عناصر ثنائية، فيزاوجون بين الهواء والنار[1]،
ومن ناحية أخرى بين الأرض والماء[2]، وهؤلاء الذين
يعتقدون أن كل شئ من الممكن أن ينشأ من أربعة
عناصر، النار والأرض والرياح والمطر.
من بين هؤلاء إمبيدوكليس[3] من أكراجاس هو الأبرز، والذى
وُلد فوق الشواطئ الثلاثية لتلك الجزيرة التى يحيط
بها المحيط الأيونى، بفيضانه عبر منعطفاته الواسعة،
وهو ينثر ماءه شديد الملوحة فى أمواجه الخضراء، وهذا البحر
سريع الحركة فى مجراه الضيق، يفصل بأمواجه شواطئ الأرض

---

(١) كان أوينوبيديس من خيوس يرى أن أصل الأشياء يعود إلى الهواء والنار.
(٢) اعتقد كسينوفانيس من كولوفون (٥٧٠ – ٤٧٥ ق.م.) أن أصل الكون هو الأرض والماء.
(٣) وُلد الفيلسوف إمبيدوكليس (٤٩٠ – ٤٣٠ ق. م.) فى المستعمرة الإغريقية أجريجنتوم (أكراجاس) بصقلية فى جنوب إيطاليا، وهو صاحب نظرية العناصر الأربعة (النار والماء والهواء والتراب). يعد إمبيدوكليس آخر الفلاسفة الإغريق الذين صاغوا فلسفتهم شعراء وكان لوكريتيوس يتحدث عنه بحماس واعتبره نموذجاً يُحتذى، ولهذا أشار إلى مسقط رأسه، على عكس هيراكليتوس الذى كان يتحاشى ذكر اسمه.

الإيطالية عن حدود تلك البقعة من الأرض. هناك توجد خاريبيديس[١]
المهلكة. هناك يوجد بركان إتنا[٢] الثائر مهدداً بألسنة لهيبه الغاضبة
الآخذة فى الاهتياج مرة أخرى، مفرغاً نيرانه من فوهته مندفعةً
وهى تومض نحو السماء. هذا البلد العظيم الذى أُشتهر بين أمم
البشر لأسباب عديدة، ويُقال إنه بلد جدير بالزيارة، لأنه غنى بأشياء طيبة،
له ذخيرة عظيمة من الرجال، ليس بينهم من هو أشهر من هذا الرجل،
ولا أكثر قداسة ولا أكثر روعة ولا أكثر إعزازاً منه.
أكثر من ذلك أن قصائد عقله الإلهى تنطق بصوتٍ عالٍ
وتعلن اكتشافات ذائعة الصيت، لدرجة أنه يبدو كما
لو كان قد انحدر من سلالة غير سلالة البشر.
ذلك الرجل (إمبيدوكليس)، وهؤلاء الرجال الأقل منه، الذين
تحدثنا عنهم سابقاً، والذين يقفون فى المرتبة على

---

(١) خاريبيديس: ابنة إله البحار بوسيدون من الربة جايا، وهى من حوريات البحر لكنها تحولت إلى وحش مخيف فصارت أشبه بالبالون وأطرافها زعانف، وكانت تبتلع كماً هائلاً من ماء البحر ثلاث مرات فى اليوم ثم تطرد ذلك الماء من فمها فتسبب الدوامات فى البحر، وكانت تقطن الجانب الآخر من المضيق الذى يسكنه المسخ سكيللا، ولهذا اعتاد الإغريق قول التعبير " بين سكيللا وخاريبيديس ".

(٢) هو جبل بركانى نشط فى الساحل الشرقى من صقلية بالقرب من ميسينا وكاتانيا. تذكر الأساطير أن زيوس فى حربه مع التيانن قد دفن التيتن تيفون تحت جبل إتنا، وأن إله النار والحدادة هيفايستوس يقطن هذا الجبل البركانى.

مسافة بعيدةٍ منه، قد توصلوا بالتأكيد إلى اكتشافات

هائلة عديدة وإلهية؛ ونطقوا بنبوءات من شغاف

قلوبهم بقدسية أكبر وبمنطق أكثر رسوخاً بكثير

من تلك النبوءات التى تتنبأ بها بيثيا[١] المخدرة من رائحة أكاليل الغار الخاصة

بالإله فويبوس[٢] ومن عرشه ثلاثى القوائم،

وعلى الرغم من ذلك فإنهم قد أخفقوا فى أقوالهم حول أصول

الأشياء إخفاقاً ذريعاً، تماماً بالمثل كما كانوا هم عظماء،

أولاً لأنهم يُسَلِمون بالحركة بينما ينفون وجود الفراغ الخاوى

فى الكون، وأنهم يُسَلِمون بوجود الأشياء الناعمة

---

(١) بيثيا هى كاهنة الإله أبوللون فى جزيرة دلفى والناطقة بنبوءاته، وكانت دلفى مركز العرافة فى العالم القديم؛ تأسس هذا المركز فى القرن الثامن قبل الميلاد، فى حين انتهى العمل به فى عام ٣٩٣ م. عندما أصدر الإمبراطور ثيودوسيوس مرسوماً بأن تتوقف المعابد الوثنية عن ممارسة نشاطها. واسم بيثيا مشتق من بيثو الاسم القديم لجزيرة دلفى؛ حيث قتل الإله أبوللون الأفعوان بيثون. كان فى معبد أبوللون صخرة بها فجوة يتصاعد منها البخار وكانت العرافة تهمهم بكلمات وعبارات غامضة تقوم هى بتفسيرها. وكان الإغريق يقيمون الألعاب البيثية تكريماً للإله أبوللون كل أربعة أعوام.

(٢) أبوللون: هو إله الشباب والموسيقى والتنبؤ والشفاء والرماية وهو مصدر إلهام أغلب الأدباء والفنانين. حملت ليتو من زيوس فغضبت هيرا لأنها علمت أن ليتو ستلد مولوداً سيكون له شأن كبير بين الآلهة ولهذا سلطت عليها الأفعوان بيثون يطاردها فى كل مكان كى لا تضع مولودها، جابت ليتو كل البلدان لتسمح لها بأن تضع حملها ولكنها لم تتمكن من ذلك إلى أن تضرعت لجزيرة ديلوس التى سمحت لها بأن تلد فى أرضها لعلها تحظى برعاية هذا الإله الوليد، وأخيراً تلد ليتو التوءم الربة أرتميس والإله أبوللون. بمجرد مولده حمل أبوللون قوسه وسهامه وقتل الأفعوان بيثون الذى كان يهدد منطقة دلفى كلها. وفويبوس هو أحد ألقاب أبوللون كإله للنور والضياء، وقد صارت فيما بعد كلمة فويبوس تعنى الشمس.

والدقيقة – مثل الهواء والشمس والنار والأرض
والحيوانات والخضروات – دون السماح
لأجسامهم بالاندماج فى الفراغ.
وثانيًا لأنهم لا يعترفون بحدٍ لانفلاق الأشياء، ولا
يضعون حداً للتفتت، ولا بوجود وحدة أولية للمادة،
هذا على الرغم من أننا نرى أن لكل شئ نقطة ذروى
تبدو لحواسنا أنها أصغر نقطة، من هذه النقطة يمكنك أن
تستنتج أن الأشياء التى لا تشعر بها لها أيضًا نقطة ذروى
هى بالفعل النقطة الأصغر. بالإضافة إلى أنهم
يرتبون كعناصر الأشياء الناعمة التى نشعر بها
على أنها لا تتنفس ولا تموت، إلا أنه لا بد للكون الآن أن يكون
قد عاد إلى لا شئ، وإنك لتعرف بالفعل أن كلا الفرضين زائف.
علاوة على ذلك، فإن هذه العناصر المفترضة هى بطرق
عديدة ضارة وأنها مسببة للموت لبعضها البعض،
لدرجة أنها إما سوف تُدمَّر حين تتلامس
وإما أنها سوف تندفع منفصلةً، هذا كما نرى ومضات
البرق الخاطفة، والسحب المطيرة، ونرى الرياح تدفع

هذه السحب والرياح معًا فى عاصفة.
مرة أخرى، لو أن كل شئ قد خُلِق من أربعة
أشياء، وقد تحلل إليها مرة أخرى، فلماذا نقول
إن هذه الأشياء هى بمثابة العناصر الأولى
للأشياء وليس العكس، أى أن الأشياء الأخرى
هى بمثابة العناصر الأولى للثانية؟ حيث إن
عنصراً يعطى الوجود للآخر باستمرار، وهى تتبادل
ألوانها وخصائصها كليةً خلال كل الوقت.
أما إذا كنت، من ناحية أخرى، تعتقد أن جزيئات
النار والأرض، الرياحِ الهوائية والرطوبة المائية،
تتألف دون تغيير خصائصها، إذن لا شئ يمكن
أن يُخْلَق منهم، أو أنها يمكن أن تبعث الروح فى شىء
أو أن تنزع منه الروح، جسمٍ مثل شجرة مثلاً.
فكل عنصر فى تجمع مركب سوف يتخلى عن طبيعته
الخاصة، فالهواء سوف يظهر مختلطاً بالتراب،
والنار سوف تبقى جنباً إلى جنب بجوار الرطوبة.
لكن الحقيقة أن العناصر، وهى تعطى الميلاد

للأشياء، لا بد أنها تسهم فى وجود
طبيعةٍ مخبأةٍ وغير مرئية، لذا فلا شئ يمكن أن
يظهر وهو يتصارع مع شئ مخلوق أو يمنعه من أن يكون نفسه بالتحديد.
هؤلاء المؤلفون، يُرجعون كل شئ
إلى السماء ونيرانها، فى البداية يجعلون النار تشكل نفسها
إلى رياح من الهواء، ومن ثم يتولد المطر، ومن المطر تُخلق الأرض.
ثم تسير العملية فى الاتجاه العكسى ..
فى البداية من الأرض تولد الرطوبة، ثم يأتى الهواء، ثم النار.
هكذا لا تتوقف الأشياء أبداً عن التداخل، وهى تغادر من
السماء نحو الأرض، ومن الأرض نحو قبة السماء المزدانة بالنجوم.
بيد أن هذا التحول ينبغى ألا تعانيه العناصر الأولية بأي حال؛
لأن شيئاً ما يجب أن يبقى غير عرضة للتغيير،
فكل الأشياء لا يمكن أن تُرَد برمتها إلى العدم.
لأن الشئ الذى طرأ عليه التغيير بالفعل يكون قد تخطى حدود طبيعته،
وهذا يعد بمثابة الموت الفورى للطبيعة التى كان عليها من قبل.
وعليه، فبما أن المواد التى ذكرناها تواً تدخل فى تداخل مع بعضها،
فلا بد أنها تحتاج إلى أن تتكون من مواد أخرى

لا يمكن أن تتغير، وإلا سوف تجد أمامك كل شئ وقد تحول إلى عدم.
بالأحرى يجب عليك أن تُسَلّم بوجود ذرات
لها طبيعة خاصة تمكنها من أن – لو حدث وأنها خلقت ناراً –
تحتاج فقط إلى تغييرات طفيفة بالحذف أو
بالإضافة وبعض التغيير فى نظامها وحركتها كى
تسبب هواءً عاصفاً. وبهذه الطريقة نستطيع نحن أن
نُفَسِّر أى تغيير يطرأ على الأشياء عند تحولها.
لكنك تقول: "إن الملاحظة تظهر بوضوح أن كل الأشياء
النامية إنما تنمو وتكبر فى داخل الهواء العاصف خارجةً
من الأرض، وإنها من الأرض تستمد غذاءَها .. وأنه، إن لم
يكن هناك مناخ موسمى مُواتٍ يعطى الأمطار حرية الحركة،
حيث تهتز الأشجار تحت السحاب الفياض، وإن لم تمد الشمس
بدورها بدفء معافٍ، إن لم يحدث هذا، فلن يمكن للمحاصيل
أن تنمو، ولا الأشجار أو الحيوانات". نعم، وإن لم نُغَذّ نحن
بالطعام الجاف والعصائر السائلة، فإن أجسامنا ستهلك، لدرجة أن
كل ذرة من الحياة فيها سوف تهرب من كل أعصابنا ومن كل عظامنا.
فلا يمكن أن يكون هناك شك فى أننا نُغَذّى ونُقَوّى بواسطة أشياء محددة
ومعينة: أشياء تُغَذّى بواسطة أشياء أخرى، وهكذا يمضى الحال.

من الواضح والجلى أن هذه العملية تتم لأنه توجد هناك فى
الأشياء العديد من الذرات مألوفة للعديد من الأشياء المتمازجة
فى طرق عديدة؛ حيث نجد أشياء متنوعة تستمد غذاءها من ذرات
مختلفة ومتنوعة. إنها أحياناً تُحدث اختلافاً كبيراً فى كيفية
تجمعاتها ومواضعها وحركتها، وهو أمر مهم، أمر مهم لأن
هذه الذرات نفسها هى التى تُكوّن السماء والبحر والأرض،
وتكون الأنهار والشمس والمحاصيل، والأشجار والحيوانات،
لكن هذه الذرات تتحرك فى حركات مختلفة مع عناصـــر مختلفـــة وفـــى طـــرق
مختلفة. انظر، كيف ترى فى أشعارى، على سبيل المثال، حروفاً
كثيرة مألوفة لكلمات عديدة، ومع ذلك فإنك يجب أن تُسلِّم
أن ثمة أبيات مختلفة وكلمات تختلف فى الجوهر وفى صوتها المسموع.
هكذا يمكن للذرات أن تمارس هذا النوع نفسه من الاختلاف،
وذلك عندما لا يتغير شئ، بل فقط يتغير الترتيب فى الأوضاع،
لكن ذرات الأشياء هذه يمكنها أن تجلب معها أنواعاً أكثر من الاختلاف،
من هذه الأنواع المختلفة من الممكن أن تولد كل الأشياء المختلفة.
دعنا الآن نستعرض نظرية أناكساجوراس[1]،

---

(١) وُلد أناكساجوراس (٥٠٠ – ٤٢٨ ق. م.) فى كلازوميناى بآسيا الصغرى، وهو أول فيلسوف انتقل من أيونيا إلى مدينة أثينا. فسر أناكساجوراس الكثير من الظواهر الطبيعية بطريقة علمية

التى يطلق عليها الإغريق "تماثل الأجزاء"،
إن فقر لغتنا الأم لن يمكننى من ترجمة هذه الكلمة،
لكن الشئ نفسه من الممكن أن يُعَبَّر عنه فى كلمات بسهولة كافية.
فى البداية حين يتحدث أناكساجوراس عن
"تماثل الأجزاء" فى الأشياء فإنه يعنى بوضوح أن
العظام تتشكل من عظام صغيرة ودقيقة جدًا فى الحجم،
وأن اللحم يتشكل من قطع صغيرة جدًا متناهية فى الصغر
من اللحم، وأن الدم يتشكل من تجمع العديد من قطرات الدم،
كذلك الذهب – فى رأيه – يتكون من حبات دقيقة الحجم من الذهب.
والأرض هى عبارة عن تكتل لأراضٍ صغيرة الحجم،
كذلك النار تتكون من نيران، كما يتكون الماء من قطرات ماء
صغيرة. وهو يتخيل كل شئ آخر قد شُكل بالطريقة نفسها.
فى الوقت نفسه لا يُسَلِّم بأى فراغ فى الأشياء،

كالكسوف والخسوف والشهب والشمس التى وصفها بأنها كرة نارية أكبر من البليبونيس. كان أناكساجوراس يعتقد أن العقل هو القوة المنظمة بالكون، وأن المادة تتكون من ذرات أولية ذات أعداد هائلة وهى لا تفنى، وأن كل الأشياء موجودة فى كتلة المادة لكنها على هيئة ذرات غير منتظمة، فذرات الدقيق واللحم والذهب كلها موجودة فى كتلة المادة، لكن الذرات تتجمع من خلال قوة العقل الذى يساعد فى تجميع الذرات المتماثلة حتى تحصل الموجودات على شكلها وخصائصها.

أو بأى حد لانقسام المادة، وفى هذين الأمرين يبدو لى
أنه قد وقع فى الخطأ نفسه الذى وقع فيه
المنظرون الآخرون الذين ذكرناهم منذ لحظات.
أضف إلى ذلك أنه يجعل العناصر هشة جداً، إذا لزم الأمر من
الممكن أن نطلق اسم "عناصر" على الذرات التى لها طبيعة
الأشياء نفسها، أى إنها تعانى وتفسد بدرجة ليست أقل،
وهى ليست محمية بأي قوة من أن ينالها الدمار.
إن أى شئ من هذه الأشياء سيتحمل هجوماً عنيفاً،
لدرجة أنه يفلت من الفناء وهو من بين أنياب الدمار نفسه؟
هل النار أم الماء أم الهواء؟ هل ستبقى الدماء أم العظام
على قيد الحياة؟ لا شئ سوف يفلت، هكذا أزعم أنا،
حيث إن كل شئ قابل للهلاك مثله فى ذلك مثل تلك الأشياء
التى نراها تختفى من أمام أعيننا تحت ضغط قوةٍ ما أو أخرى.
وكدليل على استحالة مثل هذا التلاشى والعودة إلى الوجود،
فإننى ألجأ إلى الدليل الذى سبق أن ذكرته بالفعل.
غلاوة على ذلك، بما أن الطعام يزيد الجسم ويغذيه، فيمكننا أن
نعرف أن الشرايين والدماء والعظام (والأعصاب مكونة من أجزاء
ليست مثلها)، أو إذا قالوا إن كل الأطعمة مركبة من مادة مختلطة،

وتحتوى بداخلها على جسيمات صغيرة من الأعصاب والعظام وأيضًا من شرايين وجزيئات من الدم، فسوف يتبع هذا أن كل الطعام نفسه، الصلب منه والسائل، لا بد أنه مكون من أشياء لا تماثله هو نفسه، كذلك العظام والأعصاب، الصديد والدم المختلط به. أضف إلى ذلك أي أجسام تنبت من الأرض، إذا كانت فى الأرض، إذاً فالأرض لا بد أنها تتكون من عناصر ليست مثلها وهى التى تخرج من الأرض. ولنطبق هذا المنطق على الحالات الأخرى، ويمكنك أن تستخدم هذه الكلمات نفسها .. فلو أن اللهب، أو الدخان والرماد تكمنان فى الخشب، فإن الخشب بالضرورة يكون مكوناً من عناصر لا تماثله هو نفسه. أضف إلى هذا أنه مهما كانت الأجسام التى تغذيها الأرض، (فإنها تنمو من عناصر ليست مثلها هى نفسها وهى الأشياء التى تخرج من الأرض).[١] لذا أيضًا فإن العناصر التى يطلقها الخشب تكون مغذاة من أشياء ليست مثلها، وهى التى تخرج من الخشب. تبقى فرصة ضئيلة للمراوغة، وهى التى يحولها أناكساجوراس إلى ميزة لافتراض مؤداه أن كل الأشياء مختبئة ومختلطة بكل الأشياء، أى إنه يؤكد أن كل شئ يوجد به خليط

---

(١) الجملة التى بين القوسين ليست من النص الأصلى ولا توجد فى المخطوط الأصلي، لكن أحد الناشرين أضافها لأنه يرى أنها تعبّر عن المعنى الأصلى للنص.

من كل شئ، لكن كل المكونات تتجنب أن يُعثر
عليها فيما عدا الشئ الذى تكون جزيئاته كثيرة جداً
وبارزة وتقع فى مواجهة الناظرين. وهذا الكلام بعيد تمامًا
عن الحقيقة وإلا لماذا لا نجد فى الأشياء أثراً لذلك؟
وإلا كان من الطبيعى أن يحدث أن الحبوب، عندما تُطحن
بقوة حجر الطاحونة، سوف تظهر لنا فى أغلب الأحيان
أثراً من الدماء، وأن الدماء سوف تسيل عندما نحطم
بين حجرين أياً من تلك الأشياء التى تستمد مادتها من
أجسامنا. بالمثل فإن العشب والماء لا بد أن يصدرا فى
بعض الأحيان قطرات حلوة لها مذاق اللبن نفسه فى ضروع
الشياه ذوات الصوف. وحين تتغضن طبقات التربة، على نحو فائق تنقسم إلى جزيئات من النبات المختلف وحبوب وأوراق
يمكن رؤيتها، بينما هى تتوارى كامنة فى التربة.
وحين تنقصف الأعواد، فإن الرماد والدخان والنيران لا بد أن تبدو
فى أجزاء صغيرة مختفية. لكن الملاحظة تُظهر بجلاء أن لا شئ
من هذه الأمور يحدث. إنه من الواضح إذاً أن نوعاً واحداً من الشئ
ليس مختلطاً بشئ آخر بهذه الطريقة نفسها،

لكن لا بد أن يكون هناك فى الأشياء خليط من
البذور غير المرئية هى شائعة لأنواعٍ عديدة من الأشياء.
لكنك تقول، إنه يحدث أحياناً
فوق قمم الجبال الشاهقة أن الفروع العليا للأشجار
العالية تكون متقاربة فَتْحتكّ ببعضها البعض بسبب قوة
العواصف حتى يحدث فجأة أن تندلع شرارة لهب ثم تشتعل هذه
الفروع ناراً .. هذا مؤكد؛ لكن النار ليست مطمورة فى الخشب.
فما يحتويه الخشب داخله ما هو إلا عدد وافر من بذور الحرارة،
وهى التى لا تبدأ فى اندلاع حريق هائل فى الغابة
إلا عندما تحتشد معًا بالاحتكاك، لكن بينما لو أن اللهب كان مختبئاً
فى الغابات جاهزاً للانطلاق، لما كان للنيران أن تختفى ولو
للحظة واحدة، ولكانت قد أكلت الغابات فى كل مكان، وأحرقت الأشجار
عن بكرة أبيها وحولتها إلى رماد. الآن هل ترى أهمية ما قلته منذ برهة[1]،
وهو أن من الأهمية القصوى دائمًا أن تعرف بأي وضعية وفى أي
وضعية تكون هذه الذرات الأولى نفسها حين تحتشد، وأى حركة
تمارسها وتستقبلها بالتبادل فيما بينها،
وكيف أن هذه العناصر نفسها حين تتغير قليلاً فى علاقاتها
تسبب غابات ونيراناً[2]؟ بهذه الكيفية نفسها تتشكل الكلمات،

---

(١) يشير الشاعر هنا إلى ما سبق قوله فى الأبيات ٨١٧ – ٨١٩.
(٢) يريد لوكريتيوس أن يبرهن هنا أن أى تغيير طفيف فى العناصر ينتج عنه أشياء جد مختلفة.

بواسطة تعديلٍ بسيط فى الحروف، عندما ننطق كلمة
غابات (lignis) وكلمة نيران (ignis) كلفظين مختلفين.
إذا لم تكن تستطيع أن تجد تفسيراً لما تراه يحدث أمام
عينيك دون أن تفترض أن جزيئات المادة لها النوع نفسه
من الطبيعة التى توجد بكل الأشياء، فإن نهايةً
تنتظر الذرات الأولى كلها لا محالة، وسوف تضطر
لأن تسلم جدالاً بوجود جزيئات تهز جنبات
الأشياء بقهقهات هادرة، وتبلل وجناتها بدموع مالحة.
والآن انتبه جيداً لما يلى وأنصت بموضوعية أكثر.
إننى أدرك تمامًا كيف أن هذه الموضوعات مليئة بالغموض.
لكن أملا كبيرا فى ذيوع الصيت طرق قلبى بعصا سحرية[١]،
وفى الوقت نفسه زرع فى صدرى حب الموسيات[٢]، حلو المذاق.
هذا الحب الذى هو بمثابة الحافز الذى يمنح روحى القوة كى
أضع قدمى فوق مواضع لم تطأها قدم من قبل، تلك هى مواضع

---

(١) يقصد لوكريتيوس بالعصا السحرية العصا التى كان يمسكها إله الخمر ديونيسوس وأتباعه.

(٢) الموسيات هن ربات الفنون التسع، يقول هوميروس إنهن بنات زيوس من منيموسينى، وقد وُلدن عند سفح جبل الأوليمبوس فى بيريا. وأسماء الموسيات هى (كليو ربة التاريخ، يوتربى ربة الشعر الغنائى، ثاليا ربة الكوميديا، ميلبومينى ربة التراجيديا، تربسيخورى ربة الأغانى الكورالية والرقص، إراتو ربة الشعر العاطفى، بوليمنيا ربة الأناشيد الدينية، أورانيا ربة الفلك، كاليوبى ربة الشعر الملحمى).

مملكتهم البيرية. أي بهجة أشعر بها حين أرتاد منابعهم النقية
وأن أرتشف من مياهها! أي بهجة أشعر بها حين أقتطف
بواكير الزهور وأن أجمع – كى أزين جبينى – إكليل غار
بهى من حقولٍ لم تُقطف زهورها من قبل
لتوضع بأيادى الموسيات حول جبين أحد غيرى!
هذه هى مكافأتى لقاء تدريسى هذه الموضوعات السامية،
لقاء كفاحى كى أحرر عقول الناس من عقد المعتقدات السيئة
التى سيطرت عليها بشدة، وأن ألقى بأبياتى أضواءً
ساطعة على موضوعات غاية فى الغموض حتى
أضئ كل شئ بِسنَا الموسيات. إن فنى ليس بلا هدف.
فمثلما يفعل الأطباء، حين يرغبون فى علاج
الأطفال بجرعة مغثة من الشيح، فإنهم فى
بداية الأمر يدهنون حافة الكأس بدهنة من
العسل المصفى. والأطفال، بما أنهم تنقصهم
البصيرة، فإن مذاق العسل يغريهم
فيتجرعون الشراب المر (الدواء) .. هكذا هم قد
خُدعوا، لكنهم لم يوقع بهم فى شرَكٍ،

حيث إن الدواء يعيد إليهم الصحة، مثل هذا
الدواء هكذا يبدو تعليمنا أحياناً غير لذيذ المذاق
لهؤلاء الذين لم يجربوه من قبل، وغالبية الناس
تنفر منه. هذا هو السبب الذى جعلنى أحاول أن
أعطيك إياه من خلال أبيات شعر الموسيات العذبة.
إن هدفى هو أن أجذب عقلك بأبياتى، بينما أنت
تنفذ ببصيرتك فى طبيعة الكون وفى نموذج بنائه المعمارى.
لكن بما أننى قد أوضحت لك أن هناك جسيمات
للمادة صلبة تمامًا ولا يمكن تدميرها، وهى تطير سابحة
خلال الأبد، إذاً دعنا نميط اللثام عمّا إذا كان هناك حد
لعددها أم لا. بالمثل، كما اكتشفنا أن هناك فراغ،
أى المكان أو المساحة التى تحدث فيها الأشياء، دعنا
نرى إن كان وجودها الكلى محدوداً أم أنه يمتد
اتساعاً فى كل مكان إلى أعماق لا يمكن قياسها.
إن الكون غير محدود من أى اتجاه،
وإلا لكانت له بالضرورة نهاية فى مكان ما.
لكن من الواضح أن الشئ لا يمكن أن يكون له حد،
هذا إن لم يكن هناك شئ ما خارجى كى يحده، هكذا حتى

تستطيع العين أن تتابعه إلى نقطة بعينها لا يمتد الكون بعدها.
بما أنه يجب عليك أن تسلِّم أنه لا يوجد شئ خارج الكون،
فعليه لا يمكن أن يكون للكون حد ومن ثم فليست له
نهاية أو يمكن قياسه. ولا يهم فى أى من ربوعه تقف،
فأى بقعة منه يستطيع أى شخص أن يشغلها، فالكون من
عندها يمتد بقدر المسافة نفسها فى كل الاتجاهات.
إضافة إلى ذلك هب أن الكون له حد، فسوف تكون معضلة.
وهب للحظة أن الفضاء كله كان محدوداً بحدود، وأن شخصا
ما قد شق طريقه نحو حدّه الأقصى وألقى سهماً طائراً.
هل ترجح أن القذيفة التى قُذفت بقوةٍ وبأسٍ سوف
تشق طريقها بسرعة على الطريق الذى وُجهت نحوه؟
أم أنك تعتقد أن شيئاً ما سوف يعترض طريقها ويوقفها[1]؟
يجب أن تتخيل أحد الأمرين، لكن أياً منهما لن يترك لك
مخرجاً من المأزق، فكلاهما يجبرك على أن تسلم أن الكون
يستمر بلا نهاية. وحتى لو أن هناك عقبة تقبع عند خط الحد

---

(١) يريد أن يقول إن الكون لا حد له؛ وقد استخدم هنا مجاز عسكرى حيث يلقى أحد الجنود الرمح نحو حدود العدو للإعلان عن بدء الحرب.

النهائى، وإنها هى التى تمنع السهم من المضى قدماً فى مساره،
أو أن السهم سيطير إلى ما وراء ذلك، فى الحقيقة لا يوجد
هناك الحد الذى منه أُطلق السهم.

وفى هذه المناقشة سوف أسير خلفك لأقنعك، وحيثما يمكنك ٩٨٠
أن تضع الحد النهائى للأشياء سوف أسألك:
ماذا يحدث فى نهاية الأمر للسهم؟ النتيجة الحتمية
هى أن الحد لا يمكن أن يوجد ثابتاً فى مكان ما،
وأن مجال طيران السهم سوف يطيل دوماً من طيرانه. ٩٨٣
وأخيراً، فإن الشئ يبدو أمام عينىَّ على أنه يحدد شيئا آخر، ٩٩٨
فالهواء يفصل بين الجبال، وهو نفسه مفصول ومُحدّ بواسطة الجبال، ٩٩٩
والأرض تضع نهاية للبحر، والبحر يُحد كل الأراضى. ١٠٠٠
هذا بالإضافة إلى أنه لو أن كل الفضاء فى الكون قد ٩٨٤
انحصر وحُدَّ من كل جانب بحدود محددة، لكان مخزون
المادة قد تكدس بالفعل بفعل ثقله فى القاع، ولم يكن
شئ قد حدث تحت قبة السماء، وربما أيضًا لم يكن من الممكن
أن تكون هناك سماء ولا ضوء شمس، وذلك لأن كل المادة
المتاحة كانت ستستقر فى القاع وتتكدس راقدة فى كومة
على مدى الأبد، لكن من المؤكد تمامًا
أن لا راحة قد أُعطيت للذرات، إذ لا يوجد قاع حيث

يمكن للذرات أن تتكدس فيه وتتخذه مستقراً.
فالأشياء تسير قدماً فى الحدوث طوال الوقت عبر
حركة لا تتوقف فى جميع الأجزاء، وذرات المادة تثب إلى
أعلى من أسفل مزودةً بمدد لا نهائى يندفع منها. ٩٩٧
إذاً فإن طبيعة الفضاء ومدى العمق عظيمان جدا، ١٠٠٢
فهى هاوية عظيمة، لدرجة أن ومضات البرق المبهرة
السريعة لا تستطيع أن تعبرها فى مسارها، على الرغم
من أن تلك الومضات تتسابق عبر مسارات زمنية
لا تنتهى، ولا تستطيع ومضات البرق أن تُقَصِّر
المسافة التى بقى عليها أن تقطعها. ١٠٠٥

كم هو هائل هذا المدى الذى يمتد متسعاً أمام
الأشياء فى كل مكان دون حدٍ فى أى اتجاه. ١٠٠٧

بل أكثر من ذلك فإن الكون ممنوع بالطبيعة من أن يضع أى حدٍ لنفسه،
لأن الطبيعة هى التى تجبر الجسم على أن يُحَدْ بالفراغ، وتجبر الفراغ
أن يُحَدْ بواسطة الجسم. هكذا فالطبيعة إما أن تجعلهما ١٠١٠
لا نهائيين، فيصبح الكون لا نهائياً، وإما إن كان أحدهما غير
محدودٍ بالآخر، فإنه لا بد أن يمتد من تلقاء نفسه دون حد.

بما أن الفضاء، على كل حال، لا نهائى، كذلك لا بد أن
تكون المادة. وإلا فلا كان البحر ولا اليابس ولا مناطق السماء
اللامعة ولا الكائنات الفانية ولا الأجساد الرهيبة للآلهة ١٠١٥

قد استطاعت أن تدوم ولو لفترة قصيرة من الزمن.
فمَدَد المادة وهو مدفوع نحو الخارج من تجمعه،
قد يندفع متحللاً عبر الفراغ العظيم فى جسيمات
منعزلة، أو أنه لم يكن قط ليندمج كى يشكل أى شئ،
بما أن جسيماته المبعثرة لم تتمكن قط من أن تُدفع نحو الاتحاد.
فالذرات بالتأكيد لم تضع نفسها فى أماكنها
بحكمة بالغة، أو بخطة تنم عن تدبير حكيم،
كما أنها بالتأكيد لم تتفق فيما بينها على كيفية حركة كل منها؛
فكما كانت تندفع باستمرار عبر الفضاء فى أعدادها الضخمة،
وهى تخضع لتغييرات كثيرة جداً، تحت تأثير
الاصطدامات المربكة، فقد جربت كل نوع من الحركة
والارتباط حتى سقطت فى النموذج المميز الذى عليه
وتبعاً لنمطه، تكَوَّن عالمَنا هذا. هذا العالم الذى
قاوم من أجل البقاء لأعوام عديدة، بعد أن وُضع ذات مرة
للسير فى حركةٍ آلية مناسبة. من هذه
الحركة يأتى بالتبعية كل شئ آخر.
الأنهار تمد النهر الظمآن بسيول جارية سخية
من الماء. الأرض وقد امتصت حرارة الشمس تعيد
طرح ثمارها، وسلالة الأحياء التى تنطلق منها

تنمو وتزدهر، ونيران الأثير المنزلقة
تواصل حياتها. كل هذا لم يكن ليحدث لولا
أن هناك مدداً هائلاً لا ينقطع من المادة ينشأ
من الفضاء اللا نهائى ليعوض كل ما فُقد.
فبمجرد أن تُحرم الأحياء من الطعام فإنها تهلك
بهلاك أجسادها، وهكذا فكل شئ لا بد أن يبلى بمجرد
أن ينقطع عنه مدده من المادة بانحرافٍ عن مساره.
إن أى عالم كان، تجمعت الذرات لتكوينه، فإن صدمات
من كل جانب تأتى من خارجه لا تستطيع أن تصونه.
بالضرب المستمر تستطيع الضربات الخارجية أن تستبقى
جزءاً منه حتى تأتى أجزاء أخرى لتكمل النقص فيه.
لكنها، أي الضربات الخارجية، مجبرة الآن وفيما
بعد أن ترتد بعد الاصطدام كى تترك بهذا الارتداد
وقتاً كافياً ومسافة للذرات كى تتحطم منفكة عن تجمعها.
وبهذا فإنه من الضرورى أن تكون هناك أعداد هائلة من الذرات
تظهر للوجود .. بل إن الضربات نفسها لا تستطيع فى الحقيقة
أن تستمر فى الحدوث دون مدد لا ينقطع من المادة من كل جهة.
هناك اعتقاد واحد، يا مميوس، لا بد أن تكون على حذر منه،

تلك النظرية التى ترى أن كل شئ يتجه نحو ما يسمونه "مركز العالم"[١].
وحسب هذه النظرية، يقف العالم ثابتاً دون أن تأتيه أى ضربات
من خارجه، وأن القمة والقاع لا يمكنهما
أن ينفصلا فى أى اتجاه، لأن كل شئ يتجه نحو المركز -
إذا كان بإمكانك أن تعتقد أن أى شئ يستطيع أن يبقى مستقرا معتمدا
على نفسه - فإن أي أجسام ثقيلة ربما تكون موجودة تحت الأرض يجب
إذاً أن تتجه إلى أعلى وتستقر عند سطح الأرض مقلوبة رأسا على
عقِبٍ، مثل صور الأشياء التى نراها الآن منعكسة فوق سطح الماء.
وبالطريقة نفسها سوف يقرون بأن الأحياء تتحرك ورءوسها
متجهة إلى أسفل ولا تستطيع أن تسقط عائدة من الأرض
نحو فضاء السماء مرة أخرى، وتستطيع أجسادنا
من تلقاء نفسها أن تحلق فى أقطار السماء.
وحينما يشاهدون الشمس، فإننا نحن نرى نجوم الليل،
هكذا سوف يشاركوننا الأوقات بالتبادل، ويقضون
الليالى التى تتساوى مع أيامنا. لكنه يعد خيالاً محضاً
للأغبياء الذين يقبلون هذه القياسات الفاسدة لأنهم
قد اعتنقوا هذه الأفكار بناءً على استدلال ملتوٍ.
حيث لا يمكن أن يوجد مركز فى اللا نهائية.

---

(١) يقصد التعاليم الرواقية.

وحتى لو كان هذا المركز موجوداً، فلا شئ
يستطيع أن يبقى ثابتاً هناك دون أن يُدفع
مطروداً خارجه لسبب ما؛ حيث إن كل مكان
أو مساحة، فى المركز وليس فى أى مكان آخر،
يجب أن تعطى طريقاً للأجسام الثقيلة،
وذلك بصرف النظر عن اتجاه تحرك هذه الأجسام.
فلا يوجد مكان ما من الممكن أن تأتى إليه الأجسام
حيث تفقد خاصية الثُقل وتبقى معلقة فى الفراغ.
ولا يستطيع الفراغ أن يقف هكذا فى طريق أى شئ؛
حيث لا يسمح له بمرورٍ حُرٍّ كما تقضى طبيعته الخاصة.
وعلى ذلك؛ فإن الأشياء يمكن أن تُرى متجمعة معًا بأي طريقة، وقد غلبها الشوق نحو المركز. وبعض الأشياء بالفعل تتجه نحو طريق معاكس.
إلى جانب ذلك؛ فإنهم لا يزعمون أن كل الأجسام
لها النزوع نفسها نحو المركز، لكنها فقط تلك الأجسام المكونة من
التراب والماء، مياه البحار والسيول التى تصب هابطة من التلال –
وبصفة عامة – ما هو مؤلف من جسم طينى بدرجة كَبُرَت أم صَغُرَت.
لكن من ناحية أخرى وطبقًا لتعاليمهم، فإن نسمات الهواء اللطيفة
والنار المستعرة هى التى تهب تلقائياً متجهة بعيدًا عن المركز.

أما السبب الذى يفسر لماذا يومض الأثير الذى يحيط بالغلاف الجوى

مع النجوم والشمس تغذى أشعتها فى مراعى السماء الزرقاء، ١٠٩٠

فمن المفترض أن النار كلها تحتشد هناك فى رحلتها الطائرة من المركز.

بالمثل فإن الأفنان العليا للأشجار لا تستطيع أن تنتج أوراقاً إذا لم

يُوزَّع غذاؤها على كل منها صاعداً من الأرض فى شوقٍ إلى أعلى. ١٠٩٣

(وذلك كمددٍ تسوقه الطبيعة أى الفنان المبدع:

كن على يقين أنهم ضالون، مشتتون فى زيغ مريب، ١٠٩٥

ويختلقون الحجج التى تتعارض تمامًا مع بعضها البعض.

كل هذه الافتراضات قد قُبلت على أساس استدلال خاطئ.

وذلك منذ أن قلت بأن الفضاء - بلا نهاية أو حدٍ - يمتد

مفتوحاً أمامنا فى كل الاتجاهات من حولنا، وبأسلوب مماثل،

كذلك لا بد من الحاجة إلى مخزون لا محدود من المادة حولنا، ١١٠٠

وإلا فإن أسوار السماء سوف تنهار فجأة).

وبالطريقة نفسها تتبدد ألسنة اللهب الطائرة التى تتبدد فى الفضاء، والبقية سوف

تتبدد وبالطريقة ذاتها، ومناطق السماء المرعدة سوف

تسقط من أعلى إلى أسفل، الأرض سوف ١١٠٥

تنزلق سريعاً من تحت أقدامنا، وفى أحضان السماء

المختلطة بحطام كل شئ، سوف تدعُ الأرضُ كل عناصرها

تذهب حرةً، كل هذا سوف يرحل إلى العمق الفارغ؛
لذا فإنه فى لحظة واحدة من الزمن لن يبقى حطام
بعد ذلك سوى فضاءٍ مهجور وعناصر معتمة.
ففى أى جزء مهما كان سوف تزعم أن الجسيمات التى
فُقدت ستكون موجودة، ذلك الجزء سيكون هو بوابة الموت
بالنسبة للأشياء، وبتلك الطريقة فإن كل كتلة المادة ستتبعثر تائهةً.
إذا ما أصبت مشكلة بسيطة، ستطمح إلى فهمٍ عميق لهذه الحقائق.
لأن الشئ سوف يُفسر بشئ آخر، والليل المظلم لن يسرق
طريقك حتى تكون قد نظرت فى قلب أدق أسرار الطبيعة.
لذا فمن المؤكد أن الحقائق سوف تُجلَّى.

الكتاب الثانى

ترجمة د. صلاح رمضان السيد

ملخص الكتاب الثانى

أولاً الاستهلال (١ - ٦١)

ثانيًا حركة الذرات (٦٢ – ٣٣٢):

١. الحركة المستمرة للذرات (٦٢ – ١٤١).

٢. سرعة الذرات (١٤٨ – ١٨٣).

٣. قوة ثقلها (١٨٤ – ٣١٥).

٤. نظرية انحراف الذرات "**clinamen atomorum**" (٢١٦ – ٢٩٣).

٥. حفظ المادة والحركة (٢٩٤ – ٣٠٧).

٦. الحركة الدائمة للذرات (٣٠٨ – ٣٣٢).

ثالثًا ـ أشكال الذرات (٣٣٣ – ٧٢٩):

١. عدد لا محدود لأشكال الذرات (٣٣٣ – ٤٧٧).

٢. حصر بعض الذرات فى شكل (٤٧٨ – ٥٢١).

٣. عدد لا محمود من أشكال الذرات المتشابهة (٥٢٢ – ٥٨٠).

٤. تنوع اتحاد الذرات، بيد أن ليس تنوعًا بلا حدود (٥٨١ – ٧٢٩).

رابعًا ـ خصائص ثانوية للذرات (٧٣٠ — ٩٩٠):

١. بلا لون (٧٣٠ – ٨٤١).

٢. بلا حرارة أو برودة (٨٤٢ – ٨٤٤).

٣. بلا صوت (٨٤٥).

٤. بلا رطوبة (٨٤٥).

٥. بلا رائحة (٨٤٦ – ٨٦٤).

٦. بلا خصائص حسية (٨٦٥ – ٩٩٠).

خامسًا ـ العدد اللا محدود للعوالم (٩٩١ — ١١٧٤):

١. مقدمة: نشأتنا من بذور سماوية (٩٩١ – ١٠٢٢).

٢. مقدمة للإعلان عن الحقيقة الجديدة (١٠٢٣ – ١٠٤٧).

٣. توجد عوالم عديدة (١٠٤٨ – ١٠٨٩).

٤. وعلى هذا الأساس فإن الآلهة لا تتحكم فى الكون (١٠٩٠ – ١١٠٤).

٥. قاعدة النمو والاضمحلال (١١٠٥ – ١١٧٤).

يا لها من سعادة، عندما تضرب الرياح العاصفة سطح مياه البحر
بينما ينظر شخص ببصره من الشاطئ إلى محنة شخص آخر ..
ليس هذا لأن محن الآخرين تكون سببًا للاستمتاع، لكن سبب
سعادتك هو أن تدرك أنك بعيد عن المتاعب.
إنها لسعادة أيضًا أن تبصر صراعات الحروب الطاحنة فى
ساحات المعارك، دون أن يكون لك نصيب من أخطارها،
لكن السعادة العظمى هى أن تشرف من علٍ وأنت فى قلعة
ساكنة، قد حُصّنت فى مناعة، وشُيدت بتعاليم الحكيم،
من حيث يمكنك أن تلقى ببصرك من أعلى لترى الآخرين
يهيمون على غير هدىً فى سعيٍ خائب يلتمسون وسيلة للعيش.
يحاربون بعضهم بعضًا، ويتطاحنون نحو الصدارة،
يكدحون ليلاً ونهاراً ويبذلون جهداً مضنياً
ليبلغوا أعلى منازل السلطة ويحصلوا على الثروة.
يا عقول البشر التعسة، أيتها الأفئدة العمياء،
يا لها من حياة مظلمة كئيبة وأخطار عظيمة،
تلك التى ضُيعت فيها أعماركم البائسة!
ألا تلاحظون أن الطبيعة كلها تبغى شيئين لا ثالث لهما،
جسداً خالياً من الألم، وعقلاً متحرراً من القلق والخوف،

والاستمتاع بالإحساس بالسعادة.
لذا فإننا نجد أن متطلبات الطبيعة الجسدية قليلة للغاية،
فلا شئ أكثر ضرورة من إذهاب الألم،
أو ما يحقق كل أنواع المتعة، فالطبيعة نفسها لا
تحتاج سوى إلى ما يحقق المتعة، لكن ماذا يهم لو لم
يكن هناك حول المنزل تماثيل مصنوعة من الذهب
لشباب يمسكون بمشاعل بأيديهم اليمنى،
لتنير المآدب الممتدة طوال الليل؟ وماذا يهم لو أن
القصر لم يتلألأ بالفضة أو يومض ببريق الذهب،
ولو لم تكن السُقُف المنقوشة والمطلية بالذهب تجلجل بألحان القيثارة؟
إن الطبيعة لا تفتقر إلى وسائل الترف هذه عندما يستلقى الرجال فى
صحبة فوق العشب الناعم على شفا جدول جارٍ فى ظل أفنان
شجرة باسقة، وينعشون أجسامهم بمباهج الحياة بنفقة زهيدة؛
خاصة عندما يبتسم لهم الطقس ويلون فصل
الربيع الحشائش الخضراء بالزهور.
فالحمى الشديدة لا تذهب من جسدك بسرعة إذا ما
كنت تتقلب تحت ألحفة مزركشة وأغطية قرمزية،
مما لو كنت ترقد متلحفاً بغطاء رجل فقير.

إن تكن أجسادنا لا تستفيد بالثروة أو بالألقاب أو بعظمة المُلْك،
فلا بد لنا أن نُسلم أن عقولنا أيضًا لا تستفيد بها.
وإلا، فلتخبرنى يا مميوس، عندما ترى فيالقك وهى
تحتشد فى الساحة الواسعة[1] أثناء المناورات الحربية،
وقد مُدَّت بإمدادات كبيرة، وسُلحت تسليحاً عظيماً
وانطلقت لهدفٍ عامٍ، هل يطرد هذا المنظر من عقلك الخوف
من الخزعبلات؟ وهل تتراجع خشية الموت خارجة
من صدرك وتتركه حراً خالياً من الهمّ، فى اللحظة التى
ترى فيها سفنك الحربية تصطف على مدى البصر؟
أم أننا نجد أن مثل هذه الأشياء غير ذات تأثير؟
إن المخاوف والقلاقل التى تنغِّص صفاء قلوب
البشر لا تتراجع مذعورة أمام صليل السيوف
أو تحت وابل عنيف من القذائف.
إنها تمشى شامخة بين الأمراء وأصحاب السلطان.
إنها لا تُروَّع خائفة ببريق الذهب أو بلمعان الأردية
الأرجوانية البراقة، هل يمكنك أن تشكّ – إذن – أن هذه
القوة كلها إنما تكمن فى العقل فقط؟ وأن الحياة كلها
هى فى الواقع بمثابة صراع فى الظلام.

---

(١) المقصود هنا ساحة الإله مارس إله الحرب حيث كان الرومان يقيمون احتفلاتهم ومسابقاتهم.

فمثلما أن الأطفال ترتعد فرائسهم ويجفلون أمام كل شئ
فى الظلام الحالك، فكذلك نحن فى النور تعترينا أحياناً
المخاوف التى لا أساس لها إطلاقاً، مثل تلك المخاوف
التى يرتعد منها الأطفال فى الظلام ويتخيلون أنها ستهاجمهم.
ولذلك فإن ظلمة العقل وخوفه هذا ليس بالإمكان
تبديدهما بأشعة الشمس، أو بضوء النهار الساطع،
بل بتأمل الطبيعة وفهم قوانينها.
والآن أنصت إلىَّ، سوف أبين لك بأي حركة تلد ذرات
المادة الولودة أشياءً متنوعة وإذا ما وُلدت بددتها،
وبأي قوة تُجْبَر الذرات على أن تفعل هذا، وأي سرعة
قد منحتهم كى يسبحوا خلال الفراغ الهائل.
كن متأكداً أن المادة لا تلتصق مع بعضها فى كتلة صلبة،
لأننا لا نرى أن كل شئ يقل أمامنا ويبدو
كما لو كان ينصهر متبدداً بمرور الزمن
ويسحبه التقدم فى العمر أمام ناظرينا.
ولا نزال لا نرى نقصاً فى ذروة الأشياء؛ إن سبب ذلك هو أن
الذرات التى تُفقد من شئ تنقص هذا الشئ بمغادرتها إياه
لكنها تزيد شيئاً آخر بدخولها عليه. فهى هنا تدفع إلى التآكل،

وهناك تسبب النمو والازهار التام، لكنها لا تظل عالقة هناك.
وهكذا فإن ذروة الأشياء تتجدد باستمرار ودون انقطاع.
والمخلوقات الفانية تعيش معتمدة بعضها على بعض.
بعض الأنواع تزداد، والبعض الآخر يتضاءل، أجيال من
المخلوقات الحية تمضى فى تغيير وتعاقب سريع؛ وهى فى
ذلك – مثلها مثل المتسابقين فى المضمار – تسلّم شعلة الحياة.
إذا ما كنت تظن أن الذرات يمكنها أن تتوقف وبتوقفها
تولد حركات جديدة فى الأشياء، فإنك تذهب بعيدًا فى ضلالٍ
عن طريق الحقيقة. فبما أن الذرات تنجرف وتتحرك فى حرية
عبر الفراغ، فلا بد أنها كلها تظل فى حركة دائمة، إما بفعل
وزنها وإما باصطدامها مع ذرة أخرى،
حيث إنها فى أثناء حركاتها السريعة تتقابل أحياناً
بالضرورة، الواحدة ضد الأخرى، فيتصادمان، وفى الحال
ترتدان فى اتجاهين متعاكسين، وهذا الارتداد هو نتيجة طبيعية
لصلابتهما ومتانتهما ولغياب أى شئ خلفهما كى يوقفهما.
وكمؤشر إضافى على أن ذرات المادة هى فى حركة دائمة،
تَذَكَّر أن الكون ليس له قاع مستقر؛ حيث إنه لا يوجد فى
الكون مكان يمكن فيه للذرات أن تبقى وتستقر.

وكما بينت من قبل بحجج مختلفة وأثبت بشكل قاطع،
فإن الفضاء ليست له نهاية أو حد، فهو يمتد
فى اتساع لا يمكن الإحاطة به وفى كل الاتجاهات،
ومن ثم فلا يوجد بحق أى سكون ممكن إتاحته للذرات فى جريانها
خلال الفضاء السحيق، لكنها تظل مدفوعة بحركات متنوعة لا تتوقف،
فبعض الذرات، بعد تصادمها، ترتد بعيدًا لمسافات طويلة، والبعض الآخر
يرتد فقط إلى محيط ضيق وقريب من المركز. ومن بين الذرات التى
لا ترتد بعيدًا عن المركز – بعد أن تُدفع نحو الاتحاد فى قرب وتماسك –
ما تقفز راجعة خلال مساحات صغيرة، فتتماسك بقوة مع بعضها
بفعل أشكالها المعقدة والمتشابكة، فتكوّن بهذا الجذور القوية للصخور،
وتكون القوة الصلبة للصلب وما شابه من أجسام صلبة.
أما تلكم الذرات الأخرى التى تتحرك بحرية خلال
مسارات الفضاء؛ فهى تقفز بعيدًا وتُحمل
بعيدًا لمسافات بفعل الارتداد بعد الارتطام،
وهذه هى الذرات التى تمدنا نحن
بالهواء العليل وبضوء الشمس الوهاج.
إلى جانب هذه الذرات، نجد هناك العديد من

الذرات الأخرى التى تسافر خلال الفضاء الخالى،
وهى تلكم الذرات التى ألقى بها من الأجسام المركبة وليس
لها مكان مسموح به كمجرد سبيل تنظم فيه حركاتها فى تناغم.
هذه العملية، كما يمكننى أن أصفها، موضحة بمثال لها،
هذا المثال يحدث باستمرار أمام أعيننا رأى العين.
لاحظ ما يحدث عندما تدخل أشعة الشمس إلى بناية
ويسقط ضوءها على أماكنها المظلمة.
سوف ترى وفرة من الذرات الدقيقة تختلط فى كثرة
من الطرق فى الفضاء الخالى من خلال ضوء شعاع الشمس،
كما لو كانت تتنافس فى صراع مستمر، تندفع إلى معركة،
صفاً فى مواجهة صفٍ آخر دون لحظة من التوقف
فى تتابع سريع فى جماعاتٍ متحددة ومنفصلة.
من هذا المثال يمكنك أن تتصور بدقة ما يحدث للذرات
حين تسبح باستمرار فى الفضاء اللا نهائى. وإلى حد ما يمكن
للشئ الصغير أن يقدم شرحاً مبيناً وصورة غير تامة للأشياء العظيمة.
بالإضافة إلى ذلك، هناك أيضًا سبب منطقى آخر:
لماذا عليك أن تدير عقلك نحو هذه الذرات
التى تُرى وهى تتراقص فى شعاع الشمس؛

إن رقصها هو مؤشر فعلى على حركات خفية وغير
مرئية للمادة، فهى لا تقع فى مجال الرؤية بالنسبة لنا.
هناك سوف ترى ذرات عديدة تحت تأثير ضربات
غير مرئية تغير مسارها وتُدفع عائدة على مضمارها،
إلى هذا المضمار وإلى ذلك المضمار، فى كل الاتجاهات.
يجب عليك أن تفهم أنها تستمد هذا اللا سكون المستمر من الذرات.
إن هذا اللا سكون ينشأ أصلاً من الذرات، الذرات التى تتحرك
من تلقاء نفسها؛ ثم أن تلكم الأجسام الصغيرة المركبة التى على
الأقل قد تنقلت بفعل دفعة الذرات لها ووُضعت فى حركة
بفعل تأثير ضرباتها غير المرئية، وبدورها تندفع هى
فى اتجاهها ضد ذرات أكبر منها بقليل.
وهكذا تتكوم الحركة وتتصاعد من الذرات وهكذا تظهر تدريجياً
أمام مستوى حواسنا، لدرجة تصل إلى هذه الذرات
التى تتحرك والتى نراها فى أشعة الشمس الداخلة إلى الأماكن المظلمة،
وهى الذرات المدفوعة إلى الحركة بفعل الضربات التى تظل غير مرئية.
والآن يا مميوس، بالنسبة للسرعة المسموح بها لحركة
الذرات، ربما يمكنك أن تستنبط هذا الأمر بسلاسة

من هذه الدلائل القليلة .. أولاً عندما ينشر الفجر
ضوءه الوليد على الأرض، وحين تطير الطيور بألوانها المختلفة
فى الغابات المهجورة، تملأ مساحات الهواء
العليل بنغماتها العذبة، فى هذا الوقت يكون واضحاً
وجلياً للجميع رؤية الشمس وهى تشرق فجأة فى لحظة
طلوعها وهى تُدَثِّرْ الكون ببهائها؛ لكن حرارة الشمس
وضياءها الوضَّاء لا يمرّان عبر الفضاء الخالى.
لذا فهما مجبران على التحرك ببطء أكثر، وهما يشقان
طريقهما كما لو كان خلال أمواج من الهواء.
لكن لا تتحرك الذرات التى تُكَوِّنْ هذه الأشعة كلٌ بمفردها
ومنعزلة عن الأخرى؛ بل تتحرك جميعاً مرتبطة ومتكتلة فى
كتلة واحدة .. هكذا تكون سرعة سيرها معاقة لأن كل ذرة
تشد الأخرى إلى الوراء، هذا بالإضافة إلى العقبات الخارجية.
لكن الذرات المنفصلة – التى هى فى انفرادها
تكون صلبة – عندما تمر خلال الفضاء الفارغ،
فإنها لا تُعاق بأى شئ من الخارج، فتتحرك
كوحدات منفردة فى المسار الذى بدأته،
لذا يكون من الواضح أنها لا بد أن تتفوق كثيراً

فى حركتها على سرعة ضوء الشمس وتعبر الفضاء
مرات عديدة على اتساعه، فى الوقت نفسه الذى فيه
تمر أشعة الشمس فقط لتنتشر فى السماء.
ولا عجب أن البشر لا يستطيعون متابعة الذرات المنفردة
لدرجة تمكنهم أن يتبينوا القوة التى بواسطتها جاء كل شئ إلى الوجود.
فى مواجهة هذه الحقائق؛ فإن بعض الناس الذين لا يعرفون
شيئاً عن المادة، يعتقدون أن الطبيعة - دون سلطان الآلهة -
لا تستطيع أن تدير تعاقب الفصول فى هذا التوافق الدقيق
طبقًا لتخطيط الإنسان، لإنتاج المحاصيل، وتلكم النعم
الأخرى التى يُقاد البشر الفانون للاستمتاع بها بالمشيئة
الإلهية التى تقود العالم، وتلك المشيئة التى تحبب إليهم،
من خلال أساليب فينوس، أن يتناسلوا ليبقى نوعُهم، وإلا
هلك الجنس البشرى لا محالة. من الواضح إذن - فى تصور
أولئك الناس - أن الآلهة قد خلقت كل شئ من أجل صالح البشر،
لكن من الواضح أيضًا أنهم قد ضلوا من جميع الوجوه وذهبوا بعيدًا
جدًا عن طريق الحقيقة. وحتى لو كنتُ أجهل طبيعة الذرات،

فإننى – على أي حال – أجرؤ على أن أؤكد أن
العالم لم تعدّه الآلهة من أجلنا قط، وأن ذلك
خطأ فادح يقف فى طريقنا، وسأبرهن على ذلك من خلال
النظام الموجود بالسماءِ، وأدعم رأيى بحقائق أخرى كثيرة.
إن كل هذا يا مميوس، سوف أوضحه لك فيما بعد.
والآن دعنى أكمل لك وصفى لحركات الذرات.
إنه الآن الموضع، كما أظن، الذى أستطيع فيه
أن أضع أمامك مبدأ آخر وهو أن لا شئ له جسم
يمكنه أن يرتفع إلى أعلى بقوته الذاتية وأن يتحرك إلى أعلى،
يجب ألا تنخدع بالذرات التى تُكِّون اللهب.
إن الحقيقة التى نراها – وهى أن كل الأوزان بطبيعتها تميل نحو النزول
إلى أسفل – لا تمنع المحاصيل المثمرة والأشجار الباسقة من أن تولد بشوق
نحو الارتفاع إلى أعلى ومن النمو والازدياد متجهة إلى أعلى.
بالمثل، عندما تقفز النيران نحو قمم المنازل وتلتهم
العوارض الخشبية والأسقف بلهب سريع،
يجب ألا نفترض أن النيران تفعل ذلك بمحض
إرادتها دون قوة تدفعها إلى أعلى. إن سلوك النيران
مثل سلوك الدماء التى تتدفق من أجسادنا عندما تندفع

فى تدفق عالياً فى فوران قوى. ألا تلاحظ أيضًا بأي قوة
تنتفخ العوارض الخشبية والأسقف بفعل التشبع بالماء.
وكلما دفعناها أكثر نحو الأعماق، كثير منا يصارع
بعناد كى يدفعها إلى أسفل، لفظتها المياه بشده ودفعتها
كى تعود أدراجها إلى أعلى مرة ثانية، لدرجة أن أكثر من
نصفها يندفع نحو السطح. ولا شك أن كل هذا
سوف يتحرك إلى أسفل خلال الفضاء الفارغ بقوة ذاتية.
إن الأمر لا بد أن يكون هو نفسه بالنسبة لألسنة اللهب؛
إذ يمكنها تحت الضغط أن تندفع إلى أعلى خلال الهواء العاصف
على الرغم من ثقلها، لكنها مدفوعة بقوة ذاتية، تقاتل كى
تجرها نحو الأسفل. ألا تلاحظ الآن كيف أن المشاعل الليلية
فى السماء فى طيرانها العالى تسحب فى أعقابها ذيولاً
طويلة من اللهب إلى أى اتجاه تحدده الطبيعة؟
ألا ترى كيف أن النجوم والنيازك تسقط على الأرض؟
والشمس من عنان السماء تنشر حرارتها فى كل الأرجاء
وتغطى الحقول بضيائها. إن أشعة الشمس إذن تنزع أيضًا نحو الأرض.
لاحظ مرة أخرى كيف أن البرق يطير خلال العواصف الممطرة بانحراف،
والنيران التى تندلع من السحب تندفع معاً، الآن فى هذا الطريق،

وبعد ذلك فى طريق آخر، ومن المعتاد
أن القوة النارية تسقط على الأرض.

فى هذا الخصوص هناك حقيقة أخرى أريدك أن تدركها،
عندما تكون الذرات فى سبحانها المستقيم إلى أسفل نحو الأرض،
خلال الفضاء الفارغ وذلك بفعل ثقل وزنها الخاص،
نجد أنها، وفى أوقات غير محددة وأماكن غير محددة أيضًا،
نجدها تنحرف قليلاً عن مسارها، وهو الأمر الذى يمكن أن نطلق
عليه تغييرًا للإتجاه. إذا لم يكن هناك هذا الانحراف من جانب الذرات،
فإن كل شئ كان سيسقط لا محالة مثل قطرات المطر خلال هاوية الفضاء،
ولم يكن ليحدث تصادم بينها، ولم يكن ليحدث تأثير بعد هذا التصادم من
ذرة على أخرى .. وهكذا لم يكن يتسنى للطبيعة أن تخلق أى شئ قط.
لكن إذا ما افترض شخص ما أن الذرات الأثقل وزناً
يمكنها السير فى مسار مستقيم خلال الفضاء؛ حيث يمكنها أن
تسبق الذرات الأخف وزناً وأن تسقط عليها من أعلى، وتسبب
صدمات من شأنها أن تُنشئ حركات متتابعة التوالد – إن هذا الشخص
يكون قد ضلّ وحاد عن سبيل الحقيقة.
لأنه مهما كانت الأشياء التى تسقط خلال الماء وخلال الهواء
الرقيق، فلا بد لها أن تكون سرعة سقوطها متناسبة مع أوزانها؛

لأن كثافة الماء وطبيعة الهواء الرقيقة لا تستطيع أن تعوق
كل شئ بقدرٍ مساوٍ، لكنها تتيح فى التو غلبةً للأشياء الأثقل،
لكن على العكس فإن الخلاء الفارغ لا يستطيع أن يعطى أى
مساندة لأى شئ فى أى مكان أو فى أى وقت،
لكنه لا بد أن يعطى باستمرار طريقاً كما تتطلب طبيعته؛
لذا فإن كل الأشياء لا بد أنها تُحمل فى سيرها إلى أسفل
بسرعة متساوية – هذا على الرغم من أنها ليست ذات وزنٍ متساوٍ –
خلال الفراغ غير المقاوم؛ لذا فإن الذرات
الأثقل وزناً لن يكون فى استطاعتها أن تسقط من أعلى فوق
الذرات الأخف وزناً، ولن تستطيع أن توجه ضربات منها كى
تنتج الحركات المتنوعة التى بها تقوم الطبيعة بإنجاز عملياتها.
ولذلك أقول مراراً وتكراراً إن الذرات لا بد أن تميل قليلاً،
وإلا سوف نبدو أننا نفترض حدوث حركات انحرافية،
وهكذا سوف تبرهن الحقائق أننا على خطأ.
لذا نرى أن الأمر واضح وجلى: إن الأوزان –
عندما تتجه إلى أسفل – ليست لها قوة ذاتية كى
تتحرك فى انحراف، وذلك بقدر ما يمكن للمرء أن يدرك.
لكن مَنْ ذا الذى يستطيع أن يدرك أنها لا تنحرف

ولو قليلاً جدًا عن المسار الرأسى المستقيم؟
مرة أخرى، إذا كانت الحركة هى دائمًا سلسلة طويلة
متصلة فيما بينها، والحركة الجديدة تتولد دائمًا من الحركة
القديمة فى نظام لا يتبدل، وإذا كانت الذرات لا تنحرف أبداً
حتى تنشأ من جديد حركة ما جديدة وهى التى سوف تحطم
قيود القدر والتتابع الدائم للسبب والنتيجة،
إذن فما مصدر الإرادة الحرة التى توجد فى المخلوقات فوق
سطح الأرض؟ وما - أكرر - مصدر هذه الإرادة الحرة
المنتزعة من الأقدار التى بواسطتها نسير على طول
الطريق الذى نُقاد فوقه فراداً بواسطة الشهوة،
منحرفين عن مسارنا فى وقت أو مكانٍ غير محدَّدين؟
لكننا ننحرف بناءً على أمر من قلوبنا؟ ليس هناك شك فى أن فى
هذه المناسبات تُنْتِج إرادة الفرد حركات تتسلل حثيثاً خلال أعضائنا.
ألا تلاحظ كيف أن خيول السباق - عندما تُفتح الحواجز -
لا تستطيع أن تنطلق فجأة كما تتوق قلوبها رغم رغبتها القوية فى ذلك؟
هذا لأن كتلة المادة لا بد أن تُعبَّأ أولاً خلال كل عضو من
أعضاء الجسم .. فقط عندما تُحشد تلك الكتلة فى حشد متواصل
واحد من الممكن أن يتجاوب الجسم مع الأمر الصادر إليه من العقل ..
هكذا يمكنك أن ترى أن بداية الحركة إنما تصدر من العقل،

منطلقةً بدءاً من الفعل الإرادى للعقل، إذن فبداية الحركة
تنتقل خلال الجسد كله وخلال أعضائه.
يختلف إحساسنا تمامًا عندما نرى أنفسنا وقد دُفعنا
بضربة ناتجة عن قوة قاهرة لشخص آخر.
فى تلك الحالة يكون واضحاً أن كل مادة جسمنا تتحرك
وتندفع سريعاً بغير إرادتنا حتى تعود إلينا إرادتنا –
من خلال أعضائنا – فتكبح مادة جسمنا.
هل ترى الفرق؟ على الرغم من أن الكثير من الأشخاص
يُدفعون بقوة خارجية وأحياناً يُجبرون ضد إرادتهم على أن
يندفعوا إلى الأمام، فإن هناك داخل صدر الإنسان لا يزال
شئ ما يستطيع أن يقاتل ضد هذه القوة ويقاومها.
بناءً على أمر هذا الشئ فإن كتلة المادة تُجبر على أن
تأخذ مساراً جديداً من خلال أعضائنا ومفاصلنا؛ أو أنها
تُكبح فى مسارها وأن تضطر مرة أخرى إلى التوقف.
على ذلك عليك أن تدرك وجود الإمكانية نفسها فى الذرات؛
فإلى جانب الوزن والصدمة لا بد أن يكون هناك سببٌ ثالث للحركة،

إنه هو مصدر هذه القوة الموجودة داخلنا، هذا بما أننا نرى أن
لا شئ يمكن أن يأتى من عدم؛ لأن وزن ذرةٍ ما يمنع
حركاتها من أن تُحدد بقدرٍ كاملٍ بواسطة صدمة ذرات أخرى.
لكن العقل نفسه ليست لديه فى الحقيقة ضرورة داخلية
لتقرر كل تصرف له وتجبره على أن يعانى فى سلبية عاجزة.
إذ إن هذا الشئ يرجع إلى الانحراف الطفيف للذرات فى
وقت غير محدد ومكان غير محدد.
إن كتلة المادة فى الكون لم تكن قط أكثر احتشاداً
بإحكام منها الآن، أو أكثر انتشاراً فى الفضاء.
لأن لا شئ يُضاف إليها أو يُسحب منها.
واستتبع ذلك أن الحركة، حركة الذرات، لا تختلف
اليوم عمّا كانت عليه فى العصور الماضية وسوف تكون
هكذا دومًا .. وهكذا أيضًا الأشياء التى جاءت على نحو
منتظم إلى الوجود سوف تستمر فى الإتيان إلى الوجود
بالطريقة نفسها، سوف توجد وسوف تنمو وسوف تزدهر
ما دام سُمح لكلٍ منها بهذا من خلال قوانين الطبيعة.
كما أن مجموع الأشياء لا يمكن أن يُغيَّر بأي قوة؛ إذ لا يوجد
مكان يمكن أن يهرب إليه أى نوع من المادة من

الكون، أو قوة طارئة حديثاً يمكنها من خارج المكان
أن تنفجر فى الكون وأن تحوّل الطبيعة الكليةِ للأشياء
وأن تغير اتجاه حركاتها إلى العكس.
نقطة واحدة فى هذه الموضوعات تحتاج إلى عِلَّة
وليس إلى معجزة، لماذا؟ بما أن كل الذرات
تكون فى حركة، فإن كل مجموع الذرات يبدو-
على الرغم من ذلك - أنه فى سكون تام،
فيما عدا بالنسبة لحركات كل شئ على حدةٍ بجسمه وحده.
يحدث ذلك لأن الذرات كلها تقع بعيدًا جدًا عن مجال حواسنا نحن.
فبما أن الذرات نفسها لا يمكن رؤيتها، فإن حركاتها أيضًا لا بد
أنها تروغ من الملاحظة. فى الحقيقة، حتى الأشياء التى يمكن
رؤيتها، عندما تقع على مسافةٍ كبيرة منا، فإنها أحياناً تُخفى حركاتها.
أحياناً نجد على جانب التل الشياه ذوات الصوف،
وهى تلتقط كلأها الهش، تزحف ببطء إلى الأمام،
مَغْوِيَّة بهذا الطريق أو ذاك بالعشب الذى ينتشر مبللاً بندى
البكور، بينما الحملان التى أكلت حتى التخمة تقفز فى بهجة
وهى تتناطح. وأيضًا ونحن نحدق أنظارنا من بعيد فإننا نرى فقط
بقعة بيضاء من الأرض مستقرة فوق التل الأخضر.

خذ مثلاً آخر: الجيوش الجبارة، وهى تخوض مناورة حربية،
تحتشد فتملأ السهل بمناوراتها، البريق الوضاء يضوى لامعاً
حتى السماء، وكل شئ حول الأرض يتلألأ بلمعات الأسلحة.
وتحت ذلك تسمع هناك وقع أقدام آلاف الجنود،
بينما يعج ضجيج الصياح فوق التلال ويتردد منعكساً نحو صفحة
السماء .. والفرسان العاديةُ تدور مراوغة وفجأة تنعطف عابرة
قلب ساحات المعارك، حتى تخور الأرض مهتزة
تحت هجومها الضارى. ولا يزال هناك مكان مميز
فوق الجبال العالية، منه تبدو هذه الجيوش واقفة،
وتبدو بمثابة بريقا مستقرا كنقطة ضوء فوق سهل منبسط.
والآن دعنا نعود إلى موضوع جديد، خصائص ذرات
كل الموجودات، إلى أى حد تختلف الذرات فى الشكل
وفى ثراء أشكالها المتنوع. ليس فقط أنه ليس هناك
الكثير من الذرات التى لها الشكل نفسه، لكن أيضًا أن
كلها ليست على الإطلاق متطابقة الواحدة مع الأخرى.
ولا غرابة فى ذلك، فعندما نعلم أن الأكثرية منها،
كما سبق أن بينّا، ليست لها نهاية، ولا يمكن إحصاؤها،
فلا يمكن أن نتوقع أنها لا بد أن تكون

متطابقة فى مبناها وفى هيئتها.

تأمل الجنس البشرى، تأمل الأسماك القشرية التى تسبح فى صمت،

تأمل القطعان التى تمرح والوحوش الكاسرة، والطيور
ذات الألوان المختلفة والتى تملأ الأماكن المائية،
حول ضفاف الأنهار وحول الينابيع والبحيرات،
وتلك الطيور التى تزدحم وترفرف خلال الغابات البكر.

خذ عيِّنة من أى نوع من الأنواع المختلفة وسوف تجد
أنها تختلف فى الشكل عن الآخرين من نوعها نفسه

وإلا لم يكن للصغار أن يستطيعوا التعرف على أمهم،
ولا للأم أن تعرف صغارها، لكننا نرى أن هذا

الأمر من الممكن أن يحدث، وأن أفراد هذه الأنواع من
الممكن أن تتعرف فيما بينها بقدرٍ ليس أقل مما يحدث بين البشر.

أسوق إليك مثالاً شائعاً، أمام أضرحة الآلهة المقدسة

نجد عجلاً يسقط على الأرض مذبوحاً بجانب المذابح
المحملة بالبخور المحترق، ومن صدره ينفجر سيل من الدماء،

بينما أمه التى حُرمت منه، تهيم عبر الممرات الخضراء

فى الغابات، تفحص الأرض وتتعرف على آثار أقدامه

التى طبعها على الأرض بحوافره المشقوقة، عيناها تطوفان
هذا الطريق وذاك فى بحث عن صَغيرها المفقود. تتوقف وتتفحص

بعينيها الأشجار العتيقة المورقة وهى تتفجع. وغالبًا ما
تعود إلى الحظيرة بجرح لا يندمل وبحنين إلى صغيرها.
إن أشجار الصفصاف والأعشاب الريانة الطازجة
المبللة بالندى والمجارى التى تفيض بالمياه على
ضفافها، كل ذلك لا يكفى لمواساتها ولإزاحة حزنها
الذى تنوء به. إن مشهد العجول الأخرى فى وسط المروج
الندية تعجز عن أن تُذهب الحزن عن عقلها أو أن تخلصها منه.
من الواضح أنها تبحث عن شئ عزيزٍ عليها، تعرفه جيداً.
بالأسلوب نفسه، الوليدان الرضيعان يبحثان عن أمهما ذات القرنين
الطويلين بأصوات مرتعشة. الحملان التى تمرح مبتهجة تلتقط
أمهاتها من بين القطيع الذى يثغو .. هكذا بأمر الطبيعة،
كلٌ يجرى نحو ضرعه الخاص الممتلئ باللبن.
وأخيرًا بين سنابل القمح، أياً كان نوعها، لن تجد واحدة تطابق
الأخرى تماماً، لكنك ستجد أن كل واحدة منها قد مُيزت بخاصية
مميزة لها. وبالأسلوب نفسه نرى أغلبية الأصداف التى تزين حافة الأرض،
حيث يضرب البحر بأمواجه اللطيفة الرمال الظامئة فوق الشاطئ المتعرج.
هنا إذن، دليل وراء دليل،

على أن الذرات بالمثل، بما أنها قد وُجِدَتْ بفعل الطبيعة
وليست صنعة يدٍ معينة وفق نموذج ثابت،
فإن هناك اختلافات محددة بينها فى الشكل.
تأسيساً على هذا المبدأ، فإنه من السهل علينا تماما
أن نفسر لماذا تكون نيران البرق أكثر مضاءً من نيراننا
التى تنبعث من المشاعل الأرضية. يمكنك أن تقول:
إن النيران السماوية، نيران البرق، هى ذات نسيج أكثر رِقة،
إذ إنها تتركب من ذرات أصغر حجما،
ومن ثم تستطيع أن تمر خلال ثقوب منيعة بالمقارنة
بنيراننا الأرضية التى تنطلق من الخشب؛ ثم تتوالد مشتعلة
بواسطة المشاعل. مرة أخرى، يمر الضوء خلال بوق المشكاة،
لكن المطر يرتطم عائداً أدراجه. فلماذا يحدث ذلك
إن لم يكن بسبب أن ذرات الضوء أصغر حجماً من تلك الذرات
التى تشكل قطرات المياه التى تمنحنا الحياة؟
نحن نرى أن الخمر تتدفق خلال مصفاة بسرعة
بمجرد أن تُصب فيها، لكن الزيت البطىء
يتلكأ فى المصفاة. يحدث هذا بلا شك إما
بسبب أن الزيت يتكون من ذرات أضخم،

وإما أن هذه الذرات أكثر تماسكاً وملتصقة فيما بينها، ومن ثم فهى
لا تستطيع أن تنفصل سريعاً، كى تتسرب خلال الفتحات الواحدة تلو الأخرى.

هنا يوجد مثال آخر. العسل واللبن،
عندما يتحركان فى الفم، يسببان مذاقاً سائغاً للسان،
لكن الشيح المر وحشيشة القنطريون[١] القابضة
يدوران على نحو لولبى فى الفم بمذاق يصيبنا بالغثيان.
يمكنك بسهولة أن تستنتج أن مثل هذه المواد
بما أنها تدغدغ الأحاسيس فهى مركبة من ذرات
ناعمة ومستديرة. أما تلكم المواد التى تبدو مُرة
وخشنة فهى تكون أكثر تماسكاً ومركبة من
ذرات معقوفة؛ ومن ثم فهى تشق طريقها نحو
حواسنا وتخترق أجسادنا بغزواتها.
أخيرا؛ فإن كل الأشياء التى تمس حواسنا سواء كانت طيبة أم خبيثة
هى فى صراع دائم فيما بينها، حيث إنها خُلِقَتْ فى أشكال مختلفة.

---

(١) القنطريون هى حشائش تنبت فوق المرتفعات وذات زهر بنفسجى اللون، وكانوا يطلقون عليها اسم خيرونيا نسبة إلى القنطور خيرون الذى اشتهر بقدرته على الشفاء مستعيناً بالأعشاب، وتروى الأسطورة أنه داوى نفسه من جرح بعد إصابته بسهم نقع فى دماء الهيدرا ذات السم الزعاف. وقد أطلق الرومان على حشائش القنطريون "مرارة الأرض" fel terrae؛ وذلك لمرارته البالغة التى تشفى الجسد وتنشطه.

فأنت لا تستطيع أن تفترض أن الصريف الخشن
للمنشار؛ بينما يقطع الخشب مكون من عناصر ناعمة
مثل أنغام الموسيقى التى يبعثها العازفون ذوو الأنامل
الرشيقة من أوتار القيثارة ويصوغونها لحناً جميلاً.
أنت لا تستطيع أن تفترض أن الذرات –
التى تدخل فتحات أنوفنا عندما نقوم بشىٍّ أجسام ذات رائحة
كريهة – لها شكل الذرات نفسها التى تنبعث من خشبة المسرح
عندما تفوح برائحة زعفران كيليكيا[1] أو من المذبح المقدس
المجاور لها عندما تُستنشق روائح أبخرة بلاد العرب الذكية[2].
ولا يمكنك أن تسلم بأن الألوان السائغة المناسبة
لإمتاع حاسة البصر تتكون من الذرات نفسها التى
تتكون منها المناظر التى توخز العين وتجعلها تذرف
الدموع، أو تلك المناظر التى تبدو قبيحة ومنفرة وبغيضة.
لا شئ من شأنه أن يمتع حواسنا يمكن أن يكون بلا نعومة
معينة تمتاز بها ذراته التى يتركب منها.

---

(١) تقع كيليكيا علي الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى واشتهرت بالقرصنة. هناك كانت مدينة كوركوس التى اشتهرت بالزعفران. وقد ورد عند كتاب رومان كثيرين أن خشبة المسرح كانت تُدهن بمادة الزعفران فتبدو لامعة برّاقة.

(٢) اُشتهرت مناطق فى الجزيرة العربية بإنتاج أنواع فاخرة من البخور ذى الرائحة الذكية.

وأى شئ مهما كان، من ناحية أخرى، يكون مؤلماً
وفظاً لا بد أن يكون ذا خشونة ما فى مادته التى تكونه.
إلى جانب ذلك هناك أشياء بعينها لا تُعتبر ناعمة، لكنها
أيضًا ليست معقوفة كليةً ولها نقاط منحرفة.
هناك أشياء مميزة بأن لها حوافًا ناتئة نتوءاً
طفيفاً؛ حيث إنها تدغدغ الحواس ولا تؤذيها.
هذه الأشياء تتضمن أجساماً مثل رواسب الخمر
والهندباء[1] حاد المذاق. إن النار الحارة، مرة أخرى،
والندى البارد كل منهما ينال حواس أجسادنا بأنياب مختلفة،
كما نعلم من الأساليب المختلفة التى تؤثر من خلالها
فى حاسة اللمس لدينا. اللمس، ولا شئ غير اللمس،
لذا يطلق عليه البشر "قوة الإله المقدسة"، إنه جوهر كل
حواس الجسم، سواءً عندما نشعر بشئ ما يتسلل إلى داخل
الجسم من الخارج أو نشعر بأننا قد أوذينا بشئ ما نشأ داخل
الجسم، أو نشعر بأننا قد أثرنا بلذةٍ صادرة من شئ يخرج من

---

(١) الهندباء: نبات عشبى عرفه المصريون القدماء، وكانوا يأكلون أوراقه كخضار، وظل هذا النبات معروفاً حتى أوائل القرن السابع عشر الميلادى، وكان معروفاً لدى الإغريق والرومان واستخدموه فى السَلَطَات وكخضار، ويساعد الهندباء على تنظيف المعدة.

أجسادنا أثناء ممارسات فينوس المبدعة. إنها حاسة اللمس مرة
أخرى التى نشعر بها عندما تهتز الذرات إثرَ صدمة فيختل ترتيبها
ومن ثم تصيب حواسنا بالاضطراب والاختلال: اضرب أىَّ جزءٍ من
جسمك بيدك أنت، وسوف تختبر هذا الأمر بالتجربة فى نفسك.
وهكذا، فلا بد أن هناك اختلافات فى أشكال الذرات كى تثير
الذرات هذه الأحاسيس المختلفة.
مرة أخرى، إن الأشياء التى تبدو لنا صلبة
وكثيفة لا بد أنها مركبةٌ من ذرات أكثر تشابكاً وترابطاً
وأنها متماسكة فى ثبات بواسطة روابط متداخلة.
يأتى فى صدارة هذا النوع أحجار الماس، بلا مبالاتها
العنيدة للضربات، وبعدها تأتى أحجار الصوان
والصلب العنيد والبرونز، تلك التى تقف ثابتةً
فى تَحدٍ صارخ فى مواجهة العواصف.
من ناحية أخرى، نجد السوائل التى لا بد أنها تدين بقوامها
المائع إلى ذراتها الدقيقة والمستديرة المكونة لها؛ حيث إن
بذور الخشخاش من الممكن أن تغرفها فى سهولة كما
تغرف الماء؛ فبذور كل واحدة منها تقف عائقاً للأخرى،
وعندما تصطدم ببعضها بعض تجرى إلى أسفل كما تفعل المياه.

الصنف الثالث هى الأشياء التى يمكنك أن تراها وهى تتبدد
أمامك فى لحظة، مثل: الدخان والسحب وألسنة اللهب.
إذا لم تكن ذراتها كلها دقيقة ومستديرة لَماَ كانت على الأقل
تستطيع أن تعيق بعضها بعضًا أو أن تتشابك،
لا بد أنها كذلك كى تخترق الجسم، وتتخلل الصخور أيضا،
لكنها لا تلتصق ببعضها، لذا يمكنك أن تدرك بسهولة أن تلك
المواد ضارة للحواس، لكنها ليست صلبة، كما أنها
مركبة من عناصر حادة ولكنها ليست متشابكة.
وقد لا تندهش أن تجد بعض الأشياء مُرَّة المذاق وسائلة.
كمياه البحر، على سبيل المثال.
هذه المياه، بما أنها سائلة، فهى تتكون من ذرات
ناعمة ومستديرة، وهى تسبب الألم لاختلاط
الكثير من الذرات الخشنة بها، وليست هناك حاجة
لتلك الذرات أن تُحشد معًا بخطافات.
من الواضح أن هذه الذرات كروية رغم أنها خشنة،
حتى تستطيع أن تدور فى شكل دائرة ومن ثم تؤذى الحواس.

من الممكن أن نوضح أن ماء نبتونوس[1] شديد الملوحة
ينتج من اختلاط الذرات الخشنة مع الذرات الناعمة.
وهناك وسيلة لفصل المكونَين وأن نراهما منفصلين بواسطة
تصفية السائل الحلو من خلال طبقات عدة للأرض حيث تنطلق
مندفعة خلال تجاويف؛ ومن ثم تفقد طعمها المالح، فهى تترك وراءها الذرات
التى تجعل المياه شديدة الملوحة وذات طعم مر، وذلك لأن هذه الذرات،
وبسبب خشونتها، تكون أكثر قابلية لأن تلتصق سريعاً بالأرض.
والآن بما أننى شرحت هذا الأمر، فسوف أضيف إلى
الشرح السابق حقيقة أخرى تستمد مصداقيتها منه؛ ومؤداها أن
عدد الأشكال المختلفة للذرات هو عدد محدود، وإذا لم يكن
كذلك فإن بعض الذرات كان لا بد أن يكون ذا حجم غير محدود.
وداخل الحدود الضيقة لأى جُزيئ بمفرده،
من الممكن أن يوجد فقط عدد محدود
من الأشكال. فلنفترض أن الذرات تتكون من
ثلاثة أجزاء متناهية الصغر، أو تزداد قليلاً بعدد أكثر،

(١) نبتونوس: إله البحار والمحيطات عند الرومان (بوسيدون عند الإغريق)، الإشارة هنا إلى مياه البحار والمحيطات وليس إلى شخص الإله.

وعندما تكون بصدد تركيب الأجزاء فى القمة أو فى القاع
أو فى اليسار أو فى اليمين من الذّرة فإنك تكون قد استنفدت
كل شكل من الممكن أن يُعطى لكل الجسم عن طريق
كل الترتيبات المحتملة للأجزاء، وأنك بوضوح قد جردت
نفسك من وسائل تنويع شكل الذرة، إلا من وسيلة واحدة،
وهى إضافة أجزاء أخرى إليها .. ومن هنا سوف يتطلب
الأمر، إذا كنت تريد أن تنوع فى شكلها أكثر،
إضافة أجزاء أخرى بالطريقة نفسها بالضبط.
وهكذا فإن التنوع فى الشكل يدل على ازدياد فى الحجم.
إنك لا تستطيع أن تصدق أن الذرات لها عدد
هائل من الأشكال المختلفة، أو أنك
سوف تُجبر بعضاً منها على أن يكون ذا حجم
ضخم جداً، وهذا أمرٌ قد بينتُ أنا سلفاً
بالدليل أن من المستحيل شرحه.
دعنى أقول لك إن الملابس الأجنبية، والثياب الأرجوانية الزاهية

من ميليبويا[1] والمصبوغة بألوان مأخوذة من الأصداف الثسالية[2]
وأجيال سلالة الطاووس الذهبية التى تمرح فى جمال أخّاذ،
كل ذلك سوف يبدو باهتاً أمام لونٍ ما جديدٍ فى العالم،
سوف يُستخف بعبير شجر المرّ ومذاق العسل،
وسوف تختفى ألحان البجعة[3] وموسيقى قيثارة فويبوس [4]
وتصمت على المنوال نفسه.
إذ إن الشئ – مهما كان – سوف يتفوق عليه شئ
آخر أكثر منه امتيازاً. وبما أن كل الأشياء الطيبة
ستستسلم لأشياء أفضل منها، كذلك سيستسلم
السيئ للأسوأ. شئ ما سيتميز عليه شئ آخر
أكثر إيذاءً للأنف أو للأذن أو للعين أو للفم.

---

(١) مدينة ميليبويا أصبحت فيما بعد مملكة فى شرق ثساليا، وقد حملت هذا الاسم نسبة إلى ميليبويا زوجة الملك ماجنيس.

(٢) ثساليا هى إحدى المناطق القديمة فى بلاد اليونان، وقد عُرفت في العصر الموكينى باسم أيوليا، وهو الاسم الذي كانت تحمله إحدى القبائل الكبيرة، والذى أُطلق على لهجتهم أى اللهجة الأيولية، إحدى لهجات اللغة الإغريقية القديمة.

(٣) أغنية البجعة هى إشارة مجازية إلى العمل أو الجهد الأخير قبل الموت أو الاعتزال، وقد كان الإغريق والرومان يعتقدون أن البجعة تظل صامتة طيلة حياتها؛ ولكنها عندما تشرف على الموت تغنى أغنية عذبة. تعود أقدم إشارة لأغنية البجعة قبل موتها إلى مسرحية أجاممنون لأيسخيلوس؛ حيث تقارن كليتيمنسترا كاسندرا بالبجعة التى تنشد نحيبها الأخير. وفى محاورة فايدو لأفلاطون يقول سقراط إن البجع لا يغنى فى حياته أغانى رائعة مثلما يغنى عند موته.

(٤) فويبوس: أحد ألقاب الإله أبوللون إله الموسيقى والفنون والضياء والنبوءات (انظر الكتاب الأول، حاشية رقم ٣٣ صـ :١٧١ أعلاه).

ولكن بما أن الأمر ليس كذلك، إذ إن الأشياء
مقيدة بحد موضوع عند كل طرف، علينا أن
نعترف أيضًا بأن للمادة عدداً محدوداً من الأشكال المختلفة.
وأخيرًا هناك ممر محدود يمتد بين الحرارة الشديدة
والبرودة القارصة، وهو مقاسٌ بمقاسٍ مماثل فى الاتجاه العكسى،
إذ إن الحرارة والبرودة والحرارة المتوسطة تقع
بين هذين الطرفين حيث تغطى كل درجات الحرارة فى تتابع.
وعليه فإن الأشياء الناتجة تختلف بقدر محدد فى درجات حرارتها،
ما دامت مميزة فى كلٍ من الطرفين بنقطة محدودة عند كل طرف،
تحدّها عند الطرف الأول باللهب وعند الطرف الآخر بالجليد.
والآن بما أننى شرحت هذا الأمر، فسوف أضيف إلى الشرح
السابق حقيقة أخرى تستمد مصداقيتها منه؛ ومؤداها أن الذرات الأولى
للأشياء التى خُلقت بذات الشكل عددها غير محدود.
ما دام الاختلاف فى الأشكال يكون محدودا،
فمن الضرورى أن تكون الأشكال المتماثلة غير محدودة،
أو أن يكون مجمل المادة محدوداً.
وهو الأمر الذى برهنت من قبل على أنه ليس كذلك[١]،

---

(١) راجع الكتاب الأول، أبيات ١٠٠٨ – ١٠٥١.

وذلك أثناء حديثى فى قصيدتى أن الأجسام
الصغيْرة للمادة قد شكلت معًا مجموع الأشياء منذ الأزل
بسلسلة متواصلة من الضربات من كل الاتجاهات.
على الرغم من أنك تستطيع أن ترى أن بعض
أنواع بعينها من الحيوانات تكون نادرة نسبيا،
وأن الطبيعة تكون أقل خصوبة فيهما.
بينما ربما يوجد فى مكانٍ آخر وبيئة أخرى وفى أراضٍ بعيدة
الكثير من تلك الأنواع فيعوض بذلك نقص عددها،
مثلما يحدث بين الحيوانات ذوات الأربع إذ نلاحظ
فى نوع الأفيال ذوات الأيدى الأفعوانية[١] آلاف لا حصر لها
من هذه الأفيال، لا بد أنها هى التى أمدت أهل الهند بهذا السد العرمرم
من العاج الذى لا يمكن لأحد أن يخترقه[٢]، إن أعداد هذه الحيوانات
كبيرة جداً، لكننا لا نرى منها سوى أنواع قليلة جدا.
ولكن للتسليم بهذا أيضاً، دعنا نفترض أنه يوجد شئٌ
واحد يولد بجسد فريد ووحيد من نوعه،

(١) المقصود هنا خرطوم الفيل الذى يشبه فى حركته حركة الثعبان والذى يستعمله مثلما يستعمل الإنسان يده فى تناول الأشياء.....إلخ

(٢) يذكر ديوخروسوستوم (Dio Chrysostom Or. 79.4) أن الهنود اعتادوا استخدام جماجم وعظام الأفيال فى بناء منازلهم حتى تستطيع مقاومة عوامل البيئة القاسية.

ودعنا نفترض أنه لا يوجد شئ مثله فى العالم كله،
اللهم إلا إذا كان هناك مدد لا ينفد من المادة التى
ربما استمد شكله منها وظهر، وإلا فلا يمكن أن يُخلق،
ولا أن ينمو أيضًا ولا أن يتغذى.
حقيقةً إن كان لى أن أزعم أيضًا أن عدداً محدوداً من الذرات المتولدة
من ذلك الشئ الواحد قد تناثرت فى الكون،
فمن أين إذن، وأين وبأي قوة، وبأي طريقة سوف تتقابل
وتتجمع فى خضم مثل هذا المحيط من المادة؟
أعتقد أن هذا العدد المميز من الذرات ليست لديه طريقة للتجمع معًا.
لكن، مثلما هى الحال، عندما يطفو حطام العديد من السفن الضخمة،
فإن البحر الفسيح اعتاد أن يبعثر مقاعد السفن الطافية
وقلوعها ومقدماتها وصواريها ومجاذيفها؛
وهكذا فإن زخارف مؤخراتها يمكن رؤيتها وهى تسبح عند كل الشواطئ،
ويمكنها إنذار البشر الفانى،
وأن يأخذوا حذرهم من غدر البحر الغدار وبطشه وخداعه؛
وألا يكونوا من السذاجة فى أى وقت،
عندما يبتسم لهم البحر الهادئ بوجهه الجذاب المخادع؛

وهكذا، لو أنك سلمت، ذات مرة، أن هناك ثمة ذرات محدودة العدد،
(فعليك أن تقبل إذن) أن الاهتزازات المختلفة للمادة
سوف تصدمها وتبعثرها (إلى الأبد)،
لدرجة أنها لن يمكنها، بعد بعثرتها جميعاً، أن تتحد فى وحدة واحدة،
أو (لو قُدر لها أن تتحد) لن يمكنها أن تبقى متحدة ويزداد حجمها بالنمو؛
وإن كلاً من (النتيجتين) يقدم برهاناً ساطعاً لما يحدث أمام أعيننا،
أى إن الأشياء يمكنها أن تولد، وبعد ميلادها تمتلك القدرة على النمو.
وعلى ذلك فإنه من الواضح أن فى كل نوع من الموجودات توجد ذرات
أولية تتزود منها كل الموجودات، وهى لا نهائية فى عددها.
وعليه، نظراً إلى أن العناصر الأصلية غير محدودة، فإن حركة الأشياء
المدمرة للوجود لا يمكنها أن تسود للأبد أو أن تقضى على سلامتها؛
وعلى الرغم من ذلك، فإنه من ناحية أخرى، ليس بمقدور الحركة
التى تخلق الأشياء وتنميها أن تحفظ دوماً الأشياء التى كونتها.
وهكذا فإن حرب العناصر التى نشأت منذ قديم الأزل،
قد نشبت فى صراعٍ متكافئ؛
تكون الغلبة للعناصر الحيوية تارة فى هذا الجانب، وتارة فى الجانب
الآخر، وتحقق كل منها النصر فى دورها. فالبكاء الذى يصدره
الأطفال عندما يخرجون لرؤية النور للمرة الأولى يمتزج (بنواح) الجنائز؛

فلا يعقب الليل النهار، أو يعقب الفجر الليل، إلا وتُسمع
تأوهات النواح الذى يصحب الموت ومراسم الدفن الحزينة
مشوبة ببكاء الولدان الواهن (عند مولدهم).
(ونظرا لأهمية) هذه النقاط، فإنه جدير بك أيضًا أن تطبع
فى عقلك كالخاتم وأن تحفظ فى ذاكرتك عن ظهر قلب،
أنه لا يوجد شئ (من بين كل الموجودات) التى تظهرها الطبيعة
أمامنا يحتوى على نوع واحد فقط من الذرات،
فكل شئ يتألف من ذرات أولية ممتزجة ببعضها.
وما يحتوى فى ذاته على الكثير من القوى والطاقات (على نحو
أكبر من الأشياء الأخرى)؛ يبدو أنه يحتوى داخله على
أنواع عديدة من الذرات الأولية متباينة الصور فيما بينها.
فى المقام الأول، تحتوى الأرض فى ذاتها على الذرات الأولى،
والتى منها تمد باستمرار الينابيع - التى تتدفق بمياهها الباردة -
البحر الفسيح؛ وتحتوى أيضًا على ذرات تنشأ منها النيران.
لأنه فى العديد من الأماكن يحترق أديم الأرض عندما تُضرم فيه
النار، وتثور ثائرة بركان إتنا[1] العنيفة من الأعماق بحمم هائلة.

---

(١) جبل إتنا: جبل بركانى نشط يقع فى الساحل الشرقى لصقلية، بالقرب من ميسينا وكاتانيا، وهو يعد أعلى جبل بركانى نشط فى أوروبا؛ حيث يبلغ ارتفاعه ما يقرب من أحد عشر ألف قدم.

فضلاً عن ذلك فإن الأرض تحتوى على الذرات التى تخرج
الغلال الغنية وحدائق ذات بهجة لسلالات البشر؛
ومن ذراتها أيضًا يمكنها أن تقدِّم الأنهار وأوراق النبات الخفاقة
والمروج الخصيبة لسلالة الوحوش البرية التى تجوب الجبال.
ولهذه الأسباب يُطلقَ على الأرض وحدها الأم العظمى[1]
للآلهة، وأم الوحوش، ووالدة الجنس البشرى.
هى التى تغنى بها المثقفون من شعراء الإغريق الأقدمين
(كيف أنها من مقعدها) فوق عربتها الحربية تقود زوجاً من الأسود شُدًّا معا
إلى نير العربة، ويشير هذا إلى أن الأرض الرحبة معلقة فى فضاء الهواء،
وأن الأرض لا يمكنها الاستقرار فوق أرض أخرى.
ولقد شَدّوا الأسود إلى النير، كناية على أن أي ذرية، مهما كانت متوحشة،
يجب أن تُرَّوض، عندما تتأثر بتربية الوالدِيْن الحسنة.
وقد أحاطوا قمة رأسها بتاج جدارى (حصين)،

تروى الأساطير أن زيوس فى حربه مع التياتن قد دفن التيتن تيفون أسفل منه، كما أن الإلـه هيفايستوس قد اتخذ من قعره مقراً له. كما يُروى عن الفيلسوف إمبيدوكليس (٤٩٣-٤٣٣ ق.م.) أنه قد ألقى بنفسه فى فوهته ليحظى بالخلود، حيث تقول نظريته عن "التطهير" أنه باتباع قواعد بعينها للتطهير يمكن للروح أن تنعم بالخلود. وفى إحدى شذراته يخاطب مواطنى مدينة أكراجاس "Acragas" قائلاً: "إننى أسير بينكم كإله خالد، إننى لم أعد بشراً فانياً، فإننى مبجل من الجميع، كما يليق بى". (Fr. 112 Diels).

(٢) الأم الكبرى هى الربة كيبيلى وهى ربة فريجية ترمز إلى الأرض، وترتبط أسطورتها بقصة مولد جوبيتر.

لأن الأرض تحمى المدن لأنها محصنة فى الأماكن المرتفعة؛
ولأنها قد تزينت بمثل هذه الزينة فإن تمثال الأم المقدسة عندما
يُحمل عبر العالم الفسيح فإنه يبث الرعب (فى القلوب).
هى التى نادت بها شعوبها المختلفة فى طقوس عبادتها وفقا
لعاداتهم القديمة الأم الإيدية(١) وجعلوا لها فِرَقاً فريجية(٢) كأتباع
لها، لأن الناس يقولون إن من هذه البقاع كان أول إنتاج
للقمح، (ومنها انتشر) فى كل ربوع الكرة الأرضية.
وجعلوا (لها أيضاً) الجاللى(٣)، لأنهم أرادوا أن يبرهنوا على أن أولئك
الذين تعدَّوا على جلال الأم ووُجدوا عاقين لأبويهم،
يجب أن يُنظر إليهم بأنهم غير جديرين بإنجاب
ذرية تخرج إلى أقطار النور.
وفى أيديهم تدوى الطبول المشدودة وتطنّ الصنوج المجوفة حول

---

(١) نسبة إلى جبل إيدا.
(٢) فريجيا هى مملكة قديمة فى الوسط الغربى من أناتوليا (تركيا حالياً)، وقد كان الفريجيون، كما ورد فى إلياذة هوميروس، هم حلفاء الطرواديين فى حرب طروادة، وقد بلغ الفريجيون ذروة مجدهم فى نهاية القرن الثامن قبل الميلاد فى عهد الملك ميداس.
(٣) الجاللى (ومفردها جاللوس): هم كهنة الربة الفريجية كيبيلى، وكان على من يرغب أن يصبح كاهناً أن يخصى نفسه ويدفن عضوه الذكرى فى الأرض لكى تسرى الخصوبة فى الأرض وتخرج الثمار. وقد حضر الجاللى إلى روما للمرة الأولى عام ٢٠٤ ق.م. عندما وافق مجلس الشيوخ الرومانى على ضم عبادة الربة كيبيلى إلى الديانة الرومانية، لكنهم منعوا الرومان من العمل ككهنة لها، وعلى هذا كان جميع الكهنة من العبيد أو الأجانب.

(الربة)، وتصدر الأبواق تهديدها بصوتها الأجش،
بينما المزمار ذو الثقوب يحرك النفوس بنغماته الفريجية.
ويحملون الأسلحة (الموضوعة) أمامهم كناية عن غضبهم الشديد،
ما قد يصيب بالرعب عقول عامة الناس الجاحدة وقلوبهم
غير الورعة، (فيشعرون بالخوف) من بطش الربة.
ولهذا بمجرد أن تمر بعربتها عبر المدن العظيمة
وتنعم فى صمت على البشر بركتها الخفية،
ينثرون درب رحلتها كله بالفضة وقطع النقود
ويثرونها بهدايا سخية ويمطرونها بوابل من زهر
الورود، ويظللون الأم وحاشيتها من الأتباع.
هنا توجد ثمة فرقة مسلحة التى يطلق عليها الإغريق
اسم الكوريتيس[1]الفريجى، لأنهم يلعبون بالسلاح فيما بينهم،
ويقفزون على نغماتها وهم مضرجون بالدماء،
ويومئون برءوسهم فتهتز ريش خوذاتهم المخيفة،
وبذلك يعيدون للأذهان ذكرى الكوريتيس الديكتية[2]الذين قيل

(١) الكوريتيس هم كهنة الربة كيبيلى، وكانت ريا أم جوبيتر قد عهدت بوليدها إلى الكوريتيس ليقوموا برعايته بعد مولده كى لا يبتلعه أبوه ساتورنوس، وكانوا يرقصون على إيقاع الدفوف والدروع عندما يبكى الوليد كى لا يسمع ساتورنوس صوت بكائه.
(٢) نسبة إلى جبل ديكتى فى جزيرة كريت.

إنهم ذات مرة أخفوا بكاء جوبيتر (فى طفولته) فى جزيرة كريت،
عندما أحاط غلمان مسلحون بالوليد فى رقص سريع
وهم يقرعون دروعهم البرونزية بحرابهم البرونزية،
وذلك كى لا يتمكن ساتورنوس[1]من الإمساك به ويلقى به
بين فكيه فيحدث فى قلب أمه جرحاً أبدياً.
ولهذا السبب فإن رجالاً مسلحين يرافقون الأم العظمى،
أو لأن (الكهنة بذلك) يقصدون أن الربة تعظ (الرجال) بأن يرغبوا
فى الدفاع عن أرض وطنهم بالسلاح والشجاعة،
وأن يعدوا أنفسهم لأن يكونوا مصدر حماية وفخر لآبائهم.
وعلى الرغم من أن هذه القصة قد قدمتها على نحو جيد وفائق،
فإنها تبتعد – إلى حد كبير – عن التفكير السديد.
لأن جل طبيعة الآلهة ينبغى أن تتمتع فى ذاتها
بحياة خالدة وبأقصى درجات السكينة،
فهى فى معزلٍ وبعيدة كل البعد عن شئوننا؛
إذ إنها لا يصيبها أى ألم، ولا تتعرض للخطر،

---

(٣) ساتورنوس هو أحد التياتن وقد تمكن من طرد والده أورانوس واستولى على حكم الكون، ومن ثم خشى ساتورنوس من أن يستولى أحد أولاده على الحكم منه؛ فكان يبتلع كل مولود تنجبه زوجته ريا، لكن الزوجة استطاعت خداعه وأنقذت مولودها الأخير جوبيتر الذى تمكن من الاستيلاء على الحكم منه بعد أن كبر، لكنه قسم حكم الكون بينه وبين أخوته.

فهى ذاتها قوية بقدراتها الذاتية، ولا تحتاج إلينا فى شئ على الإطلاق،
فلا تُسترضى بصلوات (العبد الصالح) ولا يعتريها الغضب (من المسىء).
فإن أزمع شخص ما هنا أن يسمى البحر نبتونوس
والغلال كيريس[١]، واختار بدلاً من أن يسئ استعمال اسم باكخوس[٢]
أن يطلقه كتعريف ملائم للخمر،
دعنا نسمح له بأن يطلق على الكرة الأرضية
أم الآلهة، بشرط أن يمتنع بحق عن أن يصيب
عقله بعدوى الخرافة الزائفة.
فالأرض فى حقيقة الأمر تفتقر إلى الشعور الحقيقى فى كل حين،
بيد إنها بسبب احتوائها على العناصر الأولى للكثير من الأشياء،
تخرج الكثير من المحاصيل بسبل عديدة إلى نور الشمس.
(وبالعودة إلى التنوع اللا محدود للذرات فإننا كثيراً ما نرى أن)
الأغنام ذات الصوف تأكل الكلأ من السهل نفسه

---

(١) تعد الربة كيريس فى الديانة الرومانية ربة الزراعة ومحاصيل الغلة عموماً، وهى ربة الخصوبة ايضًا والأمومة وقد قُرنت عبادتها فيما بعد بعبادة ابنتها بروسربينا، وكان الرومان يحتفلون بها فى شهر أبريل حيث تُقام الألعاب الكيريالية، وهى تساوى الربة ديميتر عند الإغريق.

(٢) باكخوس: هو إله الكرْمِ والنبيذ عند الإغريق والرومان، وهو من أقدم آلهة الإغريق فقد عرفوه فى العصر الموكينى، بل ومنذ العصر المينوى، وقد كانت شعائر عبادته وراء نشأة فن الدراما، التراجيديا والكوميديا. عُرف ديونيسوس باسم باكخوس، وهو الاسم الذى استخدمه الرومان وأطلقوه على احتفالاته وممارسات أتباعه الماجنة أى احتفال الباكخاليا.

مع سلالة الجياد المحاربة ومع الأبقار
ذوات القرون تحت قبة السماء نفسها،
ويطفئون ظمأهم من مياه نهر واحد،
بيد أن كل منها ينمو فى شكل مختلف وتحافظ كل سلالة
على طبيعة أبويها وتحاكى دروبها كل بحسب نوعه.
ثمة تباين عظيم للغاية لطبيعة المادة فى كل نوع
من الكلأ، وكذلك للذرات فى كل نهر.
ومن ثم أيضًا فإن أى كائن حى من كل(تلك المخلوقات)
يتكون مع ذلك من عظام ودماء وأوردة وحرارة ورطوبة وأحشاء
وأعصاب؛ فتلك الأشياء، التى هى أيضًا مختلفة عن بعضها إلى حد بعيد،
قد تكونت من ذرات ذات أشكال بالغة الاختلاف.
فضلاً عن ذلك فإن أى شئ تشتعل فيه النار يحترق،
إن لم يوجد شئ آخر، فإنه يخفى فى مادته تلك الذرات
التى تمكنه من أن يصدر النار ويرسل النور
وأن يشع وينثر جذى النار من حوله.
إن تختبر الأشياء الأخرى بطريقة التفكير نفسها،
ستجد أنها تخفى فى مادتها ذرات الكثير من

المخلوقات وأنها تحتوى على (ذرات ذات) أشكال متنوعة.
وأخيرًا فإنك ترى أشياءً كثيرة تمتلك اللون والمذاق
بالإضافة إلى الرائحة؛ ويأتى على رأسها أغلب الهبات
(التى تُقدم للآلهة وتُشعل النار فيها فينبعث الدخان من مذابح الآلهة)؛
وعلى ذلك ينبغى أن تحتوى هذه الأشياء على أشكال عديدة من الذرات؛
لأن الرائحة تنفذ داخل أعضاء الجسد فى حين أن اللون لا ينفذ،
واللون، أيضاً، يتسلل إلى حواسنا من طريق، والمذاق من طريق
آخر؛ وهكذا قد تدرك أنها تختلف عن بعضها فى أشكال ذراتها.
وعلى هذا تتحد (ذرات) ذات أشكال متباينة فى مادة واحدة،
وتحتوى الموجودات على خليط من الذرات.
بل وأيضًا، فى كل أبيات شعرى ذاتها
ترى الكثير من الحروف المشتركة بين الكثير من الكلمات،
على الرغم من أنه عليك الاعتراف بأن أبيات الشعر والكلمات تتباين
فيما بينها، وتحتوى كلمات أخرى على حروف أخرى؛
وذلك ليس لأن هناك ثمة حروف قليلة للغاية تجرى فى (الكلمات)،
ولا لأن هناك كلمتين (بمقارنتهما نجد أنهما) يتكونان من الحروف نفسه،
بل لأن جميع حروفها لا تتطابق مع جميعها كما هو شائع.

وهكذا، فى الأشياء الأخرى أيضاً، على الرغم من أن الكثير من الذرات
تكون مشتركة بين الكثير من الأشياء، فإنه عند مقارنة أحد هذه
الأشياء بالآخر نجد أنها تتألف من عناصر غير متشابهة
تماما؛ لذا فالجنس البشرى والمحاصيل والحدائق الغناء
يجب أن تتكون حقًا من ذرات مختلفة.

على أي حال؛ لا ينبغى الاعتقاد أنه بمقدور كل الذرات الاتحاد
بشتى السبل؛ لأنه (لو كان الأمر كذلك) سترى فى الوجود مسوخاً،
وستظهر للوجود أصناف من البشر نصفها بشرى ونصفها لحيوانات،
وقد تنبت أحياناً أغصان عالية من جسد حى،
وأن تتحد الكثير من أعضاء مخلوقات أرضية مع أخرى بحرية،
وأن الطبيعة ترعى فوق الأرض أم الجميع وحوش
الخيمايرا[١] التى تنفث لهباً من حلقها المخيف.
فمن الواضح أنه لا شئ من هذه الأشياء يحدث، حيث إننا
نرى أن كل الأشياء التى تنشأ من ذرات بعينها من قبل
بمقدورها بعد نموها الحفاظ على نوعها.

---

(١) الخيمايرا: وحش أسطورى ينفث اللهب من فمه، وقد عُرفت فى منطقة ليكيا فى آسيا الصغرى، وكان جسدها مركب من ثلاثة مخلوقات: لبؤة وعنزة وأفعوان، وقد تمكن البطل الأسطورى برسيوس من قتلها.

قطعاً، يجب أن يحدث هذا وفقاً لقانون ثابت:
لأن داخل كل شئ تنتشر ذراته هو المستمدة من
غذائه هو، وباتحادها تصدر الحركات
المناسبة (لكل كائن)؛ لكن على النقيض من ذلك فإننا نرى أن
الطبيعة تقذف مرة أخرى الذرات الغريبة بعيدًا نحو الأرض، فيفر
الكثير منها بفعل الصدمات بأجسادها الخفية من الجسد[١]،
فتلك الذرات ليس بمقدورها أن تتحد مع أى عضو ولا يمكنها
أن تشعر داخله بحركاته الحياتية فتحاكيها.
لكن لا تحسبن بالصدفة أن الكائنات الحية وحدها هى المحكومة
بتلك القوانين، فذلك القانون يسرى على كل الموجودات.
ولأن كل الأشياء التى خلقت، مثل كل الطبيعة، تختلف،
إنها تختلف عن بعضها بعض، لذا فإن على كل شئ منها
أن يحتوى على ذرات ذات أشكال متباينة؛
وذلك ليس لأن الذرات التى حظيت بشكل متشابه قليلة للغاية،
بل لأنه بوجه عام ليست كلها متساوية مع كلها.
وحيث إن الذرات، علاوة على ذلك، تكون متباينة، فينبغى أن تتباين

---

(٢) المقصود هنا هو هواء الزفير الذى يخرج أثناء عملية التنفس.

أيضًا المسافات بينها ودروبها والروابط بينها وأوزانها وتصادماتها
ولقاءاتها وحركاتها، تلك الأشياء التى لا تميز فقط بين
أجسام الكائنات الحية، بل وأيضًا تفرق بين الأرض
والبحر وتفصل السماء كلها بعيدًا عن الأرض.
والآن تدبر كلماتى التى نظمتها بجهد عذب
وتلقاها، وذلك لكيلا تعتقد مصادفة أن الأشياء التى تراها
أمام عينيك بيضاء قد تكونت من ذرات بيضاء،
أو تظن أن تلك التى تبدو سوداء تتكون من ذرات سوداء اللون؛
أو تفترض أن الأشياء الأخرى التى تكون مخضبة بأى
لون آخر اتشحت بذلك اللون؛ لأن ذرات
مادتها تخضب بلون مماثل له.
ليس هناك أى لون على الإطلاق – يوجد فى ذرات المادة –
لا يماثل لون الذرات التى توجد فى هذه المادة ولا يخالفه.
لكن إن اتفق وظننت أن الذهن ليس بمقدوره أن يتطرق إلى طبيعة
هذه الذرات، فإنك تشرد بعيدًا جدًا عن الصواب.
لأنه عندما يولد المرء كفيفا، لم ير ضوء الشمس
قط، لكنه مع ذلك يميز المواد عن طريق حاسة اللمس،

التى لا تمت بصلة لأى لون منذ يوم مولده،
لعلك تكون على يقين من أن المواد التى لم تلون
بأى لون يمكن للعقل أن يدركها.
كما أننا عندما نلمس أى شئ فى الظلام الدامس،
لا نشعر بأنه غمس فى أى لون على الإطلاق.
وبعد أن أثبت أنه يمكن (أن يحدث ذلك) لتلك الذرات عديمة اللون، سأشرح
الآن أن كل لون بمقدوره التحول إلى لون آخر مهما كان؛
بيد أن هذا التحول ينبغى ألا تعانيه عناصره الأولية بأى حال؛
لأن شيئاً ما يجب أن يبقى غير عرضة للتغيير،
فكل الأشياء لا يمكن أن تُرَد برمتها إلى العدم.
لأن الشئ الذى طرأ عليه التغيير بالفعل يكون قد تخطى حدودِ طبيعته، وهذا
يعد بمثابة الموت الفورى للطبيعة التى كان عليها من قبل.
ولذلك حذار أن تخضب بذور الأشياء بألوان،
وإلا ستجد أن جميع الأشياء تمضى كلية إلى العدم.
فضلاً عن ذلك لو أن أى لون لم يرتد إلى
عناصره الأولى وحُبى بأشكال متنوعة؛
والتى منها أُنتجت جميع ضروب الألوان المختلفة

لهذا السبب، لأنه عظيم التأثير
بأى ذرات وفى أى ترتيب تنفصل الذرات كل بمفردها،
وأى تصادمات تعطى وتستقبل بالتبادل،
إذن يمكنك من فورك بمنتهى اليسر إيجاد سبب التحول
المفاجئ لتلك الأشياء التى كانت سوداء اللون فيما مضى،
إلى اللون الأبيض الرخامى الناصع؛
ولهذا السبب يمكنك بسرعة القول، إننا نراه بوجه عام كأنه أسود اللون،
فعندما تكون ذرات مادته مختلطة ويتغير نظام ذراته
بعض الشئ كونها أُضيف إليها شئ ورُفع عنها شيئا آخر،
ومن ثم يتحول من فوره فيبدو أبيض ناصعاً.
بيد أنه لو كانت مياه البحر مؤلفة من ذرات ذات لون أزرق
سماوى، ليس بمقدورها – على أى حال – أن تصبح بيضاء؛
لأنك مهما خلطت ذرات زرقاء اللون،
لا يمكنها أبداً أن تتحول إلى لون الرخام.
أو لأن الذرات التى تؤلف اللون
البراق الصافى للبحر،
تتألف فى أغلب الأحيان من أشكال مختلفة وصور

تكونت على هيئة صورة متسقة، تتألف من شكل واحد فقط
وينشأ عن ذلك أن – كما هى الحال فى المربع – نرى
صوراً أخرى مغايرة يحتوى عليها، لذلك فإنه فى سطح البحر
أو فى أى لون آخر براقٍ وصافٍ يجب أن نرى ألواناً
عديدة بالغة التفاوت عن بعضها بعض يتشأ منها لون البحر المتوافق ،
كما أن الأشكال المتباينة التى يتركب منها المربع لا تعوق مجمل
الشكل من أن يكون مربعاً من الخارج أو تمنعه من أن يبدو كذلك؛
بيد أن الألوان العديدة لكل المواد تعيق المادة
المركبة كلها من أن تكون بريقاً واحداً متسقاً وتحرمها منه.
ثم فضلاً عن ذلك؛ فالدافع الذى يقودنا أحياناً ويحملنا على أن نعزو
الألوان إلى الذرات التى تلون المواد المكونة منها تؤول إلى العدم؛ لأن المواد
البيضاء كزبد البحر مثلاً لم تتألف بالضرورة من مواد أخرى بيضاء اللون،
ولا المواد السوداء تتألف من مواد أخرى سوداء لكن من مواد متباينة الألوان.
ولأنه علاوة على ذلك تنشأ المواد بيضاء اللون على نحو أكثر يسراً؛
بواسطة ذرات تفتقر إلى اللون على نحو أشد من ذرات المواد ذات اللون الأسود
أو من ذرات لون آخر مهما كان مضاداً للون الأبيض ومخالفاً له.
ولأن الألوان أيضًا لا يمكنها الوجود من دون ضوء
ولأن عناصر الأشياء الأولى لا تخرج فى وجود الضوء،

من هنا كن على يقين من أنها لا تكتسب لوناً على الإطلاق.
لأنه ما نوع اللون الذى بإمكانه أن يظهر فى الظلام الدامس؟
لا لون، فاللون يتغير بفعل الضوء فقط لأن الألوان
تتفاوت وفقاً لتأثير الضوء سواء كان مباشراً أو مائلاً؛
حتى عندما يبدو ريش الحمام القمرى مختلفاً عندما يُرى فى الشمس،
الريش الذى يغطى رأسه ويطوق عنقه،
فيبدو من ناحية أحمر اللون كالعقيق الأحمر الوهاج،
ومرة أخرى عندما تتأمله من ناحية أخرى وفى وقت آخر
(ستجد) أنه يتغير تمامًا ليبدو كاتحاد الأخضر الزمردى بالأزرق.
ثم إن ذيل الطاووس، عندما يغمر فى ضوء ساطع،
على ذلك المنوال يغير من ألوانه عندما يدور؛
ولأن هذه الألوان جميعاً تنتج بفضل تأثير ما للضوء،
كن على ثقة من أن اللون لا يمكنه الظهور على الإطلاق من دون ذلك الضوء.
ولأن بؤبؤ العين يستقبل نوعاً واحداً من
التأثير، عندما يُقال إنه يرى لوناً أبيض،
ويستقبل تأثيراً آخر تمامًا عندما يرى اللون الأسود والألوان الأخرى،
ولأنك عندما تلمس شيئاً ما لا يهم فى شئ ما لون هذا

الشئ، ولكن بالأحرى ما الشكل الذى يكون عليه هذا الشئ،
يمكنك أن تستنتج أن الذرات ليست فى حاجة إلى الألوان،
بيد إنها فقط تبث ضروباً شتى من المؤثرات لصورها المتباينة التى تتألف منها.
فضلاً عن ذلك لأنه يُعيِّن لوناً بعينه
لكل شئ ولأن جميع صور الذرات
توجد فى أى لون كان،
إن افترضنا أن الذرات تكون متنوعة الأشكال ذات الألوان
فلماذا – بناءً عليه – تخضب الأشياء بألوان من جميع الضروب؟
لأنه وفقاً لهذا الافتراض نتوقع أن الغربان أيضًا عندما تحلق فى الهواء
ينبغى أن تطرح اللون الأبيض غالبًا عن ريشها؛
وجُبلت طيور البجع سوداء اللون من بذرة سوداء
أو فى حقيقة الأمر من ذرات من أى لون آخر سواء كان متسقاً أو مزرقشا.
علاوة على ذلك فإن كل جسم عندما ينقسم إلى جزيئات
صغيرة، تجد أن بمقدورك رؤية
لونه يتلاشى تدريجياً ويخبو؛
مثلما يحدث عندما تمزق الصوف الأرجوانى إلى أجزاء صغيرة؛
فإن الأرجوان واللون القرمزى أشد الألوان نصوعاً،

يُحرم تمامًا من رونقه، عندما تنحلَّ خيوط الصوف؛
لذلك لعلك تستنتج من هذا أن الذرات تذرف لونها كله
قبلما تتحول إلى بذور الأشياء (ذراتها الأساسية).
فضلاً عن ذلك لأنك تفترض أن بعض المواد لا تصدر
صوتاً أو تبعث رائحة، ومن ثم يحدث أنك
لا تعزو صوتاً أو رائحة لجميع المواد؛
ولذلك لأننا لا نستطيع رؤية جميع المواد بأعيننا المجردة،
سندرك أن بعض المواد لا نراها بقدر ما تفتقر
إليه من لون وأخرى تكون من دون رائحة أو محرومة من الصوت،
وأن العقل الأريب بإمكانه أن يدرك أن هذه المواد عديمة اللون
ليست بأقل من الأخرى التى تفتقر إلى الخواص الأخرى.
لكن ألا تتخيل بالصدفة أن الذرات
تظل خالية من اللون فقط، فإنها أيضًا تفتقر إلى
كل من الحرارة والبرودة معاً،
وتدرك أيضًا أنها مجردة من الصوت وجافة من كل رطوبة،
ولا تصدر أي رائحة تنبعث من جسمها.
حتى عندما تشرع فى إعداد الخلاصة العطرية لنبات البردقوش أو المر

المكاوى أو زهرة الناردين التى تتضوع أريجاً للأنوف،
فإنه بين الأولويات التى عليك أن تجدَّ فى البحث عنها،
هو زيت عديم الرائحة،
لا تنبعث منه رائحة للأنوف،
لذلك لعل طبيعته ذات حرافة طفيفة بقدر
الإمكان حتى يُفسد العطور التى تخلط بمادته وتغلى معه،
وللسبب نفسه يجب ألا تفترض أن ذرات
الأشياء تنقل أى رائحة،
ولا أى صوت، لأنها ليس بمقدورها إصدار أى خاصية من هذه الخواص
من تلقاء نفسها؛ وعلى نحو مماثل ليس لها مذاق على الإطلاق
ولا برودة أو حرارة أيضًا ودفء معتدل،
وجميع الخواص الأخراص؛ فلأن طبيعتها هكذا فإنها قابلة للفناء،
على كل الأحوال فالمادة الرقيقة المذعانة، والمحطَّمة القصيمة، وقليلة
الكثافة كثيرة المسام، التى تمتلك هذه الخواص جميعاً يجب أن تبتعد عن
الذرات، إن وددنا وضع أصل فان للأشياء عليه تعتمد سلامتها
ولا يُرَد الوجود بأسره إلى لا شئ؛
وإلا ستجد أن جميع الأشياء تمضى كلية إلى العدم.
والآن من الضرورى لك أن تلاحظ أن تلك المخلوقات

التى تملك مشاعر تتألف مع ذلك من ذرات لا
تملك مشاعر. فلا تدحض الحقائق الجلية هذا
ولا تعارضه، فالأشياء معروفة بوضوح لنا،
لكن بالأحرى تقودنا بنفسها من أيدينا وتجبرنا على الاعتقاد أن الكائنات
الحية، تُخلق من ذرات تفتقر إلى الشعور، كما ذكرت من قبل.
لأنك ربما تلاحظ أن ديداناً تنشأ حية من
الروث ذى الرائحة الكريهة، عندما تصاب الأرض الرطبة
بفعل الأمطار المفرطة (بنوع من العفن)
كما ترى جميع الأشياء الأخرى تتحول بالمنوال نفسه (إلى أشياء أخرى).
فتتحول الأنهار إلى أوراق النبات والمروج الناضرة ـ
إلى ماشية، وتحول الماشية طبيعة مادتها إلى تلك الطبيعة
التى تميز أجسادنا، ومن أجسادنا تزداد قوة تلك
الوحوش البرية وتلك الطيور الجارحة.
لذلك تحول الطبيعة جميع ضروب الطعام إلى أجسام
حية؛ ومن ثم تنتج كل مشاعر الكائنات الحية على نحو
لا يختلف كثيراً عن ذلك الذى عن طريقه توضع أعواد الحطب (الجافة)
فى ألسنة اللهب وتحولها إلى مواد قابلة للاشتعال (أى إلى نار).

هل ترى إذن الآن مدى أهمية معرفة النسق الذى
فيه تنتظم جميع ذرات الأشياء كل بمفرده
وبأى ذرات أخرى تختلط لتعطى الحركة وتستقبلها؟
فضلاً عن ذلك، ما ذلك الشئ الذى يثير عقلك، وما الذى
يحركه هو نفسه ويجبره على التعبير عن المشاعر المتنوعة،
فلا تعتقد أن الشئ الذى يتمتع بالإحساس يولد من ذرات تفتقر إلى الإحساس؟
لا شك أن الأحجار وكتل الخشب والأرض، على الرغم من أنها
تمتزج ببعضها، فإنها لا يمكنها أن يصدر عنها مشاعر حية.
وعلى ذلك سيكون من اللائق فى هذه الأمور أن تتذكر،
أننى لم أقل إن مَنْ يمتلك الشعور أو أن المشاعر (نفسها) خُلقت –
بطبيعة الحال – من جميع (الذرات) التى أوجدت الأشياء بوجه عام،
إلا أنه من المهم فى المقام الأول (معرفة) كم هى بالغة الصغر تلك الذرات
التى تكونها، والتى تخلق كائناً له شعور، وما الشكل الذى حُبيت به،
وأخيرًا ما حالها فى حركتها وترتيبها ومواضعها.
وفيما يتعلق بهذا الشأن؛ فإننا لا نرى أى شئ يحدث لكتل الخشب والطين،
إلا أنها عندما تصاب بالعفن بفعل المطر،
فإنها تنتج ديداناً صغيرة لأنه بعد أن ترتحل ذرات المادة

عن ترتيبها القديم بفعل قوة دافعة جديدة؛
فإنها تتحد على منوال لا غنى عنه للكائنات الحية كى تُخلق.
علاوة على ذلك؛ فإن أولئك (الفلاسفة) الذين قرروا أن الكائن الذى يشعر
يمكن أن يُخلق فقط من ذرات حُبيت بمشاعر،
(وقد دأب أولئك الفلاسفة على تطبيق آراء آخرين)
إذ جعلوا تلك الذرات ملساء؛ لأن الشعور يتصل
بالأحشاء والأعصاب والأوردة، وجميع (المواد) الملساء
التى نرى أنها توجد وتنشأ على شكل جسد فانٍ.
لكن دعنا نفترض للحظة أن هذه (الذرات التى تتألف منها الكائنات الحية) تبقى
للأبد .. وعلى الرغم من كونها حساسة وملساء فيجب إذن أن تملك الشعور
كجزء من (الكائنات الحية) أو لأنها مماثلة للكائنات الحية.
والحق أنها لم تتمكن (كونها جزءاً) من إيجاد الشعور من تلقاء نفسها؛
لأن كل جزء أو عضو إن انفصل عن الجسد فإنه ينزع معه مشاعره؛
فليس بإمكان اليد ولا أى جزء من الجسد
على الإطلاق أن يحتفظ بمفرده بشعور (الجسم كله).
لذلك يبقى أنها يجب أن تماثل جميع الكائنات الحية.
وينبغى لها أن تحيا عن طريق الشعور الحى،
(الذى) يجعل بمقدورها الشعور معنا فى كل موضع بواسطة الحواس الحية.

كيف يكون من الممكن إذن تسميتها العناصر الأولية للأشياء
وتتجنب دروب الموت، عندما تتألف من (طبيعة) حية،
(بوجودها نفسها) فى كائنات حية فانية وتكون واحدة ومماثلة (لهم)؟
ومع ذلك (إن افترضنا أن) تلك (الذرات) على الرغم من كونها لا تفنى،
و(نظراً لتمتعها بالمشاعر) فإنها بالضرورة فى تلك الحالة لا تولِّد شيئاً إلا
حشداً من الكائنات الحية، تماماً مثل البشر والماشية والوحوش البرية
التى ليس بمقدورها التولد بمفردها عن طريق اتحادها فيما بينها.
لكن إن (تقل إن الذرات التى تملك الشعور) ألقت عن نفسها أثناء اتحادها
شعورها الخاص بها واستقبلت آخر، فما حاجتها لأن نعزو إليها ما فقدته
سابقاً؟ ثم، فضلاً عن ذلك، بالعودة إلى المثال السابق،
فمثلما أننا نرى أن بيض الطيور يتحول إلى
أفراخ وأن الديدان تنتعش، عندما يؤثر (نوع من)
العفن بفعل الأمطار الشديدة على الأرض،
فإن علينا أن نعلم أن (الكائنات الحية التى تملك) مشاعر
يمكن أن تولد من أشياء تفتقر للمشاعر.

لكن إن حدث أن قال شخص ما إن الموجودات التى تملك مشاعر إنما
تنشأ بلا ريب من ذرات لا تملك شعوراً، لكن يجب أن يتأثر هذا ببعض
التغيير (الذى يحدث فى تلك الذرات) أو كأنه يحدث بفضل ميلاد جديد منها،

وقبلما يظهر الموجود الذى يملك حواساً (إلى الوجود) سيغنى عن البيان
إثبات أن الميلاد لا يحدث أبداً لو لم يوجد اتحاد من قبل
وأن تغييراً لا يحدث إلا عن طريق اتحاد الذرات.
وفى المقام الأول لا يمكن وجود شعور فى جسد أى (كائن حى)
من قبل أن يكون الكائن الحى قد وُجد بالفعل،
نظراً لأن المادة (التى تفتقر إلى الشعور تكون بطبيعة الحال قد تفرقت
خارجاً (وانتشرت) فى الهواء والأنهار والأرض وفيما ينبت من الأرض،
وعلى الرغم من اتحادها معًا على نحو مناسب
فإنها لا تؤلف من تلقاء ذاتها تلك الحركة الحيوية الملائمة (لذلك الاتحاد) عن طريق جميع مشاعر (الكائنات الحية) المرصودة التى (توجه) وتحفظ كل كائن حى.
فضلاً عن ذلك؛ فإن كل كائن حى إن تلقى ضربة أعظم
من أن تتحملها طبيعته، يصاب بالربكة على الفور وتدفع
حواس الجسد كله والعقل إلى الاضطراب؛
لأن ترتيب العناصر الأولى يتبدد
وتُعاق الحركة الحياتية تمامًا،
إلى أن تنتشر الصدمة فى جميع مادة الجسد،
فتُحلُّ من الجسم روابط الروح الحية

وتزهق الروح مبعثرة خارجة عبر فتحات (الجسد).
إذ ماذا نعتقد ما بمقدور ضربة واقعة على الجسم
أن تفعله، لو لم تصبه كله من الخارج وتحطمه؟
يحدث أيضًا أن تكون الضربة الواقعية أقل عنفاً
فتخلف عندئذ حركة حيوية كثيراً ما تنتشر وتنتشر
(حول هذه الضربة) فتُهدِّئ الاضطرابات الشديدة (الناجمة) عن الضربة
وتعيد مرة أخرى كل شئ إلى مجرياته المألوفة
وتنفض عن (الجسم) حركة الموت عندما تثبت قوتها فى الجسد
وتبعث الشعور مرة أخرى بعدما كان قد فُقد تقريبًا.
لأن الكائن الحى يتمكن تحت أى تأثير من العودة إلى الحياة
وتتجمع مادة عقله مرة أخرى من عتبة الموت، على نحو أشد من
تخطى ذلك (الحد)؛ حيث يكون قد كاد مجرى حياته أن يمضى ويقضى أمره؟
علاوة على ذلك فالألم يقع عندما تُهاجم جزيئات مادة
(جسد حى ما) بأى قوة عبر الأنسجة العضلية والأعضاء
فتضطرب من منازلها البعيدة (وتُساق بعيدًا عن أماكنها المناسبة)،
وعندما تعود إلى مكانها، يتبع (ذلك) لذة عذبة،
من الإنصاف الإشارة إلى أن الذرات لا يمكن أن تتأثر بأى ألم

وليس بمقدورها التمتع بأى لذة من تلقاء ذاتها؛
ولكنها لا تتألف من عناصر أولية،
فإنها لا تعانى ألماً فى حركتها
أو تجنى أى ثمرة للذة اللطيفة (الناجمة عن التحول).
لذلك يجب ألا يُعتقد إنها حُبيت بأى شعور (مهما كان).
إن كان كل كائن يملك شعوراً خاصاً،
فإن الشعور أيضًا يجب أن يُنسب إلى ذرات (الكائن)،
وهكذا (فالذرات) التى يتألف منها الجنس البشرى - على وجه الخصوص
إما أنها، فى حقيقة الأمر، تضحك محركة جنباتها بقهقهة هادرة
وإما أنها تبلل وجهها ووجناتها بقطرات الدمع،
ويمكنها فضلاً عن ذلك التحدث بحكمة عن تكوين الأشياء
وتمضى للحد الذى معه تتفحص ماهية الذرات المكونة لها؛
لأنها تمثل البشر جميعاً وينبغى لها أيضًا
أن تتألف من عناصر أخرى، ثم إن هؤلاء الآخرين
(يجب أن يتألفوا بدورهم أيضًا من عناصر أخرى)، لذلك لم تتمكن من التوقف؛
وسوف أتابع ما أكدت عليه من حديث الذرات وضحكها وأتساءل عما إذا كان الحديث والضحك والحكمة، تتألف حتماً من عناصر أخرى.
لكن لو أدركنا بوضوح مثل ذلك المنطق الباطل غير المتسم بالعقلانية

لو كان بمقدور (الكائن) الضحك على الرغم من عدم تكونه من عناصر
ضاحكة؛ وبمقدوره أيضًا الفهم و(التفوه) بعبارات لوذعية
على الرغم من عدم تكونه من ذرات حكيمة ومنطقية،
لماذا لم تتألف (جميع) المخلوقات – التى نرى أنها تشعر –
من ذرات تفتقر جميعاً إلى الشعور؟

فى الختام لقد نشأنا جميعاً من بذرة سماوية؛
فالجميع لديه الأب نفسه الذى من خلاله تلقت
أمنا المفضالة الأرض قطرات الماء السائلة،
ثم بعد التلقيح أخرجت إلى الوجود الغلال الوفيرة والأشجار العالية
والجنس البشرى، وأوجدت جميع فصائل الوحوش البرية،
وأمدت بعدئذ بالطعام الذى بفضله يغذى الجميع أجسامهم
ويُوجهون نحو حياة طيبة ويبثون ذريتهم؛
لأجل ذلك حصلت الأرض عن جدارة لقب الأم.
لأن ذلك الذى نشأ ذات مرة من الأرض، يعود إلى الأرض
مرة أخرى، والذى يُرسل من أقطار السماء،
تستقبله أقطار السماء مرة أخرى عندما يعود إليها.
إن الموت لا يضع حداً للأشياء عندما يدمر ذرات

المادة، لكنه فقط يفصم عرى اتحادها،
ثم ينتج بعد ذلك اتحادات جديدة للذرات؛ ويكون سببًا
فى أن تغير جميع الأشياء صورها وتنوع ألوانها
وتستقبل المحسوسات وفى وقت معلوم تسلمها مرة أخرى؛
لذلك لعلك تدرك كيف يكون عظيم الأهمية (معرفة) بأى عناصر
تتحد وتتجمع ذرات الأشياء نفسها وبأى ترتيب
وأي قوة دافعة تعطيها وتستقبلها بالتبادل،
(لا تعتقد أنه بمقدور ذرات الأشياء
أن تبقى للأبد لأننا نراها تطفو
على سطح الأشياء وتولد أحياناً وتهلك بغتة).
كما هى الحال فى قصيدتى هذه إنه لعظيم التأثير معرفة من أى
حروف وبأى ترتيب توضع (الحروف الأخرى) المختلفة؛ لأن الحروف
نفسها تشير إلى السماء والبحر والأرض والأنهار والشمس،
والحروف نفسها تشير إلى الغلال والبساتين والحيوانات؛ وإن لم تكن الكلمات
كلها فالجزء الأكبر منها يحتوى على الأقل على الحرف نفسه أو الحروف بوجه
عام، بيد أن الموضوعات (التى تعبر عنها الحروف) تتباين باختلاف ترتيب
الحروف. وهكذا بالمثل حتى فى الأشياء نفسها فعندما تتغير المسافات
البينية وأوزانها وتجمعات المادة وقوتها الدافعة ونظامها وتصادماتها

وحركتها وترتيب ذراتها، ينبغى للأشياء أيضًا أن تتغير.
أعرنى انتباهك عن كثب الآن (لاستنتاجات) التفكير السديد.
لأن مبدأ جديد يناضل بحماس لينفذ إلى
أذنيك ويوضح الجانب الجديد من الخلق نفسه.
لكن ليس هناك شئ بالغ اليسر أو قابل للتصديق
عندما لا يبدو بالأحرى أشد صعوبة للإيمان به أولاً، وبالمثل
ليس ثمة شئ عظيماً للغاية أو عجيباً (منذ البداية)،
فالبشر يقللون من عجبهم بالتدريج.
انظر إلى أعلى حيث لون السماء الناصع الصافى،
والبروج التى تهيم فى جميع الاتجاهات، الذى تحتويه فى ذاتها
وبهاء ضوء القمر وضوء الشمس المشرق الذى يخطف الأبصار؛
إن كُشفت جميع هذه الأشياء الآن للبشر منذ اللحظة الأولى،
إن قُدمت إليهم على غرة من دون تمهيد،
ما الذى يمكن ذكره يكون أشد عجباً من هذه الظواهر الطبيعية
أو أن شعوب (العالم) تتمكن على نحو أقل من تصديق ما يوجد من قبل؟
لا شئ، فى اعتقادى، سيكون بالغ العجب من هذه الأشياء المرئية،
لأنه لا يوجد إنسان يتكبد الآن مشقة النظر عالياً إلى

أقطار السماء المضيئة، فكل (امرئ) تفتر همته عن هذا.
كف إذن – رغم أنك تفزع من مجرد الحداثة – عن نبذ
أى رأى من عقلك، لكن حرى بك أن تمعن
النظر فيه بفكر ثاقب، وإن بدا لك صحيحاً،
اخضع مصادقتك عليه، أو إن كان مغلوطاً، خذ للأمر عدته.
فالعقل يبحث ليفهم، حيث يشرع ذهنك فى السؤال عما يوجد هناك فى
الفضاء، لأن الفضاء الموجود خلف أسوار عالمنا هذا لا نهائى،
يود العقل باستمرار التطلع إليه
ويود أن ينطلق تفكير العقل حراً من تلقاء ذاته.
فى المقام الأول ليس ثمة حد فى كل اتجاه حولنا
وعلى الجوانب وإلى أعلى وأدنى الكون،
كما أوضحت، والحق يُعلن من تلقاء ذاته بصوت
مرتفع، وتتجلى طبيعة ما لا يُسبر غوره (واضحة) كالضوء.
لكن لا يمكن الاعتقاد أبداً عندما تتكشّف مساحة غير محدودة من الفضاء
فى كل اتجاه، وعندما تطير ذرات لا يُحصى عددها
وغير نهائية تطير مدفوعة بحركة سرمدية
(عبر الفضاء) فى اتجاهات غير محدودة،

لا يمكن الاعتقاد - بأي حال - أن هذه هى الكرة الأرضية الوحيدة
ولا أن عناصر المادة التى لا تحصى تفعل شيئاً وراء عالمنا هذا؛
خاصة لأن هذا العالم خُلق بفضل الطبيعة فقط، وعندما
تتصادم ذرات الأشياء من تلقاء نفسها وتتجمع بشتى
الطرق على نحو عشوائى من دون هدف أو قصد؛
تتيح لبعضها الفرصة أن تنفذ خلالها وتقذف معًا على نحو مباغت
ويمكنها أن تصبح فى كل حالة ذرات لأشياء ضخمة،
مثل: الأرض والبحر والسماء وفصائل الكائنات الحية؛
من ثم أقول المرة بعد المرة إنه ينبغى التسليم
بوجود تجمعات أخرى من المادة فى مواطن أخرى،
مثل هذا (العالم) الذى يحتويه الهواء فى حضنه الواسع.
فضلاً عن ذلك عندما تكون المادة الغزيرة مهيأة،
وعندما يكون الفضاء قريباً منها ولا يوجد شئ يعوقها أو سبب
يؤخرها، ينبغى للأشياء بالضرورة أن توجد وتُخلق.
وإن كان هناك فى هذه اللحظة مثل ذلك الحشد الهائل من الذرات
والذى لا يكفى عُمر المخلوقات الحية كله لعدده،
وإن بقيت القوة ذاتها والطبيعة ذاتها قادرة على إلقاء

ذرات الأشياء معًا فى أى مكان بالمنوال نفسه؛ حينما
تلقى معًا فى هذا الموضع، إذن عليك بالضرورة الافتراض
أن ثمة أراضى أخرى تقع فى أقطار أخرى (من الفضاء)
وأجناس مختلفة من البشر وفصائل الوحوش البرية.

فضلاً عن ذلك لا يوجد شئ بين مجموع (الأشياء) فى عالمنا
عديم النظير، ينشأ منفرداً بنفسه ومن تلقاء نفسه،
وأنه هناك الكثير من الأفراد من النوع نفسه. فى البداية ركز اهتمامك
على (كل شىء) من الرتبة نفسها بين الكائنات الحية بنحو خاص؛
ستجد أن هذا الأمر بالغاً مع فصيلة الوحوش البرية التى تجوب الجبال.
وعند عشيرة بنى الإنسان الذكر والأنثى، كذلك الحال أيضًا مع حشود
الأسماك البكماء ذوات القشور وجميع أجناس الطيور؛
من ثم ينبغى عليك على نحو مماثل أن تسلم أن السماء
والأرض والشمس والقمر والبحر، وكل ما عدا ذلك فى الوجود،
أنها ليست عديمة النظير، لكنها بالأحرى ذات عدد يفوق الحصر؛
لأن ثمة نهاية للوجود مؤكدة على نحو لا يقبل التغيير تنتظر (أقسام الطبيعة)؛
كما أنها كثيراً ما خُلقت من مادة من الطبيعة لكنها فانية،
مثل جميع فصائل الكائنات الحية التى تنمو بشتى أنواعها.

إن وعيت هذه المبادئ (وحفظتها) راسخة، تبدَّى
(نظام) الطبيعة مباشرة وتخلص من سادته المتشامخين
حيث يتم كل شئ بنفسه ومن تلقاء نفسه من دون عون من الآلهة.
(لأنى أرفع الأمر إلى قلوب الآلهة المقدسة التى تمضى حياة
غير متكدرة فى سلام مطمئن ووجود غير مضطرب وأكثر صفاء)،
من بمقدوره حكم (هذا الكون) اللا محدود، من ذا الذى يقبض
بيمينه على الزمام الشديد (لكل) هذه الأشياء الهائلة ويتحكم فيها،
من بمقدوره أن يدير فى الوقت نفسه السماوات ويدفئ
الأرض كلها بنيران سماوية،
أو الذى بمقدوره أن يُوجَد فى كل مكان فى الوقت ذاته،
ليؤلف ظلاماً بواسطة سحابة ويهز بالرعد جميع أقطار السماء
الهادئة، ثم يرسل البرق ويهدم (كما يحدث) غالبًا معابده هو
أو ينسحب (بعدئذ) إلى الصحراء (وأجزاء الأرض غير المأهولة)؛
ليلقى فى ثورة غضبه بسلاحه الذى غالبًا ما يغض الطرف
عن الجانى ويصيب البرئ الذى لا يستحق (ذلك العقاب)؟
منذ الزمن الذى ظهر فيه العالم للوجود،
منذ يوم ميلاد البحر ونشأة الأرض، ومنذ سطعت الشمس

أُضيفت الذرات من العدم، والكثير من البذور
أُضيفت حولها عن طريق الخضخضة والإضافة؛
والتى تزداد من هذا البحر وهذه الأرض اليابسة ويوسع
منزل السماء امتدادها ويرفع قبابها الزرقاء
العالية بعيدًا عن الأرض ويرتقى الهواء عاليا؛
لأن كل جسم (فى الطبيعة) من جميع أقطار الفضاء
حُبِىَ بفضل تحريك (الجزيئات) لذراته ويتجه كل منها إلى (المادة) الخاصة به،
(فتمضى جزيئات) الرطوبة إلى الماء، وتنشأ الأرض من ذرات التراب،
وتقدح النيران من الذرات النارية، وينشأ الهواء من الذرات الغازية،
حتى تبلغ أقصى حد للنمو فإن الطبيعة
– خالقة جميع الأشياء – تضع لمستها الأخيرة؛
مثلما يحدث عندما لا يلج شئ بعد الآن شرايين الحياة
أكثر من المقدار الذى ينساب خارجاً وينتهى أمر (هذا الشىء).
عند هذا الحد يجب على عُمر جميع الكائنات ونمائهم أن يصلا إلى وقفة،
ومن ثم يكبح تأثير الطبيعة نموّهم.
لأن كل (المخلوقات) التى يراها تبلغ تمام حجم لها
وترتقى سلم العمر الناضج بتواصل،

فإنها تستقبل داخلها ذرات على نحو أكثر مما ينبعث منها
ما دام الغذاء يُمتص بسهولة فى كل الأوردة وما دامت
أجسامها لم تطرد الكثير من أعداد الذرات المتفاوتة
وتبدد الكثير على نحو أكثر من الغذاء الذى يدعمها.
يجب أن نكون على يقين من أن الكثير من الذرات تنساب وتخرج
من الأشياء، لكن ما زال هناك الأكثر الذى يؤول إليها
حتى تبلغ ذروة النمو.
بعد ذلك وبالتدريج يُضعف (تقدُّم) العمر القوة
والعزم الكامل ويفتتهما عن طريق تضاؤلهما.
عندما يتوقف النمو فإن الكائن يتلاشى،
وينثر على جوانبه ذرات أكثر من
المقدار المناسب ويدعها تنبعث منه،
لا يُوزَّع الغذاء بسهولة فى كل أوردة (الجسم) ولا يكون هذا
كافياً، بالنسبة إلى الانبعاثات الغزيرة التى يطردها (الجسم)،
ليتمكن مثيله من الخروج إلى الوجود وإحلاله محله.
لأن الغذاء يُدعِّم الكائنات لذا ينبغى له أن يُستعاد
كلية عن طريق التجدد، لكن من العبث (أن يتجدد)،

لأن الأوردة لا يمكنها احتواء المزيد (منه)

ولا تجدد الطبيعة ما يكون ضرورياً (بعد ذلك)؛

لذلك من الإنصاف أن ينقضى أمر هذه الكائنات، لأنها عن طريق تدفق مادتها للخارج تصير أرق سمكاً عندما تتعرض جميع الأشياء لضربات خارجية؛

نظراً إلى أن الغذاء فى نهاية المطاف يخفق فى (مواصلة) زيادة العمر

فلا يوجد شئ تضربه الأجسام من الخارج ولا تكُفّ الذرات المعادية التى

تضربه من الخارج عن استنزاف كل كائن وإخضاعه بغاراتها؛

ولذلك فأسوار العالم العظيم أيضًا – لكونها تتعرض للهجوم من كل

الجوانب – تعانى تحللاً وترزح تحت دمار مُحطِّم.

وكذلك الأرض فقد استنزفت قواها؛

حيث تنتج بالكاد كائنات غير مكتملة التكوين.

على الرغم من أنها فى سالف الزمان أخرجت للوجود كل الأنواع وأنجبت الوحوش ضخمة الجسم .. لكنه ليس صحيحاً، فى اعتقادى، أن سلالات الجنس البشرى أُنزلت من السماء العالية بواسطة سلسلة ذهبية[١] إلى الحقول

ولا أنهم بزغوا من البحر أو من بين الأمواج التى تضرب الصخور،

لكن الأرض نفسها هى التى أوجدتهم وغذتهم من مادتها.

---

(١) يقصد بالسلسلة الذهبية أسطورة العصر الذهبى وأهلها الذين كانوا يعيشون فى نعيم بلا تعب ولا نصب.

فضلاً عن أنها من تلقاء نفسها أخرجت
للبشر أولاً الغلال الغنية والكروم المبهج،
وأخرجت الثمار الحلوة والمراعى بالغة الازدهار؛
التى نادراً ما تصل الآن إلى تمام النضج وتزداد بفضل جهدنا،
حيث نضنى ثورنا ونستنزف قوة فلاحينا،
وننهك سن المحراث حتى تطعمنا حقولنا بكدنا ..
إلى ذلك الحد آلت منتجات الأرض إلى الزوال وتزداد فقط بمجهود البشر.
وفى عصرنا هذا يهز المُزارع الجليل رأسه وهو يتحسر
كثيراً، لأن عمل يديه العظيم ذهب سدى،
وعندما يضاهى الزمن الحاضر بالعصور
الغابرة، يثنى على حظ أبيه
ويدمدم، كم كان العالم القديم عامراً بالتقوى؛
حيث يقضى الناس حياتهم بسعادة غامرة على مساحة ضيقة من الأرض،
فنصيب المرء من الأرض كان فيما مضى أقل مما هو عليه الآن.
وبأسى أيضًا فإن مُزارع كرمة العنب الفاسد والمتغضن
يلعن تقدم الزمن وسقمه من السماء،
ولا يدرك أن كل الأشياء تبلى بالتدريج،
وتمضى إلى قبرها وقد أضناها مرور السنين العتيقة.

الكتاب الثالث

ترجمة: د. على عبد التواب على

ملخص الكتاب الثالث

أولاً ـ التمهيد (١ – ٩٣):

١. الثناء على إبيقوروس.

٢. ملخص لمحتوى الكتاب الحالى وأسباب كتابته (٣١ – ٩٣).

ثانيًا ـ طبيعة الروح وتركيبتها (٩٤ – ٤١٦):

١. العلاقة بين العقل "animus" والروح "anima" (٩٤ – ١٦٠).

٢. الطبيعة المادية للعقل "animus" والروح "anima" (١٦١ – ٢٥٧).

٣. وظيفة الروح وعلاقتها بالجسد (٢٥٨ – ٤١٦).

ثالثًا ـ براهين على فناء الروح (٤١٧ – ٨٢٩):

١. الجسد هو وعاء الروح .. تدمير الأول يؤدى إلى دمار الآخر (٤١٧ – ٤٤٤).

٢. نمو الروح مع نمو الجسد .. ومن المحتمل أنها تموت بموت الجسد (٤٤٥ – ٤٥٨).

٣. تفنى الروح لكونها عرضة للتغيير (٤٥٩ – ٥٢٥).

٤. مثلما يموت الجسد على نحو تدريجى فإن الروح تفنى تدريجيا (٥٢٦ – ٥٤٧).

٥. خروج الروح من الجسد مأواها الخاص عند الموت، ولهذا فإنها تموت (٥٤٨ – ٥٧٩).

٦. تتمزق الروح إربا عند رحيلها عن الجسد (٥٨٠ – ٦١٤).

٧. الجسد هو المأوى الخاص الوحيد للروح؛ فإن وضعت الروح فى أى مكان آخر فإنها سوف تموت (٦١٥ – ٦٢٣).

٨. الأحاسيس تكمن فى الجسد، وعلى هذا فإن الروح لن تتمتع بالإحساس عندما تنفصل عن الجسد (٦٢٤ – ٦٣٣).

٩. فى حالة إصابة الجسد بجرح فإن الروح تتجزأ، وعلى هذا فهى فانية (٦٣٤ – ٦٦٩).

١٠. لا يتذكر الإنسان أى شئ عن وجوده الأسبق (٦٧٠ – ٦٧٨).

١١. حقيقة أن الروح وثيقة الارتباط بكامل الجسد تثبت أنها لم تدخل الجسد عند المولد (٦٧٩ – ٧١٢).

١٢. تبقى أجزاء من الروح فى الأجسام الميتة، وحيث إنها قابلة للتجزئة فإن الروح فانية (٧١٣ – ٧٤٠).

١٣. حقيقة أن الروح لا تستطيع بشكل عام أن تتغير، بل تنمو أو تضمحل فى إطار نطاق محدد يعزز فناءها (٧٤١ – ٧٧٥).

١٤. من السخف زعم أن هناك أرواحا خالدة تنتظر مولد أجسام لتسكنهـــا (٧٧٦ – ٧٨٣).

١٥. من المستحيل للروح التى تحتاج لبيئة خاصة أن تكون خالدة (٧٨٤ – ٨٠٥).

١٦. لا تمتلك الروح سمات الأشياء الخالدة (٨٠٦ – ٨٢٣).

١٧. يمكن الاستدلال على فناء الروح من حقيقة أنها تضطرب من قبل همومها الخاصة (٨٢٤ – ٨٢٩) .

رابعًا ـ حماقة الخوف من الموت (٨٣٠ – ١٠٩٤):

١. ينبغى ألا يشغل الموت بالنا (٨٣٠ – ٨٦٩).

٢. يصبح الإنسان متناقضا مع نفسه إذا أنكر أن هناك إحساساً بعد الموت، ثم يحزن على ما سوف يحدث لجثمانه (٨٧٠ – ٨٩٣).

٣. لماذا علينا أن ننتحب فى حين أن النوم يسحب منا الحياة ثم يردها مرة أخرى (٨٩٤ – ٩٣٠).

٤. من الجحود والسخف أن يظل الإنسان يشكو من الموت (٩٣١ – ٩٧٧).

٥. يجب فهم قصص عالم هاديس على أنها تفسير مجازى لتجاربنا فى هذه الحياة (٩٧٨ – ١٠٢٣).

٦. الموت هو المرور بتجربة يمر بها كل البشر (١٠٢٤ – ١٠٥٢).

٧. السبيل الوحيد والناجع للراحة من الخوف من الموت هو دراسة الطبيعة وفهمها (١٠٥٣ – ١٠٧٥).

٨. فلنفعل ما ينبغى علينا فموت دائم فى انتظارنا (١٠٧٦ – ١٠٩٤).

يا من كان بمقدوره أن يبدد الظلمات الحالكة بنور بالغ[١]
الإبهار، فأنت أول من أماط اللثام[٢] عن نعم الحياة،
إننى على أثرك، يا مجد الجنس الإغريقى، وعلى آثار
أقدامك أخطو الآن خطواتى الثابتة،
ليس رغبة فى منافستك، بل بدافع الحب
أتوق إلى محاكات .. أنّى للسنونو[٣] أن ينافس البجعة
فى الغناء؟ وكيف يمكن للجدْى ذى الأطراف المرتجفة
أن يبارى فى العدو قوة بأس الجواد؟
فأنت ربى، كاشف الحقيقة، وأنت أيها المجيد[٤]
من أمدنا بتعاليمه الأبوية من صحائفه[٥].

---

(١) يعد الحديث عن ظلام الجهل ونور المعرفة من التشبيهات المألوفة فى الفلسفة، وقد أكد لوكريتيوس هذا المعنى من خلال الترتيب العكسى "chiasmus" للأسماء والصفات:
tenebris tantis................clarum...lumen.

(٢) يرى لوكريتيوس أن الناس ظلوا لا يعرفون ما هو نافع لهم إلى أن تمكن إبيقوروس من فتح أعينهم على نعم الحياة.

(٣) السنونو: طائر طويل الجناحين مشقوق الذيل وعذب الصوت.

(٤) الصفة "include" أى المجيد التى وصف بها معلمه إبيقوروس تضفى عليه هالة دينية؛ لأنها من الصفات التى توصف بها الآلهة، وقد استخدمها من قبل فى وصف الربة فينوس (الكتاب الأول، بيت٤٠).

(٥) أضفى لوكريتيوس مهابة دينية على مؤلفات إبيقوروس عندما أشار إليها بكلمة الصحف "chartis" التى تطلق على الكتب المقدسة.

وكالنحل الذى يرتشف الرحيق من البساتين المزهرة،
فإننا بالمثل ننهل من كل أقوالك الذهبية،
إنها ذهبية بحق، وهى خليقة بحياة سرمدية.
فبمجرد أن شرع مذهبك الفلسفى فى توضيح طبيعة
الأشياء، تلك الفلسفة التى بزغت من عقلك الإلهى [(١)]،
تبددت مخاوف العقل[(٢)]، وتلاشت أسوار العالم،
وغدوتُ أرى كل ما يجرى فى أرجاء الفضاء الفسيح[(٣)]:
ظهر أمامى جلال الآلهة ومنازلها الهادئة،
التى لا تزعزعها العواصف، ولا تبللها المزن بأمطارها،
ولا يدمرها تساقط الثلوج البيضاء،
التى تجمدت من شدة البرودة، بل يظلّلها طقس صحو
بلا غيوم، فهو يبتسم لها بنوره الساطع فى كل مكان.
علاوة على ذلك أمدت الطبيعة الآلهة بكل احتياجاتها، ولم يحدث
قط أن عكر شئ صفو عقلها فى أى وقت.

---

(١) صوب "Orelli" اسم المفعول "coortam" وجعله "coorta" ليصف فلسفة إبيقوروس – أى كلمة "ratio"، وهذا البيت (الخامس عشر) يحتوى على محاكاة ساخرة للموروث الأسطورى الذى يقول إن ربة الحكمة أثينا قد وُلدت من عقل كبير الآلهة الإغريقية زيوس.

(٢) يقصد لوكريتيوس بالمخاوف التى تبددت: الخوف من الآلهة، والخوف من العقاب بعد الموت.

(٣) طبقاً للفلسفة الإبيقورية؛ فإن الآلهة تسكن فى الفضاء بين العوالم المختلفة "intermundia".

على العكس تمامًا فقد اختفت مناطق أخيرون[١]،
ومع ذلك فإن الأرض فى الفضاء الفسيح لا تحول دون
رؤية كل ما يجرى تحت أقدامنا فى العالم السفلى.
وبناءً على كل ما سبق فإن سعادة إلهية ما
ورهبة تتملكانى، لأن الطبيعة بقدرتك صارت واضحة
تماماً، وكُشف النقاب عن كل جزء من أجزائها[٢].
وحيث إننى قد شرحت طبيعة كل أنواع الذرات،
وكيف أنها ذات أشكال متنوعة ومختلفة،
وكيف أنها تطير من تلقاء نفسها[٣] فى الفضاء مدفوعة بحركة سرمدية،
وكيف يمكن لكل الموجودات أن تُخلق من تلك الذرات،
وبعد أن تناولت تلك الموضوعات، فإنه يبدو لى أنه علىَّ الآن
شرح طبيعة العقل والروح[٤] فى أشعارى،
وطرد ذلك الخوف الرهيب من أخيرون بعيدًا عن أنفسنا،

---

(١) أخيرون: انظر أعلاه الكتاب الأول صـــ:١٨١ حاشية ٣٩.

(٢) أنهى لوكريتيوس مقدمة الكتاب الثالث بالعودة إلى الحديث عن دور إبيقوروس فى تبديد ظلمات الجهل وكشفه لأسرار الطبيعة، وقد اعتاد لوكريتيوس اتباع البناء الدائرى لكل فقرة من فقراته.

(٣) يقصد لوكريتيوس بالتعبير "من تلقاء نفسها"–"sponte sua" أن الذرات تتحرك فى الفضاء دون تدخل إلهى.

(٤) مفهوم العقل "animus" والروح "anima" عند الرومان يختلف من مفهومنا، فالاثنان يكونان معا الروح الكاملة، وعلى هذا نترجم كلمة (animus) أحياناً بمعنى العقل وبمعنى الروح أحياناً أخرى، وذلك حسب السياق.

الخوف الذى يكدر حياة البشر تمامًا من أعماقها،
والذى يغشى كل شئ بظلمة الموت[١]،
ولا يدع أي متعة على حالها صافية ونقية.
والحق أن الناس كثيراً ما يقولون إنهم يخشون الأمراض
والحياة الشائنة أكثر من أهوال عالم الموتى تارتاروس[٢]،
فهم يعرفون أن طبيعة الروح تتكون من الدم أو حتى
من الهواء[٣]، وإنهم يتكلمون حسبما يوجههم هواهم،
فلا حاجة لهم بتعاليم فلسفتنا على الإطلاق،
بيد أنه يمكنك أن تدرك أنهم قالوا كل هذا الكلام رغبة منهم فى
الثناء عليهم، وليس عن إيمان راسخ بحقيقة ثابتة؛
فهؤلاء الرجال أنفسهم أُبعدوا عن وطنهم وتم نفيهم بعيدًا
عن أنظار الناس، وذلك لارتكابهم جرم شائن،
وخلاصة القول فإنهم متشبثون بالحياة رغم كل الخطوب التى ألمت بهم،
على أي حال؛ فإن هؤلاء البؤساء كلما نزلت بهم الخطوب قدموا القرابين

---

(١) اعتاد الشعراء الإغريق والرومان نعت الموت بالظلمة.

(٢) تارتاروس هو ذلك المكان فى عالم الموتى حيث يُعذب المذنبون.

(٣) اعتقد إمبادوقليس أن الدم المحيط بالقلب هو مركز التفكير، وعرف أناكسيمينيس الروح بأنها هواء، إلا أن لوكريتيوس فى هذا السياق لا يشير لهؤلاء الفلاسفة، بل يشير إلى معاصريه الذين تبنوا بعض التفسيرات المادية فى تعريف طبيعة الروح.

لأرواح آبائهم، ونحروا الماشية السوداء[1]، وأرسلوا الهبات
لأشباح الموتى المقدسة، وفى المحن الثقيلة
يوجهون عقولهم بقنوت أكبر نحو الخزعبلات.
وهكذا فإنه من الأنسب تأمل المرء فى وقت المحن والخطر،
ولسوف تعرف عند المصائب من يكون الرجل؛
لأنه حينئذ فقط تخرج الكلمات الصادقة من أعماق
الفؤاد، إذ إن القناع يسقط وتبقى حقيقة المرء.
فضلاً عن ذلك فإن الطمع والرغبة العمياء فى الرفعة،
تدفع البؤساء من البشر إلى تجاوز حدود القانون،
وفى بعض الأحيان تورطهم كشركاء أو كمتواطئين فى الجريمة،
فيعملون ليلاً ونهاراً ويبذلون جهداً مضنياً
فى سبيل الوصول إلى أعلى منازل السلطة، إن شدائد الحياة
هذه يغذِّيها – إلى حد ليس بالهين – الخوف من الموت.
لأن السلوك الشائن والفقر المدقع يبدو أنهما –
بشكل عام – قد رحلا عن الحياة الهنية المستقرة[2]،

---

(١) كانت الماشية السوداء الأضاحى المناسبة لاسترضاء آلهة العالم السفلى.

(٢) يقصد لوكريتيوس بالحياة الهنية المستقرة حياة الظل البسيطة التى نادى بها المبدأ الإبيقورى المشهور "lathe biosas" – أى أن يعيش المرء دون أن يشعر أحد بوجوده فى الحياة، إلا أن لوكريتيوس يطور مناقشته بأن أغلب الناس غابت عنهم تلك الحقيقة واعتقدوا أن الافتقار للثروة والشهرة يساويان حياة الخزى والفقر، اللذين يفتحان الباب أمام الموت.

واستقرا بالفعل أمام بوابات الموت؛
فمنهما يرغب الناس فى الفرار بعيدًا وينأون
بأنفسهم عنهما، مدفوعين بخوفٍ لا أساسَ له،
لذا فإن طمعهم يجعلهم يكدسون الممتلكات ويضاعفون الثروات
بإراقة دماء المواطنين، فيرتكبون المذابح تلو المذابح.
بل إن هؤلاء القساة يبتهجون عند مصيبة موت الأخ،
ويمقتون ولائم أقربائهم ويرهبونها (خشية دس السم لهم).
وبمنطق مشابه فإن الحسد، نتيجة للخوف ذاته، يعتصر الناس
عند رؤية رجل يمشى أمام أعينهم مختالاً فى مجد باهر،
خشية أن يصبح ذا سلطة، ويصبح محط أنظار المدينة،
بينما هم أنفسهم يشتكون من أنهم قد سقطوا فى الظلمات وفى الوحل.
فالبعض يضحون بحياتهم من أجل إقامة التماثيل لهم والحصول على الألقاب.
وغالبًا ما يبلغ الخوف من الموت إلى حد أن .
تسيطر - على البشر كراهية الحياة ورؤية نورها،
ولدرجة أنهم يقدمون على الانتحار بفؤاد قانط[1]،
متناسين أن ذلك الخوف هو مصدر كل الهموم؛

(١) تأثر لوكريتيوس هنا بديموقريطوس فى تناوله للتناقض الظاهرى فى سلوك البشر، إذ إنهم من فرط خوفهم من الموت يقبلون عليه بأيديهم (68b 203DK).

فهو يدفع الواحد على انتهاك الحرمات، ويحث الآخر على
تحطيم أواصر الصداقة، بالاختصار يحثه على هدم فضيلة البِر.
لأن البشر قبل الآن كثيراً ما كانوا يخونون أوطانهم وآباءهم
الأعزاء سعياً نحو الفرار من منازل أخيرون.
فمثلما ترتعد فرائس الأطفال ويجفلون أمام كل شئ
فى الظلام الحالك، فكذلك نحن فى النور تعترينا أحياناً
المخاوف التى لا أساس لها إطلاقاً، مثل تلك المخاوف
التى يرتعد منها الأطفال فى الظلام ويتخيلون أنها ستهاجمهم؛
ولذلك فإن ظلمة العقل وخوفه هذا ليس بالإمكان
تبديدهما بأشعة الشمس، أو بضوء النهار الساطع،
بل بتأمل الطبيعة وفهم قوانينها.
فى البداية أقول إن العقل الذى غالبًا ما نطلق عليه الإدراك،
والذى فيه يتركز الفهم وإدارة شئون الحياة،
يمثل جزءاً من الإنسان، ليس أقل من اليدين أو القدمين
أو العينين، فجميعها تمثل أجزاء من الكائن الحى كله.
يعتقد بعض الفلاسفة أن مدارك العقل لا توجد فى موضع بعينه،
لكنها بحق بمثابة سمة أساسية للجسد،

يُطلق عليها الإغريق "التناغم"- التى تمكننا من العيش
مزَوّدين بالقدرات الذهنية، وذلك على الرغم من أن الإدراك ليس موجوداً
فى أى جزء منا؛ مثلما يُطلق غالبًا على صحة الجسد أنها جيدة،
فإن هذه العافية ليست جزءاً من أجزاء الشخص الذى يتمتع بالصحة.
هكذا فإنهم لا يضعون مدارك العقل فى جزء بعينه من
الجسد، وبذلك فإنهم يبدون لى بأنهم قد شردوا بعيدًا جداً.
لأن الجسد الذى نراه سليماً، غالبًا ما يكون سقيماً فى أحد جوانبه،
بينما نحن مع ذلك نسعد بالجانب الآخر الخفى بداخلنا؛
وكذلك فإن العكس بدوره أيضًا يعد صحيحاً فى الغالب،
عندما يتمتع شخص مصاب فى عقله بالصحة فى بقية جسده؛
وليس خلافاً لذلك، لو أن قَدَمَ شخص مريض تؤلمه،
فى حين أن رأسه فى الوقت نفسه تخلو من الألم.
علاوة على ذلك عندما تستسلم أعضاء الجسد للنوم الهادئ
ويستلقى الجسد متمدداً بلا إحساس مثقلاً بالنعاس،
فإن شيئاً ما بداخلنا حينها يختلج
بطرق مختلفة، ويحتوى على كل نزعات
الفرح، وكل هواجس الفؤاد الفارغة.

والآن يمكنك أن تدرك أن الروح أيضًا تمثل أحد أعضاء الجسد،
وأن الجسد لا يكتسب أحاسيسه من خلال التناغم،
فى المقام الأول يمكنك أن تدرك أن الحياة تظل موجودة فى أعضائنا
حتى لو بُتر من الجسد جزء كبير منه.
ومن ناحية أخرى؛ فإنه عندما ينطلق إلى الخارج قدر
ضئيل من ذرات الحرارة ويخرج الهواء عن طريق الفم،
فإن الحياة ذاتها تغادر للحظة الأوردة وتترك العظام؛
وبناءً عليه يمكنك أن تستنتج أن ذرات الجسد ليست
لها وظائف متساوية ولا تسعف الحياة بنسبة متساوية،
بل إن ذرات الريح والحرارة تبدو أكثر تأثيراً من الأخرى،
فهى تبقى على الحياة فى الأعضاء..
وعلى ذلك فإن داخل الجسم ذاته توجد حرارة وريح
حيوية، تلك التى تغادر أعضاء الجسد لحظة الموت.
وهكذا حيث إننا قد توصلنا إلى أن طبيعة كل من العقل

والروح هى جزء من الإنسان، فلنرد ظهور مصطلح التناغم – الذى هبط على الموسيقيين من قمة جبل هليكون[١] أو أن الموسيقيين أنفسهم قد استعاروه من أى مصدر آخر– إلى أنهم طبقوه على مادة فنهم التى كانت تفتقر حينها إلى اسم خاص بها. مهما يكن الأمر، فليحتفظوا بمصطلحهم لأنفسهم؛ فاستمع الآن إلى باقى مناقشتى.

الآن أؤكد أن العقل والروح مرتبطان ببعضهما،
وأنهما يشكلان فيما بينهما طبيعة واحدة ومادة واحدة،
إلا أن ما نطلق عليه الرأس[٢] التى تتحكم فى الجسد كله
هى محل الفهم الذى نسميه نحن العقل والإدراك،
ومكانها المنطقة الواقعة فى منتصف الصدر..
لأن هنا يختلج الفزع والخوف، وفى محيط هذا الموضع
توجد مشاعر الفرح، وعلى ذلك فإنه هنا يوجد الإدراك والعقل.
وينتشر الجزء المتبقى من الروح فى أنحاء الجسد كله؛
حيث يمتثل للعقل ويتحرك بناءً على إرادته وتوجيهاته.

---

(١) جبل هليكون "Helicon" هو أكبر جبل بإقليم بويتيا "Boeotia" باليونان، وقد أقاموا عليه معبداً لربات الفنون الموساى "Musae"، وكانت تقام تكريماً لها ألعاب رياضية كل أربعة أعوام؛ وعند سفح هذا الجبل تقع مدينة أسكرا "Ascra" مسقط رأس الشاعر التعليمى هيسيودوس. ويُعَدّ جبل هليكون رمزاً لإلهام الشعراء عند الإغريق والرومان. انظر الكتاب الأول صـ : ١٣٨ حاشية ٣١ أعلاه.

(٢) استخدم لوكريتيوس كلمة الرأس هنا على نحو مجازى للتعبير عن الجزء الأهم فى جسد الإنسان وهو الفؤاد، أى العقل المفكر.

وهذا العقل وحده هو الذى يملك التفكير بذاته، ويجلب السعادة لنفسه،
عندما لا يؤثر فى الروح أو الجسد شئ غيره.
ومثلما أن الرأس أو العين لدينا عندما يصيب أحدهما الألم
فإن باقى الجسد لا يشاركه الألم،
فهكذا يعانى العقل أحياناً من الألم وحده،
أو يقفز من الفرحة وحده، بينما الجزء الباقى من الروح
الموجود فى الأطراف وباقى الأعضاء لا يعتريه أى إحساس جديد.
ولكن عندما يضطرب العقل برعب زائد عن الحد،
فإننا نرى أن الروح المتغلغلة بكاملها فى شتى أعضاء الجسم تشاركه الخوف؛
حيث يتصبب الجسد كله عرقاً ويصيبه الشحوب،
ويتلعثم اللسان ويتلاشى الصوت،
ويزيغ البصر وتطن الأذن وترتعد الفرائس،
خلاصة القول فإننا كثيراً ما نرى الناس يُغشى عليهم من الذعر
الذى أصاب عقولهم؛ وهكذا يمكن لأى إنسان أن يدرك بسهولة
أن الروح مرتبطة بالعقل، فعندما تمسها قوة العقل،
تتأثر من فورها وتؤثر بدورها فى الجسد.
إن هذا المنطق ذاته يرشدنا إلى أن طبيعة العقل

والروح طبيعة مادية؛ لأنه عندما يبدو أنهما يقومان بتحريك الأطراف،
وإيقاظ الجسد من النوم، وتغيير تعبيرات الوجه،
بل والتحكم فى حركة الإنسان بالسير للأمام أو بتغيير الاتجاه،
فإننا نرى أنه لا يمكن أداء أى من تلك النشاطات بدون لمستهما،
ولا تقع تلك اللمسة قطعاً إلا فى وجود جسد، ألا ينبغى علينا إذن
أن نسلم بأن للعقل والروح طبيعة مادية؟
علاوة على ذلك؛ فإنك ترى أن العقل يقاسم الجسد معاناته،
كما أنه يشارك الجسد فى أحاسيسنا.
لو أن حربة اخترقت الجسد بقوتها الرهيبة وأصابت
العظام وأوتار العضلات ولم تقضِ على حياة الإنسان،
فإن الجسد يصيبه الوهن بعد ذلك ويسقط على الأرض،
وعلى الأرض يصاب العقل بالدوار،
وتنتابه أحياناً رغبة متذبذبة فى النهوض.
وعلى ذلك فإن طبيعة العقل لا بد أن تكون مادية،
حيث إنها تتأثر بالأسلحة المادية وطعناتها.
الآن .. علىَّ أن أمضى قدماً لأوضح لك نظريتى بكلمات يسيرة:
من أى نوعٍ من المادة يتكون العقل، وكيف تشكل.

فى المقام الأول أؤكد لك أنه رقيق للغاية ويتألف من
ذرات فى منتهى الدقة. فليتك تعيرنى انتباهك
ليكون بإمكانك أن تدرك من البراهين التالية أن الأمر هو ذلك:
لا يبدو أن شيئاً ما يعمل بمثل هذه السرعة البالغة
مثل العقل الذى يصور لنفسه ما ينبغى عمله ثم يقوم بتنفيذه بنفسه؛
ولذلك فإن العقل يحفز نفسه بسرعة أكبر من أى شئ آخر
من بين تلك الأشياء التى نراها بوضوح أمام أنظارنا،
لكن الشئ الذى يتحرك بسرعة فائقة ينبغى أن
يتألف من ذرات بالغة الاستدارة والدقة،
بحيث يكون بمقدوره الحركة ما إن تحفزه طاقة حركية ضئيلة ..
فالماء يتحرك ويتدفق بفعل طاقة حركية بالغة الصغر،
نظراً لأنه مكون من جسيمات صغيرة سريعة الحركة.
لكن من ناحية أخرى؛ فإن طبيعة العسل أكثر لزوجة
وسائله أكبر كثافة وحركته أكثر بطئا؛
لأن كل جسيمات كتلة مادته تلتحم ببعضها بعض
على نحو أكبر، وذلك لأنها لا تتكون من جسيمات ملساء
للغاية أو بالغة الدقة والاستدارة.

ولأن نسيم الهواء اللطيف بإمكانه أن يجعل مقداراً
هائلاً من بذور الخشخاش تتطاير أمامك من أعلى لأسفل،
لكنه على العكس لا يملك ذات التأثير فى مجموعة من
الحصى أو سنابل القمح .. وعلى ذلك فإن الجسيمات الأكثر صغراً
ومن ثم الأكثر خفة هى الأكثر تمتعاً بالقدرة على الحركة.
وعلى النقيض من ذلك؛ فإنه كلما كانت الجسيمات ذات وزن
أثقل وملمسها أكثر خشونة كانت أكثر ثباتاً وأقل حركة.
وعلى ذلك الآن حيث إن طبيعة العقل قد ثبت أنها
قادرة على الحركة على نحو فائق، فلا بد أنها تتكون من
جسيمات بالغة الصغر والخفة والاستدارة.
وبإلمامك بكل هذه الأمور، أى صديقى الذكى، ستجدها
مفيدة لك فى شئون شتى وستذكر مدى نفعها.
ثمة شئ آخر يوضح طبيعة الروح ويظهر
كم هى تتألف من نسيج رقيق، وكم هو ضئيل ذلك الحيز
الذى تشغله – وذلك إن كان بمقدورها أن تتجمع فى مكان –
لأنه بمجرد أن يحل بالإنسان سكون الموت التام،
وترحل مادة العقل والروح عن الجسد،

حينئذ يمكنك أن تلحظ أن شيئاً لا ينقص من الجسد كله،
سواء من هيئته الخارجية أو من وزنه؛ فالموت يترك كل شئ على
حاله عدا الإحساس الذى يميز الكائن الحى وحرارة الجسم الدافئة.
وعلى ذلك فإن الروح بأكملها لا بد أنها تتكون من ذرات
غاية فى الصغر، كما أنها تتغلغل فى الشرايين واللحم والأعصاب،
ومن ثم فإنه عندما ترحل كلياً من الجسد كله،
فإن الإطار الخارجى لأعضاء الجسد مع ذلك
يحافظ على نفسه كاملاً، ولا ينقص من وزنه مثقال ذرة.
مثلما هى الحال عندما يختفى شذا نبيذ باكوس،
أو عندما ينتشر أريج العطر فى الهواء،
أو عندما تطير الرائحة بعيدًا عن مادة ما؛
ومع ذلك فنتيجة لذلك فإن الشئ ذاته لا يبدو للعين
أصغر من حجمه، كما أنه لا يفقد أى قدر من وزنه،
وذلك لأن ذلك الشذا وتلك الروائح قد تكونت بالتأكيد
بواسطة العديد من الذرات الدقيقة المتغلغلة فى كل مواد الأشياء ..
ولذلك أقول مراراً وتكراراً إنه بإمكانك أن تدرك أن مادة
العقل والروح تتكون من ذرات بالغة الصغر،
حيث إنها برحيلها لا تأخذ شيئاً من وزن الجسد.

لكن لا ينبغى علينا الاعتقاد أن هذه المادة بسيطة وغير مركبة.
لأن ثمة نَفَساً رقيقاً ممزوجاً بحرارة الجسد يرحل عن الناس
عند الموت، إذ إن الحرارة تجذب الهواء معها.
والحق أن أى حرارة لا بد أن تمتزج بالهواء؛
وذلك لأن مادة الحرارة قليلة الكثافة، ومن ثم فإن الكثير
من ذرات الهواء بالضرورة تتحرك خلالها.
وهكذا فقد ثبت بالفعل أن مادة العقل ثلاثية الطبيعة[1]؛
إلا أن هذه العناصر الثلاثة مجتمعة ليست كافية لتفعيل قدرات الحواس،
حيث إن العقل لا يقبل أى عنصر منها على أنه قادر على بث
الحركات الحسية أو خلق الأفكار التى تدور فى خلد العقل ذاته.
ثمة عنصر رابع ينبغى إضافته إلى هذه العناصر
الثلاثة، وهو لا يحمل اسماً على الإطلاق[2]؛
ولا يوجد شئ أكثر قدرة على الحركة أو أكثر دقة من ذلك العنصر،
ولا يوجد عنصر مكون من ذرات أصغر وأخف منه؛
وهو العنصر الذى يبادر أولاً فى بث الحركات الحسية فى الأطراف.

(١) العناصر الثلاثة التى يقصدها لوكريتيوس هى الريح "aura" أو"ventus"، والحرارة "vapor"، والهواء"aer"
(٢) طبقاً لإبيقوروس فإن الروح عبارة عن مزيج من أربعة عناصر: عنصر نارى أى حرارة الجسد، وعنصر هوائى وهو الهواء الذى يدخل الجسد، وعنصر ريحى وهى الريح، وعنصر رابع لم يسمه إبيقوروس.

ولأنه يتألف من ذرات دقيقة فهو أول من يُثار،
ثم تتلقى منه الحركة كلٌ من الحرارة وقوة الريح
غير المرئيتين، ومن بعدهما الهواء؛ بعد ذلك تتمكن كل الأعضاء
من الحركة: فالدماء تفور، وتدب الأحاسيس فى كل أنحاء الجسد،
وفى النهاية يصل الشعور إلى العظام والنخاع،
سواء كانت مشاعر سعادة أم أي مشاعر متناقضة.
ولم يكن من السهل لمشاعر الألم أو لأى انفعال عنيف أن يتمكن من
التغلغل والانتشار إلى مثل هذا الحد دون أن تصيب كل أجزاء الجسد
باضطراب هائل، لدرجة أنه فى مثل هذه الحالة لا يوجد موضعٍ للحياة،
كما أن ذرات الروح تفر بعيدًا عبر كل مسام الجسد.
لكن على سطحِ الجلد يوجد فى الغالب ما يشبه الحدود
لحركة الذرات التى من خلالها نتمكن من استعادة الحياة.
والآن أود أن أوضح كيف اتحدت هذه العناصر الأربعة ببعضها،
وبأية كيفية نُظمت لتكون فعالة هكذا،
وفى هذا الصدد فإن فقر لغتنا القومية[1] يحول دون تحقيق غايتى،
لكننى مع ذلك سوف أتناول النقاط الرئيسية، ما وسعنى ذلك.

---

(١) تحدث لوكريتيوس فى مواضع أخرى عن فقر للغة اللاتينية، وعدم وجود المفردات الكافية التى تسمح له بشرح النظريات الفلسفية الإغريقية (الكتاب الأول، ١٣٦-١٣٩، ٨٣٢).

تتداخل ذرات العناصر (الأربعة المكونة للروح) مع بعضها بعض
أثناء حركتها، حيث لا يمكن لأحد العناصر أن ينفصل عن العناصر
الأخرى، كما أنه لا توجد أي مسافة بينهما تمكن قوة العنصر من الانعزال
عن الأخرى، ولكنها تتضافر وكأنها قوى متعددة لجسد واحد.
مثلما أن أى كائن حى نجد للحمه عادة
رائحة ولوناً ومذاقاً خاصاً، لكن من كل هذه
العناصر يتكون جسد واحد مكتمل النمو،
وهكذا فإن الحرارة والهواء والقوة غير المرئية للريح،
كلها مجتمعة تكون مادة واحدة، هذا بالإضافة إلى تلك القوة
الحركية التى منها تتوزع بداية الحركة على باقى العناصر (الثلاثة)،
ومن هنا يبدأ سريان الإحساس بالحركة فى الجسد؛
لأن هذا العنصر الرابع يتوارى فى أغوار أعماقنا،
ولا يوجد أى شئ فى جسدنا يكمن فى موضع أكثر عمقاً منه،
علاوة على هذا فهو نفسه بمثابة الروح للروح الكاملة.
مثلما أنه فى أعضائنا وفى جسدنا كله فإن قوة
العقل وطاقة الروح كامنتان معًا بداخلنا،
وذلك لأنه يتكون من ذرات ضئيلة الحجم وقليلة العدد،
لذا فإننى أخبرك بأن ذلك العنصر مجهول الاسم والمؤلف من ذرات

دقيقة موجود فى موضع خفى، وأنه كذلك يبدو كأنه الروح
للروح الكاملة، فهو يهيمن عليها فى الجسد كله.
وبالمنطق نفسه فإنه لا بد للريح والهواء والحرارة،
بعد اتحادها داخل أعضاء الجسد، أن يتفاعلوا فيما بينها،
فقد يهبط أحد العناصر أسفل الآخر وقد يعلو عليه،
كى تبدو ككيان واحد مركب من جميع هذه العناصر،
وذلك خشية أن تنفصل العناصر عن بعضها فتصبح الحرارة والريح
فى جانب، والهواء فى جانب آخر، وبذلك نفقد الإحساس.
ويحتوى العقل أيضًا على عنصر الحرارة الذى يظهر عندما
يشتاط غضباً وتقدح العينان شرراً على نحو أكثر عنفاً؛
كما يحتوى العقل على فيض من عنصر الريح البارد الذى يصاحب
الخوف، حيث تجعل الأطراف ترتجف ويصيب سائر الجسد بالرعشة؛
ويحتوى العقل كذلك على عنصر الهواء اللطيف المصاحب للطمأنينة،
والذى يظهر عندما يكون القلب مطمئناً والوجه صافياً.
لكن عنصر الحرارة يزداد لدى تلك الحيوانات ذات الأفئدة الشرسة
والطباع الحادة التى تشتعل بسهولة عند الغضب.
ومثال صارخ لذلك هو الغضب الشديد للأسد

الذى غالبًا ما ينفجر صدره بالزئير والزمجرة،
ولا يستطيع أن يفسح مكاناً فى صدره لأمواج الغضب.
لكن العقل البارد للوعل يتميز بالمزيد من عنصر الريح،
حيث يرسل الهواء البارد إلى لحمه بسرعة كبيرة،
ما يسبب حدوث قشعريرة تسيطر على أطرافه.
لكن طبيعة البقرة تعتمد أكثر على الهواء اللطيف،
فلم تمسها قط على نحو زائد عن الحد شعلة الغضب المفعمة بالدخان،
التى عند اشتعالها تحجب العقل بظلال قاتمة وعمياء،
كما أنها لا تصيبها البلادة بطعنها بسهام الخوف الباردة؛
فهى تقع فى الوسط بين الوعول والأسود المفترسة.
وهكذا الحال بالنسبة للجنس البشرى فلكل إمرئ طباعه؛ فعلى الرغم
من أن التعليم قد يضع مجموعة من الأفراد على قدر متساوٍ من التهذيب،
فإن ذلك التعليم يترك الآثار الأولى لطبيعة عقل كل فرد كما هى.
وينبغى لنا ألا نعتقد أن نقائصنا الفطرية يمكن استئصالها من شأفتها؛
إذ إن هناك من ينزع بسرعة أكبر من غيره نحو غضب عارم،
بينما يتملك الخوف من شخص آخر على نحو أكبر من غيره،
ويقابل ثالث الإساءة بحلم أكبر مما يجب.

ونظراً لاعتبارات أخرى كثيرة؛ فإن طبائع البشر
العديدة يجب أن تختلف وكذلك يتباين السلوك الناشئ عنها؛
ليس بمقدورى الآن توضيح الأسباب الخفية لذلك الاختلاف،
ولا أجد مثل هذا الكم من المسميات الكافية لهذا الكم من
أنواع الذرات التى منها ينشأ هذا التنوع فى الطباع.
وفى هذا الصدد فإن ثمة شيئاً واحداً أخالنى قادراً على البت فيه؛
وهو أن الآثار الباقية للطباع الفطرية التى لا تقدر
الفلسفة على استئصالها من نفوسنا هى قليلة للغاية،
لدرجة أنه لا يوجد ما يمنعنا من أن نحيا حياة جديرة بالآلهة[١].
وهكذا فإن هذه الروح موجودة فى الجسد كله،
وهى نفسها حارس الجسد ومصدر سلامته؛
لأنهما (الروح والجسد) يرتبطان ببعضهما بجذور مشتركة،
ومن الواضح أنه ليس بمقدورهما الانفصال عن بعضهما إلا بهلاكهما.
تمامًا مثلما أنه ليس من السهل أن ننزع كتل البخور من رائحتها،
إلا إذا دُمرت طبيعتها هى الأخرى،
وهكذا فإنه ليس من السهل أن ننزع مادة العقل

(١) قارن قول إبيقوروس "سوف تحيا كإله بين البشر" – (Ep.ad Men.135). فطبقاً لإبيقوروس فإن الآلهة تتمتع بصفاء تام للعقل، وبذلك فإن من يتمكن من بلوغ الصفاء التام للعقل يمكن مقارنته بالآلهة.

والروح من الجسد كله، إلا إذا هلك الجميع؛
إذ إنهما قد وُهبا معًا حياة مشتركة،
نظراً لأن عناصرهما متشابكة منذ النشأة الأولى؛
كما نرى أن لا قوة الجسد ولا قوة العقل قادرة على
بلوغ الإدراك بمفردها دون مساعدة قوة الآخر،
بل إن الحركة المشتركة فيما بينهما هى التى
تضرم فى جسدنا شرارة الشعور.
علاوة على ذلك؛ فإن الجسد لم يُخلق قط ولا ينمو
من تلقاء نفسه، ويبدو ولا يظل باقياً لمدة طويلة بعد الموت؛
لأن الجسد ليس كمادة الماء السائلة التى تفقد غالبًا الحرارة
التى قد اكتسبتها، ولذا فهى نفسها لا تتبدد لهذا السبب،
بل إنها تظل على حالها، وعلى هذا أقول إن الجسد المتداعى
لا يستطيع أن يتحمل رحيل الروح عنه،
إذ إنه يبلى بتحلله من الداخل ويتعفن.
وهكذا فمنذ لحظات العمر الأولى يؤدى الاعتماد المتبادل
بين الجسد والروح إلى الحركة الضرورية للحياة،
وذلك حتى أثناء وجود الجنين داخل جسد الأم ورحمها،

وبذلك لا يمكن للانفصال أن يقع بينهما دون إلحاق الضرر والهلاك لكليهما؛
ولعلك تدرك ما يلى: حيث إن سبب سلامتهما يكمن فى اتحادهما،
فإن المادة التى يتكونان منها لا بد أنها متحدة أيضًا.
بقى أن أذكر ما يلى: إن من ينكر أن الجسد بإمكانه أن يحسّ،
ويعتقد أن الروح المتغلغلة فى سائر الجسد
تأخذ على عاتقها ذلك النشاط الذى نطلق عليه المشاعر،
فهو بذلك يناطح ضد حقائق واضحة ومؤكدة تمامًا..
فمن ذا الذى بإمكانه أن يوضح المشاعر التى يشعر بها الجسد،
إن لم ندرك ذلك بكل وضوح عن طريق التجربة؟
"لكن برحيل الروح فإن الجسد كله يفتقر إلى الإحساس"..
أجل، فهو يفقد ما لم يكن يملكه أصلاً أثناء الحياة؛
هذا كما أنه يفقد أشياء أخرى كثيرة(١)عندما تفارق الروح الحياة.
وإنه لمن الصعب أيضًا زعم أن العينين ليس بإمكانهما أن تريا
شيئا، وأن العقل يرى من خلالهما وكأنهما بوابتان
مفتوحتان(٢)، إذ تقودنا حاسة البصر نحو الرأى الآخر،

---

(١) يفقد الجسد أيضًا الحرارة واللون والقدرة على الحركة.

(٢) اعتقد هرقليطوس أن العقل هو الذى يرى وأن العينين مجرد بوابتين أو نافذتين، وقد تبنى الرواقيون وجهة النظر هذه.

لأن حاسة البصر تجذب العقل وتدفعه مباشرة إلى المقلتين ذاتهما،
فنحن على سبيل المثال لا نستطيع غالبًا النظر إلى الأجسام المضيئة،
وذلك لأن الضوء الشديد يخطف أبصارنا،
وهو ما لا يحدث مع الأبواب الحقيقية؛ لأن الأبواب الحقيقية المفتوحة -
- التى من خلالها نحن أنفسنا ننظر - لا تتعرض لأى مضايقات.
فضلاً عن ذلك؛ فإن كانت أعيننا تقوم فقط بدور بوابتين للعقل،
فلماذا إذن عندما يفقد الإنسان عينيه، أى بفقدانه بوابتيه ذاتيهما،
فإن العقل يبدو أنه ينبغى عليه أن يرى الأمور على نحو أفضل من ذى قبل.
وفى هذا الصدد فإنه لا يمكنك - بأى حال - قبول ثمة خطأ آخر
ذلك الذى نادت به الفلسفة الجليلة للرجل العظيم ديموكريتوس،
وهو الاعتقاد أن ذرات الجسد والروح قد وُضعت الواحدة
بجوار الأخرى على نحو تبادلى، وبذلك ترتبط أعضاء الجسد ببعضها.
حيث إن ذرات الروح أصغر بكثير
من تلك التى يتكون منها جسدنا ولحمنا،
لذا فهى أقل فى العدد أيضاً، كما أنها موزعة على نحو متفرق
على أعضاء الجسد كله؛ لدرجة أنه يمكن أن تقول وأنت على يقين:
إن ذرات الروح التى تتوزع فى أعضاء جسدنا على مسافات

متباعدة جدًا – تلك المسافات التى تشغلها ذرات الجسد لدينا –
بإمكانها إثارة الحركة المحسوسة فى الجسد.
لأننا فى بعض الأحيان لا نشعر بذرات الغبار التى تعلق
بجسدنا، ولا بذرات الطباشير التى تحط على أطرافنا،
ولا نشعر بالضباب فى عتمة الليل، ولا بخيوط نسيج
العنكبوت التى تشتبك بنا أثناء سيرنا،
ولا بسقوط بيت العنكبوت فوق رءوسنا،
ولا برياش الطيور، ولا بالأشواك المتطايرة،
التى بسبب خفتها تجد دائمًا صعوبة بالغة كى تسقط،
ولا نلحظ حركة أى حيوان من الزواحف،
ولا ندرك آثار أقدام البعوض،
وسائر الهوام التى تحط على جسدنا.
وهكذا بالمثل فإن العديد من الذرات لا بد أنها تتحرك بداخلنا،
قبل أن يبلغ الإحساس لذرات الروح المبعثرة فى سائر أعضاء
الجسد، وذلك باصطدامها بذرات الجسد، وقبل أن تتمكن من
شق طريقها عبر المسافات الشاسعة التى تفصل بينها، حيث تجرى
فى آن واحد وتلتقى مع بعضها ثم تقفز بعيدًا عن بعضها مرة أخرى.

إن العقل أكثر تشبثاً بتخوم الحياة،
كما أن له هيمنة أكبر من قوة الروح على الحفاظ على الحياة .
لأنه بدون العقل والإدراك لا تتمكن ذرة واحدة من ذرات
الروح أن تمكث داخل الجسد ولو لحظة واحدة من الوقت.
وبرحيل العقل؛ فإن الروح تتبعه بكل سهولة كرفيقة له،
وتنطلق فى الهواء، وتغادر الجسد البارد عند قشعريرة الموت.
لكن الإنسان يظل على قيد الحياة ما دام بقى العقل والإدراك؛
وعلى الرغم من أن البدن قد يتمزق وتنفصل عنه بعض أطرافه،
وأن الروح ترحل من محيطه وتنفصل عن الأطراف،
فإن الإنسان يظل حياً ويتنفس الهواء الضرورى للحياة.
وبحرمانه من جزء كبير من الروح، إن لم يكن منها كلها،
فإنه يتلكأ فى ترك الحياة ويتشبث بها؛
مثلما أن العين قد يتمزق كل ما حولها، إلا أن القدرة
على الإبصار تظل قائمة ما دام بؤبؤ العين سليمًا،
وبشرط أنك لا تتلف مقلة العين كلها،
وأن تترك بؤبؤ العين سليماً وحتى إن تمزق كل ما حوله؛

لأن مثل تلك الإصابة لا تحدث دون تدمير لكليهما[1].
ولكن لو أن الجزء بالغ الصغر بمنتصف العين قد تآكل،
فإن البصر يُفقد فى الحال ويحل الظلام،
هذا على الرغم من أن بياض العين لم يلحق به أى أذى.
وعلى غرار هذا الوفاق فإن الروح والعقل قد ارتبطا دائمًا ببعضهما.
استمع الآن لما يلى، فلعله يكون بمقدورك أن تدرك أن العقول
والأرواح الخفيفة للكائنات الحية تولد وتموت،
وإننى سوف أتقدم بنظم أشعارٍ جديرة بك،
فقد سعيت خلفها لزمن طويل وتوصلت إليها بعد عناء لذيذ.
ومن الأفضل التعبير عن كل منهما باللفظ نفسه،
فعندما أتطرق فى حديثى عن الروح، على سبيل المثال،
مشيراً إلى فنائها، كن متيقناً من أن حديثى ينطبق أيضًا على العقل؛
لأنهما يمثلان شيئاً واحداً ولهما طبيعة واحدة.
فى المقام الأول؛ حيث إننى قد وضحت أن الروح لكونها رقيقة
وأنها تتكون من جسيمات دقيقة وتتركب من ذرات
أصغر بكثير من ذرات سائل الماء الجارى،

---

(١) المقصود هنا هو المقلة وبؤبؤ العين، أما الجزء بالغ الصغر فهو القرنية.

أو ذرات السحاب أو الدخان، وحيث إنها تفوق هذه المواد بكثير
فى سرعة الحركة وفى سرعة الاستجابة لأدنى قوة دافعة،
إذ إنها تتأثر بصور الدخان والسحاب ..
فعلى سبيل المثال عندما نغط فى النوم؛ فإننا نرى مذابح
تفوح منها رائحة البخور على هيئة سحابة وينبعث منها الدخان؛
لأن تلك الصور بلا شك تتولد لدينا،
ولذلك يمكننى القول الآن: حيث إن الأوعية عندما تتكسر
من كل جانب، فإنك ترى أن الماء ينساب وأن السوائل تتسرب منها،
وحيث إن كلاً من السحاب والدخان يطير فى الهواء،
فلتؤمن إذن أن الروح بالمثل تتبدد وتتلاشى على نحو أكثر سرعة
من السحاب والدخان، وسرعان ما تتفكك الذرات المكونّة لها،
بمجرد أن تنسحب وترحل عن أعضاء جسم الإنسان.
والحق فإن الجسد الذى يُعَدّ بمثابة وعاء للروح،
لو لم يتمكن من احتوائها عندما يتحطم لأى سبب من الأسباب،
أو بإصابته بالهزال بحدوث نزيف وتسرب الدم من الأوردة،
فكيف يتسنى لك الاعتقاد بأن أي هواء بإمكانه أن يحتويها،
فكيف للهواء الذى يعد وعاءً أكثر رقة من جسدنا أن يحبسها داخله؟

علاوة على ذلك؛ فإننا نشعر بأن العقل يولد مع
الجسد وينمو معه ويشيخ معه.

إذ مثلما أن الغلمان تترنح فى مشيها لرقة
بنيانهم وضعفه، هكذا فإن عقولهم بالمثل
تتسم بضعف التمييز؛ ثم عندما يبلغون فى
السن عنفوان الشباب، فإن إدراكهم وقدراتهم
العقلية أيضًا تزداد وتصير أكبر؛

وبعد ذلك عندما يصاب الجسد بالوهن بفعل القوى الهائلة
للزمن، وتخور قوى أعضاء الجسد بعد أن تصيبها البلادة،
يتوقف الإدراك ويتلعثم اللسان ويتداعى العقل،
وتزوى كل الأعضاء وتتوقف عن العمل فى الوقت ذاته..
وعلى هذا فإنه يعقب ذلك أن كل طبيعة الروح أيضًا
تتحلل كالدخان، وتتطاير وسط تيارات الهواء العالية،
حيث إننا نرى أنها قد ولدت مع الجسد ونمت معه،
وكما وضحت سابقاً فإن كليهما يضعف بعد أن قهره الزمن.
أضف إلى ذلك؛ كما نرى أنفسنا أن الجسد ذاته
عرضة للأمراض الفتاكة وللآلام المبرحة،
فكذلك نرى أن العقل عرضة للهموم الثقيلة وللحزن والخوف؛

ولهذا فإننا نستنتج أن العقل أيضًا يشارك الجسد والروح فى الموت.
علاوة على ذلك؛ فإنه عند إصابة البدن بالأسقام فإن العقل
يهيم شارداً؛ لأنه يفقد قواه، ويهزى بكلمات غير مفهومة،
وأحياناً يُصاب بغيبوبة ثقيلة فيغط فى سبات
عميق لا نهاية له بعينين مغمضتين ورأس منكسة،
وهكذا لا يتمكن من سماع أصوات مَنْ حوله، ولا التعرف على
ملامح هؤلاء الذين يقفون بجواره ويدعونه للعودة إلى الحياة،
بينما تكون وجوههم ووجناتهم مبللة بالدموع..
وعلى ذلك فإن عليك أن تسلم بأن العقل أيضًا يفنى،
حيث إن عدوى المرض تتغلغل إلى داخله؛
لأن الألم والمرض هما صناع الموت،
وهو ما خبرناه جيداً من هلاك الكثيرين من قبل.
....
....
فضلاً عن ذلك، عندما تنفذ قوة الخمر العنيفة
إلى قلب الإنسان، وتنتشر حرارتها فى الأوردة،
فلماذا يعقب ذلك تثاقل فى أعضاء الجسد،

وتتعثر قدما الرجل وهو يترنح فى مشيه، ويتثاقل لسانه، ويُسلب عقله،
وتسبح العينان، وتنشأ الضوضاء والتنهدات والمشاجرات،
وسائر مثل هذه الأعراض الناجمة عن الثمالة،
لماذا تحدث هذه الآثار، إن لم تكن القوة العنيفة للخمر
قد اعتادت أن تربك الروح وهى لا تزال حبيسة داخل الجسد نفسه؟
لكن عندما تكون الأشياء قابلة للارتباك والاحتجاز،
فهذه دلالة على أنها ستفنى وأنها ستفقد حياتها فى المستقبل؛
إذا تمكن سبب أقوى منها ولو بقليل أن يتغلغل إليها..
هذا بالإضافة إلى أننا كثيراً ما نرى بأعيننا أن شخصاً يُصاب
بنوبة صرع مباغتة، كما لو أن صاعقة قد أصابته،
حيث يسقط على الأرض وتخرج رغوة من فمه ويئن وتنتفض
أوصاله ويهذى وتتصلب عضلاته ويتلوى ويتنفس
على نحو لاهث، وتخور قوة أطرافه نتيجة لتقلبه؛
وذلك لأن الروح بالطبع تتمزق إربا من فرط حدة المرض
المنتشر فى كل أنحاء الجسد وتضطرب وتزبد، مثلما
تفور الأمواج فى البحر المالح بفعل القوى العاتية للرياح.
كما أن الأنين يرتفع لأن أعضاء الجسد يعتصرها

الألم، وبشكل عام لأن ذرات الصوت
تتجمع ثم تنطلق من الفم وتتجه نحو الخارج،
من حيث اعتادت الخروج، إذ إن كل الطرق قد مُهدت لها.
ويحدث الهذيان لأن قوى العقل والروح يصيبها
الاضطراب، وكما وضحت فإنها تنشطر إلى شطرين،
وتنفصل عن بعضها وتتبعثر بذات العلة.
بعد ذلك عندما يزول سبب المرض، وينسحب
ذلك المزاج الحاد للجسد السقيم إلى مخابئه،
عندئذ ينهض المريض أولاً وكأنه يتمايل، ولكنه
تدريجياً يستعيد وعيه كاملاً وتُرد إليه روحه.
وعلى ذلك حيث إن العقل والروح يضطربان من قِبَل مثل هذه الأسقام الخطيرة
فى ذات الجسد الواحد، ويعانى كل منهما جراء انفصالهما بهذه الطرق البائسة،
فكيف تعتقد أن مثل هذا العقل ومثل تلك الروح بإمكانهما البقاء فى الوجود،
بدون الجسد وفى الهواء الطلق وسط الرياح العاتية؟
وحيث إننا نلاحظ أن العقل يمكنه الشفاء مثل الجسد السقيم،
كما أننا نرى بأعيننا أن بمقدوره أن يسترد عافيته بالدواء،
فإن ذلك أيضًا يبرهن على أن العقل يقضى حياة فانية.

لأن من يحاول ومن يشرع فى تغيير طبيعة العقل،
أو من يسعى لتغيير طبيعة أي مادة أخرى، فإن عليه
أن يضيف إليها أجزاء جديدة أو أن ينقلها إلى موضع جديد،
أو أن يستأصل على الأقل قدراً ضئيلاً منها.
لكن الشئ الخالد لا يسمح لأى جزء منه بأن يُنقل من مكانه
أو أن يُضاف إليه أى شئ، أو أن يُستأصل منه أى مقدار ضئيل؛
لأن الشئ الذى طرأ عليه التغيير بالفعل يكون قد تخطى حدود طبيعته،
وهذا يعد بمثابة الموت الفورى للطبيعة التى كان عليها من قبل..
وعلى ذلك؛ فإن إصابة العقل بالمرض وقدرته على التداوى
بالأدوية هى، كما وضحت من قبل، براهين على فنائه؛
لذا فإن الحقائق الواضحة تبدو بأنها تتصدى للفكر الخاطئ،
وتقطع عليه الطريق عندما يلوذ بالفرار، وتفند زيفه برفض مزدوج..
علاوة على ذلك؛ فإننا كثيراً ما نرى إنساناً تُفقد أطرافه
تدريجيا، الواحد تلى الآخر، الإحساس المميز للكائن الحى؛
ففى البداية تصبح أصابع وأظافر قدميه ذات لون أزرق داكن،
ثم تموت القدمان والرجلان، بعد ذلك تتسلل ببطء
آثار برودة الموت إلى سائر الأعضاء الأخرى.

وحيث إن مادة الروح تنقسم على هذا النحو، ولا تخرج
كلها فى آن واحد، فإنه ينبغى الاعتقاد بأنها فانية.
لكن لو أنك بالمصادفة تعتقد أن الروح تستطيع بنفسها أن تجذب
نفسها من داخل كل أعضاء الجسد، وأن تجمع أجزاءها فى موضع واحد،
وأنها بهذه الكيفية تسحب الإحساس من جميع أعضاء الجسد،
لو كان الأمر كذلك لكان على ذلك الموضع – الذى تجمع فيه هذا
القدر الكبير من الروح – أن يبدو أنه أكثر إحساساً؛
وحيث إن هذا الموضع غير موجود على الإطلاق، فلا ريب أن الروح،
كما سبق أن ذكرت، تتمزق إرباً وتنطلق إلى الخارج، ومن ثم فإنها تفنى.
علاوة على ذلك؛ حتى لو أننا رضينا بالفعل بقبول هذا الرأى الخاطئ،
وهو أن الروح بإمكانها أن تتجمع فى أجساد هؤلاء الذين
يرحلون عن نور الحياة بالموت تدريجياً،
على أي حال؛ فإن عليك أن تعرف أن الروح فانية،
فليس ثمة فارق بين أن تفنى الروح بتشتتها فى الهواء،
أو أن تفقد الإحساس بعد تجمعها من كل أعضاء الجسد،
إذ إن الإحساس يرحل عن كل جسد الإنسان رويداً رويداً،
وتقل فيه الحياة شيئاً فشيئاً.

وحيث إن العقل هو أحد أجزاء الإنسان التى تقع
فى موضع بعينه من الجسم مثل الأذنين والعينين
وسائر أعضاء الحواس الأخرى التى تسوس الحياة،
ومثلما أن اليد أو العين أو الأنف إن انفصلت
عن جسدنا لا يمكنها أن تشعر أو أن يكون لها كيان،
إذ إنها تتعفن خلال وقت وجيز من انفصالها عن الجسد،
هكذا فإن العقل كذلك لا يمكنه الوجود قائماً بذاته دون الجسد
أو بدون الإنسان نفسه، لأن جسد الإنسان يبدو كوعاء له،
فهل هناك وعاء آخر تتخيله أكثر اقتراناً بالعقل،
فالعقل بحق وثيق الارتباط بالجسد..
علاوة على ذلك؛ فإن القوة الحيوية للجسد والعقل
تتسم بالنشاط وتتمتع بالحياة فقط فى حال اقترانهما ببعضهما؛
لأن طبيعة العقل لا تستطيع بذاتها أن تؤدى وحدها
حركة مفعمة بالحيوية دون الجسد، كما أن الجسد
بعد رحيل الروح عنه لا يستطيع أن يظل فى الوجود أو أن يستخدم حواسه.
ومثلما أن العين، على سبيل المثال، إن اُقتلعت من جذورها
لا تستطيع – بمفردها وبمعزل عن الجسد كله – أن ترى أى شئ،

وعلى هذا النحو؛ فإن الروح والعقل يبدوان أنهما لا يقدران على
شئ بمفردهما، ولا ريب فى ذلك لأن ذراتهما متغلغلة فى الجسد كله،
فهى ممتزجة بالأوردة واللحم والأعصاب والعظام،
وهى لا تستطيع أن تقفز بعيدًا بحرية فتتشتت فى نطاق مساحات
بينيةٍ كبيرة، ولهذا السبب، فإنه بامتزاج الروح والعقل بالجسد هكذا،
يبثان أنشطة الحواس التى لا يستطيعان بثها من خارج الجسد
بعد تشتتهما وسط تيارات الهواء عقب الموت،
وذلك لأنهما لم يعودا محكومين داخل الجسد كما كانا من قبل.
وقطعاً سيصبح الهواء جسداً وسيصير كائناً حياً، لو أصبح
بمقدور الروح أن تحافظ على تماسكها فى الهواء، وأن تقصر نفسها على أداء
تلك الأنشطة التى كانت تؤديها من قبل مع الأعصاب ومع الجسد ذاته.
وفى هذا الصدد أقول مراراً وتكراراً إن عليك أن تقر بما يلى:
عندما يهلك كل هيكل الجسد ويلفظ المرء أنفاسه الأخيرة،
فإن حواس العقل تتفكك ومعها الروح،
وذلك لأنهما مرتبطان ببعضهما فى سبب الوجود وفى المصير أيضًا.
بالإضافة إلى ذلك، حيث إن الجسد ليس باستطاعته تحمل الانفصال
عن الروح، إذ إنه يتعفن ويصير كريه الرائحة،

فلماذا يساورك الشك فى أن قوة الروح، بعد أن تتجمع
ذراتها من أعماق الجسد، تنطلق خارجه ثم تنتشر كالدخان،
وأنه لهذا السبب يتغير حال الجسد ويبلى تمامًا بمثل هذا
العفن، وذلك لأن قواعدها داخل الجسم تُزحزح
من مكانها، وذلك بالتزامن مع رحيل الروح إلى الخارج عبر
أعضاء الجسم، وعبر كل الطرق الملتوية والقنوات الموجودة
فى الجسد؟ وهكذا لعلك تدرك بطرق عديدة
أن مادة الروح قد تجزأت ومن ثم ترحل عبر أعضاء الجسد،
وأنها قد تحللت داخل الجسد ذاته قبل أن تتسلل
خارجه وتسبح داخل تيارات الهواء.
علاوة على ذلك، بينما لا تزال الروح تتردد فى حدود الحياة عند
حضور المنية، فإنها – على أي حال – كثيراً ما تضعف لسبب ما فتبدو
بأنها ترغب فى الرحيل والانسحاب من الجسد كله،
ويصير لون الوجه شاحباً وكأنه فى لحظته الأخيرة،
وتسقط كل الأطراف المتراخية من البدن الخالى من الدماء.
هذا هو ما يحدث عندما نقول: "توقف العقل "
أو "أزهقت الروح"؛ حينها يستبد بنا الذعر

ويرغب الجميع فى استرداد خيط الحياة الأخير؛
لأن الإدراك وكلِ قوة الروح فى ذلك الوقت يضطربان
معاً، والاثنان يتعرضان للدمار معًا مع البدن نفسه،
لذلك يتمكن أي قوة أكبر منهما ولو بقليل من أن تجبرهما على التحلل.
وأخيرًا لماذا يساورك الشك فى أن الروح بعد انتزاعها من الجسد
تصير ضعيفة خارج الجسد فى الهواء وبلا وعاء يحميها،
وبذلك فإنها ليس فقط لا تستطيع البقاء بمفردها طول الوقت
بل وإنها أيضًا لا تستطيع الوجود بمفردها ولو للحظة واحدة؟
والحق أنه لا يبدو أن أحداً عند الاحتضار يشعر
بأن الروح تخرج كاملة من الجسد،
أو يشعر بها وهى تبلغ الحلقوم ثم الفكين وهى كاملة،
بل إنه يشعر بأن جزءاً منها يكمن فى موضع بعينه وتبلى فيه،
حيث يدرك المرء أن حواسه الأخرى تتبدد، كل منها
فى موضعه، لكن لو كان إدراكنا خالداً،
فإنه لن يعانى كثيراً من التبدد عند الموت،
بل إن عليه أن يشعر بالسعادة لتركه الجسد،
مثلما يبتهج الثعبان بانسلاخه من جلده.

وكذلك لماذا لا يولد إدراك العقل وفهمه فى الرأس أو القدمين أو
اليدين، بل يقبعان فى موضع واحد وفى مكان محدد لدى كل البشر،
ذلك إذا لم يكن كل مكان بعينه مخصصاً لمولد شئ بعينه،
حيث يمكن لهذا الشئ أن يحافظ على وجوده بعد مولده،
وهكذا الحال مع كل عضو من أعضاء الجسد المتنوعة،
وعلى ذلك لا يقع أبداً عضو من الأعضاء فى غير موضعه؛
لذا فإن كل شئ يلزمه شئ آخر، فالنار لم تَعْتَدْ أن تنشأ
من الأنهار، ولا يولد الجليد من النار.
علاوة على ذلك، لو أن طبيعة الروح كانت خالدة
وكان بمقدورها الإحساس بعد انفصالها عن أجسادنا،
لكان علينا، كما أعتقد، أن نزعم أنها مزودة بالحواس الخمس؛
فإننا لا نستطيع - بأى طريقة أخرى - أن نتخيل أن الأرواح
فى العالم السفلى تهيم على ضفتى نهر أخيرون[١].
ولهذا قدم الرسامون[٢] والرعيل الأول من المؤلفين
الأرواح مزودة على هذا النحو بالحواس.
ولكن العيون والأنوف والأيدى ذاتها لا تستطيع الحفاظ

---

(١) أخيرون: انظر أعلاه الكتاب الأول صـــ ١٨١ حاشية ٣٩.

(٢) يقصد جماعة كبيرة من الرسامين مثل أعمال بولوجنوتوس فى دلفى ونيكياس فى أثينا.

على وجودها بمعزل عن الروح، ولا يمكن للسان النطق ولا
الآذان السمع؛ وكذلك فإن الروح – بمعزل عن الجسد –
لا يمكن أن تكون لها حواس ولا تتمكن من الوجود.
وحيث إننا نشعر أن الإحساس منتشر فى كل أنحاء الجسد،
ونرى أن الجسد كله ينبض بالحياة،
فلو أن قوة ما قطعت الجسد من المنتصف بضربة حادة
مباغتة حيث تفصل كل جزء عن الآخر،
فلا ريب أن مادة الروح تتمزق إرباً هى الأخرى،
وتنشطر إلى نصفين مع الجسد،
لكن الشئ الذى ينفصل وينشطر إلى أجزاء
كفيل بدحض الادعاء بأن طبيعة الروح خالدة.
يروى الناس أن العربات الحربية المزودة بالمناجل[١] التى تُخضّب
بدماء الكثيرين، كثيراً ما تبتر بغتة أطراف الجنود،
فنرى العضو الذى يُبتر من البدن وهو يرتجف على الأرض
عقب سقوطه، على الرغم من أن عقل المرء وروحه

(١) تعد العربات الحربية المزودة بالمناجل ابتكاراً شرقيا، والحق أن الإغريق والرومان لم يستخدموها، وقد ذكر المؤرخ ليفيوس استخدامها فى الحرب ضد أنطيوخوس الثالث. من هنا يستخدم لوكريتيوس لفظ "يروى الناس" مما يشير إلى أنه لا يعتقد فى صحة هذه الرواية.

لا يمكنهما الشعور بالألم نظراً لسرعة الإصابة،
ولأن العقل فى ذلك الوقت يكون مشغولاً بحماس القتال؛
فهو يتابع سفك الدماء والقتال بما بقى من جسده،
ولا يدرك غالبًا أنه قد فقد ذراعه اليسرى ومعها الدرع
تحت أقدام الجياد بفعل العجلات ذات المناجل الشرهة،
وبالمثل لا يدرك رجل آخر أن ذراعه اليمنى قد سقطت منه أثناء تسلقه
لعربة واندفاعه للأمام. كذلك رجل ثالث يحاول النهوض بعد أن
بُترت ساقه، بينما أن قدمه التى أوشكت على الموت على الأرض
بجواره تحرك أصابعها؛ حتى الرأس بعد انفصالها عن الجزع الدافئ
والحى تحتفظ وهى على الأرض بمظاهر الحياة وبعينين مفتوحتين،
وتظل على هذه الحال إلى أن تسلم كل ما بقى فيها من روح.
فضلاً عن ذلك لو كان لسان الأفعى يهتز تجاهك
وذيلها يتهددك وجسمها الطويل، فلعلك ترغب
فى قطع كليهما بسيفك إلى أجزاء عديدة،
عندئذ سترى أن كل الأجزاء المقطوعة تتلوى كل منها على حدة
بسبب جرحها حديث العهد، وتلطخ الأرض بدمها،
وأن نصفها الأمامى يرتد للخلف لتقضم بفمها جزءها الخلفى نفسه؛
فلعلها بعضتها هذه تسكن من حدة ألم الجرح الذى أصابها.

هل علينا إذن أن نجزم بوجود روح كاملة فى كل جزء
من تلك الأجزاء؟ لكن هذا الفرض يستلزم
امتلاك الكائن الحى الواحد للعديد من الأرواح داخل جسده.
والحق أنها روح واحدة، تلك التى قُسمت على
الجسد؛ ولذلك فإنه يجب الاعتقاد بأن كليهما فانٍ،
حيث إن كلاً منهما قد قُسم بالتساوى إلى أجزاء عديدة.
فضلاً عن ذلك لو أن طبيعة الروح كانت خالدة
و أنها قد انسلت داخل أجسادنا عند مولدنا،
فلماذا لا نتمكن من تذكر الفترة الزمنية التى مضت من قبل،
ولا تُطبع فى ذاكرتنا أى آثار للأحداث التى جرت لنا؟
لأن قوة العقل لو تغيرت إلى هذا الحد البالغ،
لدرجة أن سائر الأحداث الماضية قد سقطت من الذاكرة،
وحسب اعتقادى فإن هذا الشأن لا يختلف كثيراً عن الموت؛
وبناءً عليه ينبغى عليك أن تقر بأن الروح التى كانت موجودة فى
السابق قد فنيت، وأن تلك الموجودة حالياً قد وُلدت الآن.
بالإضافة إلى ذلك، لو افترضنا أن قوة العقل الحيوية اعتادت أن تنسل
إلى داخلنا فى لحظة مولدنا، عندما نتخطى عتبة بوابة الحياة

وبعد أن يكون الجسد قد اكتمل بالفعل،
فإن هذا الفرض لا يتفق مع حقيقة أنها تبدو لنا كأنها
تنمو مع الجسد ومع سائر الأعضاء بذات الدم،
بل إن هذا الفرض يوحى بأنها تعيش لنفسها وحيدة، معتمدة على ذاتها
كأنها فى قفص، فى حين أن سائر الجسد يعج بالأحاسيس.
ولهذا أكرر مراراً وتكراراً بأنه لا ينبغى الاعتقاد أن الأرواح
ليست لها بداية، وأنها لا تخضع لقانون الموت.
لأنه لا ينبغى علينا الاعتقاد بأن الأرواح يمكنها الارتباط بشكل وثيق
بأجسادنا بعد أن أتت من الخارج وتسللت إلى داخلنا –
خاصة أن التجربة تثبت بكل وضوح خلاف ذلك؛
لأن الروح وثيقة الصلة بالجسد حيث تتخلل الأوردة واللحم والأعصاب
وحتى العظام؛ إذ إن الأسنان أيضًا تشارك باقى الأعضاء فى الإحساس،
ويبرهن على ذلك الألم الذى يصيبها، والوخز الناجم عن الماء المثلج،
أو مضغ حصوة خشنة كانت موجودة داخل الخبز؛ وحيث إن الروح
والجسد مرتبطان ببعضهما إلى هذا الحد، فيبدو من الواضح
أنه ليس بإمكانها الانفصال وهى سالمة، أو أن تحرر نفسها بسلام
من كل من الأعصاب والعظام والمفاصل.

لكن إن اعتقدت بالمصادفة أن الروح اعتادت أن تتسلل إلى الجسد
من الخارج ثم تتغلغل داخل أعضائنا،
فإنها ستكون أكثر عرضة للفناء بسبب امتزاجها بالجسد؛
لأن الشئ الذى يمكنه النفاذ إلى الجسد يتفكك بداخله، ومن ثم يفنى.
فالروح تُوزع على كل مسام الجسد؛
مثلما أن الطعام، بعد أن يُوزع على كل أعضاء الجسم وأطرافه،
يفنى وتتحول مادته إلى أشياء أخرى ذات طبيعة مختلفة،
وهكذا فإن الروح والعقل، على الرغم من أنهما طبقًا لهذا الفرض يدخلان
فى جسد وليد ككيانات كاملة، فإنهما عند النفاذ إليه يتفككان مثل
الطعام المهضوم، وذلك أثناء انتشار ذراتهما داخل أعضاء الجسد
عبر كل المسام، ومن تلك الذرات تتكون مادة عقل جديد
الذى يهيمن الآن على جسدنا، وهذا العقل الجديد يولد
من ذلك القديم الذى قد فنى بمجرد تقسيمه على أعضاء الجسم.
وعلى ذلك؛ فإن مادة الروح تبدو أن لها يوم ميلاد
خاص، كما أنها ليست معفاة من الموت.
علاوة على ذلك، هل تبقى ذرات الروح فى الجسد
الميت أم لا؟ لو أن بعضها يبقى ويظل موجوداً بالجسد
لأصبح من المستحيل تمامًا الاعتقاد فى خلودها،

حيث إنها ترحل بعد تضاؤلها نظراً لفقدها بعض أجزائها.
لكن لو أنها رحلت ولاذت بالفرار بكل أجزائها كاملة
حيث إنها لم تترك فى الجسد أى ذرة من ذراتها،
فمن أين للجثث أن تبعث الديدان من اللحم الذى أصابه
العفن بالفعل، ومن أين يأتى كل هذا الحشد الكبير من الكائنات الحية،
التى لا عظام لها ولا دماء بها التى تسرى داخل الأعضاء المنتفخة؟
والآن لو أنك ظننت بالصدفة أن الأرواح بإمكانها أن تنسل داخل
الديدان من الخارج، وأن بإمكانها أن تدخل إلى أجساد الديدان
الواحدة تلى الأخرى، فلعلك تغض الطرف عن سبب تجمع العديد من آلاف
الأرواح فى الموضع الذى رحلت منه روح واحدة، إن هناك ثمة سؤالاً
يبدو أنه يطرح نفسه ويحتاج إلى دراسة فاحصة،
هل فعلاً تتعقب الأرواح بعض ذرات
الديدان وتتخذ منها مأوى لها،
أم إنها تتسلل إلى أجساد قد أعدت سابقاً؟ لكن لا توجد إجابة
أيضًا للسؤال التالى: لماذا على الأرواح أن تصنع لنفسها أبدانًا،
ولماذا عليها أن تواجه تلك المتاعب؛ فهى عندما تكون دون جسد
فإنها تحلق بعيدًا فلا تتعرض لمرض أو برد أو جوع؛

ولأن الجسد أكثر عرضة لهذه المتاعب، فإن الروح تعانى
من الكثير من المتاعب لارتباطها بالجسد. على أيِ حال هب
أن هذه الأرواح، كما تشاء، تصنع لنفسها أبدانًا مناسبة كى تسكنها،
لكن كيف لها ذلك؟ لا يبدو أن هناك سبيلاً يمكنها من عمل ذلك.
وعلى ذلك فإن الأرواح لا تصنع أجساداً وأعضاء.
كما أنه ليس من المحتمل أن تتسلل الأرواح داخل
أجساد معدة لها سابقاً؛ لأنها لن تكون قادرة على الاتحاد على نحو
وثيق مع تلك الأجساد، ولن ينشأ بينهما تناغم فى الأحاسيس.
فضلاً عن ذلك؛ لماذا تلازم سمة الضراوة الشديدة سلالة
الأسود حادة الطباع، ويلازم الدهاء الثعالب، ويرث الغزال
عن والديْه سرعة الفرار، فالخوف الموروث من والديه يحث أقدامه
على العدو؟ ولماذا كل الخصال الأخرى من هذا القبيل – المتعلقة
بالجسد أو الطباع – تتم توارثها منذ فجر التاريخ،
ذلك إذا لم يكن بسبب نموِّ طباع بعينها للعقل
بالتزامن مع كل جسد من نسله وفصيلته؟
لكن لو أن الروح كانت خالدة واعتادت أن تنتقل من جسد
لآخر[1]، لكانت الكائنات الحية ستظهر طباعاً مختلطة؛

(١) يشير لوكريتيوس هنا إلى نظرية تناسخ الأرواح التى نادت بها الفلسفة الفيثاغورثية.

فالكلب من السلالة الهيركانية[1] كان عندئذ سيلوذ دائمًا بالفرار
أمام غارات الوعل ذى القرون، ويرتعد الصقر أثناء
تحليقه فى هواءِ السماء عند قدوم اليمامة؛
وسيفتقر البشر للتفكير، وستحظى فصائل الوحوش المفترسة بالعقل.
والحق إن ما يقوله بعض بأن روحاً خالدة تتغير طبيعتها
بتغير الجسد لهو أمر يعتمد على تفكير خاطئ؛
لأن الشئ الذى يتغير يتحلل، ومن ثم يفنى.
فأجزاء الروح تغير موضعها وترحل عن مواضعها الأصلية؛
ولهذا السبب وجب عليها أن تكون قادرة على التحلل فى كل أنحاء الجسد،
وفى نهاية المطاف تفنى كل هذه الأجزاء مع الجسد دفعة واحدة.
لكن إذا كانوا يقولون إن أرواح البشر تنتقل دائمًا بين الأجساد
البشرية، فإننى – على أى حال – سأسألهم كيف يتسنى لروح خرجت من
جسد رجل حكيم أن تصبح حمقاء بولوجها فى جسد رجل أحمق،
ولماذا لا يوجد صبى حكيم،
....

(١) هيركانيا: مدينة تقع على الساحل الجنوبى الشرقى لبحر كاسبيا، وقد اشتهرت كلاب هيركانيا بالشراسة. يذكر شيشرون فى عمله مناقشات توسكولانية (Tusc. Disp.1.45.108) أن شعب هيركانيا كان يعتقد أن أفضل وسيلة لدفن موتاهم هى تمزيق أجساد الموتى بواسطة كلابهم، وأنهم لهذا السبب كانوا يربونها.

ولماذا لا تكون للمُهر – ابن الفرسة الذى تدرب على العدو تدريباً جيداً –
قوة الجواد البالغ[١]. ولا ريب فى أنهم سيلجأون إلى القول إن الروح
ستكون واهية فى الجسد الضعيف، لكن لو كان الأمر كذلك فإن
عليك أن تسلم بأن الروح فانية، حيث إنها بعد أن تتواءم تمامًا
مع الجسد الجديد فإنها تفقد حيويتها السابقة وأحاسيسها.
وكيف ستتمكن قوة الروح، بعد أن صارت هى الأخرى
قوية مع الجسد، أن تبلغ زهرة العمر المنشودة،
إن لم يتزاوج الاثنان منذ النشأة الأولى لكل منهما؟
ولماذا ترغب الروح فى الرحيل عن الجسد بعد أن صار هرماً؟
هل أنها تخشى المكوث حبيسة داخل جثمان متحلل فتتحلل معه،
أم تخشى أن ينهار مسكنها فوقها بعد أن تهدم بفعل الردح الطويل
من الزمن؟ بيد أن الشئ الخالد لا يخشى مثل هذه الأخطار.
إنه ليبعث على السخرية أيضًا افتراض أن الأرواح تبدى
استعدادها للتزاوج عن طريق فينوس والولادة مثل البهائم،
وأن عدداً لا حصر له من الأرواح الخالدة تنتظر مولد
أجساد فانية، وأنها تتبارى فيما بينها وهى فى عجلة

(١) يذكر لوكريتيوس الجواد هنا ليظهر أن الافتراض الذى يتناوله بالمناقشة يسرى على أرواح الحيوانات ولا يقتصر على أرواح البشر فقط.

من أمرها أيها سيلج الجسد أولاً ويتمكن منه؛
إلا إذا افترضت بالصدفة أن الأرواح تبرم فيما بينها اتفاقات
جد منظمة؛ حيث إن الروح التى تصل أثناء طيرانها
إلى الجسد أولاً تكون أول من يلجه، وبذلك لا تلجأ إلى
الصراع فيما بينها والاستعانة بقوتها ولو بمثقال ذرة.
علاوة على ذلك؛ فإن الشجرة لا يمكنها الحياة فى الفضاء[1]،
ولا السحب فى البحر العميق، ولا تعيش الأسماك فى الحقول،
ولا توجد الدماء فى الخشب، ولا العصارة فى الصخور..
وإنه لمن الثابت ومن المحدد أين ينمو كل شئ وأين يوجد.
وهكذا فإن مادة العقل لا يمكنها أن تنشأ بمفردها بدون الجسد،
أو أن توجد خارج الجسد بمنأى عن الأعصاب والدم.
لكن لو أمكن تحقيق ذلك حقا، فحرى بمادة العقل أن يكون بإمكانها
أن توجد فى الرأس أو المنكبين أو فى عقبىّ القدمين
وأن تعتاد أن تنشأ فى أى جزء من الجسد، وأن تظل
على الأقل فى جسد نفس الإنسان وفى الوعاء نفسه.

---

(١) يكرر لوكريتيوس فى الكتاب الخامس (5. 128-141) مع إجراء بعض التعديلات الطفيفة الأبيات (3. 784-797)؛ وذلك أثناء حديثه عن الأرض والبحر والسماء والشمس والقمر والنجوم باعتبارها ليست كائنات حية وأنها لا تتسم بالخلود.

ولكن حيث إنه فى جسدنا أيضًا يبدو من الثابت
ومن المحدد أين يمكن للروح والعقل أن توجدًا
وأن ينموا كل على حدة، فإنه ينبغى علينا أن ننكر بشدة
أن باستطاعتهما البقاء أو النشوء خارج الجسد كله.
وعلى ذلك؛ عندما يهلك الجسد، فإن عليك أن تسلم بأن الروح
تهلك أيضًا بعد أن تمزقت إرباً فى سائر أنحاء الجسد.
إنه لمن السخف – إذن – الجمع بين ما هو فانٍ وما هو خالد،
والاعتقاد أن بالإمكان أن يعملاً معًا فى تناغم وأن يشتركا فى أداء
أعمال مشتركة، فهل هناك ما يجب اعتباره أكثر تنافرا –
أو أكثر تناقضاً أو أكثر تضارباً –
من الجمع بين ما هو فانٍ وما هو خالد وسرمدى
كى نكون كياناً واحداً يستطيع الصمود أمام الرياح العاتية؟
علاوة على ذلك، فإن الأشياء كى تظل خالدة لا بد أن تتصف بما يلى[١]:
أن تصدَّ الصدمات، لكونها مصنوعة من مادة صماء،
وأن لا تسمح بأن ينفذ إلى داخلها أى شئ له القدرة على

---

(١) تتكرر الأبيات (806-818 .3) بتغيير طفيف فى الكتاب الخامس (351-363 .5)؛ حيث يناقش مسألة عدم خلود العالم وحتمية فنائه. وحيث إن السياق فى الكتاب الخامس مناسب أكثر لهذه الأبيات فيمكننا أن نستنتج أن لوكريتيوس قد كتب الكتاب الخامس قبل الكتاب الثالث.

شطر أجزائها المتماسكة من الداخل، مثل ذرات المادة،
التى تعرضنا لشرح طبيعتها من قبل؛
أو أن يكون بإمكانها الصمود عبر العصور
وذلك لأنها لا تتعرض إلى صدمات، مثل الفراغ،
الذى يظل بلا مساس، ولا يتأثر مثقال ذرة بأية صدمة؛
أو أن لا توجد مساحة مكانية حولها،
بحيث يمكن من خلالها أن تتفرق مادتها وتتلاشى،
إذ إن البنيان الكامل للكون[1] خالد، حيث لا يوجد أى فراغ
حوله فيكون بإمكان المادة الفرار من خلاله، ولا توجد خارجه أجسام
تسقط فوقه وتحطمه بضربة قاضية إلى أجزاء متفرقة.
لكن لو تصادف واعتبر بعض أن الروح خالدة؛
لأنها محمية ومحصنة بواسطة مقومات الحفاظ على الحياة،
أو لأن القوى المعادية لسلامتها لا تتمكن على الإطلاق من الوصول إليها،
أو لأن تلك القوى التى تحاول الوصول إليها تنسحب – وهى مطرودة بطريقة
أو بأخرى – قبل أن نتمكن من أن نشعر بضررها،

---

(١) عبر لوكريتيوس عن الكون بأكثر من تعبير متشابه مثل: summa , rerum summa , omnis summa , summarum summa . وهذا الشكل الأخير يعبر عن البناء الكامل للكون، وهو شكل نادر الاستخدام فى العصر الكلاسيكى للأدب اللاتينى، ولكنه يحمل فى طياته نكهة اللغة العامية.

(وتثبت التجربة أن هذا الرأى يفتقر إلى الصواب)،[١]
وذلك لأنها تمرض هى الأخرى بفعل أسقام الجسد،
فكثيراً ما يعكر شئ ما صفوها بشأن ما قد يحدث
فى المستقبل فتقع على نحو سيئ فريسة للخوف وتكدرها الهموم،
كما أن الندم على الذنوب التى أُرتكبت فى الماضى تجلب وخز الضمير.
أضف إلى ذلك ما يتعلق بالعقل من جنون ونسيان لكل شئ،
وأضف كذلك غرقها فى أمواج النعاس السوداء.
وعلى ذلك فإن الموت لا يمثل شيئاً لنا[٢]، ولا يقلقنا على الإطلاق،
حيث إن من المعروف عن مادة الروح أنها فانية؛
وكما أننا لم نشعر بالقلق قبل مولدنا على ما جرى فى الزمن الغابر،
عندما تدفق القرطاجيون من كل جانب ليقاتلوا أجدادنا،
وعندما زُلزلت الأرض كلها بجلبة الحرب المروعة،

---

(١) يبدو أن لامبينوس "Lambinus" على صواب حيث يقول إن هناك بيتاً مفقوداً بعد البيت رقم ٨٢٣، ويرى لامبينوس أن نص البيت المفقود هو :

(والحق أن هذا الرأى بعيد كل البعد عن الصواب)

Scilicet a vera longe ratione remotumst ,

فى حين أن العلامة بيلى شاكلتون "Bailey" يقترح أن نص البيت المفقود هو :

Hoc fieri totum contra manifesta docet res ,

وهو النص الذى اعتمد عليه الناشر مونرو "Munro" فى طبعته التى اعتمدنا عليها وقمنا بترجمتها.

(٢) جملة لوكريتيوس: " إن الموت لا يمثل شيئاً لنا – "nil…mors est ad nos - هى ترجمة لعبارة اقتبسها من معلمه إبيقوروس (Epic., Sent. 2).

وأصيب بالهلع كل شئ تظلله السماء العالية،
وصار مصير كل البشر فى البر والبحر معلقا:
لأى حكم من الحكمين سيؤول مصيرهم[١]،
وهكذا أيضًا عندما سينتهى وجودنا، عندما يحدث الانفصال بين
الجسد والروح اللذين باتحادهما تنصهر أجزاؤنا فى كيان واحد،
كن واثقاً إذن أن أى شئ على الإطلاق لن يستطيع أن يحدث لنا،
لأننا لن نكون حينها فى الوجود، ولن يستطيع أى شئ أن يجعلنا نشعر،
حتى لو امتزجت الأرض بالبحر والبحر بالسماء.
والآن هب أنه بعد انفصال مادة العقل وقدرات الروح
عن جسدنا لا يزال بإمكانهما الإحساس.
على أى حال؛ فإن ذلك لا يمثل شيئاً بالنسبة لنا، نحن الذين يلزم
لوجودنا فى الحياة اقتران الجسد بالروح وانصهارهما فى كيان واحد.

---

(١) تشير هذه الفقرة إلى الحرب البونية الثانية بين روما وقرطاجة، والتى دارت رحاها فى الفترة (٢١٨-٢٠١) ق. م.. أدرك هانيبال أن الحرب مع روما مقبلة لا محالة؛ وأن عليه أن يباغتهم بضربة قاضية فاكتسح شمال إسبانيا. أرسلت روما وفداً من السناتو إلى قرطاجة لنزع فتيل الحرب، لكن المهمة باءت بالفشل. عبر هانيبال جبال الألب وهزم الرومان فى كاناى، لجأ سكيبيو إلى حيلة بارعة، أن يترك جيشاً دفاعياً فى إيطاليا ويذهب بقواته الهجومية إلى قرطاجة لينقل الحرب إلى أرض خصمه، اضطر هانيبال إلى مغادرة إيطاليا فالتقى الجيشان فى زاما حيث انتصر الرومان وفر هانيبال إلى قرطاجة. استسلم القرطاجيون للرومان الذين أملوا شروطهم على القرطاجيين. لقد كانت هذه الحرب حرباً مصيرية فالمهزوم فيها سيفقد السيطرة على البحر المتوسط بل وسيفقد وجوده ذاته.

وحتى لو استطاع الزمن أن يجمع ذراتنا بعد الموت
وأن يعيدها مرة أخرى إلى هيئتها نفسها الحالية،
وحتى لو أعاد إلينا نور الحياة مرة أخرى،
فإن ذلك الأمر أيضًا لا يعنينا على الإطلاق حتى لو حدث بالفعل،
ما دامت أن قدرتنا على التذكر تكون قد دُمرت تمامًا من قبل.
وحتى فى وقتنا الحاضر؛ فإنه لا يعنينا فى شئ معرفة
ماذا كنا من قبل، ولا تمسنا الآن أي معاناة بشأن هذا الأمر،
لأنه عندما ينظر المرء للخلف إلى كل ما مضى على مدى
غير محدود من الزمن، ويرى كم أن حركة الذرات
متنوعة، عندئذ يمكنه أن يدرك بسهولة:
أن تلك الذرات نفسها التى نتكون نحن منها الآن قد
وُضعت من قبل بالترتيب نفسه الذى هى عليه الآن.
لكن العقل لا يستطيع استدعاء تلك الفترة من الزمن للذاكرة؛
لأن الحياة قد توقفت فى تلك الفترة البينية التى فيها كانت كل
تحركات ذراتنا تتجول هنا وهناك وابتعدت بعيدًا عن مداركنا.
لأنه لو تصادف وقُدر لإنسان أن يشقى ويتألم فى المستقبل،
لكان عليه هو نفسه الوجود أيضًا فى ذلك الوقت الذى

سينزل به البلاء، لكن حيث إن الموت يمنع حدوث هذا الأمر،
ويحول دون وجود الإنسان الذى قد تتجمع لديه تلك النكبات،
فعلينا أن ندرك أنه لا يوجد ما يجب خشيته بعد الموت،
فالإنسان غير الموجود أصلاً لا يمكنه أن يشقى، فليس هناك
أى فرق بين أن يكون الإنسان قد وُلد فى وقت سابق أو لم يولد تماما،
ما دام الموت الخالد سيقضى على حياته الفانية.[1]
وعلى ذلك عندما ترى إنساناً مستاءً من قدره،
إذ إنه بعد الموت إما أنه سيتحلل مع جسده المستلقى فى القبر،
وإما يهلك فوق مشاعل المحرقة أو بفكوك الحيوانات الضارية[2]،
كن واثقاً من أنه لا يقول الحق، وأن خوفاً ما
يقطن فى أعماق قلبه، على الرغم من أنه هو نفسه ينكر
اعتقاده بأنه سيكون قادراً على الشعور بأى إحساس عقب الموت؛

---

(١) فكرة أن الموت خالد استخدمها الشاعر الكوميدى أمفيس "Amphis" فى القرن الرابع قبل الميلاد : (ap. Athen. 8.33.6c)

" يصبح الموت خالداً عندما يكون الإنسان فانياً "

فالموت يستمد خلوده من التهامه لأعمار البشر ومن ثم فنائهم.

(٢) ربما يشير لوكريتيوس هنا إلى العادات الفارسية التى تقضى بإطعام جثث موتاهم لكلابهم الهركانية، وهو ما ذكره شيشرون فى عمله مناقشات توسكولانية (انظر الحاشية رقم ٣٢ أعلاه):

" اعتاد الشعب الماجى ألا يدفن جثث ذويهم قبل أن تمزقها كلابهم الشرسة إرباً."

Magorum mos est non humare corpora suorum , nisi a feris sint ante laniata. (Cic. Tusc. Disp.1.45.108).

لأنه حسب اعتقادى لا يؤمن بما يتظاهر الإيمان به،
فهو لا يريد أن يقتلع نفسه من الحياة وأن ينسحب منها تمامًا،
فهو من دون أن يشعر يريد أن يجعل جزءاً منه على قيد الحياة،
لأن مثل هذا الإنسان عندما يتخيل أثناء حياته أن جسده
بعد موته ستنهشه الطيور والحيوانات المفترسة،
تأخذه الشفقة بنفسه، لأنه لا يفرق بين ذاته حياً وبين ذاته ميتا،
كما أنه لا يفصل ذاته بالقدر الكافى عن جثمانه المسجى على الأرض،
ويتخيل أن ذلك الجثمان لا يزال هو ذاته، وأن تلك الذات أثناء وقوفها
إلى جوار الجسد تحاول أن تبثه جزءاً من مشاعرها.. ومن هنا يسخط
لأنه قد وُلد بشراً فانياً، ولا يرى أنه عندما يموت بحق لن توجد له
نفس أخرى يمكنها البقاء حية لتندب موت النفس الأولى التى ماتت،
ولتتألم – وهى واقفة[1]– على أن النفس المسجاة ستُنهش أو تُحرق..
إذ لو أن نهش الجسد بفكوك الوحوش وأسنانها بعد الموت
يعد شراً، فإننى لا أرى كيف أنه ليس بالأمر القاسى على المرء
أن يوضع فوق المحرقة لتلتهمه ألسنة اللهب،
أو أن يوضع فى العسل ليُحنط، أو يُجمد بالبرودة
عندما يُسجى الجسد فوق سطح لوح رخامى شديد البرودة،

---

(١) واقفة بجوار الجثة التى فارقت الحياة من توّها.

أو أن يُدفن ويُسحق تحت وطأة الثرى المتراكم.
" لن يستقبلك بعد الآن منزلك السعيد، ولن تستقبلك بعد الآن
أفضل الزوجات، ولن يهرول نحوك أطفالك الأعزاء ليحظوا
بقبلاتك فيغمرون قلبك بسعادة دفينة.
ولن تتمكن بعد الآن من العيش فى حياة رغدة، ومن حماية
أهلك. يالك من مسكين، هكذا يقولون، يوم واحد
غدار سلبك ببؤس كل نعم الحياة الكثيرة".
لكنهم لا يضيفون إلى ما سبق: "لن تستولى عليك
بعد الآن أي رغبة فى أى من تلك النعم".
لو أنهم يتدبرون ذلك بعقولهم جيداً ويعملون وفقاً لهذا القول،
لحرروا أنفسهم من اضطراب عظيم وخوف يصيبان العقل.
" أجل حيث إنك ترقد فى سبات الموت، فإنك ستظل هكذا أبد الدهر،
ولهذا ستبقى معافى من كل الآلام المبرحة؛
ولكننا ونحن واقفون إلى جوارك وقد تحولت إلى رماد فوق المحرقة
المرعبة؛ فإننا نبكيك بلا توقف، ولن تتمكن الأيام
من أن تخرج من قلوبنا ذلك الحزن المقيم".

وعلى هذا ينبغى علينا أن نسأل المتحدث السؤال التالى: لو أن مسألة
الموت تختزل فى النوم والسكينة، فلماذا كل هذه المرارة العظيمة،
ولماذا يذبل المرء شيئاً فشيئاً بحزن لا ينتهى؟
إن هذا الأمر أيضًا يفعله الناس كثيراً عندما يضجعون على الموائد
ويمسكون الأقداح بأيديهم ويضعون الأكاليل على جباههم،
فإنهم يقولون من أعماق قلوبهم: "كم هى قصيرة تلك المتع الممنوحة للبشر
البؤساء، فهى سرعان ما تزول ولا يتمكن امرؤ أبدًا من استعادتها
بعد ذلك.. وكأن مصيبتهم الرئيسية بعد الموت هى:
أن الظمأ الجاف يحرق هؤلاء البؤساء،
أو أن رغبة فى شئ ما آخر تتملكهم.
والحق أن المرء لا يتحسَّر على فقدان نفسه أو حياته
عندما يسكن العقل والجسد على حد سواء أثناء النوم؛
فبالنسبة إلينا لو أن مثل هذا النوم كان أبديا،
فإنه لن تتملكنا أى رغبة من الرغبات.
على أي حال؛ فإن ذرات الروح المنتشرة فى كل أنحاء الجسد
لا تبتعد كثيراً عن الحواس أثناء النوم،
وعندما ينهض الإنسان من نومه فجأة فإنه يستجمع كل قواه.

وعلى هذا فإن علينا أن نعتقد أن الموت أقل بكثير من النوم فى أن
يشغل بالنا إن كان هناك ما هو أقل من ذلك الذى لا نعده شيئاً
على الإطلاق؛ وذلك لأن انفصال أعظم ذرات المادة يحدث
عقب الموت، ولا يستيقظ المرء أو ينهض،
بمجرد أن يداهمه التوقف البارد للحياة.
فضلاً عن ذلك؛ هب أن طبيعة الكون أصدرت فجأة
صوتاً وقامت بنفسها بتوبيخ أحدنا على النحو التالى:
- ماذا أصابك أيها البشر الفانى إلى الحد الذى معه تستسلم
لمثل هذه الأحزان المريرة؟ لماذا تئن وتذرف الدمع عند ذكر الموت؟
فلو أنك كنت راضياً عن حياتك السابقة التى عشتها إلى الآن،
ولو أن كل النعم التى اجتمعت لديك لم تتسرب منك – وكأنها كالماء
فى وعاء به ثقوب[١] – فتفقدها وأنت ساخط،
لفضّلت إذن أيها الأحمق أن تنسحب كضيف قد شبع
من الحياة[٢]، وتحصل بعقلك الراجح على راحة بلا منغصات؟

---

(١) هذه إشارة إلى أسطورة بنات داناءوس اللاتى قتلن أزواجهن فعاقبتهن الآلهة فى العالم السفلى بأن يحملن الماء فى أوعية بها ثقوب كثيرة فيتسرب الماء من تلك الأوعية قبل أن يحققن هدفهن. انظر أيضًا عند لوكريتيوس (3.1003-1010 , 6.20-21).

(٢) ألمح شيشرون فى عمله " توسكولوم " إلى رأى إبيقور فى الانتحار :
" إما أن تشبع من الولائم أو أن ترحل".
aut bibat aut abeat (Cic. Tusc. 5.118).
بمعنى أن الإنسان لو كان لا يستطيع تحمل مصائب الدهر فإن عليه أن يرحل ويتركها بما أنها حياة بغيضة. والحق أن الإبيقوريين كانوا لا يستحسنون فكرة الانتحار، ولكنهم سمحوا به وأقروه باعتباره الحل الأخير.

لكن لو أن كل ما استمتعت به قد ولى وزال،
ولو أنك اعتبرت أن حياتك بغيضة، فلماذا تسعى إلى إطالة أمدها،
كى تمضى ما هو آت أيضًا على نحو بغيض وينتهى كل شئ وأنت ساخط،
ولماذا لا تضع، كما هو حرىّ بك، حدّاً لحياتك وللشقاء؟
هل تتوقع منى أن أبتكر أو أكتشف من أجلك شيئاً جديداً عساه أن يبهجك،
أقولها لك: لا يوجد أى شئ، فكل شئ يسير على المنوال نفسه[1].
فلو أن جسدك لم يكن قد ذبل بالفعل بمرور السنين ولم تهرم
أطرافك وتتراخى، فإن كل شئ مع ذلك سيظل يسير على المنوال نفسه،
حتى لو قُدر لك أن تتقدم فى العمر لتعيش كل الأجيال،
بل وأكثر من ذلك، لو قُدر لك ألا تموت على الإطلاق"؛
بماذا نجيب نحن سوى أن الطبيعة توجه إلينا اتهاماً
صائباً، وتقدم فى دعواها قضية عادلة[2]؟

لكن لو أن هذا الرجل الذى تخاطبه الطبيعة كان حقًا شيخًا طاعنًا فى السن،
وكان هذا البائس يشكو وينتحب أكثر مما ينبغى على دنو أجله،
فهل سيكون للطبيعة الحق فى أن تصرخ فى وجهه وتؤنبه بصوت أكثر حدة:

---

(١) يقصد لوكريتيوس هنا فى حديث الطبيعة للإنسان أن الطبيعة لها نواميسها التى لا يمكن تغييرها، فهى تسير برتابة طبقاً لقوانينها، والشيخوخة والموت من ضمن قوانين الطبيعة.

(٢) استخدم لوكريتيوس هنا تعبيرات قضائية مثل: intendere litem – vera causa.

"اغرب بعيدًا بدموعك، أيها الوغد، وأوقف نحيبك!
إنك تشعر بالوهن الآن بعد أن استمتعت بكل متع الحياة؛
لكن لأنك تتطلع دائمًا إلى ما ليس لديك، وتزدرى ما فى يدك الآن،
فإن عمرك قد انقضى غير تام وغير محمود،
ووقف الموت بجوار رأسك دون أن تشعر،
قبل أن تتمكن من الانسحاب وأنت متخم ومشبع من وليمة الحياة.
هيا الآن واصرف عنك كل ما هو غير مناسب لعمرك،
وبعقل راجح اذعن على الفور لسنوات العمر، لا خيار لديك".
وهى، فى اعتقادى، محقة فى قولها ومحقة فى لومها وتوبيخها له؛
لأن القديم دائمًا ما يمضى صاغراً بعد أن يقهره الجديد،
فينبغى لكل شئ أن يقوم على أنقاض شئ آخر؛
ولا يوجد مَنْ يقع فى الجحيم أو فى تارتاروس الأسود؛
فهناك احتياج للمادة التى منها قد تنشأ الأجيال القادمة[١]،
وكل الأجيال، على أي حال، ستلحق بك بعد أن تنتهى حياتها؛
لذا فإن تلك الأجيال ليست بأقل منك، فهناك من هلك منها من قبل،
وأخرى ستهلك من بعد.. وهكذا فإن الشئ لا يتوقف عن النشوء

(١) عالج لوكريتيوس الفكرة نفسها من قبل فى الأبيات التالية: 2.71-9 , 1.263-4.

من الآخر، ولا يملك إنسان الحياة ملكية مطلقة، فهى ملك للجميع
ويحق لهم استخدامها. اُنظر للوراء أيضًا وشاهد كم من عصر من
عصور الدهر الأزلى قد مر قبل مولدنا، وكم أن ذلك لا يمثل
شيئاً لنا البتة. وبذلك فإن الطبيعة تعرض لنا - كالمرآة -
الزمن المقبل عقب موتنا مباشرة.
هل هناك ما يبدو مخيفاً فى ذلك؟ هل ثمة شىء
يبدو محزناً؟ أليس الموت أكثر أماناً من النوم ؟
والحق أن تلك العذابات التى زعموا وجودها فى
أعماق أخيرون(١) موجودة كلها فى حياتنا نحن.
فتانتالوس(٢) البائس لا يخشى، كما تروى الأسطورة، الصخرة الضخمة
المعلقة فى الهواء وهو يرتعد من ذعر لا أساس له؛
بل إن خوفاً أجوف من الآلهة هو بالأحرى ما يضيق الخناق على البشر

---

(١) انظر أعلاه الكتاب الأول صـ :١٨١ حاشية ٣٩. ويقصد به الإشارة إلى الجحيم وعذاباته.

(٢) أشار لوكريتيوس إلى أسطورة تانتالوس كواحدة من الأساطير التى تتناول العذاب الأبدى فى العالم الآخر، فتانتالوس سرق طعام الآلهة وشرابها "nectar – ambrosia" فعاقبته الآلهة بالجوع الأبدى والعطش الأبدى والخوف الأبدى فرفعت فوق رأسه صخرة معلقة فى الهواء توشك أن تقع عليه، فيظل على هذا الخوف للأبد وذلك لتجرأه على الآلهة (Pind. Ol. 1. 55-64). فسر شيشرون هذه القصة كرمز للخوف غير العقلانى (Cic. Tusc. 4. 35). وأشهر رواية تناولت أسطورة تانتالوس هى رواية هوميروس التى ذكر فيها أن الآلهة عاقبته بأن وقف على حافة غدير ومن حوله أغصان الأشجار تتدلى منها الثمار، وكلما حاول أن يشرب الماء عاد الماء للخلف، وكلما حاول أن يأخذ ثمرة من الثمار ارتدت الأغصان للخلف، وهكذا يُعذب عذاباً أبدياً بالجوع والظمأ (Hom. Od. 11. 582-92).

فى حياتهم، فهم يخشون ذلك السقوط[١]الذى قد يجلبه الحظ لأى منهم.
كما أن الطيور لا تنهش تيتيوس[٢]الراقد فى أخيرون،
فهى عندما تنقب تحت ضلوع صدره الضخم لا تتمكن بالطبع
على مر الدهر الأبدى من العثور على أى شئ لتلتهمه.
على الرغم من أن حجم جسده الممدد يبلغ من الضخامة،
لدرجة أنه ومعه أطرافه الممتدة لا يغطى تسعة أفدنة فقط،
بل يغطى الكرة الأرضية بأسرها،
فإنه مع ذلك لن يتمكن من تحمل ألم أبدى،
ولن يقدم جسده الشخصى كطعام بشكل دائم..
ولكن تيتيوس هذا يعيش بيننا هنا، فهو ذلك الرجل الذى أثناء رقوده
فى حب[٣]تمزقه طيور الشهوة[٤]ويأكله الاضطراب النفسى للغيرة،

---

(١) كلمة السقوط "casum" هنا لها معنيان، الأول: مجازى فهى تعبر عن سوء الحظ والمعنى الآخر حرفى فهو يشير إلى الصخرة التى تتهدد تانتالوس بالسقوط.

(٢) تيتيوس هو ابن الأرض وأحد العمالقة، وقد حاول اغتصاب ليتو "Leto"، أم الإله أبوللو والربة أرتميس (ديانا عند الرومان)، وقد عاقبته الآلهة على عدم قدرته السيطرة على شهوته بأن جعلته يرقد بجسده الضخم فى الجحيم ويأتى نسران كل يوم لينهشوا كبده، وقد وردت القصة عند هوميروس (Hom. Od. 11. 576-81).

(٣) التعبير " يرقد فى حب " – "in amore iacentem" هنا يرتبط بالبيت ٩٨٤ "iacentem" الذى استخدم فيه اسم الفاعل ذاته للدلالة على رقود تيتيوس فى العالم السفلى مقيداً، وهو بذلك يضفى بعداً مجازياً لرقوده فى حل الحب، فهو يعنى أن العاشق مثل تيتيوس تقيده الشهوة، وهو ما يتفق مع الصورة العامة للعاشق ووصفه بالخمول، وهى صورة شائعة للعاشق فى الشعر الإليجى الرومانى.

(٤) يقصد لوكريتيوس بالطيور هنا إله الحب المجنح كيوبيد، وهو بذلك يربط بين الطيور التى تنهش كبد تيتيوس وبين إله الحب الذى يثير الشهوة فى نفوس البشر ويعذبهم بها.

أو هو ذلك الرجل الذى تمزقه الهموم برغبة ما أخرى.
ولدينا أيضًا فى حياتنا وأمام أعيننا سيسيفوس(١)،
الذى يتوق إلى استجداء العصا والبلطة القاسية من الشعب(٢)
ودائمًا ما يعود أدراجه مهزوماً وحزينا.
لأن السعى وراء السلطة هو أمر لا طائل منه وصعب المنال،
كما أنه يتطلب دائمًا جهداً شاقاً فى متابعة السعى،
وهذا كأن ندفع بمشقة بالغة إلى قمة تل شديد الانحدار
بالصخرة التى سرعان ما تتدحرج لأسفل من أعلى
القمة، وتنشد فى سرعة بالغة سطح السهل المستوى(٣).

---

(١) هو سيسيفوس ابن المارد أيولوس، وقد اشتهر بمكره وشره، وقد عاقبه زيوس فى العالم السفلى بأن يحمل صخرة ضخمة على كتفه ويتسلق جانب الجبل الوعر إلى أن يصل إلى القمة ويضع الصخرة على قمتها، لكنها تتدحرج وتهبط حتى تصل إلى سفح الجبل، وهكذا يعاود العمل الشاق نفسه الذى لا ينتهى كعذاب أبدى (Hom. Od. 11.593-600)، وقد اتخذ لوكريتيوس من شخصية سيسيفوس نموذجاً لصنف محدد من صنوف الطمع "avaritia" وهو الطموح السياسى. ويعتبر تحاشى الحياة العامة والعمل السياسى من المبادئ الإبيقورية التى نادى بها لوكريتيوس (Lucr. 5.1120-35).

(٢) يشير هنا إلى الموظفين الرومان الذين يستجدون عامة الشعب ليمنحوهم أصواتهم فى الانتخابات، والعصا والبلطة هما من رموز المناصب السياسية، حيث يسير أمام أصحاب المناصب العليا موظفون يحملون لقب "الليكتور" ومهمتهم إفساح الطريق للموظف وإنزال العقوبات بالمذنبين، ووصف البلطة بالقاسية يعود إلى سياسة إعدام الخصوم السياسيين المهزومين الوارد اسمهم فى قوائم الموت.

(٣) التعبير "plani....petit aequora petit" به تلاعب بالألفاظ من جانب لوكريتيوس، فالشاعر استخدم لغة الانتخابات وتعبيراتها حيث يعود المرشح إلى سهل مارس لإعادة انتخابه مرة أخرى، ويظهر هذا التعبير عند هوراتيوس فى إحدى غنائياته :

descendat in Campum petitor, Hor. Od. 3.1.11

ومن ثم فإننا نغذى طبيعة العقل الجاحدة على الدوام،
ولا نتمكن أبدًا من أن نملأها ونشبعها من الأمور الطيبة،
مثلما تقدم لنا فصول السنة، عندما تكمل
دورتها وتجلب لنا ثمارها ومباهجها المتنوعة،
إلا أننا مع ذلك لا نشبع أبداً من ثمار الحياة،
وهذا الأمر، فى اعتقادى، وثيق الصلة بالقصة التى يحكونها عن
فتيات فى عمر الزهور يسكبن الماء فى إناء به ثقوب،
بينما لا يفلح أي وسيلة فى ملئه [١].
وبالنسبة لكيرببيروس[٢] وربات الانتقام[٣] والظلام الحالك

---

(١) سار لوكريتيوس على خطى هوميروس فى سرد مشاهد المعذبين فى العالم السفلى مثل: تانتالوس وتيتيوس وسيسيفوس، إلا أن هوميروس لم يذكر بنات داناؤس ضمن هؤلاء المعذبين. على أى حال فإن لوكريتيوس اتخذ بنات داناؤس نموذجا للجحود ونكران الجميل، ويبدو أنه هنا يعيد إلى أذهان القراء توبيخ الطبيعة للرجل المسن. ويعد نموذج بنات داناؤس عند لوكريتيوس نمطاً مختلفاً لنموذج المعذبين السابقين الذين يمثلون أنماطاً للمعاناة البشرية التى يجلبها الإنسان لنفسه، فعذاب تانتالوس يمثل "الخوف من الآلهة" divum metus,982، وتيتيوس يمثل "الهموم" curae,994، وسيسيفوس يمثل "العمل الشاق" durus labor, 999، فى حين أن بنات داناؤس يعبرن عن سلوك وليس معاناة، فهن يمثلن عدم القناعة.

(٢) كيربيروس هو الكلب الذى يحرس العالم السفلى، وهو كلب له ثلاثة رءوس مزودة بالحيات السامة وله ذيل ملىء بالأشواك. وقد طلب هركيوليس ذات مرة هذا الكلب من إله العالم السفلى هاديس فوافق بشرط أن يأخذه بيديه وبدون استخدام أسلحته. نجح هركيوليس فى حمل الكلب وصعد به إلى عالم الأحياء حيث النور فانزعج الكلب بشدة من النور، فأعاده هركيوليس مرة أخرى إلى العالم السفلى حيث الظلام وأشباح الموتى، وذلك بعد أن رآه الملك يوريسثيوس الذى كان قد أصدر الأمر لهركيوليس بإحضار ذلك الكلب.

(٣) تعبر ربات الانتقام "Furiae"، أى الإيرينيات، عن غضب الموتى ومطالبتهم للثأر من أجلهم. وقد ذكر هوميروس أنهن يقطن تحت الأرض لمعاقبة من يحنث فى قسمه. تقول الأسطورة إنه عندما قام كرونوس بإخصاء والده أورانوس وألقى بعضوه التناسلى فى البحر وُلدت الإيرينيات من قطرات دمه. وهى ربات مخيفة المنظر فرؤوسها مكللة بالأفاعى وأعينها تقطر دماء، وقد اختلفت المصادر فى عددهن؛ ذكر فرجيليوس ثلاثة ربات: الربة ألكتو "Alecto" وهى تعاقب البشر على الجرائم الأخلاقية. الربة ميجايرا "Megaera" وهى المسببة للغيرة والحسد، وهى تعاقب البشر الذين يرتكبون الجرائم وخاصة الخيانة الزوجية. الربة تيسيفونى "Tisiphone" وهى تعاقب مرتكبى جرائم القتل وخاصة قتل أحد الوالدين أو أحد الأخوة، وقد ذكر فرجيليوس أنها تحمى أبواب تارتاروس.

وتارتاروس[١] الذى يقذف بحمم مرعبة من فوهته[٢]،
كل هذه الأشياء لا وجود لها فى أى مكان ولا يمكن وجودها بحق.
لكن يهيمن على حياتنا الخوف من العقاب على اقتراف الآثام،
فالخوف العظيم يعقب الذنب العظيم، وهناك عقوبات لكل جريمة:
السجن، والإلقاء المرعب من فوق الصخرة[٣] لأسفل، والجلد بالسياط،
ومنفذو أحكام الإعدام، والمخلعة[٤]، والقار المغلى، والحديد الساخن، والمشاعل؛
وحتى لو أن كل تلك الأشياء لم تكن موجودة، إلا أن الضمير
الحى الواعى للآثام، الذى يستشعر الخوف من العواقب قبل حدوثها،
يعذب نفسه بوخز الضمير ويحترق بسياطه، وفى الوقت ذاته لا يرى
أن نهاية ما لمعاناته يمكن حدوثها، كما أنه لا توجد نهاية ما للعقاب،
بل إن أكبر ما يخشاه هو أن تزداد تلك المعاناة ذاتها بعد الموت.

---

(١) تارتاروس هو أحد دركات العالم السفلى، وهو يقع أسفل هاديس. وهو مكان عميق القعر ومظلم، وهو مقر العذاب فى العالم السفلى. ذكر أفلاطون فى محاورة جورجياس أن الأرواح تُحاسب بعد الموت، وأن الروح التى تستحق العذاب يتم إرسالها إلى تارتاروس.

(٢) صور لوكريتيوس تارتاروس هنا على هيئة بركان له فوهة تخرج النيران منها.

(٣) الصخرة المذكورة هنا هى صخرة تاربيا، وهى الصخرة التى يلقى من فوقها الرومان المدانين بتهمة خيانة الوطن لكى يلقوا حتفهم. وقد سميت باسم صخرة تاربيا نسبة إلى اسم الكاهنة تاربيا التى كانت تعيش فى عصر الملك رومولوس، فقد خانت هذه الكاهنة مدينة روما وفتحت أبواب حصون المدينة للجيوش الألبانية لتقتحمه فى مقابل الحصول على الذهب من الألبان، وقد نالت جزاءها بالموت فوق هذه الصخرة فسُميت باسمها وأصبحت رمزاً للخيانة.

(٤) المخلعة "robur" هى أداة تعذيب، اختلف المعلقون حول طبيعتها، وأغلب الظن أنها فعلاً المخلعة التى يُمَطّ عليها الجسم.

خلاصة القول؛ فإن حياة الحمقى[١]هى بمثابة الجحيم على الأرض.

ثمة أمر ما لعلك تحدث به نفسك من حين لآخر:

"حتى أنكوس الطيب ترك نور الحياة وأغمض عينيه[٢]،

ذلك الرجل الذى هو أفضل منك فى الكثير من الأمور[٣]، أيها السفيه،

ومنذ ذلك الحين فإن الكثير من الملوك الآخرين وولاة الأمور

الذين حكموا شعوباً عظيمة قد ذاقوا الموت.

حتى ذلك الرجل نفسه[٤]الذى شيد ذات مرة جسراً فوق البحر

---

(١) كلمة "الحمقى" – stulti، هى تعبير فلسفى مضاد لكلمة الحكماء "sapientes" أى أتباع الفلسفة، وكلمة الحمقى قد استخدمها كل من الإبيقوريين والرواقيين على حد سواء.

(٢) هذه العبارة اقتبسها لوكريتيوس من إنيوس :

" بعد أن ترك أنكوس الطيب نور الحياة وأغمض عينيه".

V). (Enn. Ann.149 Postquam lumina sis oculis bonus Ancus reliquit.

وقد كان الرومان يعتبرون الملك أنكوس هو نموذج للملك الصالح، والملك أنكوس هو رابع ملوك روما وهو ايضًا حفيد الملك نوما، وقد جمع بين السياسة المدنية التى اتبعها نوما والسياسة العسكرية التى اتبعها رومولوس. ويقصد لوكريتيوس بعبارته أن الجميع يخضع لقانون الموت حتى العظماء والصالحين من الملوك مثل الملك أنكوس.

(٣) وهذه الجملة ايضًا بها محاكاة لأحد أبيات الإلياذة :

" حتى باتروكلوس قد مات، وهو رجل أفضل منك بكثير "

(Hom. Il.21. 107

يقول هذه العبارة أخيليس إلى ليكاؤن Lycaon قبل أن يقتله، وهو تأكيد من لوكريتيوس أن الجميع يخضع للموت.

(٤) يقصد هنا الملك الفارسى إكسركسيس الذى شيد عام ٤٨٠ ق. م. جسراً من السفن فوق البحر بحيث يعبر جنوده البحر سيراً على الأقدام وعلى الجياد.

العظيم، ومهد الطريق لفرقه العسكرية ليعبروا البحر العميق،
وعلمهم كيف يسيرون على أقدامهم فوق الخلجان المالحة،
واحتقر زمجرة البحر عندما وطأه بخيوله،
فقد حُرم أيضًا نور الحياة وفاضت روحه من جسده الميت.
وسليل عائلة سكيبيو[1]، صاعقة الحرب، وهول قرطاجة،
أعطى عظامه للأرض تمامًا مثل أحقر العبيد.
أضف إلى هؤلاء مبتدعى العلوم والفنون،
ثم أضف أتباع ربات الشعر[2]، وعلى رأسهم هوميروس الذى -
على الرغم من أنه قد حظى بالمكانة السامية - فإنه قد رقد فى
السبات نفسه مثل الآخرين. وأخيرًا فإن ديموكريتوس[3] بعد أن
حذره طول عمره من أن قدرات التذكر بعقله[4] بدأت تخور،

(١) أغلب الظن أن لوكريتيوس هنا يقصد سكيبيو الأكبر (٢٣٥ – ١٨٣ ق. م.) الذى اشتهر بلقب قاهر إفريقيا "Scipio Africanus" وذلك لانتصاره على هانيبال فى معركة زاما "Zama" فى الحرب البونية الثانية.

(٢) ربات الشعر والفنون هن بنات زيوس ومنيموسينى 'Mnemosyne' وعددهن تسع ربات، انظر الكتاب الأول صـ :١٨١ حاشية رقم ٣٩ أعلاه.

(٣) ديموكريتوس (٤٦٠–٣٧٠ ق.م.) هو فيلسوف إغريقى وُلد فى مدينة أبديرا بتراقيا، وهو تلميذ ليوكيبوس مؤسس النظرية الذرية للكون. اشتهر بطول العمر فطبقاً لديودوروس الصقلى فإنه قد مات وقد ناهز من العمر التسعين، ولكن مصادر أخرى تذكر أنه قد تخطى المائة عام.

(٤) استخدم لوكريتيوس فى وصف ضعف ذاكرة ديموكريتوس بعد أن طعن فى السن لغة الفلاسفة الذريين " حركة الذاكرة " "memores motus" ويقصد بها قدرات التذكر، وهذه اللغة تلائم بالطبع شخصية ديموكريتوس كفيلسوف ذرى.

قدم رأسه بنفسه للموت طواعية[١].

وإبيقوروس نفسه قد مات بعد أن انتهت دورة نور حياته[٢]،
هو من فاق الجنس البشرى فى العبقرية، وحجب
الجميع مثلما تحجب شمس السماء عند إشراقها النجوم.
فهل ستتردد أنت إذن وستتذمر من أن تموت[٣]،
أنت الذى حياته تعدل الموت، رغم أنك لا تزال على قيد الحياة
وترى النور، أنت الذى تبدد القسم الأكبر من عمرك فى النوم،
تغط فى النوم فى يقظتك ولا تتوقف عن رؤية الأحلام،
ولديك عقل مضطرب بخوف أجوف،
ولا تستطيع أن تكتشف ما هو سبب اضطرابك،
عندما تحاصرك الكثير من الهموم من كل جانب، أيها البائس الثمل،

---

(١) يعد لوكريتيوس أقدم مصدر ذكر أن ديموكريتوس قد أقبل على الانتحار. ويجدر بالذكر أن التعبير: قدم رأسه "caput.....obtulit" فيه تجسيد للموت إذ جعله مثل الجلاد الذى يقطع رءوس المحكوم عليهم بالموت.

(٢) هذه هى المرة الوحيدة التى أشار فيها لوكريتيوس مباشرة إلى إبيقوروس بالاسم، وجدير بالذكر هنا أن لوكريتيوس قد شبه رحلة حياة معلمه برحلة الشمس اليومية من الشروق إلى الغروب.

(٣) مرة أخرى ينقل لوكريتيوس إحدى عبارات أخيليوس التى وجهها إلى ليكاؤن قبل أن يقتله:
" هيا، يا صديقى" عليك أن تموت أنت الآخر، فلماذا كل هذا الحزن؟".
(Hom. Il. 21.106)

فتهيم على غير هدى سابحاً فى أمواج الفكر المتقلبة[١]؟ "
لو أن البشر بإمكانهم أن يدركوا، كما يبدون حقاً،
أن عقولهم تحمل عبئاً ثقيلاً وأنه يرهقهم بضغوطه،
ولو أن بإمكانهم أيضًا أن يعرفوا أسباب نشأة هذا العبء،
ومن أين جاء كل هذا الكم الهائل من الهموم داخل صدورهم،
لما استطاعوا أن يعيشوا حياتهم على هذا النحو، مثلما نراهم فى
عصرنا بشكل عام، فكل منهم يجهل ما يريده ويسعى دائمًا إلى
تغيير مكانه، وكأنه بذلك سيتمكن من التخلص من عبئه.
فالرجل الذى يشعر بالملل فى منزله كثيراً ما يخرج
من قصره المنيف، ولكنه يعود إليه فجأة،
وذلك لأنه لم يشعر أنه أفضل حالاً بالخارج ولو بمقدار ضئيل.
فهو يسرع فى قيادة جياده الغالية[٢] بأقصى سرعة نحو منزله الريفى،
وكأنه يحمل إغاثة عاجلة إلى منزل تشتعل فيه النيران؛
لكنه بمجرد أن يبلغ عتبة منزله الريفى فإنه يتثاءب على الفور،
أو يأوى إلى نوم عميق وينشد النسيان،

---

(١) أراد لوكريتيوس فى الفقرة السابقة (1045-1052) أن يظهر الفارق بين واقعية الإبيقوريين وأوهام وضلالات الحمقى "stulti"، وقد صور لوكريتيوس تطور أوهام الحمقى على مراحل: "النوم"، "أحلام اليقظة"، " المخاوف التى لا مبرر لها"، " الاضطراب العقلى ".

(٢) اشتهرت الجياد الغالية (نسبة إلى بلاد الغال، فرنسا حالياً) بسرعتها فى العدو.

أو يسعى مهرولاً مرة أخرى ويعود أدراجه إلى المدينة.

وبهذه الطريقة يحاول كل امرئ أن يهرب من نفسه، ومثلما يحدث
دائمًا فإنه لا يستطيع بالطبع الفرار منها، بل إنه يتشبث بها رغماً عنه
ويكرهها، وعلى ذلك فإنه يعد رجلاً مريضاً، لأنه لا يدرى سبب علته؛

فلو أن المرء استطاع إدراك تلك العلة، فسوف يطرح كل امرئ همومه
الأخرى جانباً على الفور، وسوف يكرس نفسه فى المقام الأول لفهم طبيعة

الأشياء، حيث إن الموضوع محل الجدال ليس وضع الإنسان لساعة
واحدة(١)، بل وضعه على مدار الزمن الخالد، ما المصير المُخَبَّأ

للبشر على طول الزمان الذى ينتظرهم عقب الموت.

فضلاً عن ذلك، ما هذه الرغبة الضارة والعارمة فى البقاء فى الحياة،

تلك التى تدفعنا إلى أن نظل فى رعب شديد فى أوقات المحن غير الحقيقية؟

أجل، هناك نهاية حتمية للبشر،

كما أن الموت لا يمكن الفرار منه، فلا بد من أن نلاقيه.

علاوة على ذلك؛ فإننا نحيا وننشغل على الدوام بأداء الأشياء ذاتها،

---

(١) يقصد لوكريتيوس بالتعبير " ساعة واحدة " – "unius horae" ساعة من الوقت يحتار الإنسان الحائر فى كيفية ملئها، وينبهنا هنا لوكريتيوس إلى القضية التالية: لو أن البشر فهموا أسباب عدم رضاهم فإنهم سوف يلجأون إلى الفلسفة، لأن اهتمامنا لا ينبغى أن ينصب على ملء وقت ساعة فراغ، بل هو اهتمام بقضية الخلود، فيجب على الإنسان أن يهتم بالقضايا الفلسفية المهمة التى تعالج الموت والزوال الأبدى للجسد والروح، وبذلك سنصل إلى السكينة "ataraxia" وسيتلاشى الشعور بالملل. وهكذا استغل لوكريتيوس التناقض بين التعبيرين: "una hora" و"tempus aeternum" فى ربط هذه الفقرة بالقضية الرئيسية للكتاب وهى: الموت وسلوك الإنسان تجاهه .

وعلى الرغم من استمرارنا على قيد الحياة فإننا لا نبتكر أى متعة جديدة؛
لكن ما دام ما نرغب فيه ليس بحوزتنا، فإن هذا الشئ يبدو أنه
يفوق كل ما عداه؛ وعندما نستحوز عليه، فإننا نرغب فى شئ آخر
بعد ذلك، وهكذا يتملكنا ظمأ لا يرتوى للحياة، وتظل أفواهنا فاغرة
على الدوام. وإنه لمن غير المعروف أى قدر تحمله لنا السنوات
المقبلة، أو أي فرصة قد تسنح لنا، أو أى عاقبة فى انتظارنا.
وبإطالة الحياة لا نستطيع على الإطلاق أن نقتطع مقدار ثانية واحدة
من زمن الموت، كما أنه ليس بمقدورنا أن ننتقص منه شيئا،
ولعلنا لا نتمكن من ذلك بعد رحيلنا من الوجود ولو لوقت قصير.
وعلى ذلك قد يُتاح لك كما تشاء أن تعمر لأجيال كثيرة؛
إلا أن ذلك الموت الخالد سيظل فى انتظارك؛
ذلك الرجل الذى وضع نهاية لحياته ولنور
يومه لن يكون عمره حينها أقصر من ذلك
الذى مات منذ شهور وسنوات خلت.

الكتاب الرابع

ترجمة: د. سيد أحمد صادق

ملخص الكتاب الرابع

أولاً ـ استهلال: مهمتى الجديدة والممتعة هى نقل تعاليم إبيقوروس (١ ـ٢٥)

ثانيًا ـ وجود الصور الذهنية وطبيعتها (٢٦ – ١٠٩):

١. وجود الصور (٢٦ – ١٠٩).

٢. دقة الصور (١١٠ – ١٤٢).

٣. سرعة تكوينها (١٤٣ – ١٧٥).

٤. سرعة حركتها (١٧٦ – ٢٢٩).

ثالثًا ـ الحواس والصور الذهنية (٢٣٠ – ٨٢٢):

١. الرؤية وبعض الحواس المتعلقة بها (٢٣٠ – ٣٧٨).

٢. خداع البصر الواضح، على الرغم أن الحواس دائمًا على حق (٣٧٩ – ٥٢١).

٣. السمع (٥٢٢ – ٦١٤).

٤. التذوق (٦١٥ – ٦٧٢).

٥. الشم (٦٧٣ – ٧٢١).

٦. الصور الذهنية أثناء النوم وفى اليقظة (٧٢٢ – ٨٢٢).

رابعًا ـ وظائف حيوية محددة (٨٢٣ — ١٠٥٧):

١. استطراد ضد النظريات الغائية (٨٢٣ – ٨٧٦).

٢. استهلاك الطعام (٨٥٨ – ٨٧٦).

٣. السير والإرادة (٨٧٧ – ٩٠٦).

٤. النوم والأحلام (٩٠٧ – ١٠٣٦).

٥. الرغبة الجنسية (١٠٣٧ – ١٠٥٧).

الهجوم على عاطفة الحب (١٠٥٨ — ١٣٨٧):

١. فينوس فى موقف الدفاع (١٠٥٨ – ١١٢٠).

٢. الإسراف بسبب الحب (١١٢١ – ١١٤٠).

٣. تأثير الحب على الرأى (١١٤١ – ١١٩١).

٤. وجود عاطفة حقيقية (١١٩٢ – ١٢٠٨).

٥. تشابهات وراثية (١٢٠٩ – ١٢٧٧).

٦. تأثير التعود فى الحب (١٢٧٨ – ١٣٨٧).

أطوفُ[١]عبر حقول الموسيات[٢]المنعزلة التى لم يسحقها
نَعْلُ أحدٍ من قبل. يبهجنى أن أدنو من الينابيع العذبة ثم
أشرب، كما يبهجنى أن أقطف الأزهار الناضرة، وأن
ألتمس منها لرأسى إكليلَ زهر رائع. (تلك الأزهار)
التى لم تتوّج بها الموسيات صِدْغَى أحدٍ فيما مضى[٣].
أولاً: لأننى أُلقى درساً فى مسائل مهمة، وأواصل
(جهدى فى) تحرير العقل من قيود المعتقدات الصارمة؛
وبعد ذلك، وأنا ألمس كل شئ بسحر الشعر، فإنى أنظم
أشعاراً غاية فى الوضوح فى موضوع غاية فى الغموض.
تماماً، ومن أجل أن يبدو هذا الأمر معقولاً، فكما هى الحال
مع الأطباء حين يحاولون أن يعطوا الأطفال العلقم المُر
المثير للاشمئزاز، فإنهم، أولاً، يملسون الحواف
حول الأكواب بسائل العسل الأصفر الحلو.
ولما كانت سن الطفولة غير نزاعة إلى الشك،

---

(١) الأبيات (١-٢٥) فى هذا الكتاب هى الأبيات نفسها الموجودة فى (الكتاب الأول، ٩٢٦-٩٥٠) مع تغييرات طفيفة.

(٢) كانت الموسيات التسع يُلقبن بـ "البيريديات - Pierides"، وهو لقب مشتق من منطقة بيريا "Pieria" بالقرب من جبل أوليمبوس حيث انتشرت عبادتهن، وكان يُعتقد قديماً أن هذه المنطقة ينبوع الإلهام الشعرى.

(٣) هذه العبارة كناية عن عذرية المنطقة، إذ إن الموسيات لم يتوجن من أزهارها أحداً من الشعراء من قبل، وذلك بوضع إكليل الزهر على جبهته، ومن ثم يُحجب صدغاه ووجنتاه.

فإن خداعها يتم بمقدار (الحلاوة الموجودة على) الشفاه،
وفى تلك الأثناء قد يتجرع (الأطفال) شرَاب العلقم المر، ورغم أن سن
الطفولة قد تم خداعها، فإنها لم تُصب بأذى، بل، بالأحرى،
فقد تسترد عافيتها بعد أن يتم إنعاشها بمثل تلك المعالجة.
هذا هو حالى الآن، حيث إن هذا المذهب يبدو، بوجه عام،
شديد المرارة بالنسبة لمن لم يتناوله، فعامة الناس ينفرون منه
ويتراجعون. لقد رغبتُ فى أن أعرض عليك[1] مذهبنا فى أنشودة شعرية
ساحرة، كما لو كنتُ أضفى عليها مسحة من عسل الموسيات اللذيذ.
فربما، لو استطعت، بمثل هذه الوسيلة، أن استولى
على عقلك فى إطار أشعارنا حتى تدركَ طبيعةَ
الأشياء كلها، وتشعرَ بفائدتها على نحو عميق.
وبما أننى قد شرحتُ طبيعة الروح وماهيتها ومن أى المواد تستمد
قوتها حين تتحدُ بالجسد، وكذلك بأي طريقة تعود إلى عناصرها
الأولى بعد أن تنفصل عنه، فإننى الآن، ومن أجلك يا مميوس،
سأبدأ بحثى فيما هو ذو أهمية بالغة بالنسبة لهذه المسائل، ألا وهو

(١) المخاطب هنا هو جايوس مميوس "C. Memmius"، حاكم بيثينيا وصديق لوكريتيوس الحميم، انظر المقدمة صـ :٦٢ وما بعدها.

وجود تلك الأشياء التى نطلق عليها الصور الدقيقة[1] للأشياء.
تلك الصور الدقيقة التى تطير هنا وهناك عبر الهواء، شأنها
فى ذلك شأن الأغشية التى تُنزع من الجسم الخارجى للأشياء؛
وهى الصور الدقيقة نفسُها التى تروع عقولنا حين تظهر لنا
أثناء اليقظة، وكذا فى المنام حين نرى فى أحوالٍ كثيرة
غرائب الأشكال وأطياف الموتى .. تلك الأطياف التى كثيراً
ما توقظنا فى حالة من الرعب أثناء خلودنا للنوم.
أقول إن هذه الأطياف ليست إلا صوراً دقيقة تقذفها أجسام
الأشياء خشية أن نعتقد بالصدفة أن أرواحاً تفرّ من نهر الأخيرون[2]،
أو أن أشباحاً تحلق بين الأحياء، أو أن جزءاً منا[3] يتمكن من
البقاء بعد الموت بعد أن يفترق كل من الجسد وعنصر الروح
بالانفصال، ويعود كل منهما إلى عناصره الأولية.

(١) لفظ " الصور الدقيقة " إذا جاءت فى سياق "simulacra " رأينا أن نطلق على كلمة الحديث عن اليقظة، أما إذا جاءت فى سياق الحديث عن المنام فإننا نطلق عليها لفظ "الأطياف".

(٢) انظر أعلاه الكتاب الأول صـ:١٨١ حاشية ٣٩.

(٣) استخدام لوكريتيوس لكلمة "nostri" يُعد استخداماً نحوياً غير سليم، والصواب هو المضاف إليه الجزئى "nostrum"، لأن كلمة : بعض "aliquid" يجب أن تتبع بالمضاف إليه الجزئى.

وعلاوة على ذلك، فإنى أقول إن الأشكال الدقيقة وصور
الأشياء تُرسل[1] من تلك الأشياء، أى من السطح الخارجى للأشياء[2]. ٤٣
إنها الصورة التى يجب أن يُشار إليها كأغشية رقيقة أو كلِحاء الشجر،(٥٠-٥١)
لأن الصورة تحمل المظهر الخارجى والشكل المماثل لأى شئ،
أيما كان مسماه، وذلك بعد أن تنفصل وتنتشر فى الهواء، ومن
الجائز للعقل، مهما كانت بلادته، أن يدرك تلك الحقيقة مما يلى: ٤٤
أولاً: لأن أشياءً كثيرة وسط الأشياء الظاهرة لنا تبعث ٥٤
تنتشر أحياناً على نحو طليق، كالأخشاب التى ٥٥
جسيمات تبعث الدخان وحرارة النار، وأحياناً أخرى تبعث
جسيمات لزجة شديدة الكثافة، كالجنادب
حين تضع أغشيتها الرقيقة جانباً فى الصيف.
والعجول الوليدة حين تلقى بأغشيتها من فوق أجسامها
فور ولادتها، وكذلك الحية الملساء حين تتخلص من جلدها ٦٠
بين الأشواك؛ فكثيراً ما نرى العلائق مزودة بجلود

---

(١) يعد الشكل "mittier" شكلاً غير مألوف ونادراً من المصدر المضارع المبنى للمجهول لأفعال التصريف الثالث، وهو يقابل الشكل "mitti" من الفعل أرسل "mitto".

(٢) الأبيات (٤٥ – ٤٨) غير المذكورة فى هذا الكتاب الرابع هى الأبيات نفسها المذكورة فى الكتاب الثالث أبيات (٣١ – ٣٤) مع تغييرات طفيفة، ويبدو أن هذا اللبس يرجع إلى عدم مراجعة لوكريتيوس لأشعاره قبل أن يداهمه الموت فجأة (انظر المقدمة صـــ ٣٦).

(تلك الحيوانات والزواحف) التى تتطاير: وما دامت
تلك الأشياء تحدث، فمن الطبيعى أن تنبعث أيضًا صورة
رقيقة من تلك الأشياء من السطح الخارجى للأشياء.
فلماذا تسقط تلك الأشياء الكثيفة وترتد من أجسامها
بدرجة أكبر من تلك الأشياء الدقيقة؟
لا إجابة عن ذلك .. وبوجه خاص حين
توجد جسيمات دقيقة لا حصر لها فوق سطح الأشياء،
من الممكن أن تُبعث (تلك الجسيمات) بالترتيب نفسه الذى كانت عليه،
وأن تحتفظ بشكل الشئ وهيئته وبسرعة أشد، ذلك لأنها متناهية فى الصغر
وأقل عرضة لأن تُعاق وتُعترض، فضلاً عن أنها تقع على السطح
الخارجى .. ولأننا، بالتأكيد، نرى أشياءً كثيرة تطلق جزيئاتها،
ليس فقط من داخلها وخارجها ــ كما أسلفنا القول ــ ولكنها
أيضًا تطلق اللون نفسه من فوق سطحها بطريقة متكررة.
فذلك ما تحدثه الستائر الصفراء والحمراء والقرمزية بوضوح
حين تُنشر فى المسارح الكبيرة[١]، وتوضع فوق العوارض
الخشبية والسوارى، إذ تتقلب (تلك الستائر) بحركة مضطربة،

---

(١) أقيمت المسارح الثابتة والمبنية بالأحجار للمرة الأولى فى عام ٥٥ ق.م. لذا فمن المحتمل أن لوكريتيوس هنا يشير إلى المسارح المؤقتة التى كانت تُقام فيها المقاعد وخشبة المسرح من الأخشاب، وهى بنايات مؤقتة وليست دائمة.

ومن ثم تصبغ بألوانها جموع الجالسين أسفل خشبة المسرح،
والجالسين فى الأماكن المميزة[1]، كما تصبغ كل المشهد
المسرحى. وكلما أُحكمت جدران المسرح بهذه
الستائر، اندمجت تلك الأشياء مع ألوان الستائر
(حيث إن ضوء النهار يؤثر فى تلك الألوان)،
فبدت مرحة تدعو إلى السرور.
ومن ثم، وبما أن الستائر ترسل الألوان من فوق أسطحها،
فإن على بقية الأشياء أن ترسل صوراً دقيقة، لأنها فى كل
حالة ترسل صورها الدقيقة وألوانها من أسطحها الخارجية؛
ولذا وجب علينا أن ندرك أن الأُطر فى بعض تلك الصور
المؤلفة من تركيبة دقيقة تنطلق إلى الخارج، ولا يمكن أن
تدركها العين منفردة لحظة انطلاقها من الأجسام.
وعلاوة على ذلك، فالرائحة والدخان والبخار وأشياء أخرى
مشابهة تنبعث كلها من أشياء تنتشر، كلها فى الخارج،
هذا لأنها تنشأ من الأعماق .. ففى الوقت الذى تتصاعد فيه هذه الأشياء،
(نجدها) تنشطر فى مسارها المتعرج، حيث تنعدم الفتحات
المباشرة للمسالك التى تجعلها تندفع معًا حين تتجمع معًا.

---

(١) المقصود هنا هم أعضاء مجلس السناتو (مجلس الشيوخ) الذين يجلسون هم وكبار القوم فى المقاعد الأمامية أثناء العرض المسرحى.

بل العكس تماماً، فعندما ينبعث الغشاء الرقيق من اللون الموجود ٩٥
على السطح، فليس فى استطاعة شئ أن يشطره، ذلك لأنه
مستقر فى المقدمة وفى الخارج تماماً.

وأخيراً، وأياً كانت الصور الدقيقة التى تظهر لنا فى المرايا وعلى صفحة ٩٨
الماء وعلى أى سطح لامع، فلأنها تحتفظ بالشكل الخارجى للأشياء
التى تعكسها فإن مادة (الصور الدقيقة) يجب ١٠٠
أن تتكون بالضرورة من أشكال تنبعث من تلك الأشياء.

.... ١٠٢

....[1] ١٠٣

وبناءً عليه، فإن هناك أشكالاً دقيقة وأشباهاً مماثلة
للأشياء لا يستطيع المرء أن يدركها بمفرده، ولكنها ١٠٥
بسبب اندفاعها نحو الخلف بفعل التنافر المتوالى والمتقطع
فإنها تعكس الرؤية من فوق سطح المرايا.
ويبدو أنه من المستبعد أن يتم الاحتفاظ بهذه الأشكال
الدقيقة بأى وسيلة أخرى كى تُرد الأشكال المشابهة إلى أى شيء.
هيّا ولنتعلم الآن من أى طبيعة رقيقة تتكون الصورة. ١١٠
أولاً: لأن الذرات تكون – على نحو كبير – دون مدى إدراك حواسنا،

---

(١) البيتان (١٠٢–١٠٣) مفقودان وغير موجودين فى النص اللاتينى.

كما أنها متناهية فى الصغر إلى الحد الذى تبدأ عنده عيوننا فى
عدم القدرة على رؤيتها .. ومع ذلك دعنى الآن أؤكد (لك) ذلك الأمر،
دعنى أشرح لك فى كلمات قليلة كم هى دقيقة ذرات كل شىء.

أولاً، وفى الأغلب، توجد أحياءٌ متناهية فى الصغر، لدرجة أنه قد لا
يمكن رؤية الجزء الثالث منها. كيف يمكن أن نتخيل الحجم الذى يمكن
أن يكون عليه أى جزء من أجزائها الداخلية؟ ما هى كُريَّة قلبها أو عَيْنَيْها؟
ما حجم أعضائها؟ ما حجم أطرافها؟ كم هى صغيرة؟
فضلاً عن ذلك، ماذا يجب أن تكون عليه الذرات التى
تتألف منها طبيعة الروح والعقل (فى تلك الأحياء المتناهية فى الصغر)؟
ألا ترى كم هى دقيقة وصغيرة الحجم؟
وفضلاً عن ذلك، فإن الأشياء التى تطلق رائحة شديدة من جسمها مثل
الباناكيا[١] والعلقم المر ونباتات الجنوب[٢] ذات الرائحة الزكية وحشائش
القنطريون[٣] ذات الرائحة النفاذة، فإنك إن (لمست) بالمصادفة أياً

---

(١) "الباناكيا "panacea" أو "panaces" مشتقة من الصفة اليونانية بمعنى " كل pan" أو "جميع" وكلمة ake بمعنى "الدواء"، ومن ثم فمعناها الدقيق هو "الدواء العام أو دواء لجميع الأمراض". وهو دواء يستخرج من نبات خرافى.

(٢) "نبات الجنوب "habrotonum" ذُكر فى النص على أنه اسم مذكر جمع habrotoni والصواب أنه اسم جماد "habrotona"، ومن ثم فالصفة "graves" كان يجب أن تُكتب "gravia" ونبات الجنوب نبات يونانى habrotonon عطرى، ولقد أُطلق شاعر الكوميديا ميناندروس الاسم "هابروتونون" على إحدى بنات الهوى فى مسرحية " المحكمون Epitrepontes".

(٣) نبات "حشيشة القنطريون "centaureum" يُستخدم فى الأغراض الطبية لأنه يفرز مادة تجعل أنسجة الجروح تنقبض، وبذلك يتوقف نزيف الدم.

من هذه الأشياء برفق ببنانىْ إصبعين (من أصابعك) فإنه
سوف ينقل رائحته إلى أصبعيك،
ومع ذلك فإن الذرات العالقة بهما لا يراها أحد،

....

ولكن خشية أن تعتقد تمامًا ــ وعلى نحو دقيق ــ أن تلك الصور الدقيقة
للأشياء والمنبعثة منها هى وحدها التى تنتشر (حولنا).
هناك أيضًا تلك (الصور الدقيقة) التى تتكاثر تلقائياً، وتتألف ذاتياً
فى هذا (الجزء الأدنى من) السماء الذى يُسمى الهواء؛
وبسبب خفة (تلك الصور الدقيقة) التى تُحمل إلى أعلى
بعد أن تتشكل، فإنها لا تتوقف عن تغيير
شكلها والتحول إلى رسم أشكالٍ من كل نوع.
إذ إننا بين الحين والآخر نرى سحباً تتكتل معاً
فى سلاسة عالياً، وفى الوقت الذى تداعب فيه الهواء بحركتها، فإنها
تجعل صفحة السماء الصافية معتمة، وتبدو فى أحوالٍ كثيرة وجوهاً
لعمالقة تتطاير وتسحب ظلالها بعيداً، وفى أحوالٍ
(أخرى تبدو) جبالاً شاهقة وصخوراً كأنها
نُحتت من جبال وهى تتسابق وتمر تحت الشمس،
وبعدئذ (تبدو) هولةٌ وهى تسحب سُحُباً أخرى وتجرها.

والآن دعنى أخبرك كيف تنشأ هذه الصور الدقيقة بسهولة
وسرعة، وكيف تتدفق على نحو متصل لترتد من الأشياء.
إن السطح (الخارجى للأشياء) يفيض دائمًا بشئ ما من (تلك)
الأشياء، ويقذفه (إلى الخارج)، فحين يصطدم هذا الشئ المقذوف[١]
بالأشياء (الأخرى) فإنه يجتازها - وعلى نحو خاص الزجاج.
لكن (هذا الشئ المقذوف) حين يصطدم بصخرة وعرة
أو بخشب صلب، فإنه ينكسر على الفور حتى إنه يعجز عن إرجاع أى صورة
دقيقة، ولكن حين تكون الأشياء التى تقف تجاه (الصورة الدقيقة)
مصقولة وكثيفة، مثل المرآة على وجه الخصوص، فإن شيئاً من هذا القبيل
لا يحدث، لأن الصور الدقيقة لا يمكن أن تمر من خلالها، مثلما تمرّ
من الزجاج (كما أسلفنا القول)، كما لا يمكن لها أن تنكسر؛
إذ إن الصقل يضمن لسلامة (الصور الدقيقة) أن تبرز بوضوح؛
ومن ثم، ولهذا السبب، يحدث بالمصادفة أن تتدفق علينا الصور الدقيقة.
ومهما كان (ذلك) على نحو مفاجئ وفى أى وقت كان تضع فيه المرآة أمام
الشئ، فإن صورته تظهر(لنا)؛ (هذا) لتعرف أن أنسجة الأشياء الرقيقة
وأشكالها الدقيقة تتدفق على الدوام من السطح الخارجى (للأجسام).
ومن ثم، تنشأ صور دقيقة كثيرة فى وقت قصير

---

(١) المقصود بـ"الشئ المقذوف" هو الصورة الدقيقة للأشياء.

لتوصف (عملية) إنتاجها ـ بحق ـ بأنها سريعة.
وكما أن على الشمس أن تطلق أشعتها فى وقت
قصير لتمتلئ بها كل الأماكن على نحو متصل،
فكذلك بالضرورة – وبعملية مماثلة – يتم انتقال الكثير من صور الأشياء
فى لحظة وجيزة وبطرق عديدة فى كل الاتجاهات وفى كل مكان.
فحيثما نوجه وجه المرآة تنعكس عليها الأشياء بألوانها المتماثلة.
فضلاً عن ذلك، فحين تكون حالة السماء صحواً تماماً،
ثم تكفهر وتضطرب على نحو مفاجئ شديد، حتى إنك قد تعتقد
أن الظلمات برمتها قد هجرت نهر أخيرون من كل جانب
وملأت قباب السماء الكبيرة. وكذلك، عندما يبدو
(للعيان) ليل العواصف الكئيب، وتتدلى عالياً (فوق الأرض)
وجوه الرعب السوداء، فلن يكون هناك مَنْ يستطيع أن يشرح
بالكلمات لماذا تكون الصورة الدقيقة من تلك(السحب)
(بمثابة) كِسْرَةً غاية فى الضآلة (فى نسبتها)،
حسناً، والآن، فبأي حركة سريعة يتم حمل الصور الدقيقة؛
وما القوة التى تُزوَّد بها وهى تسبح فى (طبقات)
الجو العليا، كى تستغرق وقتاً قصيراً فى قطع مسافة
طويلة حين تتجه (هذه الصور الدقيقة) إلى مكان ما

فى انحرافها المعاكس... وهذا ما سوف أقوله فى أشعارى،
الموجزة ولكنها ساحرة. فأغنية البجع[1] القصيرة أفضل
من صياح الكركى[2] الذى ينتشر بين سحب الجنوب الأثيرية.

أولاً: من الجائز أن تلاحظ – فى أكثر الأحوال – أن الأشياء
الخفيفة التى تتألف من جسيمات دقيقة تكون سريعة الحركة،
مثل ضوء الشمس وحرارتها،
ذلك لأنها تتألف من ذرات دقيقة تنطلق ـ إذا جاز التعبير ـ
ولا تتوانى عن اختراق فجوة الهواء وهى تندفع بحركة متتالية.
فالضوء يتبعه ضوءٌ (آخر) على الفور،
والوميضٌ يدفعه وميضٌ آخر يتبعه.
وهكذا، فمن الضرورى، وعلى نحو مماثل، أن تكون الصور
الدقيقة قادرة على أن تنطلق فى لحظة من الزمن عبر فضاء
يفوق الوصف. أولاً: لأن قوة الدفع المتناهية فى الصغر والموجودة
عن بعد وفى الخلف تكفى لأن تنقل (الصور الدقيقة) وتدفعها.

---

(١) "البجع "cycnus" يُسمى ايضًا الأوز العراقى أو التِّم (بلغة أهل الشام)، وكانت أغنية البجع فى الأساطير الإغريقية يشدو بها البجع عند الموت؛ ومن ثم، فالإشارة إليها ربما قد تعكس روح التشاؤم عند لوكريتيوس الذى يُلمح إلى قرب نهايته.

(٢) "الكُركى "grus" يُسمى ايضًا طائر الرَّهو أو الغُرنوق، وهو طائر كبير أغبر اللون، طويل العنق والرجلين، أبتر الذنب، قليل اللحم، وهو كثير الصياح والجلبة.

وثانياً: لأن (الصورَ الدقيقة) يتم إرسالها فى نسيج غاية فى النقاء،
حتى إنها تستطيع أن تخترق بسهولة (كل) الأشياء
أياً كانت، وكأنها تتسرب خلال فجوة الهواء.
وبالإضافة إلى ذلك، إذا كانت ذرات الأشياء
التى تنطلق من عمق (الأشياء) إلى الخارج،
مثل ضوء الشمس وحرارتها، يمكن ملاحظتها
وهى تنسل عبر حيز السماء كله لتنتشر فى
كل اتجاه فى لحظة من الزمن، وتطير فوق البر والبحر وتغمر السماء،
فما بالك، إذن، بتلك (الذرات) المتأهبة بالفعل فوق السطح
الخارجى (للأشياء) حين تنطلق ولا يعترض انطلاقها شئ،
علاوةً على أنها تندفع فى تدفق فائق السرعة؟
ألا ترى أن عليها أن تنطلق مسافات أطول وبسرعة أشد،
وتستغرق مدداً زمنية فى قطع المسافة نفسها
التى تستغرقها الشمس لتنشر ضوءها فى السماء؟
يبدو هذا أيضًا دليلاً حقيقياً على مدى سرعة
حركة صور الأشياء الدقيقة أثناء حركتها،
فما أن يسكن سطح الماء اللامع تحت السماء
المرصعة بالنجوم حتى تنعكس نجومُ

السماء النيرة المشعة على (صفحة) الماء.

ألا ترى، إذن، كم مقدار المدة الزمنية التى تهبط فيها
الصورة (الدقيقة) من حدود السماء إلى بقاع الأرض؟
لذلك (أقول)، مرة بعد أخرى، إنه من الضرورى أن تعترف بأن الأجسام
التى تقع على عيوننا وتثير حاسة الرؤية تتحرك بسرعة عجيبة.

إذ إن هناك روائح من مواد معينة تتدفق دون انقطاع، (كتدفق) البرد
من الأنهار، والحرارة من الشمس، والمد والجزر من أمواج البحر،
(ذلك المد والجزر) الذى يتلف الأسوار (الموجودة) حول الشواطئ.
وأصواتٌ متنوعة أيضًا لا تتوقف عن الطيران عبر الأجواء.
إن طعم ماء البحر المالح يدخل الفم بدقة حين نكون
بجوار البحر، (وكذلك) حين نرى العلقم المر وهو
يُمزج (بالماء)، فإن (طعم) مرارته ينتشر(فى أفواهنا).
وهكذا، وعلى هذا النحو، فإن هناك مادة معينة من كل الأشياء
تُحمل بشكل متدفق، وتنتشر فى جميع الاتجاهات من كل جانب؛
فلا مجال يعوقها ولا مانع لتدفقها؛ نظراً لأننا نشعر به
على نحو متواصل، كما يمكننا على الدوام أن
نلحظ كل الأشياء، ونشمها، ونحسها، ونميز أصواتها.

وأيضًا لأن أى شكل تلمسه الأيادى فى الظلام
يتم التعرف عليه على أنه (الشكل) نفسه الذى تتم رؤيته فى
وضح النهار، فإن ذلك يؤكد بالضرورة أن اللمس والرؤية
يحركهما سبب مماثل. وبناءً عليه، الآن، لو اختبرنا شيئاً مربع
(الشكل) عن طريق (حاسة) اللمس، فإن ذلك الشئ ينبهنا فى الظلام
(بشكله المربع).. فما هو ذلك الشئ المربع الذى يمكن
أن نراه فى النور، إن لم تكن صورته (بالفعل) مربعة الشكل؟
ومن ثم يتضح أن سبب الرؤية يكمن فى الصورة
(الدقيقة) التى بدونها تتعذر رؤية الشىء.
والآن، فإن صور الأشياء التى أتحدث عنها يتم حملها
من كل جانب وتتناثر منتشرة فى جميع الاتجاهات،
ولكن لأن بمقدورنا أن نراها بعيوننا فقط، فمن ثم
يحدث – حين نحول عيوننا – أن تقع عليها
جميع الأشياء بأشكالها وألوانها.
فالصورة تمكننا من رؤية كل شئ،
وتعيننا على تمييز مدى بعده عنا.
ذلك لأن الصورة حين تُرسل، فإنها على الفور تندفع
وتنتشر (عبر) الهواء الموجود دائمًا بينها وبين عيوننا.

وهكذا، فإن هذا الهواء كله يتحرك متخللاً عيوننا – وإن جاز
القول – فإنه يلمس بؤبؤ العين برفق، ويمر كذلك من خلاله؛
ولهذا السبب يحدث أن ندرك مدى بُعد كل شئ (عنا).
فكلُما كان الهواء مندفعاً أمام (الصورة) بدرجة أكبر،
وكلُما كان نسيمه الذى يمس عيوننا (ممتداً لفترة) أطول،
بدا (أمامنا) كل شئ بالفعل أكثر بعدا[١].
يحدث ذلك – من غير ريب – بطريقة متناهية فى السرعة،
لدرجة أننا نرى ماهية الشئ ومدى بعده عنا.
فى (مثل) هذه الأمور لا يُعتبر هذا الأمر عجيباً على الإطلاق:
ما السبب الذى يمكننا من إدراك الأشياء نفسها (عن طريق الحواس)،
فى حين أن صورها التى تقع على عيوننا لا يمكن رؤيتها
كل على حدة .. فمثلاً حين تضربنا الريح تدريجيا،
ويهاجمنا البرد القارص، فإننا لا نعتاد على الإحساس
بكل ذرة من ذلك الريح وذلك البرد،
ولكننا على الأصح (نشعر بهما) كوحدة كاملة..
إذن، فإننا ندرك أن ضرباتهما توجه إلى أجسامنا كما

---

(١) يشير لوكريتيوس هنا إلى عادة الإنسان اللا إرادية حين يغلق عينيه جزئياً أثناء هبوب الريح، ومن ثم تصغر صور الأشياء وتصبح كأنها بعيدة عن مرمى البصر.

لو كانا شيئاً ما يضربنا ويعطينا الإحساس بجسمه الخارجى.
وفضلاً عن ذلك، فعندما نضرب حجراً بإصبع القدم،
فإننا نلمس على نحو دقيق السطح الأعلى من (ذلك) الحجر
ولونه الخارجى، لكننا لا نشعر به عن طريق اللمس،
ولكن، بالأحرى، ندرك الصلابة الموجودة بداخله.
ولتعلم الآن العلة فى أن الصورة تتم رؤيتها فى الجانب
البعيد من المرآة، ذلك لأن (الصورة) بداخلها تبدو بعيدة (عنا)..
ومثالها تلك الأشياء التى تظهر على حقيقتها فى الخارج حين
يتيح مدخل (البيت المفتوح) منظراً مكشوفاً (فى الخارج)،
ويجعل أشياءً كثيرة خارج البيت تُشاهد (من داخله)،
فهذه الرؤية، أيضاً، تحدث من خلال موجتيْن متميزتيْن من الهواء،
فالموجة الأولى يتم إدراكها على هذا الجانب من الأبواب،
ثم تليه الأبواب ذاتها عن اليمين وعن الشمال، بعدئذ تمس موجة
الهواء الخارجى العيون، ثم (تليها) موجة الهواء الأخرى وتلك
الأشياء (الموجودة) فى الخارج التى تتم رؤيتها فى الواقع.
وهكذا عندما تعكس الصورة فى المرآة نفسها نحو الأمام
أولاً، وبينما هى تصل إلى أبصارنا فإنها تدفع وتطرد كل

الهواء الموجود بينها وبين عيوننا،
فتجعلنا قادرين على أن نشعر بكل هذا (الهواء) قبل أن[1] ننظر
إلى المرآة .. ولكن عند رؤيتنا للمرآة نفسها أيضًا،
فإن ذات الصورة التى تُحمل (من عيوننا) إلى المرآة
تصل إليها على نحو متصل، وبعد أن تنعكس تعود
إلى عيوننا وهى تدفع أمامها – أثناء ذورانها – قدراً آخر
من الهواء، وتجعلنا نرى هذا (الهواء) قبل أن نرى (الصورة)؛
ومن ثم، تظهر الصورة بعيدة جداً، وعلى مسافة من المرآة..
ولهذا السبب (أقول)، مرة بعد أخرى، إنه من الخطأ تماماً
أن نتعجب[2] من هذا الأمر، ومن سبب إعادة (الصور المرسلة) من سطح المرايا

للرؤية، ما دام هذا الأمر يتم عن طريق موجتىْ الهواء فى كل حالة.
والآن، لماذا يظهر الجانب الأيمن فى أجسامنا
على اليسار فى المرايا؛ سبب ذلك (يرجع إلى) أن الصورة حين
تأتى (من العين)، فإنها تصطدم بسطح المرآة،

(١) كلمة "priusquam" تُكتب أحياناً "prius..quam" إذا كُتبت فى إطار ما يُسمى بالـ "tmesis"، أى فسخ كلمة مركبة بإدخال كلمة أو كلمات فيها، وهو أمر شائع فى الشعر اللاتينى.

(٢) يعد الشكل "mirarier" شكلاً غير مألوف للمصدر المضارع المبنى للمجهول لأفعال التصريف الثالث.

ولا ترتد (كما هى) سليمة، بل تُقذف للخلف بشكل مباشر،
تمامًا مثلما يصطدم شخص بعمود أو بقائم من الصلصال قبل أن يجف،
فإن قناع الصلصال يحتفظ على الفور بشكل وجه الشخص تماماً
من حيث المظهر، ويظهر (بملامح الوجه نفسه) بعد أن يُنزع (عن الوجه).
وهكذا، سوف يحدث أن تصبح العين- التى كانت هى اليمنى من قبل-
هى العين اليسرى، كما أن العين اليسرى تصبح بالتبادل العين اليمنى.
ويحدث أيضًا أن تُنقل الصورة من مرآة إلى أخرى،
حتى يصير فى الإمكان إنتاج خمس أو حتى ست صور دقيقة.
ومهما كانت الأشياء التى ستتوارى خلف الجانب الداخلى (من البيت)،
فرغم بعدها (عن أنظارنا) بشكلها المورب من الداخل، فإنه،
رغم ذلك، سيكون من الممكن – عن طريق مجموعة من المرايا –
أن تتم رؤية كل هذه الأشياء الموجودة فى البيت بعد أن تُسحب إلى
الخارج (من أماكنها غير المرئية) بفعل (بعض) المداخل الملتوية.
وهكذا، تماماً، تنعكس الصورة من مرآة إلى أخرى؛ وعندما تظهر
لنا على الجانب الأيسر، يحدث بعد ذلك أن تظهر مرة أخرى على الجانب
الأيمن ثم تعود ثانية وتتحول إلى موضعها نفسه (كما كانت من قبل).
وأيما كانت جوانب المرايا صغيرة ومجهزة بحدبة جانب
مماثلة لحدبة جانبنا، فإنها، لهذا السبب، تعكس لنا الصورة فى الاتجاه

السليم (أى غير معكوسة)، إما لأن الصورة تُنقل من مرآة إلى أخرى،
ومن ثم تطير إلينا بعد أن ترتد مرتين، وإما لأن الصورة، عندما تأتى،
فإنها تستدير، نظراً لأن سطح المرآة
المحدب يجعلها تلف نحونا.

علاوة على ذلك، فقد تعتقد أن صورنا (فى المرآة) تتقدم معنا
وتضع قدمها (مع أقدامنا)، وتقلد إيماءاتنا، وعلَّة
هذا (التقليد) أنك عندما تتراجع عن أى جزء من المرآة،
فإن صورك على هذا الجانب تعجز من فورها عن الانعكاس،
إذ إن الطبيعة تقضى بأن تُحمل (الصور) كلها وتقفز للخلف
بزوايا متساوية بعد أن ترتد من الأشياء.
إن الأشياء المتوهجة، أيضاً، تتفاداها العيون، وتتحاشى
رؤيتها. فالشمس، بالتأكيد، تسبب العمى إن دأبت على أن تصوب
(نظرك) تجاهها، وهذا يرجع إلى قوتها الشديدة، فصورها الدقيقة
تُحمل من علٍ عبر الهواء النقى، وترتطم بعيوننا بقوة
حتى إنها تفسد محاجرها[1].. وفضلاً عن ذلك، فإن وهج (الشمس)
حادٌ ويحرق الشئ، أياً كان، وكثيراً ما يحرق العيون،
لاحتوائه على ذرات كثيرة من النار

(١) المَحْجرُ فى العين هو ما أحاط بها، وجمعه محاجر.

التى تسبب ألماً للعيون حين تنفذ إليها.

وفضلاً عن ذلك، فإن الأشياء التى يراها المصابون باليرقان[1] تبدو (فى نظرهم) صفراءَ شاحبةً، ذلك لأن ذرات كثيرة من اللون الأصفر تتدفق من الجسم لتلتقى صور الأشياء الدقيقة؛ كما يوجد كثير منها يمتزج بالعيون على نحو تام، فيلوِّن – عن طريق الاتصال بها – كل شئ بالصُفرة.

ولكننا (حين نوجد فى الظلام) فإننا نرى من الظلام (الأشياء) الموجودة فى النور، ويرجع هذا إلى أن هواء الظلمة القاتم عندما يدخل – فى بادئ الأمر – عيوننا المفتوحة، ويستولى عليها، لكونه أشد قرباً منها، يتبعه على الفور (فى الدخول) الهواءُ الصافى المضئ الذى – إن جاز القول – يطهرها ويطرد منها الظلال السوداء لذلك الهواء (الأسود القاتم)، ولأن هذا الهواء (المضىء) مركب من ذرات كثيرة، فهو أنشط وأرق وأكثر قوة (من الهواء القاتم). وبمجرد أن يملأ ذلك (الهواء المضىء) قنوات العيون بضوئه، ويفتح (تلك القنوات) التى كان الهواءُ القاتم قد حاصرها، تتوالى على الفور صور الأشياء الدقيقة، وتحثنا على رؤية

---

(١) اليرقان مرض عضوى يصيب الإنسان، ويجعل الصُفرة تعلو لونه، فيبدو شاحباً مريضاً.

(تلك الأشياء) التى تقع فى الضوء.
والعكس صحيح، فإننا لا نستطيع أن نرى ونحن فى النور
الأشياء الموجودة فى الظلام، لأن هواء الظلمة الكثيف
نوعاً ما يسبق (الهواء المضىء)، ويملأ فتحات (العيون) كلها،
ويسد قنوات العيون كى لا تستطيع الصور الدقيقة لأى شىء
أن تتحرك بعد أن تتجمع معًا.

وعندما نلمح على البعد أبراجاً مربعة لمدينة ما، فكثيراً ما يحدث
أن تبدو (هذه الأبراج) كما لو كانت مستديرة، وسبب هذا (بُعد المسافة)،
لأن كل زاوية بعيدة تبدو (وكأنها زاوية منفرجة)،
أو بالأحرى لا تبدو (كما هى على الإطلاق)، فاندفاع (صورتها الدقيقة)
يتلاشى، ولا تصل قوتها إلى أبصارنا. فبينما تُحمل صور
(الزاوية) عبر قَدْرٍ كبير من الهواء، فإن الهواء بضرباته
المتكررة (عليها) يجبرها على أن تصير (زاوية) منفرجة.
وبهذا، حالما تراوغ كل زاوية إبصارنا، فإن الأبنية
الحجرية تبدو حادة (الزوايا)، كما لو كانت على (شكل) مخروط،
لكنها، مع ذلك، ليست كالأشياء القريبة أمامنا التى هى فى الحقيقة
مستديرة، لكنها تبدو كما لو كانت شبيهة بها قليلاً وبصورة ضبابية.

وظلنا أيضاً، يبدو لنا، (وهو) يتحرك فى (ضوء) الشمس،

ويتبع آثار أقدامنا ويقلد إيماءاتنا
(لو تخيلت أن بمقدور الهواء الخالى من الضوء
أن يسير متبعاً حركات البشر وإيماءاتهم،
(ذلك) لأن ما اعتدنا أن نسميه ظلاً
ليس إلا هواءً خالياً من الضوء).
فالأرض، بالتأكيد، وفى مناطق معينة، المنطقة بعد الأخرى،
تُحرم من ضوء الشمس الذى نعترض سبيله أثناء سيرنا،
وأى جزء (من الأرض) تركناه يملأه (الضوء) مرة أخرى،
ولهذا السبب يحدث أن ما كان ظلاً لجسمنا يبدو كما لو كان
هو ذاته الذى يتبعنا باستمرار وفى الاتجاه المعاكس تمامًا،
فأضواء الأشعة الجديدة تنهمر على الدوام (فى حين أن)
الأضواء الأولى (السابقة) تختفى مثل صوفٍ ينجذب داخل النار.
وهكذا فإن الأرض تُحرم من الضوء بسهولة،
ثم تُغمر به مرة أخرى، وتزيح عن نفسها الظلال السوداء.
ومع ذلك، فإننا لا نسلم بأن العيون لا تُخدع على الإطلاق،
فوظيفتها أن ترى فى أى مكان يكون فيه الضوء وكذلك الظل،
ولكننا (نتساءل) عما إذا كانت هى الأضواء نفسها أم لا،

وعما إذا كان الظل هنا هو (الظل) نفسه الذى ينتقل الآن إلى هناك،
أو قد يصير بالأحرى بعضاً مما قلناه من قبل.
هذا ما يجب أن يقرره حَكم العقل،
فالعيون (وحدها) تعجز عن معرفة طبيعة الأشياء،
ومن ثم، لا تنسب إلى العيون خطأ العقل هذا.
إن السفينة التى نبحر بها تتحرك فى حين أنها
تبدو لنا واقفة؛ وما يبقى فى مكانه (ثابتاً) يُعتقد
أنه يسير وراءنا، كما أن التلال والسهول - التى بمحاذاتها
نقود مركبنا وننطلق بأشرعتها - تبدو كأنها تَفِرُ إلى الخلف.
والنجوم كلها تبدو ثابتة ومثبتة فى تجاويف
السماء، مع أنها كلها فى حركة
دائبة، ذلك لأنها بعد أن تبزغ وتعبر السماء
بجسمها اللامع، تعود ثانية إلى مغاربها البعيدة.
وبالمثل تبدو الشمس والقمر ثابتين فى موقعيهما،
بينما تؤكد لنا خبرتنا أنهما دائمًا الحركة.

كذلك الجبال التى نراها على البعد من وسط البحر، والتى يوجد بينها منفذٌ هائل يتسع (لعبور) أسطول، ومع ذلك تبدو كأنها جزيرة واحدة (وقد تشكلت) من هذه (الجبال البعيدة) المتصلة ببعضها.

وبطريقة مماثلة يحدث أن تبدو (الأروقة)
للصبية حين يتوقفون عن الدوران كأنها تدور، وكأن
الأعمدة تلف، حتى إنهم بصعوبة يصدقون أن أسقف
(البيت) لا تهددهم بالسقوط فوق رءوسهم.
والطبيعة، كذلك، حين تبدأ فى رفع وهجها (الأحمر)
المتورد بفعل نيران (الشمس) الحارقة، وتصعد به عالياً
فوق الجبال التى تبدو لك وكأن الشمس المتوهجة بالنار
تعلوها، بل وإنها تلامسها عن قرب. إن (تلك الجبال)
تبعد عنا بالكاد مسافة ألفَى رمية من سهم، بل وحتى
خمسمئة قذفة من رمح، (إلا أنه فى الحقيقة)
تمتد بينها وبين الشمس مساحات شاسعة
من المياه، وتنتشر بقاع شاسعة تحت حدود السماء الهائلة[١]،
كما تترامى آلافٌ مؤلفة من أميال الأرض التى تشغلها أمم
متنوعة من (البشر) وفصائل من الحيوانات المفترسة.
لكن بركةً صغيرةً من الماء لا يتعدى عمقها الإصبع الواحد،
حين تستقر بين الأحجار عبر الطرق المُعَبَّدة،

---

(١) يوضح لوكريتيوس حقيقة الخداع البصرى حين نرى الشمس وهى تلامس قمم الجبال الشاهقة، فى حين أن الأمر ليس كذلك، فبين قمم الجبال والشمس مسافات هائلة تحول دون ذلك الاتصال.

تقدمُ (هذه البركة) منظراً على نطاق واسع تحت سطح الأرض،
فأعماق السماء السحيقة تظهر بوضوح تام على الأرض،
حتى يبدو كأنك تشاهد السحب إلى أسفل، وأنك ترى تحت سطح
الأرض الأجرام السماوية التى تتوارى فى السماء العجيبة.
وفضلاً عن ذلك، عندما يتوقف بنا، وعلى نحو مُحْكم، فرس
مفعم بالحيوية فى وسط النهر، فحين ننظر تحتنا إلى
أمواج النهر المتدفقة، يبدو أن هناك قوةً (وهمية) تحمل جسم
الفرس الواقف إلى اتجاه معاكس، وتسوقه بعنف ضد التيار؛
وحيثما نوجه أبصارنا (آنذاك)، فإن كل شئ يبدو لنا
كأنه يتحرك، ويتدفق على نحو مماثل.
وأيضاً، الرواق المُعَمَّد، رغم أنه ذو أبعاد متساوية
فى كل مكان منه، ويقف من طرفيه على دعامات من
الأعمدة المتساوية، فإنه حين يتم النظر إليه من طرفه
وبطول امتداده الكامل، فإنه يتقلص شيئاً فشيئاً
(كما لو كان) رأس مخروط مُستَدَق يصل
الأَسْقُفَ بالأرضية والأجزاء اليمنى جميعها بالأجزاء اليسرى،
إلى أن يضيق هو ذاته حتى (يصير) نقطة غير واضحة من مخروط.
وبالنسبة إلى الملاحين فى البحر فإنهم يلاحظون أن الشمس تشرق

من (خلف) الأمواج، وتغرب ويخفى ضوءها فى الأمواج،
ذلك لأنهم فى الحقيقة لا يرون شيئاً آخر سوى الماء والسماء،
حتى إنك قد لا تعتقد بسهولة أن حواسهم قد خُدعت تماما.

بالنسبة لأولئك الذين يجهلون البحر، (فكثيراً ما) تبدو لهم
السفن (الراسية) فى الميناء متمايلة ومعداتها متوقفة
وهى تواجه الأمواج المتتالية، ذلك على الرغم من أن كل جزءٍ من
المجاذيف فوق ماء البحر يكون مستقيماً،
والدَّفات[1] فوق (سطح) الماء تكون مستقيمة، لكن (الأجزاء) المنخفضة منها
والغائصة فى الماء تبدو كلها (وكأنها) مكسورة وملتوية ومقلوبة وشبه
مائلة، و(هكذا) تبدو وكأنها تنثنى نحو الوراء لدرجة
أنها تطفو فوق سطح الماء بصعوبة.

وحين تحمل الرياحُ السحبَ الصغيرة الخفيفة ليلاً عبر السماء،
فإن الأبراج[2] الساطعة تبدو، حينئذ، كأنها تنحدر صوب
السحب، وتمر عالياً فى موازاتها فى اتجاه يختلف تمامًا عن
(ذلك الاتجاه) الآخر الحقيقى الذى تتحرك فيه.

ولكن إذا ضغطت اليد مصادفة على إحدى العينين إلى أسفل

(١) "الدفَّات "gubernaّ" جمع دَفَّة وهى السُّكَّان أو الآلة المثبتة فى مؤخرة السفينة لتحركها يميناً أو يسارا.
(٢) الأبراج الساطعة "signa" هى مجموعات النجوم الثابتة فى السماء التى تتغير مواقعها بانتظام.

بعد أن تنطبق عليها، فبنوع من الإحساس يحدث أن يبدو
كل شئ تحدق فيه وقد صار مزدوجاً؛
فضوءان من أضواء المصابيح يتوهجان باللهب،
والأثاث فى كل مكان من البيت (يبدو) على نحو مضاعف،
ووجوه الناس (تبدو) وجوهاً ثنائية، وأجسامهم أجساماً مزدوجة.
وأيضا، عندما يسلم النوم أطرافنا للنعاس اللذيذ،
ويرقد جسمنا كله فى سبات عميق،
حينئذ نبدو لأنفسنا كأننا فى يقظة ونحرك أطرافنا،
وفى ظلمة الليل الحالكة نتخيل أننا نرى الشمس وضوء النهار،
وأننا، فى مكاننا الضيق، نبدو كأننا نتخطى
السماء والبحر والأنهار والجبال، ونعبر السهول سيراً على
الأقدام، وحين يحل سكون الليل الرهيب من كل جانب،
فإننا (فى المنام) نسمع أصواتاً، ونتفوه بكلمات رغم صمتنا.
إننا نرى أشياءً أخرى كثيرة من هذا النوع العجيب،
أشياء تحاول كلها – إن جاز القول – أن تهدم الثقة بحواسنا،
ولكنها (محاولات) عميقة، إذ إن الجزء الأكبر من
هذه الأشياء يخدعنا بسبب افتراضات العقل التى

نضيفها نحن بأنفسنا (عليها)، حتى إن تلك الأشياء التى
لم تُشاهدها حواسنا، (تبدو) كأنها قد شوهدت (بالنسبة لنا).
فلا شئ أصعبُ من فصل الأشياء الواضحة عن
الأشياء الغامضة التى يضيفها العقل من تلقاء نفسه باستمرار.

وفضلاً عن ذلك، إذا اعتقد شخص ما أنه لا سبيل إلى معرفة شئ،
فإنه لا يعرف حتى ما إذا كان بمقدور ذلك (الشيء) أن يُعْرَف،
إذ إن ذلك الشخص يعترف بأنه لا يعرف شيئاً؛
ومن ثم، سوف أناقش هذا الشخص الذى وضع نفسه بنفسه مع رأسه
عند موطئ قدميه[1]. إلا أننى وقد سلمت بأن هذا الشخص يعرف،
فإننى لا زلت أطرح عليه هذا (السؤال): حين لا يرى فى الأشياء
شيئاً من الحقيقة سابقاً، فمن أين (له أن) يعرف كينونة ما هو معروف
وكينونة ما هو مجهول تباعاً؟ وما المصدر الذى يقدم (له)
سلفاً معرفته بالصدق والكذب؟ وما الدليل الذى يبرهن (له)
على أن(الشيء) المشكوك فيه يختلف عن (الشيء) المؤكد.

سوف تجد أن معرفة الحقيقة تأتى من الحواس كمصدر (لها)،
وأن الحواس لا يمكن أن يُثبت بطلانها، و(الدليل على ذلك)

---

(١) يتهكم لوكريتيوس على الأحمق الذى يدير رأسه إلى الوراء صوب آثار قدميه، وكأنه يريد أن يقفل عائداً ليسير فى الطريق نفسه الذى سار عليه من قبل، ولا يريد أن يتقدم إلى الأمام.

أن ما بمقدوره ومن تلقاء ذاته أن يهزم الأكاذيب بالحقائق
إنما هو أمر يجب أن يُعتبر أمراً جديراً بالثقة وعلى نحو أشد.
إذن، ما الشئ الذى يجب أن نعتبره ذا مصداقية وأعظم من الحواس؟
فهل الاستنتاج النابع من الحاسة المضللة الذى ينشأ كليةً
من الحواس سيكون قادراً على إثبات بطلانها؟ فإن لم تكن هذه
(الحواس) حقيقية، فإن الاستنتاج كله – بالتالى – يصير خاطئا.
هل سيكون فى استطاعة الأذنين أن تثبتا بطلان العينين؟
أو هل (يقدر) اللمس (على إدانة) الأذنين؟ أو سيدين طعم الفم –
– بدوره – (حاسة) اللمس؟ وهل ستثبت الأنوف بطلان (الحواس
الأخرى)، أم ستكذبها العيون؟ فى اعتقادى، أن الأمر ليس كذلك،
فلكل (حاسة) وظيفتها التى خُصصت لها على نحو منفصل،
كما أن لكل (حاسة) قوتها، وهذا يستلزم إدراك ما هو
ناعم، وما هو بارد، وما هو ساخن بوضوح، (كما يوجب) إدراك
ألوان الأشياء المتنوعة، ورؤية كلِّ ما هو مرتبط (بتلك) الألوان.
إن حاسة الذوق، أيضاً، لها قوتها على نحو منفصل،
والروائح تنشأ بشكل مستقل والأصوات أيضاً، ولهذا يكون
بالضرورة أن بعض الحواس لا يمكنها أن تعارض البعض

الآخر، وفضلاً عن ذلك، فإن (الحواس) نفسها لن تكون
قادرة على إثبات بطلان نفسها، فهناك مصداقية متساوية يجب
أن تُحفظ لها على الدوام. ووفقاً لذلك، فإن ما يبدو حقيقياً لهذه
(الحواس) فى أى وقت كان، إنما هو (بالفعل) حقيقىٌ.

وإذا ما عجز الاستنتاج عن كشف السبب فى أن تلك
الأشياء المربعة وهى قريبة، تبدو مستديرة وهى بعيدة.
ومع ذلك، فمن الأفضل (للإنسان) – لكونه غير قادر على
الاستنتاج – أن يقدم تفسيرات لكل شكل على نحو خاطئ،
بدلاً من أن يضيع بطريقة ما من يديه أشياءً واضحة،
وأن يحطم (مبادئ) المصداقية الأولى، ويدمر كل
الأسس التى ترتكز إليها الحياةُ وسلامتها؛
فقد لا يسقط الاستنتاج كله فقط، بل وقد تنهار معه أيضًا
– وعلى الفور – الحياة نفسها[1] إن لم تتجرّأ على تصديق حواسك،
وتتحاشى المناطق شديدة الانحدار وأشياءً أخرى من هذا
القبيل يجب تجنبها، وأن تتبع تلك (الأشياء) المتعارضة..
ولهذا السبب، ومن أجلك أقدم هذه المجموعة المجردة

---

(١) يوضح لوكريتيوس أن حواسنا لا تكذب حتى لو تعارض معها الاستنتاج وأخطأ، فالأشكال المربعة هى بالفعل كذلك، رغم أننا قد نستنتج أنها دائرية، ومن ثم، لا بد لنا من الاعتماد على صدق حواسنا التى ترتكز إليها قواعد الحياة وحقائقها.

من الكلمات التى نُظِمَت وأُعدت ضد الحواس.

وأخيراً، إذا كان المقياس الأَوَّلِى فى مبنى مطبقًا على نحوٍ خاطئ،
وانحرف المربع عن وضعه الصحيح،
وكان بالسطح عيبٌ ضئيل فى أحد جوانبه،
فإن كل شئ (فى المبنى) سيصير بالضرورة ذا عيوبٍ ومنحرفاً
ومشوهاً ومنحدراً ومائلاً إلى الأمام أو إلى الخلف وغير منسجم،
حتى إن بعضه يبدو آيلاً للسقوط، (فى حين) يسقط (بعضه الآخر)
بالفعل؛ (ذلك لأن) كل شئ (فى ذلك المبنى) قد بُنِى على
مقاييس أولية خاطئة.. وهكذا، وبسبب ذلك، فكلما كان استنتاجك
نابعاً من حواسك الخادعة، كان بالضرورة (استنتاجاً) خاطئاً ومُضَلِلاً.

والآن، لم تبق مناقشة صعبة (توضح لنا)
الكيفية التى تتبين بها الحواس الأخرى هدفها.
أولاً: كل ضوضاء وصوت لا يتم سماعُهما إلاَّ
بعد أن يتسللا داخل الآذان، ويطرقا حاسة (السمع) بجسميهما.
فعلينا أن نعترف بتكون الضوضاء والصوت من مادة،
نظراً لأنهما يستطيعان التأثير على الحواس.

فضلاً عن ذلك؛ فإن الصوت كثيرًا ما يحتك بالحنجرة،

وأن الصرخة حين تصدر (بقوة)، فإنها تجعل القصبة الهوائية أكثر
خشونة. ففى الحقيقة، عندما تبدأ ذرات الأصوات المتجمعة بكمية
أكبر (من المعتاد) فى شق طريقها بالضغط عبر حيز(الفم) الضيق
فمن الطبيعى أن يحتك مدخل الفم الممتلئ (بتلك الذرات)؛
ومن ثم، فلا مجال للشك فى أن الأصوات والكلمات
تتألف من جزيئات مادية، لما لها من قدرة على إحداث الألم.
ولا يخدعنك، أيضاً، كم يكون الحديث المتواصل مادياً،
(فالحديث) الذى يمتد من بزوغ الفجر حتى ظلام الليل
الدامس؛ يسلب قدراً من أعصاب الناس وقواهم
ذاتها؛ خاصة لو كان (الحديث) ينطلق فى صوتٍ عالٍ.
ولهذا السبب، فإن الصوت لا بد أن يكون مادياً،
لأن مَنْ يتكلم كثيراً يفقد قدراً من جسمه.
وفوق ذلك، فخشونة الصوت تنشأ من خشونة
ذراته؛ وكذلك نعومته من نعومتها.
وذرات (الصوت) لا تنفذ إلى الآذان على وتيرة واحدة،
(ودليل ذلك) صوت البوق الهمجى
المعقوف حين يرتفع بدمدمة عميقة وعلى نحو ثقيل،

فيرجع صداه فى هدير مدوٍ خشن،
وكذلك البجع فى وديان الهليكون[١] المتعرِّجة
حين يصدر لحناً حزيناً عذباً فى صوتٍ يبعث على الأسى..

لهذا، حين نطلق هذه الأصوات، ثم نخرجها
من أجسامنا ونلفظها مباشرة عبر الفم،
فإن اللسان المتحرك والبارع فى تشكيل الكلمات يلفظها،
والشفتان بشكلهما المناسب تقومان بدورهما فى تشكيل (الكلمات)؛
ولهذا (السبب)، حين لا تبعد المسافة (عن ذلك المكان)
الذى يبدأ منه الصوت ويصل (إلى آذاننا)، فبالضرورة أيضاً
يتم سماع الكلمات نفسها كلها بوضوح، ويتم تمييزها بكل سماتها؛
إذ إن (الصوت) يحتفظ بشكله وبصورته.
ولكن إذا كانت المسافة (بين الصوت ومصدره)
أطول من اللازم، فلا بد أن تختلط الكلمات
التى تمر عبر قدرٍ كبير من الهواء، ويحدث اضطرابٌ
فى الصوت المنطلق عبر الهواء. ومن ثم، يحدث أن
تسمع الصوت، لكنك لا تستطيع أن تتبين معانى كلماته،

---

(١) هذا البيت تالف ومُحرف، وإضافة العبارة "et cynci tortis convallibus" تبدو مناسبة كى تستقيم الترجمة. وعن جبل هليكون انظر الكتاب الأول صـــ :١٣٨ حاشية ٣١ أعلاه.

ما دام (هذا) الصوت يأتى (إليك) مشوشاً ومعاقاً إلى حد بعيد.
وفضلاً عن ذلك، فكثيراً ما تخرج كلمة واحدة من فم أحد المنادين
وسط الناس وتنفذ إلى كل الآذان .. ولهذا، ينقسم الصوت الواحد فجأة
إلى عدة أصوات، نظراً لأنه ينتشر داخل كل أذن على نحو خاص
بعد أن يطبع عليها – إن جاز القول – شكل الكلمات وصوتها الواضح.
أما ذلك الجزء من الأصوات (المتعددة) الذى لا يقع
على الآذان نفسها، فإنه يتلاشى، ذلك لأنه ينطلق دون جدوى عبر
الهواء إلى ما وراء (الآذان). فبعد أن يرتطم جزء
(من هذا الصوت) بالأماكن الصلبة ويرتد،
فإنه يردد صوتاً يشى أحياناً بشئ شبيه بالكلمة.
وحين تدرك ذلك جيداً فإنك قد تكون قادراً على أن تقدم
لنفسك والآخرين تفسيراً للكيفية التى ترجع بها الصخور
فى الأماكن المنعزلة (صدي) الأشكال نفسها من الكلمات على نحو منتظم.
أو حين نبحث عن الرفاق الذين يتجولون خلال الجبال الظليلة،
وننادى عليهم بصوت مرتفع بسبب انتشارهم فوق مساحة واسعة.
لقد رأيتُ أماكن تكرر ست صيحات أو سبع، فى حين أنك تكون قد
نطقت (كلمة) واحدة.. وهكذا، كانت التلال نفسها ترجع للتلال
(الأخرى) صدى الكلمات، وتكرر ما (سبق) أن قيل.

ويتخيل المجاورون أن الساتيرى[1]ذوى أرجل الجديان
والحوريات[2] يقطنون هذه الأماكن، وأن الفاونى[3]،
بضوضائهم ولهوهم المرح أثناء تجوالهم الليلى يعلنون عادة
أن الصمت المطبق يتم قطعه عن طريق الأوتار والنغمات
العذبة التى يصدرها المزمار حين تلمسه أصابع العازفين،
ويقولون إن معشر المزارعين يسمعون فى كل مكان
صفارات لا تهدأ فى فيض موسيقى الغابات،
حيث يجرى عبر الغابات المكشوفة (الإله) بان[4] ذو الشفة
المقوسة[5] وإكليله المكسو بأوراق الصنوبر يغطى رأسه الشبيه برأس الإنسان،
ويحكون أعاجيب وأحداثاً أخرى خارقة للطبيعة من هذا النوع،
ربما لأنهم لا يعتقدون أنهم يقطنون أماكن مقفرة تخلو حتى من الآلهة،

---

(١) تروى الأساطير الإغريقية أن الساتيرى "satyri" آلهة صغرى تسكن الغابات – نصفها الأعلى فى صورة بشرية والأسفل فى صورة حيوانية – وكانوا يتميزون بالعربدة والانغماس فى اللذات. والمجاورون هم الذين يجاورون تلك التلال ويسمعون هذه الصيحات.

(٢) الحوريات: إلهات ثانوية من إلهات الطبيعة كن يُمثلن على صورة عذارى فاتنات يسكن الجبال والغابات والمروج وينابيع الماء.

(٣) الفاونى "Fauni" (المفرد الفاونوس– Faunus): إله الحيوانات عند الرومان، وكان يهتم بخصوبتها وقدرتها على التكاثر.

(٤) بان: إله الغابات والمراعى والرعاة فى الميثولوجيا الإغريقية.

(٥) لم تكن شفتا الإله بان مثل شفتى الإنسان الطبيعى، بل كانتا مقوستين بفعل صفيره المتواصل فى المزمار والغاب الذى ينمو فى الغابات.

ولهذا السبب يتحدثون عن (مثل هذه) المعجزات فى أحاديثهم،
(وربما) يدفعهم سبب آخر (للاعتقاد فى ذلك) وهو أن الجنس
البشرى كله تواق إلى (إبهاج) الآذان (بمثل هذه الخرافات).
وعلاوة على ذلك، فلا غرو أن تمر الأصوات وتثير الآذان
خلال الأماكن نفسها التى لا تستطيع فيها العيون أن
تميز الأشياء الواضحة، حتى إننا كثيراً ما نتبين محادثة
(تدور بين شخصين) فى أبواب مغلقة؛ (وسبب ذلك يكمن)
بالتأكيد فى قدرة الصوت على المرور سلمياً خلال القنوات
المتعرجة من الأشياء، أما الصور فتأبى (ذلك)،
لأنها تتمزق إذا لم تسبح خلال قنوات مستقيمة،
كتلك القنوات الزجاجية التى تنطلق من خلالها كل صورة.
علاوة على ذلك، فإن الصوت يتوزع فى كل الاتجاهات،
نظراً لأن بعض (الأصوات) تنشأ عن (أصوات) عدة،
(مثلها فى ذلك) مثل شرارة النار حين تنطلق، فهى كثيراً ما تميل إلى
الانشطار إلى نيران تنبع منها؛ ومن ثم، فإن
جميع الأماكن المغلقة خلف (المتحدث) وحوله تملؤها
الأصوات وتهزها الضوضاء. أما (بالنسبة) للصور،

فحالما تنطلق كلها، فإنها تمر من الفتحات المستقيمة
التى لا يستطيع المرء بسببها أن يرى الأشياء (الموجودة) خلف
الجدران، فى حين أنه قد يسمع الأصوات من ورائها.
مع ذلك يصير هذا الصوت ذاته مشوشاً حين
يمر خلال الفتحات المسدودة، ليبدو لنا
أننا نسمع الصوت دون (أن نميز) كلماته.
أما اللسان والحنك[(١)] اللذان نشعر عن طريقهما بتذوق (الطعام)
فلا يتطلبان – فى حد ذاتهما – قدراً أكبر من المناقشة أو التفسير.
فأولاً: إننا نحس بالمذاق فى الفم حين نعصر الطعام عن طريق مضغه،
ربما (نكون فى ذلك) مثل شخص يبدأ بيده فى عصر
وتجفيف قطعة من الإسفنج المملوءة بالماء. إن كل ما نعصره
(من طعام فى الفم) يُوزع آنذاك عبر قنوات الحنك
والمسام المتعرجة فى اللسان الرطب.. وبهذه (الوسيلة)،
حين تكون ذرات العصارة السائلة سلسة، فإنها تلمس
حاسة (التذوق) على نحو سائغ (مقبول)، وتؤثر بسرور فى

(١) المناطق الناضحة حول اللسان هى تلك الغُدد التى تفرز اللعاب ونوعيات المذاق وتنضحها، شأنها فى ذلك شأن الأوانى الفخارية التى تنضح بما فيها من مادة حلوة كالعسل أو شديدة الحموضة كالخل وغيره. والحنك "palatum" كلمة عربية فصحى ومرادفها "سقف الحلق".

كل (أجزاء الحاسة المنتشرة) حول المناطق الرطبة الناضحة في اللسان.
والعكس صحيح؛ إذا كانت (ذرات العصارة) على درجة من الخشونة،
فإنها، وبمجرد ظهورها، تخز حاسة (التذوق) وتؤلمها بقدر امتلائها بالخشونة.
وفضلاً عن ذلك، فإن اللذة (الناتجة) عن تذوق
(الطعام تمتد) فى نطاق الحنك، فحين يسرى (الطعام الشهى)
داخل المرئ، ويُوزع داخل أعضاء (الجسم) كلها،
فلا توجد (بعد ذلك) لذةٌ، ولا أهميةٌ لأي مادة يتغذى عليها الجسم،
ما دام فى مقدورك أن تهضمها وتوزعها خلال أعضاء (جسمك)،
وأن تحفظ مجرى المعدة فى حالة استمرار[١].
وسوف أشرح الآن كيف أن طعامًا ما قد يكون لذيذاً ومغذياً
لمخلوقات مختلفة، أو لماذا قد يبدو هذا (الطعام) كريهاً مراً
للبعض وشديد الحلاوة لبعض آخر.
حقًا إن الفرق والاختلاف كبيران فى هذه الأشياء، حتى إن ما هو
طعام للبعض قد يكون سُماً ناقعاً لبعض آخر.
وهكذا، يحدث أن تهلك الحيةُ عندما يطولها لعابُ الإنسان[٢]،

(١) المقصود هنا أن يكون مجرى المعدة سالكا، ويؤدى وظيفته على نحو مستمر بمنأى عن حالة التقيؤ العارضة التى تفسد لذة الطعام.

(٢) أى أن لعاب الإنسان وريقه ما هو إلا سمّ يقتل الحية، والعكس صحيح.

وتقضى على نفسها بنفسه عن طريق القَضْم،
وفوق ذلك، فإن الخَرْبَق[1] سمٌ زعاف بالنسبة لنا،
(لكنه فى الوقت نفسها) يزيد من دُهن الماعز والسَّلوى[2].
وكى تعرف كيفية حدوث هذا، يليق بك أن تتذكر أولاً

ما سبق أن قلناه عن الذراتِ المَنَوِّية التى يتم
احتواؤها بطرق شتى فى الأشياء.
وأيضاً، ولأن المخلوقات الحية التى تتناول الطعام تتباين
من الناحية الظاهرية، ولأن محيط أطرافها يحصرها (بشكل مختلف)
طبقًا لأنواعها، لذا، فهى، أيضاً، تتكون من ذرات مَنَوية
(مختلفة)، وتتنوع فى شكل (عناصرها).. ونظراً لأن الذرات
المَنَوية تختلف، فإن فواصلها وقنواتها
التى نسميها المسام (والمنتشرة) فى كل الأعضاء وفى الفم
والحَنَك نفسه، يجب أن تختلف بطريقة مماثلة.
ولهذا، يجب أن يكون بعض (هذه المسام) أكبر، وبعضها أصغر،
ويجب أن يكون لبعض (الحيوانات) مسام مثلثة الشكل، ولبعضها (مسام)

---

(١) "الخَرْبَق" "veratrum" عُشب جميل الزهر.
(٢) "السَّلوى" "coturnix" مرادفها السُّمّان.

مربعة، (ومسام) كثيرة يجب أن تكون مستديرة، وبعضها (مسام)
مُضَلَّعة[1] بطرق عدة. ووفقاً لما تتطلبه طبيعة الأشكال (فى الذرات
المنوية) وحركاتها، فإن أشكال المسام يجب أن تختلف، كما يجب أن
تختلف القنوات (الموجودة بين الذرات) وفقاً لما يتطلبه تركيب (الذرات).
فحين يكون شئ ما حلواً (بالنسبة) لبعض الناس، فإنه يصبح مُراً
للبعض الآخر، فأما بالنسبة لمن هو حلو، (فذلك لأن) الذرات
شديدة النعومة لا بد أن تدخل برفق داخل مسام الحنك،
والعكس (صحيح) لمن يكون الشئ نفسه بداخلهم مراً،
فبلا شك أن ذرات خشنة غير مصقولة تخترق الحلق.

من هذه الحقائق يصبح من السهل الآن أن تفهم كل
أمر (يتعلق بهذا الموضوع)، فبالتأكيد، عندما تشتد
الحمى فى شخص ما بفعل وفرة الصفراء[2] المفرطة،
أو من شدة مرض زاد هياجه لأى سبب آخر، حينئذ،
يضطرب الجسم كله فى الحال، وتتغير فيه كل مواضع
الذرات؛ ويحدث أن الذرات التى كانت تتناسب مع حاسة (التذوق)

---

(١) المسام المضلعة هى مسام متعددة الأضلاع والزوايا.

(٢) "الصفراء "bilis" مادة صفراء يفرزها الكبد وتُختزن فى المرارة.

لم تعد الآن تناسبها، وتصير (ذرات) أخرى أكثر ملاءمة (لحاسة التذوق)، وذلك حين تخترق (هذه الذرات الأخرى المسام) وتسبب الإحساس بالمرارة[1]. فحتى العسل (ذاته) تختلط فيه كل من (الذرات الخشنة والذرات الناعمة)، وهذا ما سبق أن وضحناه لك كثيراً.

والآن، انتبه، لأننى سأوضح لك كيف تصل الرائحة وتؤثر فى الأنوف. أولاً: توجد بالضرورة موادٌ كثيرة تنطلق وتنساب منها موجة متنوعة من الروائح؛ ويجب أن نفترض أن (تلك الروائح) تتدفق وتنبعث، ثم تتناثر فى كل مكان؛ لكن بعضها، وبسبب أشكال (ذراتها) المختلفة، يناسب بعض الحيوانات أكثر مما يناسب بعض آخر. وهكذا ينجذب النحل لرائحة العسل (الموجودة) فى الهواء، حتى إن كانت بعيدة، كما تنجذب الطيور الجارحة (لرائحة) الجثث. وأيضا، فإن حاسة الشم القوية عند الكلاب – التى تسبق (خطواتها) – تقودها إلى حيثما يقود حافر الحيوانات المشقوق إلى وجهة سيرها.

---

(١) المقصود هنا أن الإنسان عندما ترتفع درجة حرارة جسمه بسبب الحمى، أو يشتد به المرض، فإن حاسة التذوق لديه تضطرب ويشعر بطعم للمرارة فى كل طعام يتناوله.

والأوزة البيضاء، الحامية لقلعة الرومان[1]، تدرك عن بعد رائحة
الإنسان. ومن ثم، فإن الرائحة المميزة عند بعض (الحيوانات)
ترشدها إلى الطعام، وتجبرها على التراجع عن السم
القاتل، وبهذه الوسيلة بقيت جماعاتٌ من الحيوانات على قيد الحياة.
ولهذا، فإن هذه الرائحة نفسها التى تثير الأنوف، يحدث أن
بعضها يمكن أن ينبعث إلى مدى أبعد من البعض الآخر؛
ومع ذلك، فلا أحد منها ينتقل بعيدًا مثل الضوضاء أو الصوت،
وأتوقف عن القول (إن الرائحة لا تُحمل أبعد) من الأشياء
التى تقع على بؤبؤ العيون فتسبب الرؤية،
فالرائحة، وهى تطوف حولنا، تمر بطيئة، وسرعان
ما تتلاشى تدريجياً، لأنها تتناثر فى نسمات الهواء العليل.
ولأن الروائح، فى المقام الأول، تنبعث بصعوبة من داخل
المادة، فإنها وهى تتدفق وترتد من داخل الأشياء إنما هى دليلٌ
على أن جميع الأشياء المهشمة والمسحوقة والمكسورة داخل النار

(١) حدث فى عام ٣٩٠ ق.م. أن قام سكان بلاد الغال بغزو روما واقتحموا تل الكابيتول عند الفجر وكان حراس القلعة يغطون فى النوم، لكن الأوز المقدس صاح عندما اقترب جنود الغال فاستيقظ الجنود الرومان ودافعوا عن قلعتهم بقيادة ماركوس مانليوس ودحروا العدو. ومنذ ذلك التاريخ كان الرومان يحيون هذه الذكرى بأن يحملوا أوزة من الذهب ويسيرون بها فى موكب إلى تل الكابيتول.

تبدو كأنها تطلق رائحة أقوى (من حالتها وهى سليمة)؛
ويجوز لنا أن ندرك أن الرائحة تتألف من ذرات
أكبر (من ذرات) الصوت، نظراً لأنها لا تنفذ داخل الجدران
الحجرية التى عادة ما يمر منها الصوت والضوضاء.
ومن أجل ذلك، سترى أنه ليس من السهل جدًا أن تبحث عن أى
موضع تكمن فيه (حاسة) الشم، إذ إن اندفاع (الرائحة)، بحركته
البطيئة عبر الهواء، يصبح فاتراً، ولا يجرى ساخناً
(فى حرارة) صوب حاسة (الشم) معلناً (عن) الأشياء.
ولهذا، كثيراً ما تخطئ الكلاب وهى تبحث عن آثار (الرائحة).
ومع ذلك، فهذا لا يوجد فقط فى الروائح والتذوق،
بل وأيضًا فى المظاهر الخارجية للأشياء، فألوانها لا تنسجم
مع كل الحواس عند جميع الناس، حتى إن بعض الأشياء
لا يكون أكثر من غيره إثارة للرؤية.
فالأسود المفترسة لا تستطيع أن تقف وترفع بصرها
فى مواجهة الديك الذى يعتاد النداء على الفجر (أورورا)[1] بصياحه
العالى ويطرد الليل بجناحيه المرفرفين، وهكذا، تفكر (الأسود)
فى الفرار دون إبطاء؛ (وسبب ذلك) بوضوح أن فى جسم

---

(١) كانت "ربة الفجر" تسمى عند الرومان " أورورا "Aurora".

الديوك ذرات معينة، حين تنطلق صوب عيون
الأسود، فإنها تخز بؤبؤ (عيونها) وتسبب (لها) ألماً حاداً،
فرغم شراسة (الأسود) فإنها تعجز عن الصمود أمام الديوك،
مع أن هذه (الذرات نفسها) لا تستطيع أن تؤذى عيوننا بأي حال،
إما لأنها لا تنفذ إلى (عيوننا)، وإما أن هناك – فى حالة
اختراقها (لعيوننا) – منفذاً سالكاً يتيح
(خروج هذه الذرات من عيوننا)، حتى إنها تعجز عن إيذاء
حاسة البصر بالبقاء فيها بأى وجه من الوجوه.

والآن، انتبه واعلم ما الأشياء التى تؤثر فى العقل،
وافهم – فى كلمات قليلة – من أين تأتى تلك الأشياء التى تدخل العقل.
وهذا ما أقوله؛ أولاً، إذ إن أطيافاً عديدة من الأشياء تطوف
(حولنا) بطرق متعددة وفى كل الاتجاهات، (وهى الأطياف)
التى، ما أن تلتقى (بعضها)، حتى تتحد فيما بينها بسهولة فى الهواء،
مثل بيت العنكبوت ورقاقة الذهب.
و(هذه الأطياف) أشد رقة من تلك (الأطياف) التى تؤثر
فى العيون وتنبه الرؤية، ذلك لأن (هذه الأطياف) تنفذ
إلى (مسام) الجسم الصغيرة، وتستثير من الداخل طبيعة
العقل المرهفة، وتوقظ الإحساس؛

ومن ثم، فإننا نرى (فى أذهاننا أطياف) القناطير[١] وهياكل
سكيلا[٢] وما أشبه ذلك، ووجوه كلابٍ شبيهة بكيربيروس[٣]، وأطيافَ
مَنْ يضم الثرى عظامهم بعد أن فارقوا الحياة،
(ذلك) لأن أطيافاً من كل نوع تتنقل هنا وهناك،
فمنها ما يتكون فى الهواء تلقائياً،
ومنها ما يرتد دائمًا من أشياء شتى،
ومنها ما يكتمل بعد أن يتشكل من صورٍ من هذين (النوعين السابقين).
(فصورة) القنطور، بالتأكيد، لم تتشكل من (قنطور) حى،
إذْ لم يكن هناك (أصلاً) مثل هذا المخلوق الحى؛
ولكن – فى الحقيقة – عندما اتحدت صورة الجواد والفارس
عن طريق الصدفة، فقد التحمت بيسر وعلى نحو سريع، كما ذكرنا من قبل،
(وذلك) بسبب طبيعة (الصور) الرقيقة ونسيجها الشفاف.

---

(١) القناطير "Centauri" (والمفرد قنطور) مخلوقات خرافية نصفها الأعلى على هيئة بشر ونصفها السفلى على هيئة جواد. وعن ظهور القنطور تروى الأساطير الإغريقية إن القبائل الثيسالية القديمة كانت تشتهر بتربية الجياد، وكان مقاتلو هذه القبائل يهاجمون هذه القبائل المجاورة وهم يمتطون صهوات جيادهم، ولما كان هذا المشهد غريباً فى ذلك الوقت، فكان الفارس وجواده يبدوان عن بعد وكأنهما مخلوق واحد.

(٢) سكيلا "Scylla" صخور وعرة تقع بين الشاطئ الإيطالى وشاطئ جزيرة صقلية كانت تدمر السفن التى تقترب منها.

(٣) كيربيروس "Cerberus" كلب ذو ثلاثة رءوس، وتشير الأساطير الإغريقية إلى أنه كان يحرس أبواب الجحيم فى العالم الآخر.

وتنشأ (صور) أخرى من هذا القبيل بالطريقة نفسها،
ونظراً لأن تلك (الصور) تنتقل بسرعة لخفتها المتناهية، ٧٤٥
كما وضحت آنفاً، فإن أي صورة دقيقة (من تلك الصور) تثير
عقلنا بسهولة بانطباع مستقل، لأن العقل ــ فى حد ذاته ــ
دقيق وسريع الإثارة على نحو مدهش.

كما ذكرت، فقد يكون فى مقدورك، إذن، أن تدرك أن هذه الأشياء
تحدث.. فبقدر هذا (الانطباع الموجود فى الذهن)؛ فإن تلك الأشياء تعتبر مماثلة ٧٥٠
لذلك (الانطباع الموجود فى الحواس المادية) ويتبع ذلك بالضرورة
أن ما نراه بالعقل، وما نراه بالعيون إنما يتأثران بطريقة مماثلة.
وهكذا، قد وضحت الآن أننى ربما أميز الأسد عن طريق صورة الأسود ٧٥٢
التى تستثير صورة العيون، (ومن ثم) يكون مباحاً للعقل أن يستثار
(بصورة الأسود) على نحوٍ مماثل، وعبر أطيافه فإن (العقل) ــ ٧٥٥
وعلى نحوٍ متساوٍ لا يقل عن العين ــ يرى الأسد والأشياء الأخرى،
إن لم يكن يميز (على نحو أشد) الأطياف الأكثر شفافية.

وعندما يغشى النوم أطرافنا، فإن إحساس العقل يظل يقظاً، لا لسبب آخر
عدا أن هذه الأطياف التى تستثير عقولنا فى يقظتنا، هى ذاتها التى تستثير

عقولنا (أثناء النوم)، إلى الدرجة التى يبدو فيها أننا حقيقةً نرى ذلك
(الإنسان) الذى يسيطر عليه الموت والتراب بعد أن فارق الحياة؛
وسبب ذلك أن الطبيعة تقتضى أن يحدث هذا، لأن حواس الجسم
كلها، وبعد أن يقيدها (النوم)، تهدأ فى ثنايا الأطراف،
ولا تستطيع عن طريق الأشياء الحقيقية أن تثبت بطلان الشئ الزائف.
وفضلاً عن ذلك، تظل الذاكرة خاملة ومخدرة أثناء النوم،
فلا تنكر أن مَنْ يراه العقل حياً
قد مات منذ أمد بعيد.

علاوة على ذلك، فليس عجيباً أن تتحرك الأطياف،
وتهز أذرعها وبقية أطرافها على نحو متناغم،
إذ يحدث أن الصورة الدقيقة تبدو وهى تفعل (كل) هذا أثناء النوم،
ففى حقيقة الأمر، أن (الصورة الدقيقة) الأولى عندما تتلاشى،
تنشأ عنها صورة دقيقة أخرى فى موضع آخر (مختلف)،
فتبدو (الصورة الدقيقة) الأولى، آنذاك، وقد غيرت وضعها.
وهذا، بطبيعة الحال، ما يجب أن ندرك أنه يحدث بعملية سريعة؛
فنشاط (تلك الأطياف) كبير جداً، وكذلك كبيرٌ جدًا عدد الأشياء
(التى تنشأ عن تلك الأطياف)، وأيضًا غزارة الذرات هائلة
لدرجة أنها قد تكفى ما يقتضى أن تدركه (الحواس) فى أى وقت كان.

أسئلة كثيرة تُثار حول هذه الأمور، ونقاط (أخرى) كثيرة لا بد من توضيحها، إذا ما أردنا أن نشرح (هذه) الأمور بوضوح.

أولاً: هناك تساؤل حول السبب فى أن العقل يفكر
فوراً فى الشئ نفسه الذى تصبو إليه النزوة،
فهل تكون (تلك) الأطياف دائمًا رهن إشارتنا، وبمجرد أن نتمنى
طيفاً فإن هذا الطيف يحضر إلينا؟ فإذا تَمَنَّيْنا
البحر أو البر، أو السماء أو حشود
الناس، أو المواكب، أو الولائم، أو المعارك، فهل تخلق
الطبيعة كل (هذه) الأشياء فى كلمة واحدة وتعدها (لنا)؟ أيحدث ذلك؟
على الرغم من أن العقل يتخيل أشياء كثيرة مختلفة تمامًا عند الآخرين
فى المنطقة نفسها و(فى) المكان نفسه.

ماذا عسانا أن نقول أكثر من هذا حين نرى
فى منامنا أطيافاً تتقدم متكاثرة (أمامنا)،
وتحرك أطرافها الرقيقة، وتؤرجح أذرعتها اللدنة فى سرعة
وعلى نحو متعاقب، وتكرر الإيماءة (تلو الإيماءة بالرأس)
بينما تتوافق القدم[١] (معِ اليد) أمام عيوننا؟ حقاً، إن الأطياف

---

(١) المقصود أن الأطياف تسير بالخطوة المعتادة التى يسير بها الإنسان أثناء اليقظة، فالقدم اليمنى تتحرك فى اتجاه الذراع اليسرى، والقدم اليسرى فى اتجاه الذراع اليمنى.

ملهمة بفن (الإيقاع والرقص)، وبارعة (فى الإيماءات)،
وتطوف (حولنا) حتى إن بمقدورها أن تلهو أثناء الليل.
هل، بالأحرى، ستكون هى الحقيقة؟ لأنه فى اللحظة
الواحدة من الزمن حين ندركها وتُنطق (فيها) كلمة واحدة،
تتوارى (فى تلك اللحظة) وحدات زمنية عديدة يدركها العقل،
(وبالمثل)، ولهذا السبب، يحدث أن تكون (هناك) أطيافٌ
فى متناول (أيدينا) بعد أن يتم إعدادُها فى كل مكان.
ولأن الأطياف شفافة، فإن العقل يعجز عن إدراكها[1]
بوضوح، إن لم يجهد نفسه (فى اكتشاف أبعادها)؛ ومن ثم
يتلاشى كل شئ خلف (هذه الأطياف)، إن لم يكن (العقل) نفسه
مستعداً (لتمييزه).. وفضلاً عن ذلك، فإن (العقل) نفسه يتهيأ
ويتوقع أن ما يترتب (على ما حدث) سوف يحدث، حتى إنه
يلاحظ كل شئ مستقلاً بذاته، ومن ثم يحدث (التأثير).
ألا ترى، أيضاً، العيون وهى تجهد[2] نفسها وتستعد،
حين تبدأ فى النظر إلى الأشياء الدقيقة، وأننا، بدون ذلك
(الإجهاد)، لا نستطيع أن نرى (تلك الأشياء) بوضوح؟

---

(١) الأبيات (٧٩٩-٨٠١) غير موجودة فى النص وتختلف حولها القراءات.

(٢) المقصود بإجهاد العين، أنها تبذل جهداً لا إرادياً حين تضيق وتركز فيما ترى وتحدق فيه وتتفرسه.

وأيضاً، حتى فى الأشياء الواضحة التى يمكنك أن تعرفها،
فإن لم توجه إليها عقلك (فى ملاحظتها)، فسيصير الأمر تماماً
كما لو كانت (هذه الأشياء الواضحة) تنتقل طوال الوقت بعيداً عنك.
لِمَ الدهشة، إذن، لو فقد العقل الأشياء الأخرى،
فيما عدا تلك الأشياء التى يركز اهتمامه إليها؟
وفوق ذلك، فإننا نُكَوِّن آراءً عن أشياء جَد كبيرة من إشارات
صغيرة، وهكذا، نُلْقِى أنفسنا بأنفسنا فى غياهب التضليل والخداع.
كذلك، يحدث أحياناً ألا يكون الطيف (فى منامنا) من نوعه
نفسه، فمن كانت من قَبْلُ امرأة فإنها تبدو وقد
تحولت إلى رجلٍ يحضر بين أيدينا،
أو يأتى وجهٌ وجيلٌ (من البشر) الواحدُ يلى الآخر.
ويحرص النومُ والنسيانُ على ألا نتعجب (من هذا التحول).
وفى هذه الأمور (تذكَّر) أنه (من الضرورى) أن تتجنب بشدة
ذلك الخطأ، وأن تتحاشاه بحذر على أنه عيب،
كى لا تفترض أن أنوار العيون الساطعة قد خُلقت
لنكون قادرين على الرؤية، وأن قوائم الأرجل والأفخاذ
المقامة على أقدامنا قد التحمت لهذا الغرض لنكون قادرين على

التقدم بخطوات واسعة - وفضلاً عن ذلك - أن
السواعد المثبتة أعلى الأذرع المتينة
والأيدى الممتدة على كل جانب قد وُهبت (لنا)
لنكون قادرين على أن نفعل ما هو ضرورى من أجل حياتنا..
و(افتراضات) أخرى من هذا القبيل، أياً كانت تفسيراتها،
فكلها (افتراضات) خاطئة منافية للمنطق،
فلم يُخلق شئ فى الجسم كى نكون قادرين على استخدامه،
ولكن ما خُلق هو الذى يُوَلِّدُ ذلك الاستخدام.
(فوظيفة) الرؤية لم تسبق خلق أنوار العيون،
ولم توجد (وظيفة) النطق بالكلمات قبل أن يُخلق اللسان،
ولكن، بالأحرى، كان خلق اللسان أسبق من (وجود) الكلام بزمن بعيد،
و(كذلك) خُلقت الآذان منذ فترة طويلة قبل أن يُسمع الصوتُ.
وقصارى القول فإن كل الأعضاء، كما أعتقد، قد خُلقت قبل
أن يوجد استخدامها؛ ومن ثم، فإن الأعضاء
لا يمكن أن تكون قد خُلقت من أجل الاستخدام.
بل العكس، فخوض صراعات الحروبِ بالأيدى،
وتمزيق الأطراف، وتلويث أعضاء (الجسم) بالدم،

إنما كانت (أموراً مارسها الإنسان) بزمن بعيد قبل أن تنطلق الرماحُ البراقة،
ولقد أجبرتنا الطبيعة على تفادى الجُرح (الذى يسببه لنا العدو)،
قبل أن تقدم اليد اليسرى على اعتراض الدرع بمهارة.
وبلا شك، فإن خلود الجسد المُتعب للراحة
إنما هو (أمرٌ) أقدم بكثير من وسادات السرير الناعمة،
وإطفاء الظمأ كان أسبق من (اختراع) الأكواب..
إذن، يمكن الاعتقاد فى أن (أشياء أخرى مثل) هذه الأمور – التى تم اكتشافها
بالتجربة والمعيشة – قد عُرفت من أجل أن تُستخدم؛
ومع ذلك، فتلك الأشياء التى نشأت كلها على نحوٍ مختلف قد
قدمت (لنا) المعرفة باستخدامها فيما بعد. ومن نوع (هذه الأشياء)،
وبصورة خاصة، نعرف الحواس وأعضاء (الجسم)..
ولذلك، (أقول)، مرة بعد أخْرى، إنه من المستحيل أن تَقْدِرَ على
الاعتقاد بأن (تلك الحواس) قد خُلقت لتؤدى وظيفة.

ما لا يدعو إلى الدهشة هو أن طبيعةِ كل جسم
حىًّ تتطلب نوعاً خاصاً من الطعام. فى الحقيقة لقد شرحت
كيف أن فيضاً من الذرات يتدفق ويرتد من الأشياء بطرق
مختلفة، ولكن أكثرها يجب أن يخرج من الحيوانات التى يتم

تدريبها على الحركة، وتخرج (ذرات أخرى) كثيرة من داخل
الجسم بعد أن يتم ضغطها عن طريق التَعَرُق[1]،
كما تنطلق (ذرات أخرى) كثيرة، (على هيئة زفرات)
عبر الفم، حين تلهث (تلك الكائنات الحية) من الإجهاد، ومن ثم،
وبهذه الوسائل، يهزل الجسم وتَضْعُف طبيعته كلها، و(هى)
حالة يتبعها الألم. ولهذا السبب يتم تناول الطعام ليُقَوِى الأطراف.
ويجدد العافية، وبعد أن يتوزع الطعام ويتخلل الأعضاء والأوردة،
فإنه يكبح الرغبة المنفتحة على الطعام. والسائل، بالمثل،
ينزل على الدوام إلى جميع مناطق (الجسم) التى تحتاج إلى سائل؛
فالسائل، وهو يقترب، يشتت العديد من ذرات الحرارة الساكنة
التى تسبب حرقاناً فى معدتنا، ويطفئه كما لو كان يطفئ ناراً،
وهكذا لا تستطيع الحرارة الكامنة أن
تُكوى أطرافنا. (أقول) لك؛ هكذا
يزول الظمأ الحارق من جسمنا،
وهكذا يتم إشباع الرغبة الجامحة (فى الطعام).
سوف أقول الآن كيف تتم قدرتنا على دفع خطواتنا للأمام

---

(١) التَعَرُق "exhalare" هو ترشح العرق من مسام الجلد.

حين نرغب (فى السير)، وكيف وُهبنا (القدر) على تحريك
أطرافنا فى خطوات واسعة، وما سبب اعتيادنا على دفع
هذا الثقل الكبير من جسمنا.. إفهم (يا صديقى) ما أقول.
أقول إن أطياف الحركة تقترب أولاً من عقولنا،
ثم تصطدم بعقولنا، كما أسلفنا القول؛ ثم تأتى بعد
ذلك الرغبة، فلا أحد يبدأ فى عمل شىء
قبل أن يتبين العقل ماذا يريد (أن يفعل).. وطبقًا للشىء
الذى يتبينه (العقل)، تكون الصورة الدقيقة المطابقة لذلك الشئ؛
ولهذا، عندما يحفز العقل نفسه إلى الدرجة التى يرغب فيها
فى الحركة، ومن ثم التقدم، فإنه على الفور يعمل وفق (جوهر)
الروح السجينة فى الجسم كله وعبر أعضائه
وأطرافه، وهذا أمرٌ من السهل حدوثه، نظراً لأن
الروح تعمل تمامًا وفقاً (لما يتطلبه) الجسد،
وهكذا، فإن (كتلة الجسم) كلها تندفع تدريجياً وتتحرك (نحو الأمام).
يُضاف إلى ذلك أن الجسم، فى ذلك الوقت، يوسع مَسَامَّه،
فيدخل الهواء الذى يتحرك ــ كما ينبغى دائمًا وعلى نحو أكيد ــ
خلال المسام المفتوحة، وينفذ بغزارة إلى الممرات (الصغيرة
فى الجلد)، وهكذا يتناثر الهواء فى ثنايا كل الأجزاء الدقيقة من الجسم..

وهكذا، ولهذا السبب، يصبح الجسم مُعداً للحركة إلى الأمام
بفعل قوتين مختلفتين، كسفينة (تبحر) بأشرعة ورياح؛
ومع ذلك، فليس فى هذه الأمور ما يدعو إلى الدهشة من
أن الذرات المتناهية فى الصغر بمقدورها أن تسيطر على
جسم بالغ الكبر، وتوجه ثقل (جسمنا) كله.
حقاً، ودون شك، فالريح، رغم خفتها ورَقةِ مادتها،
تدفع أمامها سفينة كبيرة ذات قوة ضخمة،
ويدٌ واحدة توجِّه مركباً تسير أثناء سيرها مهما كانت سرعتها،
ودفةٌ واحدة تديرها فى أى اتجاه.
والآلةُ، وبمعونة عجلاتها وبكَرَاتها، تحرك (أجساما) كثيرة
ذات وزن ثقيل وترفعها عالياً بمجهود قليل.
والآن سوف أشرح كيف ينشر النوم الراحة عبر
الأطراف، ويزيل هموم العقل من الصدر؛
وهذا ما سوف أقوله فى أشعارى، الموجزة لكنها ساحرة[١]
فأغنية البجع القصيرة أفضل من صياح
الكركى الذى ينتشر بين سحب الجنوب الأثيرية.

---

(١) الأبيات (٩٠٩-٩١١) مكررة وسبق ذكرها حرفياً فى الأبيات (١٨٠-١٨٢) من هذا الكتاب، ما يوضح أن لوكريتيوس كان ينظم هذه القصيدة على فترات متباعدة يصفو فيها عقله من نوبات الجنون التى كان يعانى منها بين الحين والآخر، ومن ثم كان عُرضة للنسيان والتكرار غير المقصود.

أعرنى، (يا ميميوس)، آذاناً صاغية وعقلاً فطناً،
كى لا تنكر أن ما أقوله محتملُ الوقوع وترحل (عنى)
بصدر يخفق بالتعاليم الحقيقية، رغم أنك قد
تكون مخطئاً ولا تستطيع إدراكها.

أولاً، يأتى النوم حين تنصرف قوة الروح (وتتشتت) عبر
أطراف (الجسم)؛ فبعد أن تُقذف (الروح)، فإنها ترحل جزئياً خارج
(الجسم)، ولكن لأن الروح تُقبض على نحو شديد جداً، فإنها تتراجع
جزئياً إلى داخل (الجسم)؛ وحينئذ فقط يُطلق سراح الأطراف
وتنساب (فى استرخاء)، وما لا شك فيه أن هذا الإحساس
بـ (الوعى) موجود فينا بفعل (وجود) الروح، (ذلك الإحساس) الذى حين
يمنعه النوم من الوجود، حينئذ علينا أن نفترض أن الروح قد اضطربت
وطُردت خارج (الجسم) .. (ولكن) ليس كل (الروح)؛ (فلو خرجت
الروح كلها)، لرقد الجسم مُشبَّعاً ببرودة الموت الأبدية[1].
وما دام ـ فى تلك الحالة ـ لن يبقى جزءٌ من الروح مستتراً فى

---

(١) يتحدث لوكريتيوس عن الروح "anima" كما لو كانت جسماً مادياً يتألف من ذرات ويُمكن تجزئته، ويؤكد أن جزءاً أو بعضاً من الروح يبقى فى جسم الإنسان أثناء النوم، فى حين يغادره الجزء الآخر. وفى المعاجم العربية تأتى "النفس" كمرادف للروح، وحين ينسام الإنسان فإن نفسه تنطلق بكاملها فى الملكوت الإلهى اللانهائى. وهذا ما تشير إليه سورة "الزمر"، الآية ٤٢: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

الأطراف، كالنار التى كثيراً ما تختبئ تحت الرماد، فمن أين
قد يستطيع الإحساس أن يشتعل فجأة من جديد عبر الأطراف،
(شأنه فى ذلك شأن) اللهب الذى يرتفع من النار الخامدة؟
ولكن بأى الوسائل يحدث هذا التحول (من اليقظة إلى النوم)..
ومن أين يكون فى مقدور الروح أن تضطرب والجسم أن يضعف؟
سأشرح (ذلك): ألا تهتم، (يا صديقى)،
كى لا أسكب كلماتى فى مهب الرياح[1].
أولاً: يحدث أن الجسم حين تمسه نسمات
الهواء المجاورة، فإن اندفاع ذلك (الهواء) المتكرر بالضرورة
يهاجم (الجسم) ويرهقه من ناحيته الخارجية، ولهذا السبب،
فإن الأجسام (الحية) كلها تقريبًا تغطى بالجلد
أو حتى بالقشور أو الدِمَان[2] أو اللحاء.
وفوق ذلك، فحين يُسحب الهواء نفسه (إلى الداخل) ويتم تنفسه،
فإنه يضرب الجزء الداخلى (من الكائنات الحية) حين تتنفس،
ولهذا السبب، ونظراً لأن الجسم يُطرق بطريقة مختلفة من كلا

(١) تقابل هذه العبارة قولنا "تذهب الكلماتُ أدراج الرياح".

(٢) الدِمَان "callum" هو غِلَظٌ فى الجلد بسبب الحك، وهو ما يعرف فى العامية بكلمة "الكاللو" الذى يوجد فى القدم ويؤلمها.

الجانبين (الخارجى والداخلى)، وأيضا، لأن الضربات تخترق
المسام الدقيقة من جسمنا (حين تتوجه) إلى جزيئاته الأولية وعناصره
الأساسية، فإن انهياراً، إن جاز القول، يحدث تدريجياً فى كل
موضع من أعضائنا، بسبب اضطراب مواضع العناصر فى الجسم والعقل،
ويحدث أن ينسحب جزءٌ (ثانٍ) ويتوارى إلى الداخل،
كما يوجد جزءٌ (ثالث) مبعثرٌ فى كل مكان من الأطراف
لا يستطيع البقاء متحداً (مع الجزءين السابقين)؛ فالطبيعة
تعوق سبل الاتصال والممرات بين (هذه الأجزاء
الثلاثة من العقل)؛ ومن ثم، يَضْعُف العقل برمته من الداخل
بعد أن تتغير حركات (الذرات). ونظراً لعدم وجود
شئ بإمكانه، إن جاز القول، أن يدعم الأطراف،
فيحدث أن يَضْعُف الجسمُ المتهالك وكلُ أعضائه،
وتسقط الذراعان وجفنا العينين، وكثيراً ما يستقر
المأبضان[1] فى تراخٍ جانباً، ويفقدان قوتهما.

والنوم، أيضاً، يأتى بعد (تناول) الطعام، فالطعام، حين يتوزع
فى كل مكان داخل العروق، يُحدث هذه التأثيرات نفسها

---

(١) المأبض "polpes" هو الجزء الخلفى من الركبة أو ما نطلق عليه "باطن الركبة".

التى يحدثها الهواء. فأكثرُ النومِ ثقلاً (هو) ذلك النوم الذى تستغرق فيه
وأنت متخم (بالطعام) أو منهك (من التعب) بسبب اضطراب أغلب
ذرات (الجسم) آنذاك واهتزازها بفعل مجهود (الهضم أو التعب) الكبير.
بالطريقة نفسها تحدث هِزَّةٌ أعمق (فى جوهر)
الروح بشكل جزئى، بقدر ما يحدث لها من قذفٍ إلى الخارج
(وتصبح الروح) أكثر انقساماً فى حد ذاتها، وأكثر اضطراباً فى الداخل.
وبوجه عام، عندما يتمعن كل (منا) فى أي دراسة،
فإنه يرتبط بها فى تفانٍ، وبعدما ننشغل كثيراً فى الماضى بأعمال،
أياً كانت، ويُجهد العقلُ كثيراً فى التفكر فيها، فإننا فى أغلب
الأحوال، نبدو كأننا قد لاقينا هذه الأشياء نفسها فى منامنا،
فيبدو المحامون (فى منامهم) وهم يرفعون الدعاوى ويفحصون
القوانين، والقادة العسكريون وهم يحاربون ويواجهون المعارك،
والبحارة وهم يخوضون حرباً يائسة ضد الرياح، ونحن(١)
بالفعل (نبدو فى منامنا) وقد انشغلنا بهذا (الكتاب)،
والبحث دوماً فى طبيعة الأشياء التى حين تُكتشف
أقوم بشرحها فى كتابات بلغتنا القومية.

---

(١) يتحدث هنا لوكريتيوس عن نفسه.

وهكذا، وفى أغلب الأحوال، تبدو مهن وفنون أخرى
وقد استولت فى المنام على عقول البشر بالأوهام.

وأياً كان الأشخاص الذين يولون اهتمامهم المتواصل
بالعروض المسرحية لعدة أيام على التوالى،
فحين يتوقفون عن ملاحظة تلك الأشياء بحواسهم،
فإننا نرى أنه لا تزال هناك ممرات باقية ومفتوحة فى عقولهم
يمكن أنِ تأتى من خلالها أطياف (تلك العروض).
ولهذا تُعرض تلك (الأطياف) نفسها أمام عيونهم أياماً طويلة،
حتى يبدو لهم – وهم أيقاظٌ – أنهم يشاهدون (راقصين)
يتراقصون أمامهم ويحركون أطرافهم المرنة، ويسمعون بآذانهم
الموسيقى العذبة وأوتار القيثارة المعبّرة،
وفوق ذلك، يرون الحشد نفسه (من الجمهور) وديكورات
المشهد المسرحى المتنوعة وهى تتلألأ (أمامهم).
وإلى حد كبير (تُعد) الرغبة والمتعة على قدر
كبير من الأهمية وكذلك أيضًا الأمور التى
لا يمارسها البشر فقط، بل وأيضًا جميع المخلوقات.
حقًا سترى الجياد القوية وهى تمد أطرافها (حين تنام)،
ومع ذلك فهى تفرز العَرَقَ وتلهث دائمًا أثناء نومها،
كما لو كانت تسرع بأقصى قوتها لتفوز بالجائزة، أو كأن

حواجز (نقطة البداية) قد فُتحت أمامها (كإشارة لبدء السباق). ٩٩٠
وكلاب الصيادين (أثناء نومها) كثيراً ما تفرد أرجلها
فى راحة هادئة، إلا أنها فجأة تطلق نباحاً،
وتشم بأنوفها، كما لو كانت تتلمس آثاراً
لحيوانات مفترسة تم اكتشافها، وبمجرد أن تنهض (من نومها)
فإنها كثيراً ما تتعقب أطيافاً جوفاء لأيائل، ٩٩٥
وكأنها كانت ترى (أطيافاً) تستسلم للهرب، وبعد ذلك
تنتبه (هذه الكلاب) بعد أن تتبدد أوهامُها.
وسلالة كلاب البيت الأليفة اللطيفة (بعد أن تستيقظ)
تتلهف على أن تنتفض وترفع جسمها من فوق الأرض، ٩٩٩
....[1] ١٠٠٠
.... ١٠٠١
.... ١٠٠٢
.... ١٠٠٣
تمامًا كما لو كانت ترى وجوهاً وهيئات غريبة عنها.
وأكثر السلالات شراسة هى بالضرورة تلك ١٠٠٥
(السلالات) ذاتها التى تهتاج أكثر أثناء نومها.

---

(١) الأبيات (١٠٠٠-١٠٠٣) مفقودة.

ومن ناحية أخرى، تلوذ الطيور المختلفة بالفرار،
وفجأة تقلق بأجنحتها بساتين الآلهة أثناء الليل،
لو ظهرت – لها أثناء نومها الهادئ – صقور
تنطلق (وراءها) باحثة عن المعارك والقتال.
وفضلاً عن ذلك، فإن عقول البشر، أياً كانت الأعمال العظيمة
التى تنجزها فى همة عظيمة، كثيراً ما تؤدي وتواصل
الأشياء ذاتها بالطريقة نفسها أثناء النوم، فالملوك (فى منامهم)
يجتاحون (المدن)، ويقعون فىَ الأَسْر، ويشتبكون فى المعارك،
ويطلقون الصرخات كما لو كانوا يُطعنون فى تلك اللحظة.
كما يقاوم ملوك كثيرون فى يأس، ويطلقون الأنَّات فى ألم،
ويملأون كل المكان (حولهم) بصرخات مدوية كأنهم يُمزقون بعَضَّةٍ
من نمر أو من أسد مفترس. كما يتحدث كثير (من الناس) عن أمور
مهمة أثناء نومهم، ويصبحون دليلاً (دامغاً على ما ارتكبوه من) إثم.
ويلقى الكثيرون حتفهم أثناء نومهم، ويعتقد الكثيرون
أنهم قد أُلقى بأجسامهم من فوق الجبال الشاهقة إلى
الأرض، ولكونهم مسلوبى العقول فإنهم
يعودون إلى وعيهم بصعوبة بعد (أن يستيقظوا من) النوم
بسبب أجسادهم المشوَّهة. وبالمثل، (يحلم) العطشان (أنه) يجلس

بجوار نهر أو نبع صافٍ، ويبتلع بفمه كل مياه النهر تقريبًا.
والصبية، حين يغلبهم النوم تماماً، (يحلمون أنهم يقفون)
بجوار بحيرة أو أوان (خمر) مكسورة، ويتخيلون أنهم
يرفعون ثيابهم، ويصبون السائل المرشح[1] من كل أجسامهم، وحينئذ
تتشبع أغطية (السرير) البابلية ذات الروعة الكبيرة (بذلك السائل).
وكذا، فأولئك (المراهقون) الذين يتغلغل فيهم المَنِيُ للمرة الأولى فى
عنفوان العمر، حين يخلقه سن البلوغ نفسُه فى أعضائهم،
يلتقون (فى أحلامهم) بأطياف (تأتى) من خارج الجسم، وكذا
برسائل (تشى) بوجه (فتاة) مشرق وجمال فتّان يثير
المواضع الممتلئة بالمنى الغزير ويهيجها ليصب (أولئك المراهقون)
منيهم (وكأنه) من نهر عظيم، ويلطخون (به) ثيابهم،
وكأن كل الأمور[2] قد تم إنجازها.
إن ذلك المنى الذى تحدثتُ عنه من قبل، يتحرك داخلنا،
بمجرد أن يُقَوِى سن البلوغ أطرافنا.
ولأن الشئ يحرك ويثير أشياءَ أخرى، فإن قوة الإنسان

(١) يشير لوكريتيوس إلى بعض أسباب التبوّل اللاإرادى عند الصغار، و" السائل المرشح umor saccatus "إشارة ضمنية إلى" البول urina ".

(٢) المقصود بإنجاز "كل الأمور – omnibus rebus" هو كناية عن أداء العملية الجنسية.

وحدها (هى التى) تثير المنى البشرى من داخل الرجل.
وبمجرد أن يخرج (هذا المنى) من مكمنه، فإنه يُقذف وينسحب
من كل الجسم عبر الأعضاء والأطراف ليتجمع
فى مناطق محددة من الأعصاب، ويوقظ على الفور
الأعضاء التناسلية من الجسم ذاتها، وبعد أن تتم
إثارة (هذه) المناطق (التناسلية)، فإنها تمتلئ بالمنى،
وتبرز الرغبة فى قذفه إلى حيث تميل الشهوة العارمة،
فيسعى الجسد نحو ذلك الشخص الذى أصابه بداء العشق.
بوجه عام يتجه كل شئ صوب الموضع الذى تأتى منه الإصابة،
....(١)
فالدم ينبثق من ذلك الموضع الذى نُصاب منه بجرح
فإذا كان (الجرح) قريباً، فإن الدم الضارب إلى الحمرة
يغطى العدو.. وهكذا، ولهذا السبب يقاسى مَنْ يُجرح بسهام
فينوس، وسواء (كان أمامه) غلامٌ ذو أعضاء أنثوية، أو امرأة

---

(١) البيت ١٠٤٩ مفقود.

تهتز جمالاً من كل جسمها، فإن (المصاب بجرح فينوس) يندفع
(نحو مصدر الإصابة)، ومن ثم يتم (اللقاء الجنسى)، لأن (العاشق)
يُثار بذلك اللقاء، ويميل إلى قذف (ذلك) السائل المنطلق من جسمه
صوب جسم (مَنْ يعشق)؛ حقًا! إن الشهوة الخرساء تستشعر (مصدر) اللذة.
هذه هى (ربتنا) فينوس؛ ومن ثم يأتى اسم الحب،
ومنها وللمرة الأولى انسابت داخل القلب هذه القطرةُ
من حلاوة فينوس، ثم يليها الهَمُّ البارد.
فلو غاب (عنك) حبيبك، فأطيافه، مع ذلك، حاضرة، ويتردد
اسمه الحلو فى أذنيك، لكن ينبغى أن تتفادى أطيافه،
وتحول بين نفسك وبين ما يغذِّى العشق، وتوجه
ذهنك وجهةً أخرى، وتقذف ما تجمَّع من مَنْيِّك
داخل أجساد أخرى، أياً كانت،
ولا تكبته أبداً ولا توجهه لعشق
واحد، فتستبقى منه الهَمَّ والألمَ الأكيد.
إن الحياة تدب فى الجرح إن قمت بتغذيته فيصير راسخاً،
وتتوهج (منه) نوبة الجنون يوماً بعد يوم. تصير البليَّةُ أثقل

إن لم تدمر جراح (الحب) الأولى بطعنات[١] جديدة،
وتداويها وهى (لا تزال) حية، وتهيم مع فينوس المتقلبة،
وتحول عواطف قلبك إلى وجهة أخرى.
ولا يفتقد متعة فينوس مَنْ يتفادى الحب، بل وبالأحرى مَنْ
يتمتع بمزاياها معاناة[٢]، فبالتأكيد، وفى هذه الناحية
يستمتع الأصحاء بلذة أكثر نقاءً من مرضى الحب.
حقاً، ففى الوقت نفسه الذى يستحوذ فيه (المحب على حبيبته)
تموج حرارةُ المحبين (الملتهبة) بضلالات غامضة، وبداية،
لا يستقر (الأمر) على ما يمتعون به عيونهم وأيديهم،
بل يضغطون بإحكام على (العضو) الذى يسعون إليه،
ويسببون ألماً للجسم، وكثيراً ما تعض أسنانهم على الشفاة،
ويعصرون الأفواه اللذيذة، (ذلك) لأن اللذة لا تخلو (من الألم)،
فتحت أيديهم مثيرات تحفزهم على إيلام ذلك الشئ نفسه
(الذى يدنون منه)، أياً كان، والذى منها تنمو بذور نوبات الجنون هذه.
لكن فينوس تكسر فى يسر حدة المعاناة أثناء الغرام،

---

(١) ينصح لوكريتيوس العشاق بنسيان جراح الحب القديم، وذلك بعدم تغذيتها بالتفكير فيها، ويرى أن مداواة الحب القديم لا تتم إلا عن طريق علاقات غرامية جديدة.

(٢) يتفق معنى هذا البيت ومفهوم أبيقور عن "اللذة "hedone" الحسية التى يتبعها ألمٌ فى حالة الإفراط فى إشباعها، ومن ثم فإن اللذة الحقيقية تتم فى "غياب الألم "aponia".

فلذتها الساحرة المعقدة تكبح آلام العشق..
وفى هذا يكمن الأملُ فى أن لهيب (الشهوة) يمكن أن يطفئه أيضاً
الجسمُ ذاته الذى ينبع منه مصدر الحرارة الملتهبة.
بل على العكس تماماً، فهذا ما تقاوم الطبيعةُ حدوثَه؛
فهذا (الجنس) هو الشئ الوحيد الذى كلما أخذنا منه أكثر،
أحرق صدرنا بشهوته الرهيبة.
فالطعام والشراب يُمْتَصَّان داخل أعضاء (الجسم)؛
ونظراً لقدرتهما على ملء مناطق معينة،
يتم إشباع الرغبة فى الماء وفى ثمار الأرض بسهولة.
وفى الحقيقة، لا يأتى شئ من هيئة الإنسان
وبشرته الجميلة سوى أطياف المتعة الرقيقة التى كثيراً
ما يقبض عليها الأمل المسكين فى الهواء.
وكما (هى الحال) حين يبحث الظمآن فى أحلامهِ عن (ماء) الشرب،
ولا يكون فى حوزته ماءٌ يمكن أن يطفئ نار (العطش) فى أعضائه،
فهو يبحث عنِ صور الماء، ويجاهد دون جدوى، ثم يعطش
(مرة أخرى) وهو يروى ظمأه وسط النهر المندفع.. وهكذا
الأمر فى (وسط) الحب؛ إذ تلهو فينوس بالعشاق عن طريق الأطياف،

فلا يستطيعون أن يشبعوا أجسامهم بمجرد النظر (إلى هذه الأطياف)،
كما لا يستطيعون أن يخدشوا شيئاً، أياً كان، من أعضائها
الرقيقة وهم يطوفون بأيديهم على غير هدى فوق الجسد كله.
وأخيراً، يستمتعون بزهرة شبابهم بعد أن تتعانق أطرافهم،
وبالفعل حين يستشعر الجسدُ النشوةَ، حينئذ
تلقى فينوس بالبذور فى حرث النساء،
ويضمون أجسادهم فى لهفة، وتلتحم الأفواه الندية، ويسحبون
الأنفاس (العميقة) وهم يضغطون على الشفاة بأسنانهم، ولكن
(كل هذا) على غير طائل، لأنهم بعد ذلك لا يقوون على خدش
شئ (من الشريك الآخر)، ولا النفاذ إليه، ولا استغراق (كل) الجسد
فى كل الجسد؛ فهم يظهرون أحياناً الرغبة فى فعل (هذا)
والمجاهدة (فى إدراكه) .. وهكذا يلتصق العشاق فى لهفة وهم فى أغلال
فينوس، بينما تذوب أطرافهم تحت سطوة اللذة المدمرة. وفى النهاية،
حين تستنفد شهوة الجماع طاقتها، تحدث وقفةٌ قصيرة
فى لهيب (الجنس) العنيف لبرهة؛ ومن ثم، تعود بعدها نوبة الجنون نفسها،
وترجع تلك العاطفة مرة أخرى، وحين يرغبون فى (الاستمتاع) بشئ
(من أعضاء الشريك)؛ فإنهم يسعون إلى لمسه بأنفسهم، و(حين)

يعجزون عن إيجاد الحيلة التى تقهر شر ذلك (العشق)،
فإنهم – فى غمرة الشك – يذوبون (لوعة) بجرح (العشق) الأعمى.
أضف إلى ذلك أنهم يستنفدون قواهم ويهلكونها بالمشقة،
وأضف أيضًا أن كلاً منهما يعيش رهن إشارة الآخر.
ففى غضون ذلك يهملون واجباتهم، وتصيب العلة سمعتهم
المتداعية وتتبدد ثروتهم وتتحول إلى أغطية فراش بالية.
أما بالنسبة لهذه (المحظية) فإن الخف السيكيونى اللدن
الجميل فى قدميها يضحك بوضوح، ويتلألأ الزبرجد الرائع المرصع
بالذهب ببريقه الأخضر، ويُصقل القميص[1] ذو اللون الأخضر المزرق
على نحو محكم، ليتشرب عرق[2] فينوس .. وهكذا (تتبدد) ثروة
الآباء التى تم جمعها على نحو طيب وتصير أكاليلَ وتربانات[3]، أو
تتحول أحياناً إلى ثياب نسائية ومنسوجات من إليس[4] وكيوس،
و يتم إعداد الولائمُ حيث السجاجيد الفاخرة والطعام (الشهى)،

---

(١) "القميص "vestis" سترة قصيرة تُشد بحزام حول الخصر.
(٢) المقصود "بعَرَق "sudor" فينوس هو أن العشاق يتصببون عرقاً أثناء اللقاء الجنسى.
(٣) "التُربان "anadema" قبعة نسائية ضيقة لا حَرْف لها.
(٤) "Alidensia" خطأ فى التهجئة والصواب هو "Elidensia" أى منسوجات من مدينة إليس "Elis" التى تقع غرب شبه جزيرة البيلوبونيس ببلاد الإغريق، وكانت تشتهر بالأقمشة والثياب الحريرية.
أما كيوس "Ceos" فهى جزيرة فى بحر إيجة كانت تشتهر بالنوع بنفسه من المنسوجات.

ووسائل اللهو والأقداح الوفيرة وأكاليل الزهر والفُستون[١] ذات الزيوت
العطرية.. (لكنها) أمور عديمة القيمة، لأن من نبع الفتنة
ينبع شئ من المرارة يكدر (صفو) الغرام ذاته،
سواء حين يحدث مصادفة أن يتعذب العقل الواعى (للعاشق) نفسه،
(ويدرك) أنه يقضى شبابه فى الكسل ويهلكه فى الفسوق،
أو لأن المحظية بعد أن تصاب (بإهانة منه تهجره) وتترك على
نحو غامض كلمةً تظل حيةً ثابتةً كالنار فى قلبه الولهان،
أو لأنه يظن أنها توجِّه عينيها إلى (عاشق) آخر وتحدق فيه،
ويرى فى وجهها أثر ضحكة (لهذا العاشق).
الحقيقة، توجد هذه المصائب إلى أبعد حد فى العشق
الدائم الواعد؛ (ولكن) العكس (صحيح) ومؤكد فى العشق الواهى،
فالمصائب التى بمقدورك أن تدركها
وأنت مغمض العينين تفوق الحصر؛
ومن الأفضل أن تأخذ حذرك (منها) مقدما، كما شرحت قبلاً،
وأن تحترس كى لا يتم إغواؤك بها مستقبلاً.
وكى لا تقع فى فخاخ الحب، فإن تفادى (ذلك) ليس

(١) "الفَستون "sertus" حبل من زهور أو أشرطة تعلق على الأكتاف على سبيل الزينة.

أشق من الوقوع فى هذه الشباك نفسها، والخروج منها، وتحطيم
قيود فينوس؛ ومع ذلك – وحتى وأنت متورط (فى العشق) –
فبمقدورك أن تُفلت من خطره ما لم تقف (أنت حائلاً) فى طريق نفسك،
وتفحص فى بادئ الأمر العيوب الموجودة (فى)
عقل وجسم تلك (المعشوقة) التى تفضلها وترغب فيها.
و(عكس هذا) ما يفعله الرجال عموماً بعد أن تعميهم الشهوة، فينسبون
(للمحظيات) تلك الصفات التى لا تكون فى الحقيقة أهلاً لهن؛
ومن ثم، فإننا نرى على نحو متباين (نساءً) مشوهاتٍ
وقبيحاتٍ (وكأنهن) فاتنات ينعمن بأقصى (درجات) التكريم.
حقاً، إن بعض (العشاق) يسخر من بعض آخر ويستعطف
فينوس كى يشعر بالرضا نظراً لإصابته بالحب الشائن، وكثيراً ما
لا يرى المساكين (منهم) عظيم شرورهن، فتكون السوداءُ سمراءَ
اللون، والقذرةُ (ذات الرائحة الكريهة) متمردةً حرون،
و(المرأةُ) ذات العينين الزرقاوين (كأنها الربة) أثينة الصغيرة،

وتصبح العصبيةُ المتخشّبةُ غزالةً، والقزمُ القصيرةُ إحدى
ربات الرشاقة[1] كلها فطنةٌ تامة، وتصير البدينةُ مملوءةً
بالفطنة والوقار. (أما المتلعثمةُ التى) لا تقوى على الكلام فتصبح
لثغاءَ؛ والخرساءُ تصبح خجولاً؛ وتصير الثرثارةُ البغيضةُ
ذات الطابع النارى شعلةً صغيرةً (متوهجة)؛
والهزيلةُ التى لا حياة فيها تصبح آنذاك الحبيبةَ الرشيقةَ؛
أما من تموت بفعل السعال فهى حقًا (بالنسبة له) مرهفةٌ رقيقةُ الصحة،
وتصبح المنتفخةُ ذات الثديين الممتلئين كيريس نفسها (وهى تُرضع)
ياخوس[2]، وفطساءُ الأنف هى سيلينا وأنثى الساتير،
أما غليظةُ الشفتين فهى (خير من يعطى) القُبْلَة.
إنه أمرٌ شاق لو حاولت ذكر أشياء أخرى من هذا القبيل.
لكن، رغم ذلك، هَبْ أن هناك معشوقة على قدر كبير من (جمال)
الوجه، وهَبْ أن قوة فينوس تتفجر فى كل أعضائها؛ فبلا شك توجد
أيضًا (فى هذه المعشوقة) أمورٌ أخرى (لا نعلمها) ما دمنا لم نعش معها

---

(١) يبدو أن لوكريتيوس قد اعتمد كثيراً على نص إبيقور فى هذه الأبيات. نظراً لوجود كلمات يونانية مكتوبة بحروف لاتينية مثل سمراء أو عسلية اللون "melichrus"، ومتمردة "acosmos"، وواحدة من ربات الرشاقة "chariton mia" وهكذا.

(٢) "ياخوس "Iacchus" مرادف لاتينى لباخوس "Bacchus" أو ديونيسوس إله الخمر عند الإغريق.

من قبل؛ فمن غير ريب أنها تفعل – كما نعرف – الأشياء نفسها
التى تفعلها المرأة القبيحة، إذ تُبَخِرُ (تلك) المسكينة نفسها بنفسها من روائحها
الكريهة، فى حين تنأى عنها خادماتها بأنفسهن ويضحكن(عليها) فى الخفاء.
لكن عاشقها الذى يُمنع من الدخول إليها ويذرف الدمع، وكثيراً ما يغطى
عتبات (بيتها) بالزهور وأكاليل الزهر، ويطلى مقابض الأبواب بزيت
السَّمْسَق، ويطبع المسكين قبلاته على أبوابها؛ (هذا العاشق)
إذا ما أزعجته هَبَّةٌ واحدة فقط (من رائحتها الكريهة) وهو يُقبل
عليها بعد أن يُسمح له بالدخول، فإنه يبحث عن أسباب مقبولة للرحيل،
وتسقط من علٍ شكواه من التفكير فيها والتمكن منها،
وآنذاك يرمى نفسه بالحماقة لإدراكه أنه قد نسب
إليها (من الخصال) أكثر مما يمنح لمخلوقة من البشر.
وهذا لا يخفى عن(عشيقاتنا بنات) فينوس؛ إذ يدارين
(وهن) فى قمة المعاناة كلَّ ما يَدور وراء
كواليس الحياة(١) عمَّن يرغبن فى أَسْرهم وتقييدهم فى (قيود) الحب،
ولكن لا طائل من وراء ذلك، لأن بمقدورك، وعلى الرغم من ذلك، أن
تستحضر فى عقلِك كل (هذه) الأمور (الخادعة) إلى النور

---

(١) المقصود بهذه العبارة العيوب الخلقية التى توجد فى أجساد المحظيات، خاصة تلك العيوب التى تسترها الثياب.

وتسخر منها، ولكن إذا كانت المعشوقة ذات قلب ودود وغير منفِّرة،
فتغاضى بدورك عن (عيوبها) وتسلَّم بعيوبها الخلقية.
إن المرأة دائمًا لا تتنهد بحب مصطنع حين تحتضن
الرجل ويلتصق جسده بجسدها،
وتقبِّله وهى تبلل شفتيه الممصوصتين.. إنها كثيراً ما
تفعل (هذا) من (كل) قلبها حين تسعى إلى (هذه) المتعة
المتبادلة، وتغرى (الرجل) على العدو فى مضمار
الغرام (حتى نهايته). وبطريقة أخرى (مماثلة) قد لا تستطيع
الطيور والماشية والحيوانات المفترسة والأغنام وإناث الخيول أن
تستسلم للذكور، إن لم تكُ هذه هى نفسها طبيعتها الشديدة
(وغريزتها)، حين تَقْبَلُ فى ابتهاج جِماعَ (الذكور) القافزين
(فوقها).. ألا ترى كذلك أن اللذة المتبادلة كثيراً ما تقيد
(زوجاً من الحيوان)، حتى إنهما يتعذبان فى قيودهما المشتركة؟
(فذكر وأنثى) الكلابُ حين يتلهفان على الانفصال (عن بعضهما) فى مفترق الطرق،
فكثيراً ما يتجهان فى شهوة إلى اتجاهات معاكسة بأقصى
ما فيهما من قوة، حيث إنهما ــ فى ذلك الوقت ــ يلتصقان بشدة
فى قيود فينوس القوية! وهو (أمرٌ) ما كان (لزوج الكلاب) أن

يفعله أبداً، لو لم يكن يشعر بالمتعة المتبادلة القادرة على أن تلقى
به فى (ذلك) الأذى والعذاب وتقيده (فى أغلال الشهوة).

ولهذا، أقول – مرة بعد أخرى – إن المتعة يشترك فيها (كل من الذكر والأنثى).

وحين يختلط مَنِىُ الرجل بماء المرأة، (يحدث) مصادفة
أن تطغى المرأة بقوة مفاجئة على قوة (الرجل) وتسيطر عليها.

وحينئذ، يصير(الأبناء) مماثلين لنطف الأمهات(ويشبهونهن)، وبالمثل،
(فالعكس صحيح حين يصير الأبناء مماثلين) لنطف آبائهم و(يشبهونهم).
ولكن (الأبناء) الذين تراهم فى شبه الاثنين (الأب والأم)،
ويمزجون بين سمات الوالدين بالتساوى، فإنهم يخرجون
من صلب الأب وتريبة[1] الأم حين تَشق النُطَفُ
طريقها خلال أطرافهما بتأثير من مثيرات فينوس ووخزاتها،
فتتحد عاطفتهما المتبادلة، ولا يصبح أحدهما غالبًا ولا مغلوباً.

ويحدث أيضًا أن يكون فى قدرة الأبناء أن يَظْهَروا فى
هيئة أجدادهم، ويذِّكروا (الأهل) كثيراً بصور الأجداد،
ذلك لأن الوالدين كثيراً ما يخفيان فى جسميهما ذرات عديدة
تختلط بطرق شتى (بذرات الأجداد) التى يتلقاها الوالدان عن

---

(١) الجسم "corpus" غير دقيق فى سياق الحديث عن تدفق منى الرجل داخل رحم المرأة، والصواب هو "الصُلب" وهو العمود الفقرى الموجود فى ظهر الرجل، وفيه يكمن المنى الذى تتوالد منه الذرية. أما "التريبة" وجمعها "ترائب" فهى عظام الصدر مما يلى الترقوتين، وفيه يتجمع ماء المرأة الذى يتدفق بغزارة.

والديهما بعد أن تخرج من الأصل والجد الأول؛

ومن ثم، تُوَلِّدُ فينوس صورَ الأسلاف بقَدْرٍ متفاوت،

وتخلق ملامحهم وأصواتهم وشعورهم من جديد.

ويولد جنس الإناث من منى الأب، ١٢٢٧

أما الذكور فيخرجون ويولدون من ماء الأم[١]؛ ١٢٢٨

فلا شئ أكثر من وجوهنا وأجسامنا وأعضائنا ١٢٢٥

التى تنشأ عن منى محدد (لأحد الوالدين)؛ ١٢٢٦

إذ يتألف الجنين دائمًا من منى مزدوج (من الأب

والأم)، ومَنْ يُولد أكثر شبهاً بأحد الوالدين، فإنه ١٢٣٠

يأخذ منه قدراً أكبر مما يأخذ (من الوالد الآخر)؛ لأن

بإمكانك أن تلحظ هذا، سواء كان النسلُ ذكوراً أم كانت السلالة إناثا.

إن المشيئة الإلهية لا تعوق رجلاً عن قدرته على الإنجاب،

فلا يناديه أبناءُ أعزاءٌ أبداً بـــ "أبى"،

فيقضى عمره فى زواج عقيم؛ ١٢٣٥

إذ إن (العُقَمَاءَ من الرجال) ينثرون فى أسى الدم الكثير على مذابح (الآلهة)،

ويكدسون قمم المذابح بالهدايا، ويظنون فى أغلب

---

(١) أثبت العلم الحديث أن الأب هو المسئول الوحيد عن نوعية الجنين، ذكراً كان أم أنثى.

الأحوال أن الآلهة هى التى تجعل زوجاتهم حَبَالى بمنيهم الغزير.
عبثاً؛ إن أولئك العقماء يرهقون المشيئة الإلهية والأقدار (بهذا الظن).
إذ إن بعضهم ذوو منى شديد الغلظة، والبعض
(الآخر) – بدوره – منيه شديد الرقة؛ ولأن
(المنى) الرقيق غير قادر على أن يَعْلَقَ ويلتصق
(برحم المرأة)، فإنه سرعان ما يسيل ويتراجع، ثم ينسحب (محدثا) الإجهاض.
ومن ناحية أخرى، لا يندفع المنى الأكثرُ غلظة
إلى هذا (الرحم) بسبب كثافته الشديدة،
أو لأنه لا ينطلق بقوة كبيرة جداً، أو لأنه يعجز تمامًا عن اختراق
الرحم، أو لأنه – فى حالة اختراقه – يصعب اختلاطه بماء المرأة؛
إذ إن التوافق فى العملية الجنسية بين الزوجين يبدو متفاوتاً إلى حد بعيد؛
فبعض الرجال يخصبون بعض النساء دون غيرهن فى يسر شديد،
وبعض النساء، بالمثل، يحملن بسهولة (من بعض
الرجال دون غيرهم) ويصرن حَبَالَى، ونساءٌ كثيراتٌ كُنَّ من
قبل عاقرات فى زيجات (سابقة) متعددة، إلا أنهن فيما بعد أنجبن،
وكان لهن أولاد صغار، واستطعن أن يكُنَّ ذوات وفرة
من الذرية الحلوة. ورجال (آخرون) كانت فى بيوتهم فى الماضى

زوجاتٌ غير عاقرات كثيراً ما فشلن فى الإنجاب،
لكنهن (فيما بعد) عَثَرْن على الزوج الطبيعى السوى،
فاستطعن الحصول على الأمان فى شيخوختهن بفضل إنجاب الأطفال.
ومما هو على درجة بالغة من الأهمية أن يكون منى (الرجل)
قادراً على الاختلاط بشكل مناسب وخصب بماء
(المرأة)، فيجتمع (المنى) الرقيق بالماء الغليظ،
والمنى الغليظ بالماء الرقيق. وفيما يتعلق (بالإنجاب)
فمن المهم (أن نعرف أيضاً) ما نقتاتُ عليه؛
فبتناول بعض الأطعمة يصير المنى غليظاً فى أعضاء الجسم،
ومن ناحية أخرى يصير المنى رقيقاً رطباً بتناول بعض الأطعمة الأخرى.
أيضاً، هناك موضوع آخر على درجة بالغة من الأهمية
ألا وهو فى أى وضع يتم قضاء لذة الجنس الساحرة ذاتها؛
إذ تعتقد الزوجات عموماً أنهن يَحْبَلْنَّ وعلى نحو أفضل (إذا
ما كُنَّ) فى وضع الحيوانات المفترسة والحيوانات ذوات الأربع،
لأن الرحم – فى هذا الوضع – يستطيع أن يتلقى المنى، وذلك
بوضع الصدر إلى أسفل، والعورة إلى أعلى.
أما الحركات اللعوب (التى تقوم بها المحظيات)، أياً كانت (هذه الحركات)،
فلا أهمية لها عند زوجاتنا. فالمحظية تمتنع عن الحمل وتقاومه،

إذا ما تناولت فى بهجة الموضع الأثير للرجل بين فخذيها،
وتُثيرُ تدفق (منيه) بكلتى ثدييها اللدنين؛
فتحول حرثها مباشرة عن طريق محراثه،
وتتفادى قَذْفَ منيه فى عورتها؛
وهذا غايةُ ما تستأثر الغانياتُ بحبه فى الإثارة،
خشيةَ أن يحملن مرةً بعد أخرى ويرقدن حَبَالَى، وفى الوقت نفسه
يصير الجنسُ ذاته أكثر متعة للرجال؛ وهو أمرٌ
يبدو غائباً عن فطنة زوجاتنا.

وليس بالتأثير الإلهى وسهام فينوس يحدث أن يعشقَ
(رجلٌ) امرأةً شابة هيئتُها على درجة متواضعة (من الجمال)؛
فالمرأة نفسها تقوم أحياناً بأمورٍ خاصة بها،
حتى إنها تُعَوِّدك بسلوكها اللطيف وجسدِها الغضِ الناعمِ
على أن تقضى حياتك معها فى يسر.

وعلاوة على ذلك، فإن الألفةَ تُوَلِّدُ المحبة،
وما يتم طرقُه على نحو خفيف متكرر، فإنه على
المدى البعيد يتداعى وينكسر.
ألا ترى حتى فى قطرات الماء المتساقطة فوق الصخور،
أنها تثقب (تلك) الصخور فى خاتمة المطاف؟

الكتاب الخامس

ترجمة: د. على عبد التواب على

ملخص الكتاب الخامس

أولاً ـ الاستهلال (١ – ٢٣٤):

١. الثناء على إبيقوروس (١ –٥٤).

٢. موضوع الكتاب الخامس (٥٥ – ١٠٩).

٣. استطراد: هجوم على الآراء الغائية للطبيعة (١١٠ – ٢٣٤).

ثانيًا ـ فناء العالم (٢٣٥ – ٤١٥):

١. تبديد خيرات الأرض ثم إعادة إعمارها (٢٣٥ – ٢٦٠).

٢. تناقص مخزون الماء فى العالم (٢٦١ – ٢٧٢).

٣. معاناة الهواء من التغير المستمر (٢٧٣ – ٢٨٠).

٤. التغير المستمر فى الإمداد بالحرارة والضوء (٢٨١ – ٣٠٥).

٥. دمار أقوى الأشياء بفعل الزمن (٣٠٦ – ٣١٧).

٦. فناء السماء إن كانت هى من يخلق كل الأشياء ثم يمتصها مرة أخرى (٣١٨ – ٣٢٣).

٧. لا وجود لسجلات الماضى السحيق اللا محدود (٣٢٤ – ٣٥٠).

٨. فشل العالم فى توفير أى من الشروط اللازمة للخلود (٣٥١ – ٣٧٩).

٩. الإشارة إلى أن الصراع بين الماء والنار سوف يدمر الأرض يوما ما (٣٨٠ – ٤١٥).

ثالثًا ـ بداية العالم وحركات الأجرام السماوية (٤١٦ – ٥٦٣):

١. نشأة العالم بالصدفة نتيجة لتصادم الذرات (٤١٦ – ٤٣١).

٢. انفصال أجزاء العالم المختلفة عن بعضها (٤٣٢ – ٤٤٨).

٣. تشكيل العالم (٤٤٩ – ٤٩٤).

٤. صعود الأثير (٤٩٥ – ٥٠٨).

٥. حركة النجوم (٥٠٩ – ٥٣٣).

٦. وضع الأرض فى منتصف العالم (٥٣٤ – ٥٦٣).

رابعًا ـ ظواهر فلكية متنوعة (٥٦٤ – ٧٧١):

١. أحجام الشمس والقمر والنجوم (٥٦٤ – ٦١٣).

٢. سبب مدارات الأجرام السماوية (٦١٤ – ٦٤٩).

٣. أسباب النهار والليل (٦٥٠ – ٧٠٤).

٤. أسباب ضوء القمر (٧٠٥ – ٧٥٠).

٥. أسباب كسوف الشمس (٧٥١ – ٧٧١).

خامسًا ـ المرحلة الأولى من حياة العالم (٧٧٢ – ١٠١٠):

١. أصل حياة النبات والحيوان (٧٧٢ – ٩٢٤).

٢. أصل المجتمع البشرى وحياة الإنسان البدائى (٩٢٥ – ١٠١٠).

سادساً ـ نشأة الحضارة (١٠١١ – ١٤٥٧):

١. تطور الحياة الأسرية (١٠١١ – ١٤٥٧).

٢. أصل اللغة (١٠٢٨ – ١٠٩٠).

٣. استخدام النار (١٠٩١ – ١١٠٤).

٤. نشأة المجتمعات المتحضرة (١١٠٥ – ١١٣٥).

٥. تطور القانون والأساس النفعى له (١١٣٦ – ١١٦٠).

٦. نشأة الاعتقاد فى الآلهة (١١٦١ – ١٢٤٠).

٧. تطور استخدام المعادن (١٢٤١ – ١٢٨٠).

٨. تطور أساليب القتال (١٢٨١ – ١٣٤٩).

٩. نشأة فن النسج (١٣٥٠ – ١٣٦٠).

١٠. تطور أساليب الزراعة (١٣٦١ – ١٣٧٨).

١١. أصل الموسيقى (١٣٧٩ – ١٤٣٥).

١٢. تطور معرفة الفلك (١٤٣٦ – ١٤٣٩).

١٣. تطورات أخرى متنوعة (١٤٤٠ – ١٤٥٧).

مَنْ باستطاعته أن ينظم بقلب جسور قصيدة قيمة
عن عظمة الطبيعة وعن تلك الاكتشافات؟
أو مَنْ يملك ناصية الحديث لحد يستطيع معه أن
يصوغ مدائح فى خصال إبيقوروس[١] الذى ترك
لنا مثل هذه الكنوز التى أبدعها وقدح فيها زناد فكره؟
وحسب اعتقادى فإنه لن يولد أحد مثله من نسل بشر فانٍ.
فإنه كان علينا أن نقول، مثلما تسعى الطبيعة ذاتها التى
أضحت معروفة، أن تقول: إنه كان إلهاً، إلهاً بحق، أي مميوس النبيل.
فهو أول من اكتشف ذلك المنطق بالحياة، المنطق الذى يُطلق
عليه الآن اسم الحكمة، وهو الذى ببراعته
أخرج الحياة من الأمواج المتلاطمة والظلمات الحالكة
وأقامها فى مثل هذا السكون ومثل هذا النور الباهر.
حسبك أن تقارن الاكتشافات الإلهية القديمة للآخرين.
لأنه يُقال[٢] إن كيريس[٣] أدخلت زراعة القمح فى عالم البشر،

---

(١) لم يذكر هنا لوكريتيوس اسم إبيقوروس، لكنه سوف يفصح عنه بعد ذلك عندما يتحدث عن مكتشفاته وآرائه السديدة التى دفعت تلاميذه ومريديه إلى اعتباره إلهاً، فعلى الرغم من أنه فانٍ (٣، ١٠٤٢)؛ فإن مكتشفاته تبدو خالده.

(٢) يستخدم لوكريتيوس الفعل "fertur" بمعنى يُقال عند الحديث عن الآلهة؛ لأنه يشكك فى كل الأساطير التى تتحدث عن إنجازاتها.

(٣) الربة كيريس هى ربة الزراعة عند الرومان، شيد الرومان أول معبد لها عام ٤٩٦ ق.م. بناء على نذر من الديكتاتور بوستوميوس ألبينوس عندما كان شبح المجاعة يهدد روما أثناء حربها مع اللاتين. والربة كيريس تساوى الربة ديميتر عند الإغريق، وقد انتقلت عبادتها من صقلية إلى إيطاليا، ومع دخول عبادتها روما أقام لها الرومان احتفالاً تجرى فيه الألعاب الرياضية وأطلقوا عليه عيد الكيرياليا. ويبدو أن عبادة كيريس فى روما اكتسبت بعداً سياسياً
فقد كان معبدها مَقَرَّ أيديل العامة حيث يقوم بتوزيع القمح على العامة، ولهذا ارتبطت عبادتها بطبقة العامة الفقيرة.

وإن ليبر[١] قدم لهم عصير النبيذ.
على أي حال فإن الحياة يمكنها الاستمرار دون تلك الأشياء،
ويُحكى أن بعض الشعوب تحيا إلى الآن دونها.
ولكن من المستحيل العيش حياة هانئة دون عقل صافٍ؛
بتلك الميزة بدا هذا الرجل لنا أنه إله،
فالمواساة الرقيقة للحياة التى صدرت عنه هى سلوى
لنفوسنا حتى ذلك الحين، إذ إنها انتشرت بين أمم عظيمة،
لكن إن تعتقد أن أعمال هرقل تفوق إنجازات إبيقوروس،
فإنك ستشرد بعيدًا جدًا عن التفكير السديد.
فما الضرر الذى يلحقه بنا الآن ذلك الفم الكبير
لأسد نيميا[٢]، أو خنزير أركاديا[٣] المرعب؟

---

(١) ليبر إله رومانى قديم، هو إله النماء والزراعة الذى أصبح فيما بعد مساوياً للإله الإغريقى باخوس (إله الخمر)، وكانت تُقام له أعياد الليبيراليا "Liberalia" فى اليوم السابع عشر من شهر مارس من كل عام. وربما يكون هذا اللقب مشتقاً من الصفة "liber" بمعنى "الحر"، وذلك لاعتقادهم أن الخمر تحرر المرء من كل همومه وأحزانه وقيوده.

(٢) أمر الملك يوريستيوس البطل هرقل بأداء اثنتى عشرة مهمة خطرة، وكان الأمر الأول هو إحضار جلد أسد مدينة نيميا الذى كان يثير الذعر بين الناس، وبالفعل يرحل هرقل ويعود حاملاً الأسد على كتفيه. وهنا يقدم لوكريتيوس محاكاة للغة كتاب الأساطير.

(٣) طلب الملك من هرقل أن يحضر له خنزير أركاديا حياً، وقد نجح البطل من استدراج الخنزير فى منطقة مغطاة بالجليد وأوقعه فى الشباك.

وأخيرًا ماذا بمقدور ثور كريت[١] أن يفعل لنا، وطاعون
ليرنا[٢] أى الأُفعوان المحصن بثعابين سامة؟
أم ماذا تفعل لنا قوة الأبدان الثلاثة لجيريون[٣] ذى الأبدان الثلاثة؟
وأى ضرر بالغ تلحقه بنا الطيور التى تحمى بحيرة ستيمفالوس[٤]؟
وبماذا تضرنا جياد ديوميديس[٥] الثراقى التى تنفث ناراً من
مناخيرها بالقرب من المناطق الثراقية وجبل إسمارا[٦]؟
والأفعى الرهيبة، حادة النظرات، ذات الجسد الهائل،
التى تحمى التفاحات الذهبية البراقة للهسبيريديات[٧]،

---

(١) كان العمل السابع من أعمال هرقل هو الإمساك بثور كريت، وكان يزفر بألسنة اللهب.

(٢) أمر الملك يوريستيوس هرقل أن يقتل أفعوان مستنقع ليرنا، وجسد هذا الأفعوان يشبه الكلب، وله تسعة رءوس إذا قُطعت رأس نبتت مكانها رأسان، ورأسه الوسطى خالدة. تمكن هرقل بمساعدة خادمه المخلص يولاوس أن يقطع رءوس الأفعوان وأن يكوى مكان كل رأس لكى لا ينبت مكانها رءوس أخرى، أما الرأس الخالدة فدفنها تحت صخرة لأنها تظل حية رغم انفصالها عن الجسد.

(٣) طلب الملك يوريستيوس من هرقل أن يحضر له قطيع جيريون، وهو وحش له ثلاثة أبدان، ويملك قطيعاً أحمر اللون يحرسه مارد يُدعى يوريتيون، سافر هرقل إلى غرب أوروبا حيث يقطن الوحش وأطلق على أبدانه الثلاثة ثلاثة سهام فقتله وأخذ القطيع وسلمه للملك.

(٤) أمر الملك هرقل أن يطرد طيور مستنقع ستيمفالوس من مكانها، وهذه الطيور هائلة العدد، مناقيرها ومخالبها وأجنحتها من البرونز وريشها كالسهام وتأكل لحوم البشر. تمكن هرقل من طردها بفضل صوت الخشخيشة التى أعطتها له الربة أثينة.

(٥) طلب منه الملك أيضًا أن يروض خيول ديوميديس، وهى خيول شرسة كان الملك ديوميديس يطعمها لحوم الغرباء الذين يدخلون مملكته. تمكن هرقل من قتل ديوميديس وقدم لحمه للخيول فشبعت وصارت مروضة.

(٦) إسمارا هو أحد جبال ثراقيا حيث كان يقطن الملك ديوميديس.

(٧) أمر الملك هرقل أن يحضر تفاحات الهسبيريديات، وهى التفاحات التى أهدت شجرتها ربة الأرض جي للربة هيرا عند زواجها، وكانت بنات أطلس يعتنين بالشجرة ويحرسها التنين لادون، ونجح هرقل فى الحصول على التفاحات بمساعدة أطلس.

وقد التفت حول جذع الشجرة؛ وأخيرًا أى ضرر يقع علينا
من ساحل أطلانطا[١] وبحاره الرهيبة، الذى لم يذهب
إليه أحد من بنى جلدتنا قط، ولم يجرؤ على ذلك أى أجنبى؟
إن باقى الوحوش من هذا القبيل قد هلكت،
فإن لم تكن قد هلكت، فما الضرر الذى تلحقه بنا أثناء حياتها؟
لا شئ حسب اعتقادى: فالأرض إلى يومنا هذا تنتج،على هذا النحو،
قدراً كافياً من الوحوش، وهى تموج برعب ينذر بالخطر،
وذلك فى الأحراش والجبال الهائلة والأدغال العميقة،
وهى الأماكن التى، بوجه عام، يمكن تجنبها.
لكن إذا لم نطهر صدورنا، فعندئذٍ لا بد أن نقع
فى معارك وأخطار دون إرادتنا!
إذاً كم هى مبرحة هموم الشهوة التى تمزق الإنسان
المضطرب، وبالمثل كم هى رهيبة المخاوف!
وماذا عن الغرور والفحش والوقاحة؟ إنهم يتسببون
فى الكثير من الهلاك! وماذا عن الفسوق والكسل؟

(١) يقصد بساحل أطلانطا جزيرة أطلس، وهى جزيرة ضخمة تقع فى المحيط الأطلسى بعيداً عن مضيق جبل طارق، وطبقاً للأسطورة فإن هذه الجزيرة كانت تسيطر على الجنوب الغربى لأوروبا والشمال الغربى لإفريقيا.

وعلى ذلك فإن إبيقوروس هو الذى قهر كل تلك الأشياء وطردها
من العقول بأقواله، وليس بالسلاح، ألن يكون من المناسب
أن نعتقد أن هذا الرجل جدير بأن يوضع فى عداد الآلهة؟
خاصة حيث إنه اعتاد أن يلقن، على غرار الآلهة تماماً،
الكثير من تعاليمه عن الآلهة الخالدة ذاتها،
وأن يكشف فى أقواله كل شئ عن طبيعة الأشياء.
إننى أسير على أثره وأتبع أفكاره،
وأدرس فى أحاديثى: بأى ناموس خُلقت
تلك الموجودات، وكيف أنه من الملزم لها البقاء فيه،
وكيف أنها ليست من القوة حيث تلغى نواميس الزمن القوية،
وعلى هذا الأساس فإنه من بين الموجودات الأولى وُجدت طبيعة
العقل أولاً، وهى تتألف من جسد مخلوق،
وليس بإمكانها أن تظل سليمة عبر الزمن الطويل؛
لكن الخيالات اعتادت أن تخدع العقل فى أوقات النوم،
عندما يبدو لنا أننا نرى رجلاً قد رحل عن الدنيا.
بقى أن أقول الآن إن هذا التوجه الفكرى قادنى إلى هذه النقطة؛
إنه ينبغى علىَّ توضيح هذه الفلسفة: إن الكون يتألف من

جسد فانٍ، وإنه قد كان له أيضًا ميلاد؛
وبأى طريقة يؤدى هذا الاتحاد للمادة إلى
تكوين الأرض والسماء والنجوم والشمس
وقرص القمر؛ ثم أي كائنات حية ظهرت على الأرض،
وأى مخلوقات لم تولد فى أى عصر من العصور؛
وبأى طريقة بدأ الجنس البشرى فى استخدام لغات
مختلفة فيما بينهم عن طريق إطلاق الأسماء على الأشياء؛
وبأى طريقة تسلل ذلك الخوف من الآلهة
إلى القلوب، الخوف الذى يحمى، على كوكب الأرض،
المقدسات والمعابد والبحيرات والأدغال والمذابح وتماثيل الآلهة؛
علاوة على ذلك سأوضح بأى قوة توجه الطبيعة
الهادية مدارات الشمس ومنازل القمر؛
خشية أن نعتقد أن تلك الأشياء الواقعة بين السماء والأرض
(أى الشمس والقمر) تدور بحرية وبإرادتها الذاتية فى مدار سرمدى،
آخذة على عاتقها نماء الزروع وتكاثر الكائنات الحية،
أو نعتقد أنها تتعاقب بتدبيرٍ ما من الآلهة.
لأن هؤلاء القوم يعلمون جيداً أن الآلهة تعيش حياة تخلو من الهموم،

فلو أنهم، مع ذلك، وفى الوقت ذاته، يتعجبون بأى تدبيرٍ يمكن
لتلك الأشياء أن تُدار، خاصة فى حالة تلك الموجودات
التى يرونها فوق رءوسهم فى مناطق الأثير،
فإنهم يرتدون مرة أخرى إلى الخزعبلات القديمة،
ويتخذون لأنفسهم سادة قساة، هؤلاء السادة الذين يعتقد البؤساء
أن فى مقدورهم عمل كل شئ، وذلك لجهلهم ما بإمكانه الحدوث،
وما ليس بإمكانه، وخلاصة القول بأى حكمة صارت لكل شىء
قدرة محدودة، وبأى حكمة صارت لكل شئ نهاية محددة.

وكى لا أؤخر عنك المزيد بوعودى، فقد بقى
أن تنظر أولاً إلى الماء واليابس والسماء؛
يوم واحد سيجلب الدمار، يا مميوس، لتلك الطبيعة
الثلاثية، لتلك الكيانات الثلاثة، لتلك الأشكال الثلاثة جد
المختلفة، لمثل هذا النسيج الثلاثى المتشابك، إن عظمة
العالم ونظامه، الذى دام لسنوات طويلة، سيلحق به الدمار.
ولم يغب عنى كيف يقع الرأى الجديد والغريب على
العقل؛ بأن الدمار سيلحق بالسماء والأرض،

وكيف أنه أمر صعب عليَّ أن أبرهن عليه بالحجج،
مثلما يحدث عندما تسمع بأذنيك شيئاً غير مألوف لم تسمعه من قبل،
وليس بمقدورك، مع ذلك، أن تدركه بالرؤية المجردة،
ولا أن تمسه بيدك، فمن خلال التجارب المباشرة يصل
طريق الإيمان الراسخ إلى قلب الإنسان وحدود عقله.
لكننى على أي حال - سأتحدث. ولعل هذه التجارب
تجعلك تؤمن بآرائى، فلعلك ترى بعينيك أن الزلازل
العنيفة تحوِّل، فى وقت ضئيل، كل ما على الأرض إلى ركام.
وليت القدر الهادى يجنبنا هذا المصير!
وليت المنطق يقنعك، على نحو أفضل، أن تجرب الحدث ذاته؛
أن كل الأشياء يمكنها أن تنهار بفعل تصادمات ذات جلبة مروعة.
لكن قبل أن أشرع فى النطق بنبوءاتى حول هذا الموضوع
على نحو ذى هيبة دينية أكبر، وبمنطق راسخ أكبر بكثير من تلك
التى تتنبأ[١] بها بيثيا[١] المخدرة من رائحة أكاليل الغار[٢] الخاصة بالإله
فويبوس[٣] ومن عرشه ثلاثى القوائم، وسوف أمدك بالكثير من السلوان

---

(١) البيتان (٥، ١١١ - ١١٢) هما تكرار لبيتين وردا فى الكتاب الأول (١، ٧٣٨ - ٧٣٩).

فى كلمات ذات صبغة علمية؛ وذلك خشية أن تعتقد بالصدفة، وقد قيدك
الفكر الدينى، أن الأرض والشمس والسماء والبحر والنجوم والقمر،
كلها من جسد إلهى، وأنه ينبغى لها أن تبقى إلى الأبد،
وأن تعتقد، بناء على ذلك، أنه لمن الصواب أن يعانى،
على غرار المردة[٤]من العقاب لقاء جريمة نكراء،
كل هؤلاء الذين بفكرهم يهزون حصون العالم
ويودون أن يطفئوا شمس السماء المضيئة
عند إفسادهم الأشياء الخالدة بحديثهم البشرى..
فتلك الأمور بعيدة كل البعد عن القدرة الإلهية،
فهى تبدو غير جديرة بأن توضع فى عداد الآلهة،
بل إنه يجب الاعتقاد أنها بالأحرى تخدمنا كنماذج
للأشياء التى تفتقر للحركة والحياة وتخلو من المشاعر.
إن هذا غير موجود حقاً، إذ إن طبيعة العقل

---

(٢) بيثيا هى كاهنة الإله أبوللون والناطقة بنبوءاته.

(٣) فى الألعاب البيثية التى تُقام تكريماً للإله أبوللون، كانوا يكرمون الأبطال فى الألعاب الرياضية بتيجان من أغصان الغار.

(٤) فويبوس هو أحد ألقاب الإله أبوللو كإله للنور والضياء، فهذا اللقب يشير إلى الشمس، كما أن أخته أرتميس كانت ربة القمر.

(٥) المردة هم مخلوقات أسطورية عملاقة حاربت ضد زيوس أثناء قتاله ضد والده كرونوس، وبعد انتصار زيوس عاقب جميع المردة.

والتفكير لا يُعتقد فى إمكانية وجودهما فى أى جسد؛
مثلما لا يمكن أن توجد شجرة فى الأثير، ولا سحب فى[١]
البحر الأجاج، ولا يمكن أن تعيش الأسماك فى الحقول،
ولا أن توجد الدماء فى الأخشاب، ولا عصارة النبات فى الصخور.
وإنه لمن الثابت ومن المقدر: أين يوجد كل شئ وأين ينمو؟
وهكذا فإن مادة العقل لا يمكنها أن تنشأ بلا جسد،
أو تنشأ بمفردها خارج الجسد بمنأى عن أوتار العضلات أو الدم..
فلو كان ذلك ممكناً، فحرى بمادة العقل أن توجد
فى الرأس أو المنكبين أو أسفل الجسم فى عقبى القدم،
وأن تولد فى أى جزء من الجسم لأنها، على أيه حال، ستظل
موجودة فى جسم الإنسان ذاته وفى الوعاء ذاته.
ولكن حيث يوجد حتى فى أجسادنا نظام ثابت معروف،
ونرى نظاماً مستقراً: أين يمكن للروح والعقل أن يوجدًا وينموا
بمعزل عن بعضهما؟ وإنه ينبغى علينا، فضلاً عن ذلك، أن ننكر
أن العقل يمكنه الوجود خارج الجسد البشرى أو الجسد الحيوانى،
كأن يوجد فى الكتل الطينية العفنة بالأرض أو فى لهب الشمس

(١) الأبيات (٥، ١٢٨ –١٤١)هى تكرار للأبيات التى وردت فى الكتاب الثالث (٣، ٧٨٤ – ٧٩٧).

أو فى الماء أو فى أقطار الأثير العالية..
وعلى ذلك فإنه من الثابت ألا تحظى تلك الأشياء بمشاعر إلهية،
حيث إنها ليس بمقدورها أن تدب فيها الحياة.
وبالمثل هناك شئ آخر: إنه ليس بمقدورك أن تعتقد أن
هناك مساكن مقدسة للآلهة فى أى جزء من أجزاء العالم؛
لأن طبيعة الآلهة تتسم بالرقة، ولا تدركها
حواسنا، ومن ثم من الصعب أن يدركها العقل..
وحيث إن طبيعة الآلهة تستعصى على اللمس أو الضرب بالأيدى،
وينبغى لها ألا تلمس شيئاً من الأشياء التى بمقدورنا نحن لمسها،
على هذا فإن الشئ الذى يستحيل لمسه لا يمكنه هو أيضًا أن يلمس شيئاً.
وهكذا فإن مساكن الآلهة أيضًا ينبغى أن تكون مختلفة
عن مساكننا، فهى رقيقة مثل أجسادها؛
وهو الأمر الذى سأوضحه لك لاحقًا فى حديث مستفيض.
ولننظر الآن إلى نظرية أن الآلهة شاءت من أجل البشر أن تعد
الطبيعة الرائعة للكون، وبذلك يكون من المناسب
الثناء على عمل الآلهة الجديرة بالثناء،
ثم الاعتقاد أنه سيكون عملاً سرمدياً وخالدا،

فالشئ الذى يُخلق بالحكمة القديمة للآلهة من أجل الجنس البشرى
وبغرض الخلود، ليس من المسموح له أن يخرَّ يوماً من قواعده بأى قوة،
أو يتأثر بالكلمات أو ينقلب رأساً على عقب؛
إنه لمن الحماقة، يا مميوس، اختلاق وإضافة أباطيل أخرى
من هذا القبيل .. فأى نفع يمكن أن يحققه
شعورنا بالامتنان من الآلهة الخالدة والمباركة،
للدرجة التى تجعلها تحاول إنجاز أى شئ من أجلنا؟
أو ما الجديد الذى بإمكانه، بعد ردح طويل من الزمن،
أن يغرى الناس الآمنين بحيث يرغبون فى تغيير حياتهم السابقة؟
إن الرغبة فى التغيير تعنى حتماً عدم الرضا بالنظام القديم،
لكن ما دام لم يحدث أى مكروه لأحد فى الزمن الغابر،
وحيث كان الإنسان يقضى عمره فى هناء،
فما الذى قد يشعل الرغبة فى التغيير فى نفس ذلك الشخص؟
أو أى شئ كان سيعيبنا إذا لم نكن قد خُلقنا؟
فهل لنا أن نعتقد أن الحياة كانت غارقة فى الظلام والحزن
إلى أن خرج للنور أول موجود من الموجودات؟

حقًا إن الإنسان بمجرد أن وُلد كان لزاماً عليه
أن يرغب فى البقاء فى الحياة،
ما دامت المتع الساحرة قائمة؛
لكن منِ لم يذق قط حب الحياة فإنه لا يدخل فى
عداد هؤلاء، كيف يشعر بالضرر وهو لم يُخلق بعد؟
علاوة على ذلك من أين غُرس لدى الآلهة
أول نموذج لخلق الموجودات، وصورة البشر الأول ذاتها،
حيث يعرفون ويرون بعقولهم ما يرغبون فى خلقه؟
وبأى طريقة عرفوا قوة الذرات،
وكيف عرفوا التأثير المحتمل لاتحاد الذرات فيما بينها على تنوعه،
إذا لم تقدم الطبيعة ذاتها نموذجاً لعملية الخلق؟
إذ إن كماً هائلاً من الذرات تسبح فى الفضاء حسب وزنها
وتصطدم ببعضها بطرق عديدة، بعد أن أثارها
هبوب الرياح، وذلك منذ زمن سحيق إلى يومنا هذا،
فهى تتلاقى بطرق شتى، وتحاول كلها الاتحاد،
فصار بإمكانها خلق أى شئ باتحاد بعضها بعض،
فلا غرو إذن لو أنها بتآلفها آلت إلى مثل
هذه النماذج وإلى مثل هذه الانتقالات،

التى حافظ بها الكون على هذا الكم من الموجودات.
لكن حتى لو سلّمنا بأننى أجهل طبيعة الذرات،
فإننى – على أي حال – أجرؤ على أن أؤكد أن
العالم لم تعده الآلهة من أجلنا قط،
وإنه لخطأ فادح يقف فى طريقنا، وسأبرهن على ذلك من خلال
النظام الموجود بالسماء، وأدعم رأيى بحقائق أخرى كثيرة.
فى البداية سأوضح كيف أن السماء باتساعها الشاسع تحجب الكثير،
فالجزء الأكبر تشغله الجبال والغابات المليئة بالوحوش،
والصخور والبحيرات الممتدة تحتل جزءاً آخر،
وكذلك البحر الذى يفصل بشواطئه اليابسة عن بعضها.
لقد حرمت الحرارة المحرقة وتساقط الجليد المتواصل
البشرية من ثلثى مساحة الأرض تقريبًا.
أما ما بقى من أرض صالحة للزراعة فإن الطبيعة – على أي حال –
بقوتها الخاصة تنبت به نباتات ذات أشواك، وذلك إن لم يقاوم
الإنسان هذا الوضع، فقد اعتاد أن يلهث فوق المعول القوى من
أجل البقاء فى الحياة، وأن يحرث الأرض بضربات المحاريث.
فإن لم نحث الأرض على الإثمار بتقليب التربة الخصبة
بشفرة المحراث وعجن سطح الأرض،

فإن الثمار لن يمكنها النمو من تلقاء نفسها فى الهواء الطلق،
وحتى عندما تُنبت الأرض من حين لآخر بفضل العمل الشاق،
وعندما تملأ أوراق الشجر الحقول وتزدهر كل الزروع،
فإما أن تصيبها الشمس من السماء بحرارتها الحارقة فتذبل،
وإما تدمرها الأمطار الغزيرة المفاجئة والجليد المسبب للقشعريرة،
وإما يسحقها هبوب الرياح بعاصفة عنيفة.
علاوة على ذلك؛ لماذا ترعى الطبيعة – وتزيد من – نسل السلالات
المروعة من الوحوش التى تشكل خطراً على الجنس البشرى
فى البر والبحر؟ ولماذا يجلب تغير فصول السنة الأمراض؟
ولماذا ينتشر الموت المبكر؟
أكثر من ذلك، فإن الوليد، مثل الملاح الذى قذفت به
الأمواج العاتية، يستلقى على الأرض عارياً وهو لا يستطيع الكلام،
ويفتقر لكل عون يعينه على البقاء فى الحياة، وذلك منذ اللحظة الأولى
حتى تقذفه الطبيعة بآلام المخاض خارج رحم أمه إلى نور الدنيا،
ويملأ المكان ببكاء حزين، وهو ما يناسب شخصاً
يكون عليه أن يجتاز فى الحياة الكثير من المصائب.

فى حين تنمو البهائم بشتى أنواعها، الأليفة كالماشية، أو الوحوش
الضارية، فهى لا تحتاج إلى خشاخيش الأطفال، ولا للتدليل من قبل
المربية الحانية بكلمات المداعبة والكلمات المتقطِّعة؛
كما لا تحتاج إلى تغيير الثياب تبعاً لفصول السنة،
وأخيرًا فهى لا تحتاج إلى السلاح، ولا للحصون الشاهقة
لتحمى ممتلكاتها، حيث إن الأرض نفسها والطبيعة المبدعة
للموجودات تمد جميع الحيوانات بكل شئ وبوفرة.
بادئ ذى بدء، حيث إن هذا الكم من الموجودات بالكون يبدو
بأنه مركب من تلك العناصر الأربعة: تراب الأرض، الماء،
نسمات الهواء الخفيفة، والنار الحارة،
فكل الموجودات إذن تتكون من جسد له ميلاد وقابل للفناء،
ومن الضرورى أيضًا الاعتقاد أن طبيعة العالم كله تسير على هذا المنوال.
ويجدر بنا أن نلاحظ أن الموجودات التى نرى أن جسدها
مركب من أجزاء وأعضاء لها ميلاد وتنتهى بالفناء،
فإن هذه الموجودات ذاتها تخضع بالتأكيد لقانون
الفناء والميلاد. وعلى ذلك عندما نرى أن الأجزاء الكبرى
التى يتكون منها العالم[1] وهى تولد من جديد بعد أن تلاشت،

---

(١) يقصد بالكون هنا الأرض والشمس والقمر والنجوم، وهى العناصر التى ذكرها منذ

فإنه يحق لى أن أقول إن السماء أيضًا والأرض كذلك
كانت لهما لحظة بداية، وسيؤول مصيرهما إلى الفناء.
وليتك لا تظن أننى فى هذه المسائل قد سلمت على عجلة
بافتراض أن الأرض والنار قابلان للفناء،
وأننى لم أتردد فى قول إن الماء والهواء يفنيان،
وفى قول إن هذه العناصر الأربعة تولد من جديد وتنمو.
أتحدث أولاً عن الأرض؛ فبعد أن أُصيب جزء منها بالجفاف
بفعل حرارة الشمس الدائمة، ووطأه عدد كبير من الأقدام،
انبعث منه سحب من الغبار والضباب السابح
الذى نشرته الرياح العاتية فى كل أنحاء الهواء؛
وهناك جزء من التربة الخصبة أيضًا غمره الفيضان
بفعل السيول، كما أن الأنهار تقضم ضفافها أثناء جريانها.
هذا، كما أن الأرض تطعم وتنمى أى شئ على حسابها هى،
فهى إذن تتناقص، وحيث إن الأرض هى أم كل الأشياء،
فهى تبدو بلا شك كقبر جماعى لكل الأشياء.. وعلى ذلك فإنك ترى
أن الأرض تتناقص، لكنها سرعان ما تزداد وتزدهر من جديد.

قليل (بيت١٠٩)، ثم ها هو يعود ليواصل الحديث عنها الآن.

وفيما يخص الماء، فإنه لا حاجة إلى القول: إن البحر
والأنهار والينابيع تتدفق دائمًا بماء متجدد،
وتجرى الجداول بشكل دائم، ويتضح لنا ذلك من التدفق الهائل
للماء فى كل مكان. لكن يجب أن ندرك أن جزءاً من الماء ينفد
من البداية، وكنتيجة لذلك لا يوجد أى فائض من الماء،
وذلك لأن الرياح العاتية من ناحية تجرف المسطحات المائية
وتنقص منها، كما أن أشعة الشمس تبخرها نحو السماء،
ومن ناحية أخرى فإن الماء موزع فى باطن الأرض كلها؛
فالماء المالح يُرشح أثناء جريانه بالأرض، ثم تنساب مادة الماء
الخالصة مرة أخرى، ويلتقى كل الماء الجارى هنا وهناك عند
مصب الأنهار، ومن ثم يتدفق الماء فوق الأرض فى مجارٍ عذبة
بطول الطريق الذى غار ذات مرة بقدمه السائلة فيه.
والآن أتطرق فى حديثى إلى الهواء الذى تتغير أحواله
من ساعة لأخرى بطرق لا تحصى.
لأن الذرات التى تصدر من الأجسام تُحمل كلها
دائمًا داخل محيط هائل من الهواء؛ فإن لم يُعِدْ هذا الهواء
بدوره تلك الذرات إلى أجسامها ويعيد إليها أشكالها،

فإن مادة كل هذه الأجسام ستتبدد من حينها وتعود إلى الهواء..
وعلى ذلك فإن الهواء لا يتوقف عن الانبعاث من الأجسام
وعن العودة إليها، فمن المتعارف عليه أن كل شئ يتجدد باستمرار.
وبالمثل فإن شمس السماء، النبع السخى للضوء الصافى،
تغمر السماء باستمرار بضيائها المتجدد،
فهى تمدنا بنور جديد فى الحال محل النور المنصرم،
لأن أى إشراق يصدر من جانبها، أينما يقع، فإنه يعدُّ
مفقوداً.. ويمكنك أن تدرك ذلك الأمر مما يلى:
بمجرد أن تبدأ السحب فى المرور أسفل الشمس
وكأنها تتمزق بين أشعة الشمس،
فإن الجزء السفلى لهذه الأشعة يتلاشى تمامًا فى الحال،
والأرض تغمرها الظلال كلما مرت السحب،
فلعلك تدرك أن الأشياء تحتاج دائمًا إلى ضوء متجدد،
فكل ومضة للضوء تتلاشى أولاً بأول،
ولا يمكن رؤية الأشياء فى النهار بطريقة أخرى،
إن لم يقدم مصدر الضوء نفسه (أى الشمس) ضوءاً جديداً.
وحتى ثريات الليل التى تراها على الأرض،

والمصابيح المعلقة والمشاعل المضيئة ذات الوميض
المتقطع والغنية بالدخان الأسود الكثيف،
فإنها تسعى بطريقة مماثلة لتمدنا بضوء جديد من حرارتها،
فهى تنشر النور باستمرار من ألسنة لهبها المهتز،
وهى لا تتوقف، فالضوء الذى يبدو كأنه يتمزق لا يغادر الأماكن
التى سطع عليها.. وهكذا فإن الضوء لا يخبو بسرعة كبيرة
وذلك بمولد ضوء جديد من كل شعلة من تلك الشعلات.
وعلى هذا النحو فإن الاعتقاد بأن الشمس والقمر والنجوم
تنشر ضياءها من مخزون متجدد من الشعاع،
وأن أى شعاع يصدر منها فإنه يتلاشى باستمرار أولاً بأول،
لدرجة أنك لا تعتقد بالصدفة أن قوة تلك الأجسام غير قابلة للتلف.
وكذلك ألم تَرَ أن الأحجار أيضًا يقهرها الزمن،
وأن الأبراج الشامخة تنهار والصخور تتفتت،
وأن معابد الآلهة وتماثيلها تبلى وتتصدع،
وأن الآلهة المقدسة ليس بإمكانها أن تؤخر حدود
القدر، أو تناضل ضد قوانين الطبيعة؟
وكذلك ألم نر أن آثار الأبطال تُمحى؟

ولعلك تعتقد أنهم كانوا يتمنون لأنفسهم أن يبلغوا سن الشيخوخة.
ألم نر أن الصخور المشققة تتساقط من قمم الجبال الشاهقة،
وأنها لا يمكنها تحمل القوة الجبارة للزمن ولو لفترة محدودة؟
فلو أنها على مدار الزمن السحيق تحملت التصدعات التى
سببتها هجمات الزمن دون أن تتصدع،
لما سقطت الآن فجأة بعد تشققها على هذا النحو.
ثم انظر الآن إلى هذه السماء التى تظلنا وتحيط بنا، والتى تضم
الأرض كلها فى حضنها، فلو أنها هى التى أنجبت كل الأشياء،
كما يزعم البعض، وأن الأشياء بعد أن تُدمر تعود إليها مرة أخرى،
إذن فهى برمتها تحتوى على جسد له ميلاد وله نهاية.
لأن أى شئ يغذى الأشياء الأخرى وينميها
لا بد أن يتقلص، ثم يولد من جديد عندما يستقبل هذه الأشياء مرة أخرى.
علاوة على ذلك؛ فإن لم تكن هناك لحظة ميلاد
للأرض والسماء، ولو أنهما وُجدا منذ الأزل وبقيا للأبد،
فلماذا لم يتغنَ شعراء آخرون بمآثر البشر السابقين

على حرب طيبة[١] وتدمير طروادة[٢]؟

ولماذا طوى النسيان الكثير من مآثر الأبطال،

ولم تُنقش على الإطلاق على آثار خالدة تديم شهرتهم؟

وحسب اعتقادى فإن الكون كله حديث العهد،

فهو بحق حديث الابتكار، ولم يمر على بدايته زمن طويل.

---

(١) أسس كادموس مدينة طيبة ولهذا كانت تُسمى ايضًا كادميا، ثم شيد أمفيون وشقيقه التوءم زيثوس ابنا زيوس أسوار طيبة وجعلا لها سبع بوابات حصينة. حكم طيبة بعد ذلك لايوس الذى لعنته الآلهة وحكمت عليه أن ينجب ولداً يتزوج من أمه ويقتل أباه. تحققت النبوءة فقتله ابنه أوديب وتزوج من أمه يوكاستى وأنجب منها أربعة أولاد ولدين هما بولينيكيس وإتيوكليس، وبنتين هما أنتيجونى وإيسيمينى. عندما اكتشف أوديب الحقيقة فقأ عينيه ورحل عن طيبة وانتحرت يوكاستى. ورث أبناء أوديب اللعنة من بعده فقرر الولدان أن يتبادلا حكم المدينة فيحكم إتيوكليس العام الأول ويرحل شقيقه خارج البلاد، وفى العام التالى يحكم بولينيكيس ويخرج إتيوكليس خارج البلاد. بعد انتهاء العام الأول رفض إتيوكليس أن يسلم الحكم لبولينيكيس الذى استعان بجيش من أرجوس وحاصر طيبة ببواباتها السبع، وقف أمام كل بوابة مهاجم ومن الناحية الأخرى مدافع، هاجم البوابات السبع كل من تيديوس، كابانيوس، إتيوكلوس، هيبوميدون، بارثينوبيوس، أمفياراوس، بولينيكيس، ودافع عن البوابات كل من ميلانيبوس، بوليفونتيس، ميجاريوس، هيبربيوس، أكتور، لاسثينيس، إتيوكليس. وقد انتهت الحرب بمصرع كل المهاجمين وقتل الشقيقان بعضهما.

(٢) تروى الأساطير أن لعنة الآلهة كانت ترفرف فوق رأس تنتالوس وذريته، مثلما هى الحال فى أسرة لايوس. فى يوم عرس بيليوس على الحورية ثيتيس حدث نزاع بين الربات الثلاث: هيرا وأفروديتى وأثينة حول التفاحة الذهبية، فاحتكمن إلى باريس ابن ملك طروادة الذى أعطى التفاحة للربة أفروديتى بعد أن وعدته بالزواج من أجمل نساء الأرض. وكانت هيلينا هى أجمل نساء الأرض، سافر باريس إلى موكيناى بناءً على أوامر أفروديتى وفى غياب منيلاووس خطف باريس هيلينا وسافر بها إلى طروادة. حث أجاممنون كل أمراء الإغريق على قتال طروادة واستعادة هيلينا، وبعد عشر سنوات من الحصار سقطت طروادة فى يد الإغريق بعد موت الكثير من الأبطال وعلى رأسهم أخيلليوس.

ولذلك فإن بعض الفنون حتى الآن قيد التهذيب،
وعملية التطور تسير على قدم وساق، ففى عصرنا أُضيف الكثير
من التحسينات على السفن، ومنذ أمد قريب ألَّفَ الموسيقيون ألحانهم.
حقًا إن حقيقة طبيعة الكون ونظامه قد اكتشفا مؤخرا،
وأنا نفسى قد اُكتشفت الآن، ووُضعت بين المكتشفين الأوائل،
كأول من استطاع أن يصف هذا النظام بلغتنا القومية.
لكن إنْ تعتقد بالصدفة أن كل هذه الفنون كانت موجودة من قبل مثلما
هى موجودة الآن، وأن أجيالاً من البشر قد هلكت بفعل الحرارة
الحارقة، أو أن مدنهم قد هوت فى زلزال عظيم هز العالم كله،
أو أن الأنهار النهمة اقتحمت الأراضى وغمرت
المدن بفعل الأمطار المنهمرة بشكل متواصل،
وأكثر من ذلك أنه بعد اقتناعك بهذه الحقائق فلا بد أن
تعترف بأن دمار الأرض والسماء مقبل أيضًا.
ولكن عندما تصاب الأشياء بالكثير من الأوبئة والأخطار،
فهى تحتاج بعد ذلك لأن تُصاب بشئ أكثر ضراوة
كى يصيبها هلاك واسع النطاق ودمار عظيم.
وبهذا المنطق الواضح نبدو نحن كبشر فانٍ،

فنحن نمرض بالأمراض نفسها التى مرض بها
من قبل الناس الذين أزالتهم الطبيعة من الوجود.
علاوة على ذلك، فإن الأشياء كى تظل خالدة لا بد أن تتصف بما يلى:
أن تصد الصدمات، لكونها مصنوعة من مادة صماء،
وأنها لا تسمح بأن ينفذ إلى داخلها أى شئ له القدرة على
شطر أجزائها المتماسكة من الداخل، مثل ذرات المادة،
التى تعرضنا من قبل لشرح طبيعتها؛
أو أن يكون بإمكانها أن تصمد على مر العصور
وذلك لأنها لا تتعرض إلى صدمات، مثل الفراغ،
الذى يظل بلا مساس، ولا يتأثر مثقال ذرة بأي صدمة؛
أو أن لا توجد مساحة مكانية حولها،
حيث يمكن من خلالها أن تتفرق مادتها وتتلاشى،
مثلما أن البنيان الكامل للكون خالد، إذ لا يوجد أى فراغ
حوله فتطير من خلاله العناصر كل على حدة، ولا توجد خارجه أجسام
بإمكانها أن تسقط عليه وبذلك يتحطم بضربة قاضية إلى أجزاء متفرقة.
لكن طبيعة العالم، كما وضحت[1]، ليست ذات جسد مصمت،

---

(١) انظر: ١، ٣٢٩ – ٣٦٩.

حيث إن الفراغ متغلغل فى كل الأشياء المركبة،
كما أن العالم ليس مثل الفراغ، فهو لا يفتقر إلى الأجسام
التى بإمكانها، بعد أن تتجمع بالصدفة فى الفراغ اللا نهائى،
أن تسحق هذه المادة الخام للأشياء بإعصار عنيف،
أو تجلب أي كارثة خطيرة أخرى،
ثم إن العالم لا يفتقر إلى مساحة مكانية عميقة
حيث يمكن لحصون العالم أن تتبعثر فى داخلها،
وحيث يمكنها الفناء بعد أن تصطدم بأى قوة أخرى..
وعلى ذلك فإن بوابة الموت لم تُغلق فى وجه
السماء والشمس والأرض والبحار ذات الأمواج العالية،
بل إنها مفتوحة وتنتظرها بفمها الوحشى الواسع.
وعلى ذلك ينبغى عليك أن تقر بأن هذه الأشياء
لها ميلاد، لأن الأشياء ذات الجسد الفانى ليس
بإمكانها أن تصمد إلى ما لا نهاية أمام القوة الهائلة للزمن،
من العصور السحيقة إلى عصرنا الراهن.
علاوة على ذلك، حيث إن العنصرين الكبيرين بالكون (النار

والماء) يتناحران كثيراً فيما بينهما، بعد وقوعهما فى حرب آثمة[1]،
ألا ترى أن نهايةً ما يمكنها أن تضع حداً لهذا
الصراع الطويل؟ قد تأتى هذه النهاية عندما تتفوق الشمس
وحرارتها على الأنهار، بعد تبخير جميع المياه؛ وإنهما يناضلان
من أجل عمل ذلك، بيد أنهما إلى الآن لم ينجحا فى محاولتهما.
فالمجارى المائية تمد بالكثير من الماء، ولذلك فإنها تهدد
بإغراق كل شئ من الخليج العميق للمحيط،
ولكن تهديداتها تذهب سدى؛ حيث إن الريح العاتية تقلص من
المسطحات المائية، وشمس السماء تبخرها بأشعتها،
وهما (أى الريح والشمس) على يقين أن بإمكانهما تجفيف
كل شئ، قبل أن يتمكن الماء من أن يحقق أهدافه.
وهكذا فإن هذين العنصرين يطيلان من أمد الحرب الهائلة بينهما ذات
الصراع المتكافئ، فهما يتصارعان فيما بينهما لأسباب وجيهة.
على الرغم من أن الأسطورة تروى أن النار فيما مضى كانت لها الهيمنة
على الأرض، فإن الماء ذات مرة انتصر وهيمن على السهول.
لكن الغلبة كانت للنار إذ أحرقت والتهمت مناطق كثيرة من الأرض،

---

(١) وصف لوكريتيوس للحرب بين العناصر الأربعة فى الكون بأنها حرب آثمة يأتى على أساس أن العناصر فى محل الأخوة، ويبدو أن الحرب الأهلية كانت فى ذهنه.

عندما قامت خيول الشمس بقوتها الثائرة والشاردة بجذب
فايتون[١] خارج مدار السماء كله، فحلق فوق الأرض كلها.
لكن الأب القدير، وقد استشاط بغضب عارم،
أسقط فايتون الطموح من فوق الجياد إلى الأرض
بضربة مباغتة من صاعقته، وكان إله الشمس فى مواجهته
أثناء سقوطه فأمسك الشمس، مصباح العالم الخالد،
وأعاد الجياد أدراجها بعد تفرقها وربطها وهى ترتعد،
ثم سار بها فى مدارها وأمسك بزمام الأمور؛
تلك هى الرواية التى تغنى بها الشعراء القدماء من الإغريق،
وهى بعيدة كل البعد عن الحقيقة وعن التفكير السديد.
لأن النار يمكن أن تكون لديها القدرة على الانتصار عندما يتجمع
الكثير من ذرات مادة النار من الفضاء اللا نهائى؛
ثم تقع الكارثة بعد ذلك: فإما أن تخبو قواها بطريقةٍ أو بأخرى،
أو يحترق العالم بالعواصف الحارقة ثم يفنى تماما.

تروى أسطورة أخرى كيف أن الماء هو الآخر أخذ فى بسط
سيطرته ذات مرة عندما غمر الكثير من مدن البشر؛

---

(١) فايتون هو ابن إله الشمس هيليوس، وقد طلب من والده أن يقود عربة الشمس ذات صباح، ولكنه لم ينجح فى السيطرة على الجياد التى جنحت به وكاد يحرق العالم فقتله زيوس بصاعقة.

لكن قوته انحسرت بعد ذلك بتجمعها بعيدًا عن معينها الذى لا ينضب، حيث تراجعت إلى الوراء بعد انحرافها بطريقةٍ أو بأخرى،
وتوقفت الأمطار وأُصيبت قوة الأنهار بالوهن فلم تفض.
والآن سأتحدث، طبقًا للترتيب الذى وضعته، كيف
أدى تجمع الذرات إلى خلق الأرض والسماء
وأعماق المحيط ومدارىْ الشمس والقمر،
فالذرات بالتأكيد لم تنظم نفسها فى أماكنها
بحكمة بالغة، أو بخطة تنم عن تدبير حكيم،
كما أنها بالتأكيد لم تتفق فيما بينها على كيفية حركة كل منها؛
بل إن ذرات العالم الأولى لكثرتها كانت تتحرك فى اتجاهات
عديدة جراء اصطدامها ببعضها، وذلك منذ زمن سحيق،
وقد اعتادت أن تُحمل طبقًا لأوزانها وأن تتحد بطرق شتى،
وأن تبذل قصارى جهدها وتجرب كل السبل
كى تدرك: أى منها يؤدى اتحاده إلى إنجاب مولود ما؛
لذا فإنه بعد هذه الفترة الزمنية الطويلة من انتشار الذرات،
التى جربت فيها كل ضروب الحركة والاتحاد،
قد جُمعت فى النهاية الذرات التى التحمت فجأة مع بعضها بعض، وشكلت فى الغالب بداية الموجودات الضخمة

كالبحر والأرض والسماء وجميع أنواع الكائنات الحية.
في ذلك الوقت لم يكن بالإمكان رؤية قرص الشمس
وهو يحلق في مداره العالي بنوره الفياض، ولا نجوم العالم العظيم،
ولا البحر ولا السماء، وأخيرًا ولا الأرض ولا الهواء،
فلم يكن هناك أي شئ مشابه لتلك الموجودة في عصرنا،
بل كان الكون أشبه بكتلة واحدة من المادة الخام غير المستقرة؛
فبعد أن اتحدت كل أنواع الذرات الأولى دب النزاع بينها،
ونشبت المعارك وحدثت فوضى في المسافات والاتجاهات
والارتباطات والأوزان والصدمات واللقاءات والحركات،
وذلك بسبب اختلاف أشكالها وتعدد صورها،
فلم يكن بإمكان كل الذرات الأولى أن تظل متحدة،
ولا أن تؤدّى حركات متناغمة فيما بينها؛
ومن ثم بدأت الأجزاء في الانفصال، وأخذت العناصر
المتشابهة في الاتحاد مع مثيلاتها، وبدأ العالم يأخذ شكله،
وانقسمت أجزاؤه، وانتظمت أعضاؤه العظمى،
فانفصلت السماء العالية عن الأرض،
وانفصل البحر بمياهه الممتدة في مكانٍ له وحده،

وكذلك انفصلت نجوم السماء لتتلألأ فى مكانها.
والحق أنه فى البداية اتحدت ذرات الأرض
فى المنتصف، ولأنها كانت ثقيلة ومتماسكة
فقد هبطت وأخذت مكانها فى الأسفل،
فالذرات الأكثر تماسكاً اتحدت فيما بينها،
ونأت بذاتها عن الذرات التى شكلت البحر والنجوم
والشمس والقمر وحصون العالم العظيم.
ولأن كل تلك الموجودات قد صُنعت من ذرات أكثر خفة
وأكثر استدارة، فهى أصغر بكثير من الأرض.
وعلى هذا فإن الأثير حامل النار صعد أولاً لأعلى مندفعاً
خارج أجزاء الأرض عبر العديد من الفجوات،
ولكونه خفيفاً فقد حمل معه الكثير من النيران على هيئة النجم،
وهى هيئة لا تختلف كثيراً عما نراها الآن،
عندما تتورد بالنهار الأشعة الذهبية للشمس المتوهجة
فوق الأعشاب المتلألئة بحبات الندى،
وعندما ينبعث بخار الماء من البحيرات الراكدة والأنهار دائمة الجريان، وحتى الأرض ذاتها فإن الدخان يملؤها أحياناً؛

وعندما يتجمع ذلك البخار والدخان من فوقنا فإن السحب
تحجب السماء فى جسد متماسك علوىّ..
وعلى ذلك فإن الأثير حينئذٍ يكون خفيفاً ومتمدداً على النحو الآتى:
فهو ينثنى ويحيط بكل مكان بجسده المتماسك،
وهو ينتشر فى نطاق واسع فى كل اتجاه،
وهكذا فإنه يطوق سائر الأشياء الأخرى فى حضنه الواسع.
تبع نشأة الأثير نشأة الشمس والقمر وكل الكواكب
التى تدور فى الهواء فى الفلك الواقع بين الأرض والأثير؛
فهى الأجسام التى لم تنجح الأرض ولا الأثير فى الاستئثار بها،
وذلك لأنها لم تكن من الثقل العظيم بحيث تغوص وتتجه نحو الأرض،
كما أنها ليست خفيفة حيث تطفو فى المناطق الأكثر ارتفاعاً ناحية
الأثير،على أيِ حال فإن الشمس والقمر يظلان بين الأرض والأثير،
فهما يتعاقبان كأجسام نشطة، وبقيا كجزء من الكون كله؛
ومثلما هى الحال فى أجسادنا؛ فإن بعض الأعضاء تظل بلا حركة،
فى حين أن أعضاء أخرى تقدر على الحركة،
على ذلك عندما ارتدت هذه الأشياء إلى الوراء، هبط سطح
الأرض فجأة لأسفل، حيث تمتد الآن المناطق الشاسعة

الزرقاء للبحر، فامتلأت فجواتها بفيضٍ من الماء المالح.
ويوماً بعد يوم، فإن المد والجزر – الذى سببه الهواء –
وأشعة الشمس ضغطا على الأرض المسطحة فى كل أرجائها
بضربات عديدة لتندمج مع أقطابها القصوى،
وهكذا فإن الأرض بعد أن سُحقت تجمعت والتحمت عند مركزها،
علاوة على ذلك فإن المياه الجوفية المالحة بعد أن تسربت من جسدها
زادت من مساحة البحار والمسطحات المائية الصالحة للسباحة؛
هذا، كما أن الذرات الكثيرة للحرارة والهواء انسابت
إلى الخارج بعيدًا عن باقى المواد وأخذت فى الطيران عالياً،
ثم تكثفت بعيدًا عن الأرض وكونت المناطق المضيئة للسماء.
وأخذت السهول فى الاستقرار، وأخذت الهضاب فى الارتفاع وصارت
جبالاً شاهقة، لأن الصخور لم يكن بإمكانها أن تغور فى الأرض،
وهكذا لم يكن بإمكان كل أجزاء الأرض أن تستوى عند مستوى واحد.
وعلى ذلك فإن الوزن الثقيل للأرض جعل جسدها المتماسك
أكثر رسوخاً، وكأن طين الكون كله قد تدفق دفعة واحدة بثقله
إلى أسفل، واستقر فى القاع مثل الرواسب.
أما البحر والهواء والأثير نفسه حامل النار،

لأنها قد نشأت من ذرات سائلة فقد حافظت جميعاً على نقائها؛
وكان بعضها أخف من البعض الآخر، ولأن الأثير أكثرها
سيولة وأكثرها خفة، فهو يرتفع فوق نسمات الهواء،
وهو لا يسمح لمادته السائلة بأن تمتزج بالرياح العاصفة للهواء،
إنه يسمح لكل المناطق التى تحته بأن تنقلب رأساً على عقب
بفعل الريح العاتية، فهو يجعلها تضطرب بفعل العواصف العكسية،
بينما هو نفسه يشق طريقه باندفاع ثابت حاملاً نيرانه.
ويبرهن البحر الأسود على إمكانية ارتفاع الأثير بخفة
وبشكل منتظم، فهو البحر الذى يرتفع بمد وجزر ثابت،
وهو يحافظ دائمًا على اتجاه واحد لحركة انسياب الماء.
والآن هيا بنا نتغنى بأسباب حركة النجوم:
أولاً، إن افترضنا أن قبة السماء الضخمة تدور،
فإنه ينبغى علينا القول إن الهواء يضغط على السماء
من قطبيها، ويحدها من الخارج ويحيط بها من كل جانب؛
فإما أن هناك تيار هواء آخر يصعد أعلى قبة السماء، ويتحرك فى
الاتجاه نفسه الذى ينبغى أن تدور فى فلكه النجوم المتلألئة للكون السرمدى؛
أو أن هناك تياراً هوائياً آخر أسفل قبة السماء يرفعها فى الاتجاه العكسى،

مثلما نرى أن الأنهار الجارية تقلب السواقى والدلاء.

هناك احتمال آخر: فمن الممكن أيضًا أن تكون السماء كلها ثابتة
فى مكانها بلا حراك، بينما النجوم المضيئة بها هى التى تدور..
قد يحدث هذا بسبب أن تيارات الهواء السريعة حبيسة داخل السماء،
وأنها تتحرك فى شكل دائرى بحثاً عن الطريق، وهى تدير معها
النجوم عبر أقطار الليل الشاسعة؛
أو بسبب أن تيار هواء خارجى يصدر من أحد الجوانب
يدور ويقود النجوم أثناء دورانه، أو لأن النجوم ذاتها لديها القدرة
على الحركة، فهى تذهب إلى حيث يناديها طعامها ويجذبها نحوه،
وبذلك تطعم أجسادها المستعرة فى كل مكان بالسماء.

على أي حال؛ فإنه لمن الصعب تحديد السبب الحقيقى وراء حركة
النجوم فى هذا العالم، لكن مناقشتى تُظهر أن أى شئ قابل للحدوث
أو يحدث بالفعل فى كل أرجاء الكون، فلعل هناك أسباباً مختلفة تحدث
فى عوالم عديدة؛ وهكذا فقد حاولت أن أطرح قائمة من التفسيرات
للأسباب، التى يمكنها أن تتعلق بحركة النجوم فى كل أنحاء الكون؛
فلا بد أن يكون أحد هذه الأسباب هو السبب الفعلى لحركة
الأبراج بعالمنا، على أي حال فإن الحرص على تحديد السبب
الحقيقى يعد من خصال الرجل الذى يتقدم بحذر مثلى خطوة بخطوة.

علينا الآن أن نفهم كيف تقع الأرض فى المنطقة المركزية لعالمنا،
والإجابة أن وزنها لا بد أنه يتناقص تدريجياً وأن حجمها يقل،
ولا بد أن أجزاءها السفلية كانت من مادة أخرى التحمت بها
منذ بداية وجودها، ومن ثم صارت جزءاً من أجزاء
العالم بالهواء الذى زُرعت به ولا تزال تسكن به.
وعلى هذا فإن الأرض لا تمثل عبئاً على الهواء ولا تضغط عليه،
مثلما هى الحال بالنسبة للإنسان فإن أعضاءه لا تمثل عبئاً عليه،
فالرأس ليست عبئاً على الرقبة، وخلاصة القول فإننا لا نشعر
بأن الوزن الكلى للجسم يضغط على القدمين؛
لكن أى ثقل من خارج الجسد يوضع فوقنا
فإنه يرهقنا، على الرغم من أنه فى الغالب يكون أخف بكثير.
وإنه لمن المهم أن ندرك مدى تأثير أى شئ عند وضعه على
شئ آخر.. وعلى ذلك فإن الأرض ليست جسماً غريباً جيئ
به فجأة، وأُلقى به من مكانٍ آخر على الهواء الغريب عنه،
بل إنها نشأت مع باقى أجزاء العالم كجزء أصيل منه وذلك
منذ بدايته الأولى، مثلما نرى أن أطرافنا قد خُلقت معنا كجزء منا.

فضلاً عن ذلك؛ فإن الأرض بعد أن ارتجفت بشكل مفاجئ بصاعقة
عظيمة، فقد أثرت بحركتها فى كل ما فوقها من غلافٍ جوىّ،
وهو الأمر الذى لم تستطع فعله من قبل بأي وسيلة، إلا عندما
ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالأجزاء الهوائية من العالم وبالسماء؛
لأنها قد تماسكت فيما بينها نظراً لأصولها المشتركة،
واتحدت وتشابكت معًا منذ بداية عمرها.
ألا ترى أيضًا كيف أن مادة الروح بالغة الرقة
تمد الجسد بوزنه الثقيل بأسباب الحياة،
لأنهما حقًا مرتبطان ببعضهما، بل ومتحدان فى كيان واحد.
وأخيرًا فهل هناك قوة ما بإمكانها حقًا أن ترفع الجسد بوثبة رشيقة
سوى قوة الروح التى تتحكم فى أعضاء الجسم؟
ألا تدرك الآن مدى القوة التى يمكن للمادة الضعيفة أن
تمتلكها عندما ترتبط بجسم ثقيل،
مثلما يرتبط الهواء بالأرض، وترتبط قوة الروح بالجسد؟
إن قرص الشمس وحرارته لا يمكن أن يكونا
أكبر بكثير أو أقل بكثير مما يبدو لحواسنا.
بإمكان النيران أن ترسل ضوءها وأن تبعث
حرارتها الدافئة لأجسادنا من أي مسافة بعيدة،

وهذه الحرارة المنبعثة من تلك المسافة لا تنقص شيئاً من
حجم لهبها، كما أن النار لا تبدو للعين أكثر تضاؤلاً.
ومن ثم، حيث إن حرارة الشمس والنور الذى تنشره
يصلان إلى حواسنا وينيران العالم من حولنا،
فإن الشمس، بشكلها وحجمها أيضاً، ينبغى أن تبدو لنا من الأرض كما
هى فى الواقع، بحيث لا يمكنك إضافة أى شئ لها أو تنقص أى شئ منها.
...(١)
والقمر الجوال فى السماء أيضاً، سواء أكان ينير العالم بضوء
زائف، أم إنه يرسل ضوءه الخاص من جسده هو نفسه،
أيّما يكون الأمر، فإنه ليس أكبر مما يبدو،
بل هو كما نراه بأعيننا.
لأن كل الأشياء التى نراها من مسافة بعيدة
عبر الهواء الكثيف تبدو غير واضحة الشكل،
فهى تبدو أصغر فى الحجم.. وعلى ذلك، حيث إن القمر
يقدم مظهراً صافياً وشكلاً واضحاً فإنه ينبغى
رؤيته فى عليائه بواسطتنا من الأرض بالشكل بنفسه

---
(١) هذا البيت غير موجود فى المخطوط وليس من السهل تخمين محتواه.

المحدد له بالضبط والحجم نفسه الذى يبدو لنا.

أخيراً فإن كل نجوم السماء التى تراها من هنا،
والتى نراها من الأرض منذ أمد بعيد،
ما دام وميضها واضحًا لنا، وما دمنا نرى وهجها،
فإن حجمها بالتأكيد يبدو أحياناً أنه يتغير قليلاً
من مكان لآخر، وذلك طبقًا لمدى البعد،
فلعلك تدرك أن حجمها من الممكن أن يكون أصغر بقليل
أو أكبر بمقدار ضئيل جدًا مما يبدو لنا.

هناك شئ آخر لا ينبغى أن يثير الدهشة: بأية وسيلة
يمكن لتلك الشمس بالغة الصغر أن ترسل مثل هذا الضوء العظيم،
حيث تملأ بفيض نورها البحار وكل الأراضى والسماء،
وهى تنفذ إلى كل شئ بحرارتها الساخنة.
.... (1)
فإن من الصواب القول إن من هذا المكان قد فُتح نبع واحد
للعالم كله ليرسل وينشر نوره السخى،

---

(1) هذا البيت مفقود وموجود بدلاً منه فى المخطوط الأصلى البيت رقم ٥٨١.. ربما حدث ذلك عن طريق الخطأ أثناء نسخ المخطوط.

لأن كل ذرات الحرارة تتجمع هناك من كل بقاع العالم،
ثم تتدفق بعد اتحادها على هذا النحو،
فتنبعث هذه الحرارة من مصدر واحد.
ألا ترى أيضًا كيف أن نبعاً مائياً صغيراً
يروى أحياناً المراعى البعيدة والشاسعة ويغمر السهول؟

هناك احتمال آخر وهو أن الحرارة المنبعثة من الشمس، على الرغم
من أنها ليست هائلة، فإنها تتخلل الهواء بحرارتها الساخنة،
وذلك إن كان الهواء بالصدفة مناسباً وطيعاً،
حيث يمكنه الاشتعال عند التقائه بقدر ضئيل من الحرارة؛
وذلك مثلما نرى أحياناً أن أعواد القمح والقش
تشتعل كلها بالنار من شرارة واحدة.

من المحتمل أيضًا أن الشمس عند شروقها فى السماء بمصباحها
الوردى تحيط نفسها بنار هائلة من مخزون الحرارة غير المرئية لنا،
وعلى الرغم من أنها قد لا تسطع بأى ضياء،
فإنها تزيد من قوة أشعتها حيث يمكن إدراكها.

لا يبدو قانون حركة الشمس واضحاً ومؤكداً لنا،
فليس من المعروف كيف تتجه الشمس من مناطقها الصيفية

إلى الجانب الشتوى من مدارها ببرج الجدى، وكيف ترتد من
هذا المكان لتعود أدراجها إلى جانبها الصيفى ببرج السرطان؛
ولا ندرى كيف نرى القمر وهو يقطع كل شهر تلك المسافة،
التى تقطعها الشمس فى دورتها فى رحلتها السنوية.
وإننى أؤكد أنه لا يمكن تحديد سبب واضح لهذه الظواهر الطبيعية؛
إلا أن هناك تفسيراً من التفسيرات من الممكن أن يكون وجيهاً،
ذلك الذى نادت به الفلسفة الجليلة للرجل العظيم ديموكريتوس[1]،
حيث قال: كلما كانت الأجرام السماوية أقرب إلى الأرض،
كانت قدرتها على الحركة فى فلك السماء أكثر بطئاً.
لأن درجة السرعة أثناء الحركة تقل وتتلاشى فى المناطق
السفلى، ومن ثم فإن الشمس تتراجع إلى الخلف
تدريجياً ومعها تلك الأبراج التى تتبعها،
وذلك لأن مدارها يقع أسفل بكثير من الأبراج المستعرة [2]،
وقال أيضًا إن القمر، للسبب نفسه، يقع فى الخلف أكثر من الشمس،

---

(١) وُلد الفيلسوف الإغريقى ديموقريطوس عام ٤٦٠ ق. م. فى مدينة أبديرا بثراقيا، وتوفى عام ٣٧٠ ق. م.، وكان تلميذاً للفيلسوف ليوكيبوس صاحب النظرية الذرية فى تفسير خلق الكون.

(٢) يتبين لنا من وجهة نظر لوكريتيوس هذه أن الأرض ثابتة فى المركز، وأن الشمس وأبراج المجموعة الشمسية بالمدار تتحرك فى اتجاه واحد، لكن الشمس أكثر بطئاً من الأبراج لقربها من الأرض، ولهذا فإن الأبراج تلحق بالشمس الواحد يلى الآخر، وهكذا فإن الشمس تبدو كأنها تسير فى عكس اتجاه الأبراج.

ولأن مدار القمر كان أكثر انخفاضاً فقد كان يبتعد أكثرعن السماء
ويقترب من الأرض، وبالقدر نفسه كان مداره أقل قدرة على مسايرة
الأبراج فى السرعة. ولأن مدار القمر أدنى من مدار الشمس،
فإن مداره هو الأكثر بطئاً، ولذلك فإن كل الأبراج من حوله
تلحق به وتتخطاه من أسفل؛
ولذلك فإن القمر يبدو كأنه يعود إلى كل برج من الأبراج بسرعة
أكبر من الشمس، والحقيقة هى أن الأبراج هى التى تعود إليه بسرعة.
من المحتمل أيضًا أن هناك تيارين للهواء[1] يهبان فى السماء
بالتناوب من أحد جانبى العالم مع تغيير الفصول،
يدفع أحدهما الشمس بعيدًا عن الأبراج الصيفية
ويوجهها نحو الأبراج الشتوية حيث قشعريرة الثلج،
فى حين أن التيار الآخر يعيد الشمس من المناطق الثلجية
للشتاء ويوجهها نحو المناطق الحارة والأبراج الساخنة.
وبطريقة مماثلة يمكننا أن نفترض أن القمر والنجوم،
التى تدور فى أفلاكها منذ سنوات كثيرة،
تتحرك بفعل تيارين من الهواء، تيار من كل جانب.
ألا ترى كيف أن السحب تتحرك فى اتجاهات مختلفة بفعل حركة

---

(١) لعل لوكريتيوس هنا يقصد الرياح الموسمية.

الرياح فى اتجاهات عكسية، فالسحب الدنيا تسير فى عكس
اتجاه العلوية؟ وعلى ذلك أليس من الممكن لتلك الأجرام السماوية
أن تُحمل من قبل التيارات المتضادة عبر المدارات العظيمة للأثير؟

لكن الليل يغشى الأرض بظلام حالك:

إما لأن الضوء يصبح خافتاً عندما تصل الشمس إلى الأطراف
النائية للسماء بعد رحلة طويلة، وتنشر أشعتها وهى واهنة،
وقد انهكت من طول رحلتها وضعفت أثناء مرورها فى الهواء الكثيف؛
وإما لأن القوة – التى تضطرها إلى الدوران فى مدارها فوق الأرض –
تدفعها إلى الدوران فى مدارها أسفل الأرض.
بالمثل فإن ربة الصباح ماتوتا[1] تجلب
الفجر الوردى عبر أقطار الأثير وتنشر ضياءها:
إما لأن الشمس أثناء دورانها أسفل الأرض تتوق إلى
العودة من جديد والسيطرة على السماء وتحاول نشر أشعتها،
وإما لأنه فى وقت محدد من اليوم تتجمع الأجسام النارية
وأن العديد من ذرات الحرارة اعتادت أن تلتقى فى حشد واحد،
ما يؤدى إلى مولد ضوء الشمس الجديد بشكل مطرد.

---

(١) الأم ماتوتا هى ربة رومانية وصفها فارو بأنها ربة للنماء، ووصفها لوكريتيوس بأنها ربة لنور الصباح، وهى تقابل الربة ليوكوثيا أو ربة الفجر أورورا عند الإغريق.

وطبقًا لما يُقال بين الناس فإنه من قمة جبل إيدا[١] الشاهقة
يمكن رؤية أشعة الشمس المنتشرة جهة الشرق وقت الفجر،
ثم تتجمع بعد ذلك وكأنها فى كرة واحدة ثم تصبح نجماً واحدا.
على أي حال؛ فإن هذه الظاهرة الطبيعية ينبغى ألا تثير دهشتنا،
إذ إن ذرات النار تلك يمكنها أن تصعد مجتمعة
فى وقت محدد وبذلك تعيد إشراق الشمس؛
لأننا نرى أن أشياء كثيرة تحدث فى أوقات محددة،
وذلك فى كل أقسام الطبيعة. ففى وقت محدد تزهر النباتات،
وفى وقت محدد تسقط أزهارها..
وعلى هذا النحو أيضًا فإن مرحلة سِّنية بعينها ترغم الأسنان على السقوط،
وتدعو الشعر الناعم إلى الظهور على جسد الصبى عند بلوغه الحلم،
وبذلك تظهر لحيته الناعمة على خدَّيه بالتساوى.
وأخيرًا فإن الظواهر المناخية كالرعد والثلج والأمطار والغيوم
والرياح تحدث فى فصول محددة من السنة.
وحيث إن البدايات الأولى للظواهر الطبيعية قد بدأت بهذه الطريقة،
وإن كل ظاهرة فى العالم قد سارت من البداية على نهج نموذجها الأول،

---

(١) هو جبل إيدا فى فريجيا. وقد تحدث عن الظاهرة نفسها ديودوروس الصقلى (Diod. Sic.17.7.5-7).

لذا فإن الظواهر الطبيعية بالتالى تتكرر إلى الآن فى نظام ثابت.
أما بالنسبة لسبب ظاهرة أن النهار يطول والليل يقصر،
ثم يقصر ضوء النهار بعد ذلك عندما يزداد طول الليل،
قد يحدث ذلك إما لأن الشمس أثناء عبورها أسفل الأرض
وفوقها تقسم أقطار الأثير إلى قوسين غير متساويين،
كما أنها تشطر مدار السماء إلى قسمين غير متساويين،
حيث إنها أثناء دورانها تنتقص مقداراً من أحد جزءَيْها
وتعطى المقدار نفسه للجزء الآخر،
وتظل على ذلك الحال إلى أن يصل فى السماء إلى ذلك البرج[(١)]،
حيث نقطة التقاء العام الذى عنده يصبح ظلام الليل مساوياً لضوء النهار.
لأنه بالسماء نقطتا التقاء يبعدان عن بعضهما بمسافة متساوية،
يلتقى عندهما كل من الريح الشمالية والجنوبية،
وهى تحافظ على هذه المسافات من أجل تنظيم دائرة البروج كلها،
التى تدور فى إطارها الشمس وتقطع رحلتها السنوية ببطء،

وبذلك تنير الأرض والسماء بالنور الذى تصدره بشكل مائل،

---

(١) يقصد هنا برج الحمل فى الربيع، وبرج الميزان فى الخريف.

يأتى هذا التقرير وفقاً لعلم هؤلاء الرجال الذين قسموا كل
مواقع السماء التى تزينت بالنجوم.
وإما لأن الهواء أكثر كثافة فى مناطق بعينها،
وبذلك فإن أشعة الشمس المرتعشة تتلكأ أسفل الأرض،
ولا يمكنها أن تصل إلى الأرض بسهولة فتناضل من أجل أن تشرق؛
ولهذا السبب فإن الليل فى فصل الشتاء يطول
إلى أن يعود من جديد ضوء النهار الباهر.
وإما لأنه عند تغيير فصول السنة اعتادت ذرات النار،
التى تجعل شمساً جديدة تشرق كل يوم فى مكان محدد بالسماء وفى
وقت محدد، اعتادت أن تتجمع على نحو أكثر بطئاً تارة وعلى نحو أسرع
تارة أخرى، وذلك طبقًا لهؤلاء الرجال الذين يبدون أنهم يقولون الحق.
وفيما يتعلق بالقمر؛ فإنه يبدو منيراً عندما تسقط عليه أشعة الشمس،
وحيث إنه يأخذ فى الارتداد للخلف مبتعداً بكثير عن مدار الشمس،
فإنه يوماً بعد يوم يعكس لنا المزيد من النور على سطحه،
إلى أن يصبح مواجهاً للشمس تمامًا فيكتمل نوره،
عندما يحلق عالياً جهة المشرق فيرى الشمس وهى تغرب.
بعد ذلك ينبغى على القمر أن يبدأ رحلة العودة فيبدو تدريجياً كأنه
يخفى نوره خلفه، حيث يتجه نحو الجانب الغربى من دائرة الأبراج،

وبذلك يصبح القمر هو الأكثر قرباً من حرارة الشمس.
تلك هى وجهة نظر الفلاسفة الذين يعتقدون أن القمر يشبه الكرة
وأنه يشق طريقه أسفل الشمس (أى بين الشمس والأرض).
ثمة رأى آخر يقول: إن القمر أثناء دورانه فى الفضاء يضيء بنوره
هو، وبذلك يعرض لنا أشكالاً عديدة لضيائه؛
لأنه من المحتمل أن هناك جسماً آخر يسبح بمحازاة القمر
وأنه يحاول بشتى الطرق أن يعترض ويمنع وصول نور القمر،
بيد أننا لا نستطيع أن نرى هذا الجسم وذلك لأنه معتم..
فمن المحتمل أن القمر يدور حول نفسه كالكرة فى مداره
وبذلك يظهر الضوء على شطر واحد فقط منه،
وفى رحلة دورانه فى مداره يعرض لنا صوره العديدة،
إلى أن يدير ذلك الشطر المنير ويوجهه
نحو أبصارنا فنراه كاملاً بملء أعيننا..
بعد ذلك فإنه يدور تدريجياً فى الاتجاه العكسى ويُبعد
عنا الشطر المنير من كرته دائرية الشكل.

تلك هى النظرية التى تحاول تعاليم المنجمين البابليين[1] أن تثبتها،
والتى ترفض نظرية علماء الفلك الإغريق، وتسعى لإثبات عدم
صحتها، ومع ذلك فإن النظرية التى يقاتل من أجلها كل فريق قد
تكون خاطئة، ولا يوجد أى مبرر لترجيح واحدة على الأخرى.

وأخيراً، لماذا لا يولد قمر جديد بشكل دورى كل يوم
ويتسلسل ثابت لصوره وأشكاله؟
ولماذا لا يغيب كل قمر وليد عن الأنظار بعد انقضاء اليوم،
ويولد قمر آخر فى مكانه نفسه ليلعب دوره نفسه؟
حيث إنك ترى أن أشياء كثيرة تولد بترتيب محدد،
إن من الصعب إثبات ذلك بالحجة والإقناع بالكلمات.
يأتى الربيع ومعه فينوس، ويسبقهما كيوبيد المجنح
مبشراً بقدوم فينوس، وتمهد الأم فلورا[2] لهم الطريق
مستعينة برياح زفيروس[3] الغربية،

---

(١) يقصد لوكريتيوس الكاهن البابلى بيروسوس "Berosus" الذى يقول إن القمر يدور كالكرة، وقد ذكر الكلام نفسه المهندس فيتروفيوس (Vitruvius 9.2.1)، علماً بأن بابل كان لها تأثير واضح على بلاد اليونان فى مجال الفلك والتنجيم.

(٢) فلورا هى ربة الزهور والربيع عند الرومان، بدأت عبادتها فى روما منذ العصور المبكرة فقد نذر لها الملك السابينى تاتيوس معبداً، فهى إذاً ربة سابينية. أقام لها الرومان احتفالاً يحمل اسمها وهو عيد الفلوراليا، وكان يبدأ يوم ٢٨ أبريل ويستمر حتى اليوم الأول من مايو، وكان يتسم بالمرح الزائد والمجون.

(٣) زفيروس هو أحد آلهة الرياح وهى: زفيروس إله الرياح الغربية، وأوستير إله الرياح الجنوبية، وأركتوس إله الرياح الشمالية، ويوروس إله الرياح الشرقية، وفولتورنوس إله الرياح الشرقية-الجنوبية.

حيث تملأ كل الأماكن بالألوان المبهرة وبعبق الزهور.
بعد ذلك تأتى حرارة الصيف الباعثة على الجفاف وبرفقتها
كيريس المثيرة للتراب والرياح الموسمية المقبلة من الشمال.
ثم يأتى الخريف ومعه باكوس الملقب بيوهيوس يوان[1].
ويعقب ذلك مناخ آخر ورياح أخرى: الرياح الجنوبية-الشرقية (فولتورنوس)
المدوية بالرعد فى السماء، والرياح الجنوبية العاتية (أوستير)
المصحوبة بالبرق، وأخيرًا يجلب الشتاء الثلوج ويعود الصقيع المسبب
للخمول، ويتبعه البرد الذى يحمل الأسنان على الاصطكاك.
وحيث إن الكثير من الظواهر الطبيعية يمكنها الحدوث فى وقتٍ بعينه،
فلا غرو إذن فى أن يولد القمر فى وقتٍ محدد
وأن يصير محاقاً مرة أخرى فى وقتٍ محدد أيضاً..

بالمثل فإنه ينبغى عليك أن تدرك أيضًا أن كسوف الشمس
وخسوف القمر من الممكن أن يحدثا لأسباب عديدة.
ولعلك تسأل لماذا بإمكان القمر أن يحجب أشعة الشمس عن الأرض،
فهو يرفع رأسه عالياً تجاه الأرض ليحجب الشمس عنها،
إذ يضع كوكبه المعتم فى مواجهة أشعة الشمس الساطعة؛

---

(١) يوهيوس يوان من ألقاب إله الخمر باكوس، وقد حصل عليه من الصيحات التى كانت تطلقها عابدات باكوس أثناء الاحتفال بالإله.

ولماذا لا نعتقد أن جسماً آخر معتماً دائم الدوران فى
هذا الفلك هو الذى يحدث هذا التأثير؟
ولماذا لا تفقد الشمس القدرة على إرسال أشعتها وأن
تضعف فى وقت بعينه ولا يمكنها أن تجدد ضوءها،
وذلك عندما تمر فى الهواء ببعض المناطق التى تؤثر بالسلب فى
أشعتها، فالهواء يتسبب في إطفاء جذوة نارها وإخمادها؟
ولماذا يمكن للأرض هى الأخرى أن تسلب القمر من نوره،
وذلك بالمرور من فوق الشمس وبذلك تحجب أشعتها عن القمر،
بينما يمر القمر فى رحلته الشهرية خلال الظلال الكثيفة للأرض على
القمر؟ ولماذا لا يكون بمقدور أى جسم آخر أن يمر أسفل القمر
فى ذلك الوقت، أو أن يمر فى أعلى مدار الشمس
حيث يعترض أشعتها ونورها الساطع؟
على أي حال؛ لو افترضنا أن القمر ينير بضيائه هو،
فلماذا لا يخفت نوره فى أماكن بعينها من السماء،
أثناء مروره عبر مناطق تؤثر فى نوره؟
....
والآن أتناول ما بقى، حيث إننى قد وضحت كيف يمكن

لأى ظاهرة طبيعية أن تحدث فى سماء عالمنا الفسيح الزرقاء،
فقد أصبح بمقدورنا أن نعرف ما القوة وما العوامل
التى قد تتسبب فى دوران الشمس وفى تجولات القمر،
وقد وضحت كيف يُحجب نورهما ويتعرضان للكسوف والخسوف،
وبذلك يغشى الأرض ظلام مفاجئ،
عندما يبدوان كأنهما قد أغمضا أعينهما لبعض الوقت،
ثم يفتحانها مرة أخرى ويحدقان فى كل مكان بالعالم بنورهما الساطع.
والآن أعود إلى الحديث عن نشأة العالم وذلك لنقرر
أى نوع من الثمار أخرجتها الحقول البكر إلى النور
بعد أول مخاض لها، وعهدت بها إلى تقلّب الريح.
فى البداية أخرجت الأرض إلى الوجود العشب الزاهى،
حيث كست به التلال وكل السهول،
فسطعت المروج المزدهرة باللون الأخضر النضير،
ثم كُتب على كل أنواع الأشجار صراع كبير،
فقد أُطلق لها العنان فى النمو والارتفاع عبر الهواء العاصف.
وكما أن الريش والشعر والوبر قد كست منذ بداية الخليقة
أجساد ذوات الأربع وأجساد الطير ذوى الأجنحة،

لذا فإن الأرض الوليدة قد أنبتت الحشائش والشجيرات أولاً،
ثم أنجبت بعد ذلك سلالات عديدة من المخلوقات الفانية،
حيث أخرجت للوجود مخلوقات متعددة الأشكال وبطرق عديدة،
لأن الحيوانات لا يمكن أن تكون قد هبطت من السماء،
ولا يمكن لحيوانات الأرض أن تكون قد خرجت من البحار المالحة.
بقى أن نذكر أن الأرض قد اكتسبت لقب الأم
عن استحقاق، لأن كل المخلوقات قد نشأت من الأرض.
وإلى يومنا هذا؛ فإن الكثير من الكائنات الحية تنشأ من طين الأرض
بعد أن تشكلت بمساعدة الأمطار وحرارة الشمس الباعثة على الحياة؛
لذا فإنه ليس من الغريب أن ظهرت فى ذلك الوقت مخلوقات أكثر عدداً
وأكبر حجماً، ثم كبرت عندما كانت الأرض والهواء حديثى العهد.
فى البداية خرجت أنواع كثيرة من فصيلة الطيور
من بيضها، بعد أن فقس فى فصل الربيع،
مثلما تخرج الجنادب حالياً فى فصل الصيف من بيضها الغشائى
من تلقاء نفسها وهى تنشد الطعام والبقاء فى الحياة.
بعد ذلك فإن أرضك أخرجت وللمرة الأولى أجناسًا من المخلوقات الفانية؛
وذلك لأنه قد توفر للتربة الكثير من الحرارة والرطوبة.

وعلى ذلك أينما وُجد مكان مناسب تكونت فى الأرض
فجوات على هيئة أرحام ترتبط بالأرض بجذور كالعروق..
وتنفتح تلك الأرحام عندما يكتمل نمو الأجنة بداخلها،
فتخرج المخلوقات تاركة رطوبة الأرض لتنشد الهواء،
بعد ذلك توجه الطبيعة مسام الأرض نحو هذه الأماكن،
وتجبرها على إخراج عصارة تشبه اللبن من شرايينها المفتوحة،
مثلما هى الحال عندما تلد امرأة فى عصرنا
فإن ثديها يمتلئ بلبن حلو المذاق،
لأن قوة الغذاء تندفع فى جسدها متجهة نحو الثدى.
وهكذا قدمت الأرض الغذاء لأبنائها الصغار، وكان دفء الجو بمثابة
الملابس، وكان العشب بمثابة فراش غنى بالكثير من الحشائش الناعمة.
وكان العالم فى فترة حداثته لا يعرف البرد القارص
ولا الحرارة الشديدة ولا العواصف العاتية؛
فكل الأشياء كانت تنمو معًا، وتبلغ عنفوان قوتها فى وقت واحد..
لهذا السبب أقول مراراً وتكراراً إن الأرض قد نالت عن جدارة
لقب الأم، حيث إنها هى نفسها التى أنجبت الجنس البشرى،
وهى التى أنجبت فى الفترة نفسها كل أنواع الحيوانات تقريبًا،

تلك التى تجول فوق الجبال الشاهقة،
وأنجبت فى الوقت ذاته الطير الذى يسبح فى الهواء بأشكاله المتنوعة.
ولما كان على الأرض أن تتوقف عن الإنجاب،
فقد توقفت بالفعل مثل المرأة التى أنهكها طول العمر؛
لأن الزمن يغير طبيعة العالم كله،
فلا بد لكل شئ أن يتغير من حال إلى حال،
ولا شئ يظل على حاله؛ فكل شئ يتغير،
فالطبيعة تحول كل شئ وتجبره على التغيير.
ففى حين أن بعض الأشياء تفسد وتضعف بفعل الزمن،
فإن أشياء أخرى تخرج إلى الوجود من أشياء حقيرة ثم تنمو
وتصبح قوية.. وهكذا فإن الزمن كفيل بتغيير طبيعة العالم كله،
والأرض ومن ثم قد تبدلت من حال إلى حال، فما كانت تحمله
من قبل لم يعد بإمكانها أن تحمله الآن، وبمقدورها أن تحمل
الآن ما لم تقدر على حمله من قبل.
وفى تلك الفترة أيضًا حاولت الأرض أن تلد العديد من المسوخ،
وهى تلك التى بدت بهيئة عجيبة وبأعضاء متنافرة؛
مثل الخنثى وهى وسط بين الذكر والأنثى، وهى ليست كليهما، ومختلفة

عن كليهما، وبعض المخلوقات كانت تفتقر إلى الأقدام، وبعضها الآخر
مجردة من الأيدى، وأخرى بكماء تعوزها أفواه، وأخرى عمياء محرومة
من الأعين، وبعضها مقيدة الأبدان وذلك بالتصاق أطرافها فى جزعها،
لدرجة أنها لم تستطع أن تفعل أى شئ ولا أن تذهب إلى أى مكان،
ولا أن تتحاشى الأذى، ولا أن تتناول ما تحتاج إليه لتحافظ على بقائها.
وكانت الأرض تنجب وحوشاً ومسوخاً من هذا القبيل بلا هدف،
حيث إن الطبيعة حرمتهما من النمو
فهى لا تستطيع أن تبلغ زهرة العمر المنشودة،
ولا أن تحصل على الطعام، ولا أن تتزاوج عن طريق ممارسات
فينوس؛ لأننا نرى أنه لا بد من توافر العديد من العوامل المساعدة لكى
تتمكن المخلوقات من الحفاظ على نسلها بالتناسل.
لا بد أولاً من توافر الغذاء، ثم توافر العضو التناسلى
الذى يتدفق من خلاله المني أثناء التزاوج،
وبالمثل فإن الإناث لكى تحمل من الذكور فينبغى أن تمتلك
قناة اتصال جنسى مناظرة كى يحظى كلاهما بالمتعة المتبادلة بينهما.
فى تلك الأيام كان من المحتم أن تفنى سلالات كثيرة من
الكائنات الحية؛ وذلك لعدم قدرتها على إنجاب ذرية بطريق التكاثر،
لأن كل المخلوقات التى تراها الآن تتنفس نسمات هواء الحياة،

قد حمت نفسها وحافظت على نوعها منذ بداية خلقها
من خلال المكر أو الشجاعة أو خفة الحركة،
هذا بالإضافة إلى أن العديد من المخلوقات ظلت موجودة بفضل
رعاية الإنسان لها نظراً لنفعها للجنس البشرى.

على سبيل المثال أنقذت الشجاعة الأسود وكل فصائل الحيوانات
المفترسة، وأنقذ المكر الثعالب، وأنقذت سرعة الجرى الأيائل..
لكن الكلاب خفيفة النوم ذات القلوب الوفية،
وكل فصائل الحيوانات التى تحمل الأثقال،
وكذلك الأغنام ذات الصوف، وسلالة الحيوانات ذات القرون،
كلها دخلت فى رعاية البشر يا مميوس؛
وذلك لأنها نجحت فى تجنب الوحوش المفترسة ونشدت الحياة الآمنة،
فقد كان الغذاء الوفير يأتيها بلا عناء من جانبها،
هذا الغذاء الذى نقدمه إليها مكافأة لها مقابل خدماتها.

لكن الحيوانات – التى لم تمنحها الطبيعة أياً من تلك الخصال ولم
تستطع أن تعيش بالاعتماد على نفسها، أو أن تقدم لنا
أى نفع حيث نكدح من أجل إطعامها،
ونجعلها تنعم بالأمان فى ظل حمايتنا –

تلك الحيوانات صارت بالطبع فريسة وغنيمة للحيوانات الأخرى،
فقد استسلمت جميعها للأغلال التى فرضتها عليها الأقدار،
وظلت على ذلك إلى أن جلبت الطبيعة الفناء لهذه السلالة.
لكن لم يحدث قط أن وُجدت مسوخ كالكنتاوروس[١]، فلم يكن
بالاستطاعة فى أى حقبة زمنية أن يوجد مخلوق له طبيعة مزدوجة،
أو له جسد ثنائى التركيب من أعضاء متنافرة،
إذ إن قوة الجزأين لن يمكنهما التساوي.
على أي حال؛ سأقدم لك برهاناً بإمكانه إقناع أكثر العقول بلادة.
أولاً: يبلغ الجواد عنفوان قوته ونشاطه وهو فى الثالثة من
عمره تقريبًا، لكن هذا لا يحدث للغلام بأى حال من الأحوال،
بل إنه حتى هذا السن ينشد عند نومه ثدى أمه الممتلئ باللبن.
بعد ذلك عندما يصيب الوهن أرجل الجواد ويفتر نشاطه
مع تقدمه فى السن بمرور العمر،
عندئذ فقط يبدأ الغلام زهرة سن

(١) الكنتاوروس (القناطير: جمع قنطور) هو فصيل من المسوخ نصفها العلوى جسد بشرى ونصفها السفلى جواد. وكان يعيش ذلك الفصيل فى غابات ومرتفعات إليس وأركاديا وثساليا. وأساطير هذه المسوخ قديمة فقد ورد ذكرها فى الإلياذة. والكنتاوروس عند الإغريق يرمز إلى الحياة البرية، والرغبات الحيوانية والشهوانية، والطبيعة الهمجية.

الشباب ويغطى خديه الشعر الناعم..

وعلى ذلك لعلك لا تعتقد فى إمكانية وجود الكنتاوروس
لكونه مركباً من بشر ومن فصيلة الجياد التى تحمل الأثقال،
كما أنك لا تعتقد فى وجود سكيللا[1] ذلك المسخ الذى يتكون نصف جسده
السفلى من حيوان بحرى مزود بكلاب شرسة، أو تعتقد بوجود مسوخ أخرى
من هذا القبيل، أى تلك التى نعتقد أن أعضاءها متنافرة فيما بينها؛
إن تلك الأعضاء لا تنمو فى الوقت نفسه فى أجسادها، ولا تبلغ عنفوان
قوتها فى الوقت ذاته، ولا تفقد قوتها فى سن الشيخوخة فى الوقت نفسه،
ولا تشتعل بالشهوة الجنسية من قبل شئ واحد، كما أنها تختلف
فى السلوك، ولا تبهجها أصناف الطعام نفسها.
ويمكننا أن نلحظ أن الجديان ذوى اللحى تسمن
بتناولها نبات الشوكران[2]الذى يُعَدّ سماً زعافاً للبشر.

وحيث إن لهب النار اعتاد أن يحرق ويلتهم أجساد الأسود ذات اللون
الأصفر الداكن، مثله فى ذلك مثل كل الأجناس الموجودة
على الأرض وتتكون من دم ولحم،

---

(١) سكيللا هى وحش بحرى يقطن فى كهف فى مضيق ميسينا، وقد صورها الشعراء بأن لها ثلاثة صفوف من الأسنان، واثنتى عشرة قدماً. وكانت تعيش على صيد الأسماك وركاب السفن التى تمر بالمضيق. ويذكر فرجيليوس أن حول خصرها حزام يحيط به مجموعة من الكلاب الشرسة.

(٢) الشوكران هو نبات يُستخرج من ثمره شراب سام.

فكيف يمكن أن توجد الخيمايرا[1]، التى تجمع ثلاثة أبدان فى جسد واحد،
الجزء الأمامى لأسد، والجزء الخلفى لأفعوان، والجزء الأوسط لعنزة،
وكيف لها أن تنفث من ثغرها لهباً حارقاً يخرج من جسدها؟
وعلى ذلك فإن من يدّعى أن مثل هذه المسوخ من الممكن أن تكون
قد وُلدت حتى عندما كانت الأرض جديدة والسماء حديثة العهد،
معتمداً فقط على تلك الحجة الواهية وهى أن العالم حديث العهد،
فإنه قد يثرثر بالكثير من الهراء بمنطق مشابه،
وقد يُقال إن أنهاراً من الذهب فى ذلك الوقت كانت تفيض فوق الأرض
فى كل مكان، وأن الأشجار اعتادت أن تثمر جواهر،
أو أن الإنسان قد وُلد ولديه قوة هائلة فى يديه ورجليه
لدرجة أن يكون بإمكانه أن يعبر البحر معتمداً على قدميه،
وأن يستطيع أن يدير بيديه قبة السماء كلها التى تحيط به.
وعلى الرغم من أن الكثير من ذرات الأشياء كانت موجودة فى
الأرض فى الوقت الذى أنجبت فيه الأرض الكائنات الحية للمرة الأولى،
إلا أنه لا يوجد أى دليل على أن هناك كائنات مركبة قد خُلقت،

(١) الخيمايرا هى مسخ له ثلاثة أبدان: الرأس لأسد والجذع لعنزة والجزء الخلفى لأفعوان. ويذكر هوميروس أنها ذات أصول إلهية، ويقول هيسيودوس إنها من نسل تيفون. وكان هذا المسخ ينفث ناراً، وقد تمكن البطل بيلليروفون من قتلها.

أو أن أعضاء لحيوانات شتى يمكن أن تتجمع فى جسد واحد.
وحيث إن الأنواع المختلفة للنباتات والحبوب والأشجار المثمرة،
التى لا تزال تنبت من الأرض بوفرة حتى عصرنا هذا،
لا يمكنها أن تنبت وقد اتحد أكثر من نوع فى نبات واحد،
فإن كل نبات ينبت بطريقته الخاصة ويحتفظ كل
نوع بخواصه المميزة طبقًا لقانون الطبيعة الثابت.
كان الجنس البشرى الذى يسكن الأرض حينها أكثر صلابة من
الإنسان الحالى، وهذا أمر طبيعى لأن الأرض الصلبة قد أنجبته،
وكان بنيانه الداخلى من عظام أضخم وأكثر صلابة،
يربط بينها أوتار متينة تتخلل كل مكان فى لحمه،
فلم يكن من السهل أن يتأثر بالحرارة أو البرودة،
أو بأى طعام غريب ولا يصاب بسقم فى الجسد.
وخلال حقب زمنية[١] كثيرة مرت بدوران الشمس فى مدارها فى
السماء، كان البشر يعيشون حياتهم على غرار الوحوش فى التجوال
من مكان لآخر.. فلم يوجد حينها قائد قوى لحدّ المحراث المقوّس،

---

(١) كلمة "lustrum" حقبة من أربعة إلى خمسة أعوام، وقد استخدمها لوكريتيوس بدلاً من كلمة "annus" للتعبير عن مرور فترة أكبر من الزمن.

ولم يكن هناك من يعرف كيف يعزق الأرض بالفأس،
أو يغرس الشجيرات فى التربة، أو يقلِّم
الأشجار العالية بالمنجل من الأفنان القديمة.
وكانت تكفيهم وتثلج صدورهم تلك الهبة التى تقدمها
الشمس والأمطار، وما كانت الأرض تنبته من تلقاء نفسها.
وكانوا يسدون جوعهم وينعشون أنفسهم بين الأشجار المحملة بالجوز
على وجه الخصوص، وثمار التوت البرى، التى تراها الآن
ناضجة بلونها القرمزى فى فصل الشتاء،
كانت الأرض حينها تنبتها بوفرة أكثر وبحجم أكبر من الآن.
علاوة على ذلك فإن المرحلة البدائية النامية للعالم قد قدمت وقتها الكثير
من الأطعمة الخشنة التى كانت كافية لسد رمق أفراد البشر البؤساء.
كانت الأنهار والينابيع تدعوهم ليطفئوا ظمأهم،
مثلما يحدث الآن فإن صوت شلال الماء أثناء انسيابه من
الجبال الشاهقة يدعو من بعيد قطعان الحيوانات الظمآى.
بعد ذلك أقاموا فى كهوف الحوريات بالغابات، تلك الكهوف
التى عرفوها أثناء تجوالهم، والتى تنبع منها جداول الماء
فتغسل الصخور الندية بوابل من قطرات الماء

التى كانت تتساقط فوق الطحالب الخضراء،
ثم تتدفق وتندفع فى كل مكان فوق السهول المستوية.
حتى ذلك الوقت لم يكونوا قد عرفوا كيف يصنعون الأشياء بالاستعانة بالنار،
ولا استخدام الجلود، ولا ستر أجسادهم بفراء غنائم الصيد.
وكانوا يعيشون فى الأحراش وكهوف الجبال وفى الغابات،
وكان عليهم أن ينشدوا مأوى يقيهم سياط العواصف والأمطار،
ولهذا كانوا يخفون أجسادهم الخشنة بين الشجيرات.
ولم يكن بإمكانهم أن يفكروا فى الصالح العام، وكانوا لا يعرفون
كيف يضعون فيما بينهم أي أعراف وأي قوانين.
تعلم كل فرد فقط كيف يعيش لنفسه وكيف يحمى نفسه،
وكان يظفر بكل رزق يلقى به الحظ فى طريقه.
لقد جمعت فينوس بين أجساد المحبين فى الغابات؛
لأن الرغبة المتبادلة كانت تربط كل امرأة برجل، أو أن قوة الرجل
المفرطة وشهوته المحمومة كانت تخضع المرأة له، أو تستجيب فى
نظير مقابل مادى، كجوز البلوط والتوت البرى والكمثرى المنتقاة.
وبالاعتماد على القوة الهائلة لأيديهم وأرجلهم كانوا يصطادون
قطعان الحيوانات البرية بقذف الحجارة والرماح الحجرية
بالغة الثقل؛ ونجحوا فى الإمساك بالكثير من الحيوانات،

وفرَّ القليل منها إلى عرائنها؛

وبحلول الظلام كانوا يستلقون بأجسادهم الخشنة
العارية على الأرض مثل الخنازير خشنة الشعر،
وكانوا يغطون أجسادهم بأوراق الأشجار وأفنانها.
وليس من الصحيح أنهم بحلول الظلام كانوا يهيمون على وجوههم
وقد أصابهم الرعب، يبحثون عبر الحقول عن الشمس وضوء النهار
بنحيب عالٍ[1]، بل كانوا ينتظرون ويغطّون فى نوم هادئ
إلى أن تنشر الشمس بشعاعها الوردى النور فى السماء؛
وذلك لأنهم اعتادوا من صغرهم أن يروا أن
الظلام والنور يتعاقبان فى وقت محدد؛
وإنه لمن المستحيل أن يكون قد ساورهم الشك قط،
أو أنهم قد خافوا من أن ليلاً أبدياً قد يغشى الأرض،
أو أن ضوء النهار قد يزول إلى الأبد.
لكن مصدر القلق البالغ لهم هو أن فصائل الحيوانات
المفترسة كانت تقض نوم هؤلاء البؤساء.

(١) هناك اعتقاد قديم أن أفراد البشر الأوائل كانوا يظنون أن الشمس عندما تغرب قد لا تعود وقد لا تشرق مرة ثانية؛ فيهيمون على وجوههم طول الليل يبحثون عنها حتى تشرق مرة ثانية فيعتقدون أنها عادت تلبية لندائهم.

فكانوا يغادرون مأواهم ويفرون من كهوفهم الصخرية
عندما يقترب منهم خنزير برى يسيل لعابه أو أسد قوى،
فمن شدة الرعب كانوا يتركون فى جوف الليل
فراشهم المصنوع من أوراق الشجر لضيوفهم المفترسين.
فى ذلك الوقت لم تكن أجيال البشر تترك نور الحياة
الحلو للحياة الفانية بأعداد أكبر بكثير من عصرنا هذا؛
فلقد كان كل إنسان وقتها كثيراً ما يصبح طعامًا حياً
للوحوش التى كانت تقتنصه وتنهشه بأسنانها،
وكان حينها يملأ الأحراش والجبال والغابات بالأنين،
فقد كان يرى أن أعضاء جسده الحى تُدفن فى قبر حى.
أما هؤلاء الذين أنقذهم الفرار بعد أن تهتكت أجسادهم،
فقد كانوا يضعون أيديهم المرتجفة على جروحهم الغائرة
وينادون على الموت (أوركوس)[١] بصرخات يملؤها الرعب،
إلى أن تقضى آلامهم المبرحة على حياتهم،
بلا عون من أحد، فكانوا يجهلون كيف يعالجون جروحهم.
لكن لم يحدث قط فى ذلك العصر أن أُزهقت أرواح آلاف

---

(١) أوركوس: انظر الكتاب الأول صـــ :١٣٧ حاشية ١١ أعلاه.

الرجال باقتيادهم خلف رايات القتال، ولم تكن أمواج
البحر المتلاطمة تحطم السفن والبحارة فوق الصخور؛
بل كان البحر حينها كثيراً ما ترتفع أمواجه ويثور بلا
هدف وبلا جدوى، ثم يُهدِّئ برفق من تهديداته الجوفاء،
ولم تفلح الإغواءات المخادعة للبحر حال هدوئه أن
تغرى بأمواجه البسامة أى فرد ليقع فى شركه.
ولم يكن فن الملاحة الجسور معروفاً وقتها.
وفى تلك الأيام كان نقص الطعام يجلب الموت لأجسادهم الواهنة،
وذلك على النقيض من عصرنا الذى تجلب فيه الرفاهية الزائدة الموت
للبشر.. وكان أهل ذلك الزمان كثيراً ما يصبون السم لأنفسهم بجهالة،
أما الآن فإن الناس يدسونه للآخرين ببراعة بالغة.
وبمرور الوقت بدأ الناس فى تشييد الأكواخ واستخدموا الجلود والنار،
وارتبطت المرأة برجل واحد وأقامت معه فى المسكن نفسه،
وصار عرف الزواج شائعاً، ورأوا إنجابهم للذرية،
عندئذ بدأ الجنس البشرى فى التحضر للمرة الأولى؛
لأن النار جعلت أجسادهم المرتجفة أقل قدرة
على تحمل البرد تحت سقف السماء.

ودغدغ الحب قواهم، وبكل سهولة حطمت مداعبة
الأطفال طباع والديهم الحادة..
بعد ذلك سادت روح الود بين الجيران، واتفقوا فيما بينهم
على عدم الاعتداء أو إلحاق الأذى ببعضهم بعض.
واستوصوا بالأطفال وبجنس النساء خيرا،
وعبروا بالإيماءات والصرخات البكماء
بأنه من الصواب أن يشفق الجميع على الضعفاء.
على أى حال لم يكن بالإمكان أن يتم الوئام بشكل كامل،
إلا أن الغالبية العظمى منهم لم ينقضوا عهدهم؛
ولولا هذا لتعرض الجنس البشرى بأكمله للفناء حينها،
ولم يكن بإمكان الذرية البقاء جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا.
لكن الطبيعة دفعت الناس لإصدار أصوات متنوعة بألسنتهم،
ودفعتهم وسائل الراحة لإطلاق الأسماء على الأشياء،
والحق إننا نرى الأمر نفسه تقريبًا، إذ إن عدم القدرة على
استخدام الألسن تدفع الأطفال لاستعمال الإشارة،
عندما تجعلهم يشيرون بإصبعهم نحو الأشياء الموجودة أمامهم؛
لأن كل مخلوق يشعر بأن بإمكانه استخدام قدراته الخاصة.

فقبل أن تكبر القرون الوليدة على جبين العجل،
فإنه ينطح بها عند غضبه، ويدفع بها عند هياجه.
وصغار النمور وأشبال الأسود يقاتلون
بمخالبهم وأقدامهم وأسنانهم،
هذا على الرغم من أن أسنانهم ومخالبهم لم تكن قد كبرت بعد.
علاوة على ذلك فإننا نرى أن كل أجناس الطيور تثق فى
أجنحتها، وتطلب عوناً غير مأمونٍ من ريشها.
على ذلك فإن الافتراض بأن شخصاً ما قد أطلق الأسماء
على الأشياء، ثم تعلم الناس منه المفردات الأولى،
هو مجرد حماقة.. فلماذا نفرض أن شخصاً واحداً كان بمقدوره أن
يطلق أسماء على كل الأشياء، وأن يصدر الأصوات المتنوعة للسان،
فى حين لم يكن بمقدور الآخرين أن يفعلوا الشئ نفسه فى الوقت نفسه؟
بالإضافة إلى ذلك، لو أن الآخرين لم يستخدموا تلك المفردات
فيما بينهم، فكيف يتمكن هو من حفظ هذه المفردات؟
وكيف حصل هذا الرجل الواحد على مثل هذه القدرة،
حيث يعرف ويرى بعقله ما يريد أن يفعله؟
كما أن شخصاً واحداً لا يمكنه إكراه الكثير من الناس

وإلزامهم رغماً عنهم بتعلم الأسماء التى أطلقها على الأشياء.

وإنه ليس من السهل تعليم الصم[١] بشتى الوسائل أو إقناعهم

بما ينبغى فعله، لأنهم لن يطيقوا ذلك بأى حال،

ولن يتحملوا طويلاً أن يتركوه يطنطن بلا هدف فى

آذانهم بضجيج صوته الذى لا يفهمونه ولم يسمعوه من قبل.

أخيراً، إن استطاع الجنس البشرى – بعد امتلاكه للصوت واللسان

الطلق – أن يعبر عن الأشياء بنبرات صوت متنوعة تناسب مشاعره،

فهل هناك ما هو أغرب من ذلك فى مسألة اللغة؟

حتى البهائم البكماء والوحوش الكاسرة

فقد اعتادت على إصدار أصوات متنوعة ومتباينة،

عندما يستولى عليها الخوف أو يعتصرها الألم أو تغمرها السعادة..

ويمكنك أن تدرك ذلك من حقائق جليَّة؛

فالكلاب المولوسية[٢]، على سبيل المثال، عند إثارتها تفتح أفكاكها

الضخمة والرخوة وتزمجر وهى تكشر عن أنيابها الحادة،

---

(١) يقصد لوكريتيوس بكلمة الصم "surdis" أنهم لن يستمعوا إليه، ولو فعلوا ذلك فلن يفهموا ما يقوله، وبذلك فإن لوكريتيوس يرى أن الإنسان قام بابتكار أسماء الأشياء بشكل اعتباطى.. وهذا الرأى يناقض وجهة نظر فيثاغورث، والتى لخصها أفلاطون فى محاورة كراتيلوس، إذ يرى أن الأسماء لم توضع بالمصادفة بل بناءً على خطة منظمة وأن الشخص الذى ابتكر الأسماء يُطلق عليه "onomatourgos".

(٢) كان الشعب المولوسى يقطن فى إبيروس.

فصوت زمجرتها الذى تهدد به عند غضبها يختلف - إلى حد بعيد
عن صوتها عندما تملأ الدنيا بنباحها العادى،
كما يختلف أيضًا عن صوتها عندما تشرع بكل حب بلعق صغارها بألسنتها،
أو عندما تداعبهم بمخالبها وتسعى لعضهم
بفتح أفكاكها برفق وكأنها ستقوم بالتهامهم،
ويختلف صوتها - عندما تتودد إلى صغارها بصوت ينم عن المودة -
عن العواء الذى تصدره عند تركها فى منازل مهجورة،
أو عندما تئن وهى تفرّ من ضربات السياط التى تنزل على جسدها.
وبالطريقة نفسها ألا يبدو صهيل الفرس أيضًا بأنه يتغير،
فعندما يكون مهراً شاباً فى ريعان الشباب فإنه يعدو ثائراً
وسط الإناث وقد طعنه مهماز إله الحب المجنح،
وعندما يصدر شخيره من فتحتى أنفه المفتوحتين استعداداً للقتال،
وعندما يصهل بطريقة مختلفة تمامًا وهو يهز أقدامه فى مناسبات أخرى؟
وكذلك الحال أيضًا بالنسبة لفصائل الطيور ذات الأجنحة.
فالصقور والعقبان والنورس، تلك الطيور التى تسعى
وراء رزقها بين أمواج البحر المالحة،
فهى تصدر أصواتاً تختلف - إلى حد بعيد - عن تلك التى
تصدرها عند الصراع على الطعام أو على الفرائس.

إن بعض الطيور مثل: سلالات الغداف العتيقة وأسراب الغربان
تغير من أغانيها ذات النبرة الحادة مع تغير المناخ،
وذلك عندما، كما يُقال، تنادى على الماء وعلى المطر،
وعندما تصرخ أحياناً على الهواء والرياح..
على ذلك؛ فإن كانت المشاعر المختلفة تجبر الحيوانات،
على الرغم من كونها بكماء، أن تصدر أصواتاً متنوعة،
أليس من الصواب أن يكون بإمكان البشر حتى فى ذلك الوقت أن يميزوا
بين الأشياء المختلفة بأسماء مختلفة.. هذا بصوت وذلك بصوت آخر !
وكى لا يطرأ على بالك بالصدفة السؤال عن أصل النار،
فإليك الإجابة: البرق هو أول من أنزل جذوة النار إلى الأرض من
أجل البشر، ومنها انتشرت كل ألسنة اللهب فى العالم.
لأننا نرى إلى الآن أن مواد كثيرة تشتعل بلهب ينزل من
السماء، عندما تمنح صاعقة من السماء حرارتها لتلك المواد.
على أيِ حال، هناك مصدر آخر محتمل للنار؛ عندما تهب الرياح
على شجرة كثيفة الأفنان، فإن الأفنان تهتز ذهاباً وإياباً وتحتك بأفنان
شجرة أخرى، وتتسبب قوة احتكاك الأفنان فيِ اندلاع شرارة النار،
وفى بعض الأحيان تتوهج ألسنة اللهب الحارقة
من احتكاك غصن بآخر أو جذع شجرة بجذع آخر.

لقد كان بإمكان أى من ذينك السببين أن يمنح النار للبشر.
بعد ذلك علمتهم الشمس طهى الطعام، ومن ثم عرفوا كيف ينضج
الطعام على لهب النار؛ وذلك لأنهم كانوا يرون أن أشياء كثيرة
تنضج فى الحقول بفعل حرارة أشعة الشمس.
بمرور الوقت عرف هؤلاء الرجال، الذين تفوقوا على غيرهم
فى القدرات والذكاء، كيف يغيروا من أسلوب حياتهم السابقة
وذلك بفضل معرفتهم للنار ولابتكارات أخرى جديدة.
بدأ الملوك فى تأسيس المدن وتشييد القلاع
لحماية أنفسهم وكمأوى آمن؛
ثم قاموا بتقسيم الماشية والحقول ووزعوها
على الناس طبقًا لمعايير الجمال والقوة والذكاء؛
وذلك لأن الجمال كان حينها ذا قيمة كبيرة، كما أن القوة كانت
بالغة الأهمية.. بعد ذلك عرف الناس الملكية الخاصة واكتشفوا الذهب،
الذى سلب الأهمية بكل سهولة من الجمال والقوة؛
لأن أغلب الناس، مهما كانت لديهم من قوة أو جمال،
يتبعون الفريق الأكثر ثراءً.
لكن إن يوجه المرء حياته طبقًا للفلسفة الحق،

سيجد أن ثروة الإنسان العظيمة تكمن فى العيش على القليل بنفس
راضية، لأن المرء لن يفتقر أبداً لذلك القليل، فهو موجود دائمًا..
إلا أن الناس يرغبون فى أن يصبحوا من أصحاب الشهرة والقوة،
وذلك كى يُؤَمِّنوا مستقبلهم على أساس متين،
وكى يكون بإمكانهم قضاء حياة آمنة نظراً لامتلاكهم القوة؛
بيد أن أمانيهم تذهب أدراج الرياح، لأنهم أثناء تنافسهم
لبلوغ قمة المجد يشقون طريقاً محفوفاً بالمخاطر.
على أيِ حال؛ فإن الحسد كالصاعقة يقذف بهم أحياناً
من القمة باحتقار إلى عالم تارتاروس[١] الكئيب؛
لأن الحسد مثل الصاعقة، كثيراً ما يحرق القمم،
ويحرق كل شئ يرتفع عن المستوى العادى؛
لذلك فإنه من الأفضل أن تعيش حياة هادئة فى خنوع،
على أن تشتاق إلى حكم الولايات وإدارة الممالك فى إمبراطوريتنا؛
لذا دَعْهمْ يبذلون دماءهم ويضنون أنفسهم فى صراع لا جدوى منه
فى درب الطموح الضيق، حيث إنهم يحصلون على معلوماتهم من
أفواه الآخرين، ويسعون وراء الأشياء من خلال السماع أكثر من

(١) عالم تارتاروس هو المكان الذى تُعذب فيه أرواح المذنبين فى العالم السفلى.

الاعتماد على تفكيرهم، وهذه الحماقة لا تفيدهم فى الوقت الحاضر،
ولن تفيدهم فى المستقبل، مثلما أنها لم تفدهم فى الماضى.
لذلك فقد كان الملوك يتعرضون للاغتيال ويهوى فى التراب
سلطان عروشهم الغابر، وصولجانهم المتغطرس،
وتخضب بالدماء التاج، زينة الرأس الملكية،
وتسحقه أقدام الغوغاء، وتنتحب من أجل زوال مكانته الرفيعة؛
فالأشياء التى كانت ترتعد منها فرائس الناس من قبل، وطأها
الناس بأقدامهم بحرقة.. وهكذا آل الحكم لحثالة البشر من الغوغاء،
حيث سعى كل امرؤ للفوز بالسلطة والرفعة لنفسه،
بعد ذلك قام البعض بتعليمهم كيف يشكلون نظام حكم
ويضعون الدستور حيث يرغب الناس فى إطاعة القوانين؛
وذلك لأن الجنس البشرى قد أنهكه العيش فى عنف،
وأصابه الوهن من النزاعات؛ وعلى ذلك فقد صار أكثر استعداداً
للخضوع عن طيب خاطر للقوانين والدساتير الصارمة..
لأن كل إنسان فى غضبه كان مستعداً للثأر لنفسه
على نحو أكثر قسوة مما تسمح به الآن القوانين العادلة،
ولهذا السبب ضجر البشر من العيش فى ظل العنف؛

وهكذا كان الخوف من العقاب يفسد عليهم مباهج الحياة..
لأنه ما من إنسان إلا ويقع فى شرك العنف والظلم،
وغالبًا ما تقع عاقبتهما على رأس صاحبهما.
كما أنه من المستحيل على الإنسان، الذى يحطم بأفعاله
مواثيق السلام الاجتماعى، أن يهنأ بحياة آمنة دون منغصات.
فإن أخفى ذنبه عن الآلهة والبشر لبعض الوقت،
فإنّ عليه أن يدرك أن ذنبه لن يظل سراً إلى الأبد،
حيث إن الكثير من البشر يتحدثون أثناء النوم،
أو إنهم، كما يُقال، يهذون فى مرضهم فيفضحون أنفسهم،
ويكشفون على الملأ عن جرائم وذنوب كانت مستورة.

دعنا الآن ننظر إلى الأسباب التى أدت إلى انتشار عبادة الآلهة
بين الكثير من الشعوب، وإلى امتلاء المدن بالمذابح،
وإلى جعل الشعائر الدينية المهيبة واجبة الأداء، تلك الشعائر
التى تزدهر الآن وتُؤدَّى فى كل المناسبات المهمة وفى الأماكن
المهمة؛ ودعنا ننظر أيضاً: كيف تملَّكَ الرعب من نفوس البشر حتى
عصرنا الراهن، الرعب الذى يتسبب فى تشييد معابد جديدة للآلهة
فى كل أنحاء العالم، ويدفع الناس إلى الاحتشاد للاحتفال فى أيام
الأعياد؛ وهذا الأمر ليس من الصعب تفسيره.

إن السبب هو أن أجيال البشر فى تلك الأيام المبكرة
كانوا يتخيلون فى يقظتهم طلعة الآلهة البهية،
وكانوا يرونهم فى منامهم دائمًا ذوي قامة فارعة.
وقد نسبوا إليهم امتلاك الحواس،
فقد بدا لهم بأنهم يحركون أطرافهم، وينطقون بكلمات
سامية تليق بمظهرهم الجليل وبنيانهم القوى.
ومنحوهم حياة خالدة، وذلك لأن هيآتهم
وأشكالهم تظل دائمًا بلا تغيير، وأيضًا
لأنهم، بشكل عام، كانوا يعتقدون أن كائنات بمثل
هذه القوة الهائلة ليس بالإمكان أن تُقهر بسهولة من أي قوة.
بل كانوا يعتقدون أنها تتفوق على البشر، إلى حد بعيد، فى مسألة
السعادة، وذلك لأن الخوف من الموت لا يزعج أيًّا منها،
ولأنهم، فى الوقت نفسه، كانوا يرون الآلهة فى الأحلام وهى
تؤدى الكثير من الأعمال الخارقة دون أن يمسها نصب.

علاوة على ذلك فقد لاحظ البشر أن أفلاك السماء تدور
بحسبان دقيق، وفصول السنة المختلفة تتعاقب بالدقة ذاتها،
ولم يتمكنوا من معرفة الأسباب التى وراء هذا التعاقب،
ولهذا اتخذوا لأنفسهم هذا الملاذ؛ وهو أن نسبوا كل شىء

للآلهة، وأن كل شئ يتحقق بإرادتها.
واتخذوا من السماء موضعاً لكراسى الآلهة ومقارها،
لأنه فى السماء يمكن رؤية آيات كونية: الليل والقمر الذى يدور فى
فلكه، وأكرر مرة أخرى، القمر والنهار والليل وثريات الليل المهيبة،
وشهب الليل الجوالة والنجوم التى تسبح فى قبة السماء،
والسحب والشمس والأمطار والجليد والرياح والبرق والبَرَدْ،
وهزيم الرعد الرهيب، عالى الضجيج والمنذر بالوعيد.
أيها الجنس البشرى التعس، لقد نسبت مثل هذه
الأفعال إلى الآلهة، وزدت عليها غضبها القاسى !
إذن كم من الأحزان جلبتها الآلهة لنفسها، وكم من الجراح
جلبتها لنا، وكم من الدموع تجلبها لصغارنا !
ليس البِرّ، على الإطلاق، أن يظهر الإنسان باستمرار وهو
ينحنى أمام حجر وقد غطى رأسه، وأن يتقرب من كل المذابح،
ولا أن يخرَّ ساجدًا على الأرض وأن ينثر زعف النخيل
أمام هياكل الآلهة، ولا أن يهرق الدماء الغزيرة للحيوانات
من ذوات الأربع فوق المذابح، ولا أن يوصل النذور بالنذور،
بل البر هو أن يكون بمقدور الإنسان أن يتأمل كل شئ بعقلٍ صافٍ.
لأنه عندما ننظر إلى سماء الكون العظيم التى تظلنا،

ونتأمل قبتها المرصعة بالنجوم المتلألئة،
ويجول بخاطرنا التفكير فى دوران الشمس والقمر فى فلكيهما،
فإن هماً جديداً يطل برأسه اليقظة،
ويغزو قلوبنا المتعبة أصلاً بهموم أخرى،
وهو الوقوع فى حيرة من أمرنا: هل توجد، بالصدفة، قوة إلهية
هائلة بعالمنا توجه النجوم المتلألئة فى أفلاكها المتنوعة؟
حيث إن الافتقار إلى التفكير المنطقى يدفع العقل إلى الريبة
فى الإجابة عن السؤال: هل للكون مولد وبداية،
وفى الوقت نفسه، هل له نهاية، وإلى متى يكون بإمكان حصون
الكون أن تتحمل تلك الحركة المتواصلة للأجرام السماوية؛
أم إن حصون الكون قد حظيت بطبيعة خالدة من قبل الآلهة،
فكان بإمكانها أن تتحدى القوة الهائلة للزمن اللا نهائى،
أثناء دورانها فى عجلة الزمن الأبدية.

علاوة على ذلك، مَنْ ذا الذى لا يرتجف قلبه رُعْباً
من الآلهة، ومَنْ ذا الذى لا ترتعد فرائسه من الخوف،
عندما تهتز الأرض المحترقة من ضربة صاعقة مروعة،
وعندما يهز هزيم الرعد السماء الفسيحة؟
ألا ترتعد الشعوب والأمم من ذلك، ألا يستولى الخوف من
الآلهة على الملوك المتغطرسين ويفقدون أعصابهم،

خشية أن يأتى وقت نيل العقاب العسير،
جزاءً لكل فعل شائن وكل كلمة متغطرسة؟
وعندما تجرف قوة الريح العاتية
قائد الأسطول إلى عرض البحر،
ومن معه أيضًا من فرق حربية قوية وأفيال،
ألا يلتمس (القائد) سلامَ الآلهة بالنذور وينشد بتضرعه
– وهو مذعور – الأمان من الريح وأن تواتيه رياح لطيفة،
ولكن تضرعاته تذهب سدى، حيث إنه فى الغالب سيُحاط
بإعصار عنيف يدفع به نحو صخور مميتة؟
وهكذا فإن بعض القوى الخفية تسحق الجنس البشرى،
وتبدو أنها تطأ عصا السلطة النبيلة
والبلطة القاسية[١]، وتجعلهما محل سخرية لها.
أخيرا، عندما تتزلزل الأرض بأسرها من تحت أقدامنا،
وعندما تهوى المدن بعد اهتزازها أو تتهدد بالسقوط،
فلماذا نتعجب إذا احتقرت أجيال البشر نفسها،

---

(١) كان لكبار الموظفين الرومان مثل القنصل والبرايتور حرس شخصى يسير أمامهم ويُفسح لهم الطريق وينزل العقوبات على المعتدين، وكان هؤلاء الحراس يمسكون فى أيديهم عصا فى منتصفها بلطة حادة وتُدعى: الفاسكيس "fasces"، وقد صارت هذه البلطة هى رمز للنفوذ والسلطة، ومن كلمة "الفاسكيس" اللاتينية تُشتق كلمة الفاشية الإيطالية.

ونسبت إلى الآلهة القوى الهائلة والعجيبة فى
الكون، التى تتحكم فى كل شىء؟
بقى أن نذكر أن النحاس والذهب والحديد قد تم اكتشافها،
هذا بالإضافة إلى كتل من الفضة ومادة الرصاص،
وذلك عندما أحرقت النار بحرارتها الغابات الشاسعة
فوق الجبال الشاهقة، سواء بواسطة صاعقة من السماء،
أو بسبب أن الناس أثناء قتالهم فيما بينهم فى الغابات
أشعلوا النار من أجل أن يخيفوا أعداءهم،
أو لأنهم قد أغرتهم خصوبة التربة فرغبوا
فى تمهيد الحقول الخصبة وجعل الريف صالحاً للرعى،
أو رغبوا فى صيد الحيوانات المفترسة والاستفادة منها كغنائم.
لأن الصيد قد نشأ فى البداية بالنار والخندق، وذلك قبل أن يحيطوا الغابة بالشباك، أو أن يثيروا الحيوانات بالكلاب.
أياً كان الأمر، وأياً كان السبب، فإن الحرارة الملتهبة
بصوتها المرعب التهمت الغابات من جذورها
العميقة، وانصهرت الأرض من النار،
وكان مجرى من الفضة والذهب وكذلك النحاس.

والرصاص؛ يجرى فى المجارى الملتهبة نحو فجوات بالأرض.
وعندما رأوا بعد ذلك أن تلك المعادن قد تجمدت،
وأنها كانت تلمع فوق الأرض بلونها البراق،
قاموا بأخذها، فقد بهرتهم بلمعانها وملمسها الأملس،
ولاحظوا أن المعادن تشكلت بشكل الفجوات نفسها
التى حصلوا منها على المعادن.
عندئذ خطر على بالهم أنه بالإمكان صهر تلك المعادن بحرارة
النار ثم صبها فى قوالب لتأخذ شكل أي أداة يريدونها،
وأنه بالإمكان أيضًا طرقها وشحذها،
وصناعتها فى شكل أنصال حادة وبالغة الجودة،
وبذلك صار بإمكانهم صناعة الأدوات لأنفسهم، وتمكنوا من
إسقاط الأشجار، وقطع الأخشاب وتنعيم الألواح وتشذيبها،
كما تمكنوا أيضًا من شق الخشب وثقبه وتجويفه.
وقد حاولوا فى البداية صنع تلك الأدوات من الفضة والذهب
على نحو أكثر من مادة النحاس الأكثر صلابة ومتانة،
ولكن دون جدوى، لأن قوة ذينك المعدنين انهزمت أمام النحاس،
فلم يفلح أى منهما فى تحمل الاستخدام الشاق.

ومن ثم صار للنحاس قيمة أكبر بعد ذلك، وفقد الذهب مكانته
نظراً لعدم جدواه، فنصله غير حادٍ وسنه غير ماضٍ.
أما الآن فلا قيمة للنحاس، وصار للذهب المكانة البالغة.
وهكذا فإن مرور الزمن يغير من أوضاع الموجودات؛
فالشئ الذى كان فى الماضى محل تقدير يصبح لا قيمة له على
الإطلاق، بينما يرتفع شأن شئ آخر وينهض من الحضيض،
ويزداد الطلب عليه يوماً بعد يوم، فمنذ لحظة اكتشافه
وهو مزدهر بين البشر، ويحظى بثنائهم وبتكريم رائع من قبلهم.
إنه لمن السهل عليك الآن يا مميوس أن تدرك بنفسك
كيف اكتشف الإنسان طبيعة الحديد وخصائصه.
كانت أسلحة الإنسان الأولى هى الأيدى والأظافر والأسنان،
ثم صارت الأحجار والأفنان التى انتزعها من أشجار الغابات،
ثم استخدم الشعلة والنار وذلك بمجرد معرفته لها.
بعد ذلك اكتشف بأس الحديد والنحاس.
عرف الإنسان استخدام النحاس قبل الحديد،
و ذلك لأن طبيعته أكثر سهولة فى التعامل، كما أنه أكثر وفرة.
فبالنحاس كانوا يحرثون الأرض، وبالنحاس كانوا يثيرون

أمواج الحرب ويبذرون بذرة الجروح الغائرة،

وبه استولوا على ماشية جيرانهم وحقولهم؛ لأن كل الأشياء
المجردة من السلاح تستسلم بسهولة لتلك المدججة بالسلاح.

بعد ذلك وتدريجياً ظهر السيف الحديدى،

وصار نمط المنجل المعقوف محل احتقار،

فبالحديد بدءوا يشقون التربة،

وصارت الصراعات فى ميدان القتال الآن متكافئة.

يبدو أن عادة امتطاء الإنسان لصهوة الجواد وهو مدجج بالسلاح،

وتوجيهه له بالإمساك باللجام باليد اليسرى والقتال باليمنى،

يبدو أن هذه العادة قد سبقت خوض أهوال الحرب من فوق عربة يجرها
جوادان. وبلا شك أيضًا فإن قيادة جوادين قد سبقت قيادة أربعة جياد،

وكانت أسبق على ركوب الجنود بكامل عتادهم الحربى للعربات المزودة
بالمناجل، بعد ذلك درب القرطاجيون الفيلة المروعة ذوات ظهور
تشبه القلاع وخراطيم كالأفاعى، درَّبوها على تحمل جروح الحرب

وعلى إرباك جيوش الإله مارس الهائلة.

وهكذا فإن النزاعات المأساوية قدمت ابتكاراً وراء ابتكار

لنشر الرعب فى ساحة القتال بين جموع البشر،

ففى كل يوم كانت هناك إضافة تزيد من الرعب فى ميدان القتال.

جربوا الثيران أيضًا فى ميدان الحرب،
وخبروا توجيه الخنازير البرية ضد عدوهم.
وهناك البارثيون الذين ساقوا أمامهم أسودًا قوية
وبرفقتها مدربين مسلحين وحراساً أشداء،
وذلك للتحكم فيها والحفاظ عليها فى أغلالها،
ولكن جاء ذلك دون جدوى، لأن تلك الوحوش الكاسرة تثيرها
رائحة الدماء فتهز لبدها المرعبة فى كل اتجاه،
وتفرق الجنود المحاربين، الأصدقاء والأعداء، على حد سواء وبلا تمييز،
ولم يكن بإمكان الفرسان التهدئة من روع جيادهم التى أصابها الرعب
من زئير الأسود، ولم يتمكنوا من توجيهها نحو العدو بالتحكم فى اللجام.
وفى غمرة ثورتها كانت اللبوءات تنقض بأجسادها بالقفز وسط الجنود
فى كل اتجاه، وتهاجم وجوه كل من يأتى فى طريقها،
وتجذب بعض الغافلين من ظهورهم،
ثم تطرح ضحاياها أرضاً ويطوِّقْنَهُم ويصيبنَّهم بالجروح،
وتحكم قبضتها بهم بأنيابها الحادة ومخالبها المعقوفة.
وكانت الثيران تطرح أصحابها أرضاً وتدوسهم بأقدامها،
وكانت تنطح أسفل بطون الجياد وأحشاءها

بقرونها، وكانت تشق الأرض فى ثورتها العارمة.
والخنازير البرية كانت تقتل أصحابها بأنيابها الحادة،
وتلك الوحوش المفترسة تخضب بدمائها الرماح التى تنكسر بأبدانها،
....
فقد كانت تجلب الدمار دون تمييز بين الفرسان والمشاة؛
لأن الجياد كانت تقفز بعيدًا أو تنتصب على أقدامها الخلفية
وتضرب الهواء بأقدامها الأمامية وذلك لتتحاشى طعنات أنياب
الخنازير، وكل ذلك دون جدوى، حيث يمكنك أن تراها وهى تسقط
وقد قُطعت أوتارها وتثير الفوضى بسقوطها المدوى.
كان الناس يظنون أنهم نجحوا تمامًا فى ترويض مثل هذه الوحوش
بمنازلهم، لكنهم رعوا أنه مع سخونة الأوضاع فى ساحة القتال كانت
الحيوانات تُصاب بالهياج بسبب الجراح والصرخات والهروب والذعر
والاضطراب، ووجدوا أنفسهم غير قادرين على استعادة السيطرة على
أى حيوان منها؛ لأن الوحوش بكل أنواعها كانت تتشتت بعيداً،
مثلما يحدث كثيراً فى عصرنا حيث تندفع الأبقار اللوكانية[1] هاربة عند جرحها
بالسيف، وذلك بعد أن تسحق أصحابها بالكثير من الأفعال الوحشية.

---

(١) المقصود هنا بـــ " الأبقار اللوكانية " هم الأفيال؛ إذ إن الرومان شاهدوا الأفيال للمرة الأولى فى لوكانيا حيث كان يستخدمها الجنود فى جيش الملك بيرهوس، لذا أطلقوا عليها مصطلح "Luca bos" – أى بقرة لوكانية.

إن كان ذلك قد حدث بالفعل، فإننى أجد من الصعب الاعتقاد
أن الناس لم يتمكنوا من أن يتدبروا بعقولهم وأن يتوقعوا،
قبل أن تقع الكارثة، أن مصيبة عامة ومخزية ستحل بهم.
ويمكنك التحقق من أن ذلك الأمر قد حدث بالفعل فى كل مكان،
فى كل مكان فى تلك العوالم المتنوعة التى تشكلت بطرق مختلفة،
وأنه لم يحدث فى مكان واحد فقط أو فى مكان بعينه بالكرة الأرضية؛
لكنهم رغبوا فى عمل هذا الأمر ليس – إلى حد بعيد – بدافع الأمل فى الانتصار، بل لأنهم رغبوا فى أن يجلبوا على أعدائهم الويل والهلاك،
وذلك لأنهم كانوا لا يثقون فى أنفسهم لقلة عددهم ونقص الأسلحة لديهم.
سبقت الملابس المصنوعة من الجلود تلك المصنوعة من النسيج،
فقد عُرف النسيج بعد اكتشاف الحديد، لأن النول يُصنع من الحديد،
فلا توجد مادة أخرى سوى الحديد يمكن بها صناعة المعدات بمثل هذا
الصقل كالدواسات والمغزل والمكوك وقضبان المقود المسببة للضجيج.
وقضت الطبيعة على الرجال أن يغزلوا الصوف قبل
النساء، وذلك لأن جنس الرجال بشكل عام
يتفوق على جنس النساء فى مجال الفن وأبرع منهن بكثير.
وظل الوضع على ما هو عليه إلى أن اعتبر الفلاحون ذوو البأس

أن ذلك أمر معيب واتفقوا على تركه لأيدى النساء،
وأن يؤدوا هم معًا العمل الشاق،
وبأداء هذا العمل الشاق صارت أجسادهم وسواعدهم قوية.
وبالنسبة لنموذج بذر البذور وأصل غرس النباتات فقد أتى
فى البداية من الطبيعة الخلاقة ذاتها، خالقة كل الموجودات،
حيث إن ثمار التوت والجوز التى كانت تسقط من الأشجار
كانت تخرج فى الأسفل العديد من الشجيرات وذلك فى موسم بعينه؛
ومن الملاحظة نفسها تعلم الناس تطعيم الأفنان بالطعم،
وغرس الشجيرات الوليدة فى التربة فى كل الحقول..
بعد ذلك جربوا فى أرضهم الغالية طرق الزراعة الواحدة
تلى الأخرى، ولاحظوا أن الثمار البرية تنمو فى أرضهم
وذلك بالعناية بها ورعايتها بلطف بالغ.
ويوماً بعد يوم أجبروا الغابات على الانسحاب أكثر نحو الجبال،
واستسلمت الأراضى المنخفضة لأعمال الفلاحة،
وبذلك امتلكوا المروج والبحيرات والينابيع والمحاصيل
والكرمات الغناء فوق التلال وعلى السهول، وامتلكوا سياجاً أخضر
داكناً من أشجار الزيتون يجرى بين الأشجار للفصل بين الأراضى،

ويمتد ذلك السياج عبر المرتفعات والوديان والسهول.
مثلما ترى الآن أن كل الحدائق تتمتع بسحر متنوع،
حيث تتزين الحدائق بالفصل بينها بأشجار الفاكهة حلوة المذاق،
كما أن الأشجار المثمرة تحيط بها من كل جانب.
إن محاكاة البشر بأفواههم لأصوات الطيور العذبة
سبق بكثير قدرتهم على شدو الأغانى
الرقيقة، وإمتاع الآذان بالموسيقى.
لقد كان صفير الهواء داخل أعواد القصب الأجوف
هو أول من علَّمَ القرويين أن ينفخوا داخل ساق نبات الشوكران،
بعد ذلك وتدريجياً تعلموا الألحان الشجية العذبة،
التى يصدرها المزمار حين تلمسه أنامل العازفين[١].
تلك الأعواد التى نجدها الآن-فى الأحراش غير المطروقة والغابات
والبرارى، وفى المناطق النائية التى يقضى فيها الرعاة أوقات فراغهم
فى الهواء الطلق. (وهكذا فإن الزمن يحمل إلينا كل شئ تدريجيا،
أما الفكر فيرفعه إلى دائرة الضوء ويجعله معروفا).
كانت تلك الألحان تروح عن أنفسهم وتثلج صدورهم

(١) البيت رقم ٥، ١٣٩٢ هو البيت نفسه ٤، ٥٨٥ .

بعد أن يتناولوا طعامهم؛ فكل شئ عندئذ كان يجلب السعادة؛
ولهذا كانوا كثيراً ما يضجعون فى جماعات على العشب الناعم[١]،
بالقرب من غدير للماء فى ظل أفنان شجرة عالية،
فكانت أجسادهم تحظى بمباهج الحياة بتكلفة زهيدة،
خاصة عندما يبتسم لهم الطقس ويلون فصل
الربيع الحشائش الخضراء بالزهور.
عندئذ يحين وقت المرح وتجاذب أطراف الحديث والضحكات
الحلوة، لأن موسية[٢] الريف تكون قد بلغت حينئذ ذروة عنفوانها..
وعندئذ فإن لحظات المرح المبهجة تحثهم على أن يكللوا رءوسهم
و كواهلهم بأكليل من الزهور وأوراق الشجر،
ويحثون أطرافهم على أداء رقصات غير منغمة
وغير متقنة، ويضربون أمهم الأرض بقدم عنيفة.
ومن ثم تنفرج الأسارير وتنطلق الضحكات الحلوة،
إذ إن كل تلك الأمور كانت حينها جديدة عليهم، وذات تأثير عظيم،
ويبلغ المرح ذروته. ومن هنا كان تلحين الصوت عالياً ومنخفضاً

(١) تعد الأبيات (٥، ١٣٩٢ – ١٣٩٦) تكرارا، مع إجراء تعديلات طفيفة، للأبيات (٢، ٢٩ – ٣٣).

(٢) الموسيات هن ربات الفنون والشعر التسع، والمقصود هنا هو أن قريحة الإنسان وقدرته على الابتكار فى الشعر والغناء تصبحان فى أوج نشاطهما.

أثناء الغناء والعزف على المزامير بشفاههم المضمومة،
كان فى ذلك سلوى عن النوم للساهرين من الحراس؛
وقد حافظ الحراس على هذا الموروث إلى يومنا هذا،
بل إنهم الآن تعلموا الحفاظ على أنواع مختلفة من الألحان،
ومع هذا فإنهم الآن لا يحصلون على متعة أعظم
من تلك التى حظى بها جيل الغابات هذا الذين أنجبتهم الأرض.
لأن ما لدينا الآن، إن لم يكن ما عرفناه فى الماضى
أكثر عذوبة، يمنحنا متعة بالغة ويبدو بأنه الأفضل،
لكن إن اكتشفنا فى المستقبل شيئاً آخر أفضل،
فإن تذوقنا لتلك الأشياء السابقة يفسد ويتغير.
وهكذا سأم الناس من ثمار الجوز، وهجروا ذلك الفراش
القديم المصنوع من أكوام الحشائش وأوراق الشجر.
ونظروا باحتقار للملابس المصنوعة من جلود الحيوانات البرية،
تلك التى أعتقد أنها كانت تجلب حينما اكتشفوها مثل هذا القدر من
الحسد، لدرجة أن أول رجل ارتداها لقى حتفه بالكيد له،
وأن ذلك الرداء قد تمزق إرباً بين هؤلاء القتلة وبعد إراقة
الكثير من الدماء، وبذلك لم يعد الرداء صالحاً للاستخدام؛

لذلك كانت الجلود فى ذلك الوقت، مثل الذهب والثوب الأرجوانى
فى عصرنا، تؤرق حياة البشر بالهموم وتثقل كاهلهم بالحرب؛
الحرب التى يقع اللوم الأكبر فى نشوبها علينا لا عليهم، وذلك
حسب اعتقادى، ذلك لأن البرد كان يعذب جيل أبناء الأرض العرايا
بدون الجلود؛ أما نحن فلا يضيرنا الافتقار للثوب
الأرجوانى المطرز بالذهب والمزركش بالصور،
ما دام هناك دثار شعبى يمكنه أن يقينا تقلبات الطقس.
وهكذا فإن الجنس البشرى يكدح دائمًا بلا جدوى وبلا هدف،
ويضيعون أعمارهم فى هموم جوفاء،
لأنهم بالتأكيد لا يعرفون حدود ما يجب أن يمتلكه
المرء، وإلى أى مدى يمكن للمتع الحقيقية أن تزداد.
ودفعهم هذا الجهل رويداً رويداً إلى إلقاء أنفسهم فى البحر،
وإلى إثارة أمواج الحرب العاتية من أعماقها.
أما الشمس والقمر، حارسا العالم، اللذان ينيران
بضوئهما المنطقة الشاسعة الدوارة من حولهما،
فقد علّما البشر أن فصول السنة تتعاقب
وأن كل شئ يحدث بناموس ثابت وبحسبان دقيق.

بعد ذلك أمضى الناس حياتهم فى أبراج محصنة،
ثم قسموا الأرض ووزّعُوها فيما بينهم وزرعوها.
وازدهر البحر العميق بالسفن ذات الأشرعة،
وصار للناس بحق مجتمعات وحلفاء بمعاهدات موثقة.
وشرع الشعراء فى تدوين الأعمال المجيدة فى قصائدهم؛
ولم تكن الحروف الأبجدية قد اُكتشفت منذ أمد بعيد..
ولهذا السبب لم يكن بإمكان عصرنا أن يقص أثر ما حدث
قبل ذلك الاكتشاف، إلا إذا هدانا فكرنا لبعض الآثار بطريقة ما.
إن السفن وزراعة الحقول وحصون المدن والقوانين
والأسلحة والطرق والملابس وأشياء أخرى من هذا القبيل،
وكل الهبات وكل المتع بكل ما تعنى الكلمة،
وقصائد الشعر والصور، ونحت التماثيل الرائعة،
كل تلك الأشياء علمتها الممارسة وخبرة العقل النشط
للإنسان الراغب فى التطور تدريجياً خطوة بخطوة..
وهكذا فإن الزمن يكشف تدريجياً لنا كل شئ،
ويرفعه الفكر إلى تخوم الضوء؛
لأنهم كانوا يرون أن كل فن من الفنون يخرج
من رحم فن آخر بفضل العقل، إلى أن بلغوا أقصى ذروة.

الكتاب السادس

ترجمة: د. على عبد التواب على (١ – ٥٣٤)

د. صلاح رمضان السيد (٥٣٥ – ١٢٨٦)

ملخص الكتاب السادس

أولاً ـ استهلال (١ـ٩١):

١. الثناء على إبيقوروس (١ –٤٢).

٢. حصر للموضوعات التى يغطيها الكتاب السادس (٤٣ – ٩١).

ثانيًا ـ الظواهر الجوية (٩٢ – ٥٣٤):

١. الرعد (٩٢ – ١٥٩).

٢. البرق (١٦٠ – ٢١٨).

٣. الصواعق وطبيعتها (٢١٩ – ٤٢٢).

٤. السيول والسحب وقوس قزح....إلخ.

ثالثًا ـ الظواهر الطبيعة الأرضية غير التقليدية (٥٣٥ – ٦٠٧):

١. الزلازل (٥٣٥ – ٦٠٧).

٢. التوسع المستمر لمساحة للبحر (٦٠٨ – ٦٣٨).

٣. الانفجار البركانى (٦٣٩ – ٧٠٢).

٤. نهر النيل (٧٠٣ – ٧٣٧).

٥. بحيرات وأماكن بلا طيور (٧٣٨ – ٨٣٩).

٦. ينابيع غريبة (٨٤٠ – ٩٠٥).

٧. المغناطيس (٩٠٦ – ١٠٨٩).

رابعًا ـ الظواهر الطبية (١٠٩٠ – ١٢٨٦):

١. الأوبئة بشكل عام (١٠٩٠ – ١١٣٧).

٢. طاعون أثينا (١١٣٨ – ١٢٨٦).

(ومع ذلك فلكل منهم بالمنزل قلب مضطرب)،
ورأى أن حياة الإنسان النفسية يتعكر صفوها رغماً عنه وبلا
أى توقف، وأنه يُجبر على الغضب فى شجارات عنيفة،
عندئذ أدرك أن الوعاء نفسه (أى النفس البشرية) فاسد وبه شروخ،
وأن كل الأشياء الطيبة التى جُمعت خارجه
تفسد دائمًا عندما توضع بداخله لفساده من الداخل؛
وقد اعتقد فى ذلك لأنه كان يرى أن الوعاء من ناحية يرشح
وواسع الثقوب؛ فلا يمكن أن يمتلئ بأى حال من الأحوال،
ومن ناحية أخرى لأنه رأى أن كل شئ داخل الوعاء يتلوث
بمذاق كريه بمجرد صبه فيه.
لذلك فإنه طهر قلوب الناس بأقواله الصادقة،
ووضع حداً للشهوة والخوف،
وكشف عن الخير الأسمى الذى نسعى كلنا إليه،
وهدانا إلى الصراط، ذلك الصراط المستقيم والضيق
الذى به يمكننا أن نبلغ الخير الأسمى من دون أن ننكص على أعقابنا.
وعلمنا أن الشر موجود فى كل شأن من شئون البشر،
فهو يحدث ويطير نحونا بطرق عديدة،

وهو يحدث بالمصادفة تارة أو بحكم الضرورة تارة أخرى، وذلك طبقًا
لما تقرره الطبيعة، ثم بَيَّنَ لنا من أى باب يمكننا أن نتصدى لكل نوع
من أنواع الشر، وبرهن على أن أمواج القلق المحزنة تموج
بلا داعى فى صدور أغلب الجنس البشرى.
فمثلما أن الأطفال ترتعد فرائسهم ويجفلون أمام كل شئ
فى الظلام الحالك، فكذلك نحن فى النور تعترينا أحياناً
المخاوف التى لا أساس لها إطلاقاً مثل تلك المخاوف
التى يرتعد منها الأطفال فى الظلام ويتخيلون أنها ستهاجمهم.
ولذلك فإن ظلمة العقل وخوفه هذا ليس بالإمكان
تبديدهما بأشعة الشمس، أو بضوء النهار الساطع،
بل بتأمل الطبيعة وفهم قوانينها.
وعلى ذلك سأواصل غزل المزيد من شبكة مناقشتى التى بدأتها؛
حيث إننى قد وضحت أن أجزاء العالم تتسم بالفناء
وأن السماء ذات جسد مولود،
وحيث إننى شرحت أغلب الظواهر التى تحدث بها
والتى ينبغى أن تحدث بها، فاستمع الآن إلى ما بقى أن أخبرك به.

وحيث إننى غامرت ذات مرة بالصعود إلى عربة الموسيات[١]عالية المقام،
فسأوضح الآن كيف يُثار غضب الرياح، وكيف تهدأ، وكيف
تهدأ اضطرابات الطبيعة مرة أخرى بعد أن تنقضى لحظات غضبها.
وسأشرح الظواهر الطبيعية الأخرى التى تحدث فى الأرض وفى السماء
والتى يراها البشر، والتى تصيب عقولهم الخائفة بالحيرة فى أغلب الأحوال،
فهى التى تدفع نفوسهم الحائرة إلى الخوف من الآلهة،
ومن ثم تلقى بهم إلى الأرض وهم محبطون، وذلك لأن
جهلهم بأسبابها يدفعهم إلى نسب تلك الأمور
إلى قوة الآلهة، ويخضعون الكون لحكمها..
(فهم غير قادرين على أن يدركوا بعقولهم أسباب تلك
الظواهر الطبيعية، ويعتقدون أنها تحدث بقوة إلهية)؛
لأن هؤلاء الذين يعرفون جيداً أن الآلهة تعيش حياة خالية من
الهموم، هم فى ذات الوقت يتعجبون بأى قوة
يمكن لتلك الظواهر أن تحدث، خاصة الظواهر التى

---

(١) ربات الشعر والفنون هن بنات زيوس ومنيموسينى "Mnemosyne" وعددهن تسع ربات: ربة التاريخ كليو "Cleio"، ربة الموسيقى يوتربى "Euterpe"، ربة الكوميديا ثاليا "Thaleia"، ربة التراجيديا ميلبومينى "Melpomene"، ربة الرقص تيربسيخورى "Terpsichore"، ربة الشعر الغنائى العاطفى إيراتو "Erato"، ربة الأناشيد الدينية بوليمنيا "Polymnia"، ربة الفلك أورانيا "Urania"، ربة الشعر الملحمى كاليوبى "Calliope".

يرونها فوق رءسهم فى مناطق الأثير،
فيرتدون نحو الخزعبلات القديمة،
ويتخذون لأنفسهم سادة قساة، ويعتقد البؤساء أن هؤلاء
السادة قادرون على كل شئ؛ وكل ذلك لأنهم يجهلون ما يمكن أن يحدث
وما ليس بإمكانه؛ وخلاصة القول بأى حكمة صار لكل شئ
قدرة محدودة، وبأى حكمة صار لكل شئ نهاية محددة؛
ولذلك فإن البشر عرضة أكثر لأن يضلوا بتفكيرهم الأعمى.
إن لم تطهِّر عقلك تمامًا من تلك الخزعبلات،
التى لا تليق بالآلهة والغريبة على سلامها،
فإن تلك الآلهة المقدسة ستؤذيك على الدوام عقاباً على الإهانات
التى وجهتها إليها، وذلك ليس لأن سلطان الآلهة العظيم يمكن أن
يُنتهك، حيث تسعى لتوقيع عقوبات صارمة بدافع الغضب،
بل لأنك أنت نفسك ستتخيل أن الآلهة، التى تنعم بالسكينة
فى سلام آمن، تتقاذفها أمواج الغضب العارم،
ولن يمكنك الاقتراب من معابدها بقلب مطمئن،
ولم يكن بمقدورك فى لحظة صفاء نفسى آمنة أن تتلقى
من الآلهة المقدسة الصور التى ترد على

أذهان البشر والتى تخبر عن هيئة الآلهة.
وعلى ذلك فإنه من المسموح لك بأن تختار أى حياة ستتبع الآن.
إن التفكير السديد – إلى حد كبير – قد يبعد عنا مثل
هذه الحياة، وعلى الرغم من أننى قد تناولت الكثير من الأمور،
فإنه قد بقى الكثير كى أضيفه وأزينه فى أبيات من الشعر
المصقول؛ فقانون السماء ومظهرها يجب فهمهما،
كما يجب الحديث عن الرياح والبرق اللامع،
وماذا يفعلان ولماذا يشقان طريقهما كل حين؛
ولكيلا تصيبك الحيرة – بعد أن قسمت السماء بجهالة
إلى أقسام – من أى قسم أتى لهب النار الطائر وإلى أى قسم يتجه[1]،
وكيف له أن ينفذ داخل الأماكن الحصينة،
وكيف ينفذ خارجها بعد أن استجمع قواه.
لم يتمكن الناس – بأى حال من الأحوال – من معرفة أسباب أى من تلك
الظواهر الطبيعية، واعتقدوا أنها تحدث بفضل قوة إلهية.
أيا ربة الشعر الملحمى كاليوبى[2] البارعة، يا عزاء البشر

---

(١) يشير لوكريتيوس هنا إلى عادات الإتروسكيين فى مجال العرافة، حيث يقسمون السماء إلى ستة عشر قسما، وكانوا يفسرون النبوءة طبقاً للقسم الذى يظهر فيه البرق، قارن: Cic. Div. 2.18.42.

(٢) كاليوبى هى ربة الشعر الملحمى، وهى إحدى ربات الفنون التسع، انظر الكتاب الأول صـ ١٨١: حاشية رقم ٣٩ أعلاه.

وبهجة الآلهة، أرشدينى إلى الطريق أثناء عدوى
فى السباق نحو الخط الأبيض بنهاية المضمار،
فبقيادتك لى قد أفوز بالتاج مع مديح منقطع النظير.

فى البداية سأوضح كيف تهتز السماوات الزرقاء بعنف من الرعد،
لأن السحب أثناء طيرانها تندفع مجتمعة لأعلى
فى الأثير، بينما الرياح تصارع بعضها بعضًا،
لأن صوت الرعد لا يحدث فى الأجزاء الصافية من السماء،
ولكن حيثما توجد السحب فى شحنة أكثر كثافة؛
فغالبًا ما يصدر منها صوت هزيم الرعد ذى القعقعة العالية.
فضلاً عن ذلك؛ فإن السحب لا يمكن أن تنشأ من مادة بالغة
الكثافة مثلما تتكون الأحجار وكتل الأخشاب، ولا يمكن أن تتكون
من مادة بالغة الرقة مثلما يتكون الضباب أو الدخان الطائر؛
لأنها فى الحالة الأولى لا بد أن تسقط باندفاعها لأسفل كالأحجار
نظراً لثقل وزنها، وفى الحالة الأخرى لن تتمكن مثل الدخان
من التماسك، ولا من حمل الثلوج المجمدة ووابل الأمطار.

كما أنها (السحب) تصدر أيضًا ضجيجاً فوق سطح العالم الفسيح،
مثلما هى الحال عندما تُحدث الستائر المعلقة بامتداد المسارح

العظيمة جلبة بسقوطها بين الأعمدة والقوائم الخشبية المتقاطعة؛
وفى بعض الأحيان تمزق الريحُ العاصفةُ السحبَ،
وهى بذلك تشبه صوت خشخشة تمزيق الأوراق؛
(لأن ذلك النوع من الأصوات يمكنك سماعه أيضًا فى الرعد)،
أو أن صوته يشبه صوت الملابس المعلقة على الحبل عندما تهزها
الرياح بتياراتها، أو دوران قصاصات الورق المتطايرة خلال الهواء.
يحدث أحياناً أيضًا أن السحب لا يمكنها أن تتصادم وجهاً
لوجه بالضبط، بل وإنها تمر بجوار بعضها فى الاتجاه الآخر
وبذلك تحتك أجسادها من الجانب احتكاكاً بطيئا،
ومن هنا فإن صوت الفرقعة يصم الآذان، ويستمر لمدة طويلة
إلى أن تتمكن السحب من الإفلات والمرور من تلك المساحات المحدودة..
بهذه الطريقة أيضًا كثيراً ما تبدو كل الأشياء من حولنا
كأنها تهتز وترتجف بفعل هزيم الرعد الشديد، وتبدو فجأة
الحصون العظيمة لهذا العالم الفسيح وكأنها تنتفض وقد تمزقت إرباً،
ويحدث هذا عندما تتجمع عاصفة من الريح العاتية على نحو مباغت
وتقحم نفسها داخل السحب، وبعد أن تجد نفسها قد حوصرت هناك،
فإنها تزيد من ضغطها على السحابة شيئاً فشيئاً فى كل اتجاه بدوامتها
الدوارة، وبذلك تحدث بها فجوة ذات غلاف خارجى سميك،

بعد ذلك عندما تُضعف من قوة العاصفة وهجومها العنيف من السحابة،
فإن السحابة فى النهاية تتصدع وتنفجر محدثة صوت ارتطام مدوٍ.
ولا ينبغى لهذا أن يثير دهشتنا، فإنه عندما ينفجر كيس صغير ممتلئ
بالهواء فإنه على نحو مشابه يحدث دائمًا دوياً هائلاً.

هناك سبب آخر يجعل السحب تصدر هذا الصوت،
عندما تهب الرياح خلالها؛ إذ إننا كثيراً ما نرى السحب
الخشنة يحملها الهواء فى أماكن متفرقة بعد أن تتشعَّب بطرق عديدة؛
مثلما هى الحال تماماً، عندما تهب الرياح الشمالية الغربية على غابة
كثيفة فإن أوراق الشجر تصدر حفيفاً والأفنان تصدر صريراً.

يحدث أيضًا فى بعض الأحيان أن تخترق قوة اندفاع
الريح العاتية السحابة فتمزقها بهجوم مباشر؛
لأن ما يمكن أن تفعله الريح هناك ندركه نحن بكل وضوح
هنا على الأرض، حيث الوضع أكثر لطفاً، فهى مع ذلك
تسقط الأشجار العالية وتقتلعها من أعمق جذورها.

توجد أيضًا أمواج وسط السحب، التى بتحطمها بعنف
تصدر نوعاً من الزمجرة المدوية؛ وهو ما يحدث نفسه فى
الأنهار العميقة وفى البحر العظيم عندما تتحطم أمواج المد.

يحدث الرعد أيضًا عندما تسقط القوى الحارقة للبرق من سحابة
إلى سحابة أخرى، فلو تصادف وكانت السحابة محملة بالكثير من المياه
عند استقبالها للنار، فإنها تطفئ النار على الفور محدثة صوتاً هائلاً،
مثل قطعة حديد ساخنة من حرارة الأفران المستعرة عندما تصدر
أزيزاً دائمًا عندما نغمسها فى الماء البارد المجاور لها.
ومن ناحية أخرى؛ إن كانت السحابة غير محملة بالماء عند استقبالها
لنار البرق، فإنها تشتعل على الفور وتحترق محدثة صوتاً غاليا،
كما لو أن شعلة من اللهب قد أضرمت النار فى جبال مكللة بأشجار
الغار بفعل عاصفة من الريح، فتلتهم الأشجار بسرعة هائلة؛
علماً بأنه لا يوجد أي مادة أثناء اشتعاله يحدث صوتاً مروعاً
وسط أزيز ألسنة اللهب مثل شجرة غار فويبوس بدلفى.
أخيراً .. فإن الانهيار الهائل للجليد وهطول البَرَدْ
كثيراً ما يصدر صوتاً عالياً فى السحب الضخمة بالأفق؛
لأنه عندما تجمع الريح السحب فى حيز ضيق فإن جبال من
السحب تتهشم إلى أجزاء صغيرة بعد أن تجمدت وكساها البَرَدْ.
يحدث البرق أيضًا عندما تطلق السحب، نظراً لتصادمها،
العديد من ذرات النار، تمامًا مثلما يرتطم حجر بحجر آخر

أو بقطعة من الحديد؛ لأنه حينها أيضًا يندلع
النور ويستطير شرر النار المتوهج.
لكن يحدث دائمًا أن نسمع صوت الرعد بآذاننا بعد أن
ترى أعيننا البرق، وذلك لأن تلك الأشياء تبلغ الآذان
على نحو أبطأ من وصولها إلى البصر.
ويمكنك أن تدرك ذلك من المثال التالى: لو أنك رأيت رجلاً
من بعيد يقطع جذع شجرة يانعة ببلطة ذات حَدَّين،
فإن ما يحدث هو أنك ترى الضربة تهوى قبل أن ترسل الضربة
صوتاً لأذنيك؛ وهكذا فإننا أيضًا نرى البرق قبل أن
نستقبل صوت الرعد، الذى ينبعث فى الوقت ذاته
وللسبب نفسه مع وميض البرق، فهو ينشأ من تصادم السحب ذاته.
بهذه الطريقة أيضًا تلون السحب الأماكن المحيطة بها بضوء
خاطف، وتبرق العاصفة بوميض مرتعش:
عندما تخترق الريح سحابة ثم تأخذ فى الدوران داخلها
حيث تجعل السحابة، كما أوضحت من قبل، سميكة من الخارج ومجوفة
من الداخل، وتنتشر بها الحرارة نتيجة لحركتها السريعة؛ مثلما ترى كل شىء
تنبعث منه الحرارة ويشتعل بفعل الاحتكاك، والحق أن كرة المقلاع

المصنوعة من الرصاص قد تصل إلى حد الانصهار أثناء دورانها لمسافة
طويلة؛ ولهذا السبب عندما تفجر هذه الريح الحارة السحابة الداكنة
فإنها تنشر ذرات النار التى تبدو كأنها قد اندفعت فجأة بفعل
قوة الحرارة، تلك الذرات التى تتسبب فى إحداث ومضات اللهب المضيئة؛
ثم يعقب ذلك الصوتُ الذى يقرع الآذان على نحو أبطأ من
تلك الومضات التى تصل إلى منطقة إبصارنا.
وهذا ما يحدث بالتأكيد عندما تكون السحب ملبدة، وفى الوقت ذاته
عندما تتراكم الواحدة فوق الأخرى فى ارتفاع مذهل؛
ولعلك لا تنخدع لأننا نرى من على الأرض كم أن السحب
عريضة أكثر مما نرى كم أنها تمتد لأعلى على هيئة طبقات مشيدة
فوق بعضها.. فعليك أن تمعن النظر فى هيئتها عندما تحمل الريح
السحب التى تشبه الجبال وهى تمر عبر الأثير،
أو عندما تراها من فوق الجبال الشاهقة متراكمة
فوق بعضها الواحدة فوق الأخرى، وتُثقِل تلك التى تقع فى المناطق العليا
كاهل السحب الدنيا، وذلك عندما تكون الريح ساكنة؛
عندئذ سيمكنك أن تدرك مدى ضخامة حجمها،
وسيمكنك أن تراها أشبه بكهوف مشيدة من صخور
معلقة فى الفضاء، والتى تمتلئ بالرياح عندما تهب

عاصفة، وتعبر تلك الرياح عن غيظها لحبسها داخل السحب
بزمجرة عالية على غرار الوحوش التى تزمجر فى أعرانها للتهديد؛
وهى ترسل زمجرتها عبر السحب تارة فى هذا الاتجاه وتارة فى الاتجاه
الآخر، وتدور حول نفسها أثناء بحثها عن مخرج، وتجذب إليها
ذرات النار من السحب وتديرها معها، وهكذا تجمع حولها الكثير
من تلك الذرات، وتظل تقلب ألسنة اللهب داخل تلك الأفران المجوفة،
إلى أن تنفجر السحابة وتندفع الرياح وهى تومض.
هناك سبب آخر لظهور ذلك اللون الذهبى للنار المتدفقة
التى تمرق بخفة من السماء نحو الأرض،
وهو أن السحب نفسها لا بد وأنها تحتوى على كَمٍّ هائل
من ذرات النار؛ وعلى ذلك عندما تخلو السحب من المياه
فإن لونها غالبًا ما يغدو وهاجاً وبراقاً. وحيث إنه لا مفر لها من أن
تستقبل العديد من مثل هذه الذرات النارية من أشعة
الشمس، فإنه من الطبيعى أن تكتسى باللون الوردى وأن ترسل
وميضاً نارياً؛ وبذلك عندما تسوق الريح الدافعة تلك السحب أمامها
وتحشدها بالقوة فى مكان واحد، فإن الذرات تنبعث للخارج نتيجة
لذلك الضغط، تلك الذرات التى تجعل لون اللهب يلمع فى السماء.
يحدث البرق أيضًا عندما تقل كثافة السحب فى السماء؛

لأنه عندما تفرق الرياح بلطف تلك السحب وتضعفها
أثناء مرورها، فإن تلك الذرات التى تتسبب فى البرق
تسقط وهى مكرهة على ذلك؛ وعندئذ يحدث البرق دون أن
يصاحبها الفزع الشائن وصوت هزيم الرعد أو أى ضجيج.
بقى أن أذكر: ما الطبيعة التى تتألف منها الصواعق،
تتضح هذه الطبيعة من ضربات الصواعق وآثار الحرارة
المحرقة ومن آثار انبعاث أبخرة الكبريت المهلكة؛
فهذه كلها ليست بآثار للرياح أو الأمطار وإنما للنار.
علاوة على ذلك فإنها كثيراً ما تضرم النار فى أسطح المنازل أيضًا،
وبلهب خاطف تتمكن من السيطرة على المنازل أنفسها.
عليك أن تعرف أن هذه النار هى الأكثر نقاءً بين كل النيران،
فالطبيعة قد خلقتها من ذرات بالغة الدقة وخفيفة الحركة،
للحد الذى معه لا يستطيع أى شئ على الإطلاق اعتراض سبيلها؛
لأن الصاعقة القوية تخترق حصون المنازل مثلما
يخترقها الصياح والأصوات؛ وهى تنفذ من الأحجار ومن البرونز،
وهى تصهر البرونز والذهب فى الحال.
كما أنها تجعل الخمر يتبخر فجأة دون أن تلحق الضرر

بأوعيتها، وذلك لأن حرارتها بالتأكيد تنفذ بسهولة
وتجعل كل مادة الوعاء الفخارية أقل تماسكاً
وواسعة المسام، وبذلك تنفذ إلى داخل الوعاء ذاته
بمنتهى الخفة وتفرق ذرات الخمر عن بعضها وتبخرها؛
وبذلك فإنها تتمكن بحرارتها المتوهجة من تحقيق
ما لا تتمكن من تحقيقه حرارة الشمس فى عصر كامل؛
فقوة الصاعقة هذه إذن أكثر خفة فى الحركة وأكثر تأثيراً بكثير.
الآن كيف تنشأ تلك الصواعق وكيف حظيت بتلك القوة
البالغة، للدرجة التى بها تتمكن من جعل الأبراج تتصدع بضربة
واحدة، وتهدم المنازل، وتقتلع الأعمدة والأساسات،
وتمحو آثار الأبطال وتبددها،
وتسلب البشر حياتهم، وتفتك بقطعان الماشية فى كل مكان،
وبأى قوة بمقدور الصواعق أن تؤثر فى سائر الأشياء الأخرى من هذا القبيل،
هذا ما سوف أفسره ولن أؤخرك أكثر من ذلك بالمزيد من الوعود.
يجب الاعتقاد أن الصواعق تنشأ من السحب الكثيفة والمتراكمة
عالياً بالأفق؛ لأنها لا تتكون مطلقاً فى سماء
صافية، ولا عندما تكون قليلة الكثافة؛

لأن الحقائق الواضحة تبرهن بلا شك على حدوث ذلك،
لأنه عند حدوث هذه الظاهرة تكون السحب محتشدة فى كل أنحاء الهواء،
لدرجة أننا نعتقد أن الظلمات قد غادرت كل جوانب
أخيرون[1] وملأت كهوف السماء الضخمة ..
وهكذا فإنه عندما يحل مثل هذا الظلام الحالك للسحب،
ويطل علينا من الأفق وجه الرعب البشع،
فإن العاصفة عندئذ تبدأ فى تكوين صواعقها.
فضلاً عن ذلك؛ فإنه كثيراً ما يحدث فى عرض البحر أيضًا أن يهبط
إعصار داكن وسط الأمواج بعد أن امتلأ من بعيد بالظلمات،
وكأنه طوفان من القطران هبط من السماء، ويجذب معه
عاصفة سوداء حبلى بالصواعق والأعاصير،
والإعصار نفسه ممتلئ إلى آخره بالنيران والرياح،
وبذلك يرتعد الناس على الأرض أيضًا ويلوذون بمنازلهم.
وهكذا يجب أن نعتقد أن السحب المحملة بالعواصف تعلو
فوق رءوسنا؛ لأن السحب لا يمكنها أن تغشى الأرض
بمثل هذه الظلمة إلا إذا كانت متراكمة فوق بعضها،

(١) أخيرون: انظر أعلاه للكتاب الأول صـــ: ١٨١ حاشية ٣٩.

أى أن الكثير من السحب تعلو الكثير ومن ثم تحجب الشمس؛
ولا يكون بمقدور الأمطار الغزيرة أن تهطل وتغمر الأرض،
حيث تجعل الأنهار تفيض وتغرق السهول،
إن لم يكن الأثير محملاً بالسحب المتراكمة فوق بعضها.

على ذلك فإن كل السحب إذن تغدو وقت العواصف ممتلئة بالرياح
والنيران، ولذلك يحدث الرعد والبرق فى كل مكان،
والحق أننى قد شرحت من قبل أن السحب التى أصبحت على هيئة الكهوف
تحتوى على عدد لا حصر له من ذرات الحرارة، وأنها تستقبل مرغمة
المزيد من تلك الذرات من أشعة الشمس وحرارتها.
وهكذا عندما تقوم الريح نفسها التى حشرت السحب فى مكان
واحد بالمصادفة، بالضغط على الكثير من ذرات
الحرارة، وفى الوقت نفسه تقوم بدمج نفسها مع تلك النار،
فإن تلك الزوبعة الحبيسة تدور هناك داخل هذا الحيز الضيق،
وتشحذ الصاعقة داخل تلك الأفران المستعرة؛
لأن الريح تشتعل لسببين: فالنار تتولد منها
جراء حركتها السريعة، ولمخالطتها للنيران.
بعد ذلك عندما تصير مادة الريح متأججة بالحرارة وقوة اندفاع

النار بالغة الشدة، عندئذ فإن الصاعقة تكون قد تكونت
وتخترق السحابة فجأة، وينطلق اللهب البراق مضيئاً
كل المناطق من حوله بوميض متقطع..
ويعقب ذلك صوت الرعد المدوى، لذا فإن أبراج السماء
من فوقنا تبدو فجأة كأنها قد انفجرت وأنها ستسحقنا؛
ومن ثم تصيب الأرض رجفة عنيفة، ويملأ
الهزيم السماء العالية؛ لأن تيارات من الهواء العاصف كله
تقريبًا تهتز بفعل تصادمها، وتصدر جلبة عالية..
ونتيجة لهذا التصادم يهطل وابل من الأمطار الغزيرة والشديدة،
لدرجة أن الفضاء كله يبدو كأنه قد تحول إلى سيول،
وهكذا ينهمر الماء بقوة منذراً بعودة الطوفان..
ينشأ هذا السيل العظيم من انفجار السحابة ومن هبوب
الريح، وذلك عندما يلوح فى الأفق صوت الرعد مصحوباً بضربة نارية.
فى بعض الأحيان أيضًا عندما تثير قوة الريح من الخارج
سحابة حبلى بصاعقة جاهزة للانفجار؛
وبمجرد أن تمزقها الريح، فإن ذلك الإعصار النارى يسقط
على الفور، ذلك الذى نطلق عليه فى لغتنا القومية اسم "الصاعقة".

والشئ نفسه يحدث فى اتجاهات مختلفة، وذلك طبقًا لاتجاه الريح.

قد يحدث أيضًا فى بعض الأحيان أن قوة الريح المرسلة لا تكون حبلى
بالنار، إلا أنها مع ذلك تحصل على النار أثناء رحلتها الطويلة فى
الفضاء، وقبل أن تصل تفقد فى رحلتها بعضاً من جسيماتها الأكبر
حجماً التى لا تستطيع أن تنفذ خلال الهواء مثل تلك الأصغر حجماً؛
وتجمع نفسها بعيدًا عن الهواء نفسه وتحمل معها الذرات الأخرى
الأكثر صغراً التى تولد النار باتحادها مع بعضها أثناء طيرانها،
وذلك بالطريقة نفسها تقريبًا التى بها كثيراً ما تصير
كرة الرصاص ساخنة فى رحلتها، حيث تفقد الكثير من
ذرات البرودة وتستقبل الحرارة فى الهواء.

قد يحدث أيضًا أن تتسبب قوة الضربة نفسها فى إحداث النار،
عندما تصطدم قوة الريح بأى شئ بعد انطلاقها وهى باردة بلا نار،
وذلك بالطبع لأنه عندما تصطدم الريح بشئ كالسحب بضربة عنيفة،
فإن ذرات الحرارة يصير بإمكانها أن تتدفق خارج الريح،
وفى الوقت ذاته خارج ذلك الشئ الذى يتلقى الصدمة بعد ذلك،
تمامًا مثلما يتطاير الشرر عندما نضرب حجراً بقطعة حديد،
فمادة الحديد الباردة لا تمنع ذرات الحرارة
المتوهجة من التدفق كلها عند وقوع الضربة.

وهكذا فإن أي مادة بالمثل ينبغى بالطبع أن تشتعل من
الصاعقة لو تصادف وكانت مادتها مناسبة وقابلة للاشتعال.
ولا يمكن لمادة الريح أن تصبح بسهولة باردة تمامًا،
خاصة أنها قد أتت من أعلى بعد اندفاعها بقوة هائلة،
فعلى الرغم من أنها فى بداية الأمر لم تشتعل بالنار أثناء رحلتها،
فإنها – على أى حال – تصل ساخنة بعد اختلاطها بالحرارة.
بالنسبة لسرعة الصاعقة وقوة ضربتها،
فإن الصواعق تمرق عادة عند هبوطها نحو الأرض بسرعة فائقة،
لأن قوة الريح، بعد إثارتها، تستجمع نفسها كاملة
من بين السحب وتحظى بطاقة حركية هائلة،
ومن ثم عندما لا تتمكن السحابة أكثر من ذلك من كبح جماح الاندفاع
المتزايد للريح، فإن تيار الريح القوى يتمكن من الإفلات وبذلك يطير
فى اندفاع عجيب، مثل القذائف التى يقذفها منجنيق قوى.
أضف إلى ذلك أن الصاعقة تتألف من ذرات صغيرة وملساء،
وأنه ليس من السهل لأى شئ أن يعترض طريق مثل هذه المادة؛
حيث إنها تستطيع أن تهرب وتتغلغل خلال الممرات الضيقة،
وعلى ذلك فإن الكثير من العوائق لا تفلح فى صدها أو
تعطيلها، ومن ثم فإنها تطير مندفعة بسرعة فائقة.

فضلاً عن ذلك، إن كل الأثقال بطبيعة الحال
تندفع نحو أسفل، وعندما يُضاف إليها قوة الصدمة
فإن السرعة تتضاعف كما أن ذلك الاندفاع يصير أشد،
ولذلك فإن الصاعقة تحطم كل الأشياء التى تعترض طريقها
بقوة وسرعة فائقة وبضربة واحدة، ومن ثم تواصل شق طريقها.
أخيرا، لأن الصاعقة تأتى نحو الأرض مندفعة من مسافة بعيدة فإنها
لا بد أن تكتسب سرعة حركة إضافية التى تزداد باستمرار مع
تقدمها، وبذلك تزيد من قوتها العاتية وتصير ضربتها أكثر عنفاً؛
لأن تلك السرعة تتسبب فى حمل كل ذرات الصاعقة
فى تيار واحد وكأنها تتجه جميعها نحو مكان واحد،
ثم توجهها كلها أثناء دورانها نحو ذلك الاتجاه الوحيد.
ولعل الصاعقة أثناء قدومها تجذب إليها من الهواء ذاته
بعض الجسيمات التى تزيد من سرعتها بفعل الصدمات.
وتمر الصاعقة بسلام خلال أي مادة وتعبر الكثير من الأشياء دون أن
تلحق بها الأذى، وذلك لأن نارها السائلة تمر عبر مسام تلك الأشياء.
فى حين أنها تمزق أشياء كثيرة، عندما تصطدم ذرات الصاعقة
بذرات الأشياء فى مواضع اتحادها وتشابكها فى نسيج متماسك..
علاوة على ذلك؛ فإنها تذيب النحاس بسهولة وتصهر الذهب

فى الحال، وذلك لأن مادتها تتألف من ذرات غاية
فى الصغر ومن عناصر ملساء للغاية،
وبذلك تتغلغل بكل سهولة فى المواد، وبمجرد تغلغلها
فإنها تفكك كل عقدها وتحل قيودها.

فى فصل الخريف تكون قبة السماء المرصعة بالنجوم وكل
أرجاء الأرض أكثر عرضة للاهتزاز من الصواعق،
وكذلك عندما يعلن فصل الربيع المزهر عن قدومه؛
لأن فصل الشتاء بارد الطقس يفتقر إلى الحرارة، وفى فصل الصيف
الحار لا توجد الرياح، كما أن السحب لا تكون مادتها بالغة الكثافة،
لكن عندما يكون الطقس بالسماء وسطاً بين البرودة والحرارة،
عندئذ يتوافر كل الأسباب المتنوعة لحدوث الصاعقة؛
لأن التيارات المناخية للعام تجمع بين البرودة والحرارة،
وكلاهما ضرورى للسحب كى تتكون بها الصواعق،
وعلى ذلك قد ينشب صراع بين العناصر، ويموج الغلاف
الجوى ثائراً فى اضطراب هائل من قبل النار والرياح؛
لأن البداية الأولى لفصل الحرارة تأتى بعد نهاية فصل البرودة،
وذلك هو فصل الربيع؛ ولهذا السبب ينبغى على تلك العناصر المتضادة

أن تتصارع فيما بينها فى ذلك الوقت وأن تحدث اضطراباً بعد امتزاجها.
وتأتى نهاية فصل الحرارة مع بداية فصل البرودة،
وهو ما يُطلق عليه اسم فصل الخريف،
وهنا أيضًا يدخل برد الشتاء القارس فى صراع مع حرارة الصيف..
وعلى ذلك ينبغى أن تُسمَّى تلك التيارات المناخية فصول السنة،
ولا عجب أن تحدث فى تلك الفترة الكثير من الصواعق،
وأن تثير فى السماء العواصف العنيفة،
حيث ينشب صراع متكافئ فى حرب مزدوجة بين العنصرين،
فعلى هذا الجانب تناضل الحرارة، وعلى الجانب الآخر الرياح ممزوجة المطر..
هكذا لكى تفهم الطبيعة الحقيقية للصاعقة
حاملة النار، وهكذا ترى بأي قوة تُحدث مثل هذا التأثير،
وهكذا لا تسعى دون جدوى خلف علامات المشيئة الخفية
للآلهة وذلك بتقليب أوراق التعاويذ الإتروسكية(١)،
وتعلم من أى جهة أتى لهب النار الطائر، وإلى أى

---

(١) الإتروسكيون: هم سكان إقليم إتروريا شمال إقليم لاتيوم، وقد اشتهر الإتروسكيون بفنون العرافة والتعاويذ السحرية. وقد كان للإتروسكيين ثلاثة كتب دينية، يتناول الأول قراءة الغيب من حركة الطيور، ويحتوى الثانى على تعاليم قراءة الغيب من أحشاء الأضاحى، أما الثالث فيحتوى على باقة متنوعة من الطقوس الدينية.

جهة يتجه، وكيف له أن ينفذ داخل الأماكن الحصينة،
وكيف ينفذ خارجها بعد أن استجمع قواه،
وما حجم الضرر الذى تتمكن ضربة صاعقة من السماء أن تلحقه.
لكن لو أن جوبيتر[1] والآلهة الأخرى تهز
أقطار السماء اللامعة بصوت الرعد المخيف،
ولو أنهم يقذفون بالنار إلى المكان الذى يريدونه،
فلماذا لا ترى الآلهة أن الذين يرتكبون جريمة نكراء
يجب أن يُقذفوا بألسنة اللهب وأن يستنشقوا كبريتها
بصدورهم المطعونة، فيكون ذلك درساً قاسياً للبشر،
ولماذا بدلاً من ذلك نرى إنساناً نقى السريرة ولم يرتكب أى
فعل شائن تصيبه ألسنة اللهب بلا ذنب، وعلى حين غرة
يحتويه إعصار من السماء وتلتهمه النار؟
ولماذا أيضًا تقذف الآلهة صواعقها فى الأماكن المقفرة ويضيع جهدها سدى؟

---

(١) يعنى لفظ جوبيتر "أبا الآلهة" وذلك لأن اسمه مركب من كلمتين هما أب والآلهة (divis pater)، وقد نسب إليه الرومان كل الظواهر الطبيعية المرتبطة بالسماء مثل المطر والعواصف والرعد والبرق، فإن حدث جفاف لجأ إليه الناس وقدموا له قرباناً لينزل المطر. وحيث إنه يرسل الصواعق فقد اعتقد الناس أنه أقوى الآلهة وشيدوا معبده على تل عالٍ هو تل الكابيتول الذى يشرف على سوق المدينة ولهذا فهو حامى المدينة. وقد كان القنصل عند تقلده لمنصبه يبتهل إليه، وعلى القائد المنتصر أن يقدم إليه صلاة شكر وهو ما فعله قيصر عقب انتصاره على بلاد الغال.

أم إنها إذن تمرن سواعدها وتقوى عضلاتها؟
ولماذا تسمح الآلهة لصاعقة أبيهم جوبيتر بأن تسقط على الأرض
بلا جدوى؟ ولماذا يسمح هو نفسه بذلك فلا يدخرها لأعدائه؟
ولماذا أيضًا لا يقذف جوبيتر أبداً صاعقته على الأرض
ولا يدوى صوت الرعد عندما تكون كل أرجاء السماء صافية؟
هل ينتظر حتى تنتشر السحب ثم ينزل إليها بنفسه
حيث يوجه – من أقرب موضع بها للأرض – ضربة صاعقته؟
علاوة على ذلك لماذا يرسل صواعقه نحو البحر؟ وما الضغينة
التى بينه وبين الأمواج والماء الخضم وحمامات السباحة؟
علاوة على ذلك؛ لو أنه يرغب فى أن نأخذ حذرنا من ضربة صاعقته
فلماذا يتردد فى أن يجعل بمقدورنا أن نراها عندما يرسلها؟
لكن لو كانت مشيئته أن يسحقنا بناره بغتة ونحن غافلون،
فلماذا يحدث الرعد فى هذا المكان حيث يمكننا أن نتجنبه؟
ولماذا ينشر الظلام أولاً قبل أن يصدر قعقعته وهزيمه؟
وكيف يمكنك أن تعتقد أنه يرسل صواعقه إلى مناطق عديدة
فى الوقت نفسه؟ أم هل تجرؤ أنت على قول إن هذا الأمر لم يحدث،
وأن العديد من ضربات الصواعق لم يحدث فى وقت واحد؟

بل إن هذا كثيراً ما يحدث ويجب أن يحدث،
مثلما ينهمر وابل من الأمطار فى العديد من المناطق
فإن العديد من الصواعق يحدث فى وقت واحد.
وأخيرًا لماذا يدمر بصاعقته المهلكة المعابد المقدسة
للآلهة الأخرى، بل ومقاره هو نفسه الشهيرة،
ولماذا يحطم تماثيل الآلهة الأخرى جيدة الصنع
ويسلب من تماثيله هو جلالها بإصابتها بتشويه مدمر؟
ولماذا يهاجم الأماكن المرتفعة بوجه عام،
ولماذا نرى آثار ناره فوق قمم الجبال؟
بقى أن نذكر أنه من السهل أن ندرك من تلك الملاحظات كيف
تهبط تلك الأشياء التى يطلق عليها الإغريق – نظراً لطبيعتها –
"الأعاصير النارية"، من السماء إلى البحر وذلك بعد قذفها
من أعلى؛ لأنه يحدث أحياناً أنها تسقط من السماء إلى البحر وكأنها
عمود ينزل من أعلى، ومن حول كل عمود يغلى ماء البحر
وذلك بعد إثارتها بشدة من قبل تيارات الهواء العاصفة،
والويل لأي سفينة تقع فى مجال تلك الدوامة
فهى تتخبط وتدخل فى خطر جسيم.

يحدث هذا فى بعض الأحيان عندما تخفق تيارات الهواء الحبيسة
فى تفجير السحابة التى تود تفجيرها، بل وتحملها لأسفل
تدريجياً لدرجة أنها تصبح مثل عمود ينزل من السماء
إلى البحر، وكأن شيئاً قد قُذف به من أعلى بقبضة اليد
وبقوة الساعد وذهب بعيدًا إلى أن بلغ أمواج البحر؛
ومن هنا، فإنه عندما تمزق ثورة الرياح تلك السحابة إرباً،
فإنها تندفع خارجها متجهة صوب البحر وتُحدث غلياناً عجيباً للأمواج؛
لأن الإعصار يدور أثناء اتجاهه لأسفل ويصطحب معه
فى الوقت نفسه تلك السحابة ذات القوام المرن؛
ولكن بمجرد أن يدفع الإعصار مادة السحابة الثقيلة نحو مياه البحر
فإنه فجأة يغمر نفسه تمامًا داخل المياه ويثير البحر
بأسره ويجبره على الغليان مصحوباً بضجيج هائل.
يحدث فى بعض الأحيان أيضًا أن دوامة من الريح تحيط نفسها
بالسحب حيث تجمع حولها ذرات السحب من الهواء،
وبذلك تبدو كأنها صاعقة نارية تنزل من السماء..
وعندما تهبط تلك الدوامة إلى الأرض وتنفجر،
فإنها تُخرج من جوفها القوة الهائلة للإعصار والعاصفة،

ولكن لأن مثل هذا الإعصار لا يحدث إلا نادراً ولأن الجبال
تمنع رؤية هذه الظاهرة على الأرض، فإن رؤيتها تحدث
أكثر فى عرض البحر الممتد حيث السماء المفتوحة.

تتشكل السحب عندما يلتقى فجأة العديد من الذرات
ذات الطبيعة الخشنة وذلك أثناء تحليقه عالياً فى فضاء
السماء، وعلى الرغم من تشابك تلك الذرات ببعضها بدرجة
ضعيفة، فإنه يمكنها التماسك والالتحام ببعضها البعض.
وهذه الذرات هى التى تتسبب فى تكوين السحب الصغيرة؛
ومن ثم فإن تلك السحب الصغيرة تتحد وتمتزج بعضها ببعض،
وباتحادها يزداد حجمها وتحملها الرياح،
ويظل الحال هكذا إلى أن تهب عاصفة عاتية.

يحدث أيضًا أنه كلما كانت قمم الجبال أكثر قرباً من السماء
كانت أكثر ارتفاعاً وانبعث منها باستمرار
البخار بمساعدة الضباب الكثيف للسحابة الصفراء؛
وذلك لأنه عندما تبدأ السحب فى التكون،
وقبل أن تتمكن العيون من رؤية مادتها بالغة الرقة، فإن
الرياح تسوقها بعيدًا وتجمعها فوق قمم الجبال العالية..

وهنا فى نهاية المطاف يحدث أن السحب تتمكن من الظهور للعيان
بعد تجمعها وتكثفها فى كيان واحد، وفى الوقت نفسه
تبدو أنها تعلو فوق قمة الجبال نفسها وتتجه نحو السماء الصافية؛
لأن الحقائق نفسها وحواسنا تبرهن على أن تلك المناطق المرتفعة
تنتشر بها الرياح، ويبدو ذلك عندما نتسلق الجبال الشاهقة.

بالإضافة إلى ذلك، يجب أن ندرك أيضًا أن الطبيعة ترفع كماً
هائلاً من الذرات فوق سطح البحر كله، وهو ما يتضح لنا عندما
نعلق الملابس على الشاطئ، فإن الرطوبة العالقة بها تجف.
ويبرهن ذلك على أن حجم السحب يبدو أنه من الممكن أيضاً
أن يزداد وذلك بتبخر العديد من الذرات من مياه البحر المالحة؛
لأن ثمة تماثلاً تامًا بين طبيعة مياه كليهما.

علاوة على ذلك؛ فإننا نرى أن الضباب وبخار الماء يتصاعدان
من كل الأنهار ومن الأرض نفسها أيضًا،
البخار الذى ينبعث من تلك المصادر مثل هواء الزفير الذى يُحمل إلى
أعلى بالطريقة نفسها، ويملأ السماء بغيومه التى باتحادها ببعضها
تكوّن تدريجياً السحب العالية فى الهواء؛
لأن حرارة الفضاء المرصع بالنجوم تضغط أيضًا على البخار من أعلى،

فتجمعه حيث يبدو كأنه ينسج ستاراً من السحب أسفل قبة السماء الزرقاء.
يحدث أيضًا أن تلك الذرات التى تتكون منها السحب والضباب
الطائر، تأتى إلى سمائنا من خارج عالمنا؛
لأننى قد وضحت من قبل أن أعدادها لا تُحصى، وأن امتداد
الفضاء لا حدود له، وقد وضحت أيضًا بأي سرعة هائلة تطير
تلك الذرات وكيف أنها اعتادت أن تجتاز
فى لحظة واحدة مسافة شاسعة تفوق الوصف.
لا غرو إذن لو أن العواصف والظلام الموجودين
فى الفضاء كثيراً ما يغشون فى وقت قصير
البحار والأراضى بسحب ضبابية هائلة،
حيث إن الذرات يُسمح لها بالدخول وبالخروج
عبر كل قنوات الفضاء المنتشرة فى كل أرجائه،
وكأنها تسرى فى شعب التنفس للعالم العظيم المحيط بنا.
والآن اصغ، وسوف أشرح لك كيف يتجمع المطر
فى السحب العالية، وكيف ينهمر عند سقوطه
نحو الأرض. فى البداية سأقنعك بأن العديد من ذرات
الماء تصعد لأعلى في وقت واحد مع السحب ذاتها

من كل المواد، وأنه بهذه الطريقة يزداد حجمهما معا،
السحب، وأى قدر من الماء موجود فى السحب،
وذلك مثلما يحدث لنا، فإن جسدنا ينمو ومعه الدماء، والعرق أيضا،
والخلاصة فإن كل السوائل التى توجد فى أعضائنا تزداد معنا.
فالسحب أيضًا عندما تسوقها الرياح فوق البحر الفسيح
فإنها تجذب إليها غالبًا الكثير من بخار الماء،
وبذلك فهى تشبه جززاً[١] من الصوف معلقة فى الهواء.
وبطريقة مباشرة فإن بخار الماء يصعد إلى السحب
من كل الأنهار.. وعندما تتجمع فى تلك السحب العديد
من ذرات الماء بطرق شتى بعد زيادتها من كل جانب،
فإن السحب المتخمة بالماء تناضل من أجل إرسال مائها
وذلك لسببين: لأن قوة الريح تدفعها للخارج؛
ولأن كتلة السحب ذاتها تدفعها تحت ضغط الزيادة المفرطة
فى حجمها، وتضغط عليها من أعلى وتتسبب فى انهمار المطر.
بالإضافة إلى ذلك فإنه عندما تكون السحب قليلة الكثافة بفعل
الريح أو عندما تتفكك بتأثير حرارة الشمس من فوقها،

(١) جزز: جمع جِزَّة أى فروة.

فإنها ترسل المطر وتتساقط القطرات، مثلما ينصهر الشمع فوق
النار الحامية وتتساقط منه الكثير من القطرات السائلة.

لكن تحدث أحياناً سيول من المطر المنهمر، وذلك عندما تخضع
السحب لضغوط كل من القوتين: الامتلاء بالماء وهبوب الرياح،
لكن الأمطار اعتادت أن تدوم لمدة طويلة وتستمر
لوقت طويل، عندما يتدفق الكثير من ذرات الماء،
وعندما تتراكم السحب فوق بعضها ويتكاثف الضباب
فوق بعضه وينهمر الماء من أعلى ومن كل جانب،
وعندما تزفر الأرض كلها بخار الماء وتعيده إلى الهواء.

فى هذه الحالة عندما ترسل الشمس أشعتها وسط العاصفة
الداكنة فى مواجهة الاتجاه الآخر لهطول المطر من السحب،
عندئذ تظهر ألوان قوس قزح بين السحب الداكنة.

أما باقى الظواهر الطبيعية التى تحدث فى الأفق والتى تنشأ به،
والتى تتجمع فى السحب، الظواهر كلها، كلها
على الإطلاق، الثلوج والرياح والبَرَدْ والصقيع الجليدى
وقوة الجليد البالغة التى تؤدى إلى التجمد الشديد للماء،
والتى تمنع تقدم الأنهار الجارية فى كل مكان،

إنه لأمر بالغ اليسر أن نكتشف وأن نفهم بعقولنا كيف تحدث
كل تلك الظواهر، ولماذا تحدث، على الرغم من كثرتها،
وذلك عندما تدرك جيداً خواص الذرات التى تتكون منها مادتها.
أعرنى انتباهك الآن واعلم ما السبب الذى يقف خلف وقوع
زلازل الأرض. وكُنْ على يقين فى المقام الأول أن باطن
الأرض مثل سطحها يزخر فى كل مكان بكهوف مليئة
بالرياح، كما تحمل الأرض الكثير من البحيرات والغدران
فى جوفها، هذا بالإضافة إلى الوهاد والمنحدرات الوعرة؛
كما عليك أيضًا افتراض أن الكثير من الجداول المختفية تحت سطح
الأرض تحرك بقوة هائلة أمواجها المشوبة بالجلاميد المغمورة؛
لأن الحقائق الجلية تقتضى أن تتكون الأرض فى كل مكان من الطبيعة نفسها.
ولأنها تحتوى على هذه الأشياء التى تسكن فى جوفها وتُطمر،
فإنها تهتز فى سطحها بفعل اصطدام التجمعات المتصدعة وانقلابها رأساً
على عقب، عندما يقوض الزمن تلك الكهوف الضخمة داخل الأرض؛
وعندئذ تتداعى الجبال جميعاً إلى السقوط، كما تزحف إلى خارج المكان،
بفعل ذلك الارتطام العنيف، تموّراتٌ على نحو عشوائى.
مثلما يحدث عندما تمر عربة ليست بذات وزن يعتد به

فتبدأ الأبنية القائمة بجانب الطريق كلها فى الاهتزاز،
فكذلك تتراقص أيضًا الأمتعة قليلاً داخل المنزل عندما يقلب حجر
فى الطريق أطر العجلات المعدنية من هذا الجانب إلى ذاك.
ويحدث أيضاً، عندما تنحدر مجموعة ضخمة، بمرور الزمن،
من الصخور نحو بركة مليئة بالماء،
فإن الأرض تتحرك هكذا وتهتز بفعل تموّر الماء؛
كما لو كانت وعاء ليس بمقدوره الاستقرار، حتى يكف
الماء بداخله عن التردد جيئةً وذهاباً فى شكل موجات.
فضلاً عن ذلك، عندما تكون الرياح خلال الكهوف الجوفاء
قد احتشدت تحت سطح الأرض فإنها تندفع مباشرة من جانبٍ
واحدٍ بقوةٍ هائلة داخل الكهوف العميقة،
فتنحرف بعيدًا عن وطأة الأرض باتجاه قوة الريح العاتية؛
بعدئذ تجنح تلك الأبنية التى شيدت على سطح الأرض
وسائر ما عداها مما شمخ نحو السماء،
منهارة وهى معلقة فى الاتجاه نفسه،
تجذب أشعة الشمس التى تتهدهد مؤذنة بالغياب..
ولا يزال الناس يحجمون عن الاعتقاد أن هذا الكون

الرحيب يترقبه فى عصر ما الهلاك وكارثة مروعة،
وذلك على الرغم من أنهم يرون أن معظم الأرض تنهار!
ولأن الرياح لا تعود أبداً أدراجها، فلا توجد قوة توقف
العالم أو تدرأه عن اندفاعه نحو كارثة محققة.
كما تكون حينما تعصف الرياح بدورها ثم تضعف مرة أخرى
ثم تلم شعثها وبعد ذلك تنكص على عقبيها،
ولهذا السبب غالبًا ما يتهدد الأرض السقوط على نحو أكثر
من تداعيها الحقيقى؛ لأنها تميل نحو الأمام ثم تلوح نحو الخلف
ثم تستعيد توازنها نحو منازلها الخاصة بها؛
لهذا السبب إذن تتداعى الأبنية جميعاً:
الطوابق العليا على نحو أكثر من الوسط، والوسط بدوره أكثر
من القاعدة، والقاعدة بقدر طفيف جداً.

ثمة شئ آخر أيضًا للزلزال الهائل نفسه يجب ذكره، فعندما تندفع
الرياح أو أية قوة هوائية بالغة الشدة، سواء من خارج الأرض التليدة
أو من باطنها، فإنها تقذف بنفسها بكل قوة فى تجاويف الأرض
وهناك فى الكهوف تزمجر فى بادئ الأمر باضطراب
وتنتقل فى هيئة دوامة، بعدئذ تثور قوة بالغة

هكذا وتدفع للخارج انفجارات وفى الوقت نفسه
تشق الأرض من أعماقها محدثة أخدوداً عظيماً.
هذا ما أصاب مدينة سيدون الفينيقية[1] ومدينة أيجيوم[2]
فى البليبونيس[3]، عندما محق اندفاع الهواء هذا
هاتين المدينتين بفعل زلزال أرضى فى الوقت نفسه.
وسقط الكثير من المدن الأخرى الحصينة جراء
هزات أرضية عنيفة، وغارت مدن أخرى
كثيرة مع قاطنيها فى البحر.
لكن إن لم تندفع قوة الرياح، لَمَا تَفَرَّق الهواء الشديد نفسه
وقوة الرياح الثائرة نحو الخارج عبر فجوات الأرض العديدة
كالهبوب المقشعر وهكذا ينتقل الاهتزاز.

---

(١) سيدون: مدينة صيدا حالياً، سُميت المدينة على اسم سيدون بن كنعان حفيد نوح عليه السلام، مدح هوميروس أهلها لبراعتهم فى صناعة الزجاج والصبغة الأرجوانية، كما مدح نسائها لبراعتهن فى التطريز. تعرضت المدينة للغزو أكثر من مرة من قبل الآشوريين والبابليين والمصريين والفرس والإغريق والرومان.

(٢) أيجيوم: إحدى مدن أخايا بغرب اليونان، وهى مدينة ساحلية تقع على خليج كورنثة. أُنشأت المدينة فى العصر الهومرى، واشتهرت بأبطالها فى الألعاب الأوليمبية. فى الفترة من ٣٣١ إلى ٢٨١ ق.م. خضعت للحكم المقدونى، ودخلت فى حظيرة الإمبراطورية الرومانية من عام ١٤٦ ق.م..

(٣) البليبونيس: شبه جزيرة فى جنوب اليونان، يعود اسمها إلى بيلوبس ابن تانتالوس الذى يُقال إنه أخضع تلك المنطقة كلها لحكمه، فاسمها يعنى "جزيرة بيلوبس".

. وذلك مثلما ينفذ البردِ عميقاً إلى أوصالنا،
فيحملها على الاختلاج والارتجاف رغماً عن إرادتنا.
لذلك يرتعد الناس فى مدنهم برعب ينذر بخطر ذى حدين،
يخافون المنازل مِن فوقهم، ويرهبون الكهوف عندِ مواطئ
أقدامهِم لئلا تتقلقل الأرض فجأة،
أو تتباعد فكوكها المنفرجة،
خوفاً ورعباً من ابتلاعهم مع أنقاضها.
دَعْهُمْ يعتقدون – كما يروق لهم – أن الأرض والسماء
سوف لا تفنى وأنه قد قُدِّر لهما سلامة سرمدية؛
ومع ذلك أحياناً ما تأتى قوة الخطر نفسها الحاضرة هذه
سريعاً موافقةً لمنخس الخوف هذا أيضًا تدريجيا،
لعل الأرض تنحسر بغتة من تحت أقدامهم
وتهرع إلى هوة بلا قرار ويعقب ذلك أن تنخسف سائر
الأشياء تمامًا فلا يبقى سوى حطام الكون المضطرب.
فى المقام الأول دعهم يعجبون من أن الطبيعة لا تزيد من
منسوب المحيط مع أنه المصب للتدفق الهائل للماء،
ولأن سائر الأنهار من كل الجهات تصب فيه..

هذا بالإضافة إلى هطول الأمطار المتفرقة والزوابع الطيارة،
التى تزيد من مياه البحار وتروى كل بقاع اليابسة؛
وأيضًا ينابيع البحار؛ مع أنها كلها لا تقارن بضخامة المحيط،
فكل ذلك يعادل بالكاد قطرة واحدة بالنسبة له؛
فلا عجب إذن فى أن المحيط الهائل لا يزداد.

كما أن الشمس بتأثير حرارتها تنزع عنه جزءاً عظيماً من مياهه.
لأننا نرى عين اليقين الملابس المشبعة بالماء
تجف بواسطة الشمس بفعل أشعتها اللافحة.
لكننا نرى أن المحيطات مترامية الأطراف..
وعلى الرغم من ذلك تبخر الشمس منها
مقداراً صغيراً من السطح؛
ولا يزال عظيماً جدًا المدى الذى تبخره الشمس من الأمواج بغزارة.

بعدئذ ترفع الرياح جزءاً كبيراً
من الرطوبة عن طريق جرف السطح، لأننا غالباً
ما نلاحظ أن الطرق تصير جافة أثناء الليل بواسطة الرياح
ويتجمع الغرين الناعم على أديم الأرض عند بزوغ الشمس.

هذا كما عرضت أن السحب أيضًا تجتذب
مقداراً عظيماً من الرطوبة من سطح المحيط العظيم
التى تنشرها فى مختلف أرجاء العالم،
وأحياناً عندما يهطل المطر على الأرض وتنقل الرياح غيوم

البخار الرقيقة المتقطعة عبر السماء. وفى النهاية لأن الأرض
ذات قوام مسامى، وتقع متاخمة للبحر الذى تكتنفها شواطئه
من كل جانب، لذا فبمجرد أن تصبّ (الأنهار) مياهها فى البحر،
فهكذا بالتبادل ينضح أيضًا على الأرض من البحر الأُجاج؛
فالماء المالح يُرشح أثناء جريانه بالأرض، ثم تنساب مادة الماء
الخالصة مرة أخرى، ويلتقى كل الماء الجارى هنا وهناك عند
مصب الأنهار، ومن ثم يتدفق الماء فوق الأرض فى مجارٍ عذبة
بطول الطريق الذى غار ذات مرة بقدمه السائلة فيه.

الآن سأبدأ فى توضيح، بأى منوال تندلع النيران أحياناً
للخارج بمثل هذا الثوران الزوبعى عبر فوهة جبلِ إتنا[1].
لأنه لا توجد قوة غاشمة أو أصل إلهى لهذه النكبة
بحيث ترتفع زوبعة نارية وتفرض سيادتها على
أراضى صقلية جاذبة إليها أنظار الشعوب المتاخمة،
عندما يلاحظون أن سائر الأقطار ينبعث منها الدخان القاتم
وتسطع بألسنة اللهب، تمتلئ أفئدتهم بالهلع الذى يستولى على
قلوبهم من أن الطبيعة تعتزم إحداث كارثة كونية.
إن هذه مسألة تستدعى تأملاً عريضاً
وعميقاً ودراسة بعيدة المدى لكل ربوع الكون،

(١) بركان جبل إتنا: انظر الكتاب الأول صـــ:١٧٠ حاشية ٣١ أعلاه، والكتاب الثانى صـــ :٢٢٣ حاشية ١٤ أعلاه.

ربما عليك أن تتذكر كم يكون الكون بعيد الغور،
ولشدّ ما تكون سماء واحدة جزءاً جد صغير،
جزءاً لا نهائى الصغر من جميع الكون،
ليس كبيراً جداً، كشخص واحد بالنسبة للأرض كلها.
لو أنك راعيت هذه الحقيقة تمامًا واحتفظت بها جلية أمام ناظريك،
فسوف تكف عن التعجب من أشياء كثيرة.
لأنه تُرى هل هناك أحد منا يشعر بالعجب لو أن شخصاً
ما أُصيب بحمى فى جسده تنتشر مشتعلة الأوار
أو أى ألم آخر من المرض فى أنحاء جسده؟
فإن تَّوَرُّم القدم فجأة، أو أحياناً ما يعترى الأسنان
ألم مبرح، أو ألم يجتاح العينين نفسيهما،
عندئذ يبدو أن طفحاً جلدياً لعيناً يزحف على الجسد
ويحرق كل جزء يأتى عليه، وينسل من عضو إلى آخر،
إن السبب فى ذلك حقًا هو وجود الكثير من ذرات الأشياء،
وأن الأرض والسماء تجلبان لنا من الآفات ما يكفى
لتوريث قدر لا يقاس من الأمراض الفتاكة.
لذا يتعين علينا، على هذا المنوال، أن نؤمن بأن الأرض
والسماء قد زُوِّدتا بعدد لا نهائى من سائر المواد،

التى تكفى لزلزلة الأرض على نحو مباغت وترسل
ريحاً زعزعان تكتسح البر والبحر،
وترتفع نيران إتنا، لتنبجس السماء مشتعلة؛
ويحدث أن تتأجج أقطار السماء بالنيران
وتتبدّى زوابع ممطرة بقوة مضطرمة،
ذلك إن تصادف اجتماع ذرات الرطوبة لذلك التأثير.
"لكن تأجج الحريق المدمر يكون أضخم اضطراباً". كما تقول
بلا شك، أجيبك، ولذا يبدو أى نهرٍ ضخماً بالنسبة للمرء
الذى لم ير أعظم منه من قبل، وكذلك تبدو
الشجرة أو الإنسان، فكلاهما يبدو
ما عداها من أضخم الأشياء التى رآها ضخمة،
رغم أن جميع ما فى الأرض والمحيط والسماء
لا يعدل شيئاً بالنسبة للكون بأسره.
مع ذلك سأشرح الآن بأى منوال يثور
اللهب الذى ينبجس فجأة من تنور إتنا الواسع.
فى أول الأمر يكون الجبل بأسره أجْوَفَ عند السفح، وذلك لأنه يعتمد
فى كل مكان، كما يقال، على كهوف فى صخرٍ من البازلت.
كما توجد الرياح والهواء فى جميع الكهوف؛

حيث تهب الرياح عندما يُثارُ الهواء بفعل أية قوة دافعة.
عندئذ تصبح هذه الرياح ساخنة على نحو مخيف فترتفع حرارة
جميع الصخور المحيطة بها عندما تلامسها، وكذلك الأرض،
ومن ثم تثور نار حارة مصحوبة بألسنة اللهب الحادة،
تطفر وتقذف بذاتها لأعلى مباشرة من فوهة الجبل..
وهكذا تحمل نارها بعيدًا وتشتت الرماد
بعيدًا للخارج ويدور دخان بالغ الكثافة ودامس
ويُقذف فى الوقت ذاته بصخورٍ هائلة الوزن، لذلك علك
لا تشك فى أن قوة الهواء العنيفة هذه تحدث هذه التأثيرات.
كما أن البحر – حول جزء عظيم من سفح الجبل – يحطم
أمواجه على الشاطئ الصخرى وينحسر تياره السفلى.
من هذا البحر تمتد الكهوف إلى فوهة
الجبل العميقة أدناه.. وبهذا عليك أن تقر بأن
الرياح تنفذ من المحيط وأن طبيعة الحال تلزمها النفاذ تماماً
عندما يمنحها مجرى حراً ويملأ اللهب الهواء فيرفعه
لأعلى وتهبط الجلاميد بعنف باعثة سحباً من الرمال.
وعلى أعلى قمة تقع فوهة البركان أو بوتقة الخلط

كما يدعونها؛ أو ما نسمِّيه نحن فوهة أو فتحة.

هناك عدد من الظواهر الطبيعية، لا يكون كافياً تعيين سبب واحد
فقط لحدوثها، بل علينا أن نسرد العديد، مع أن هناك سببًا واحداً
فقط هو الحقيقى؛ هب أنك رأيت جثمان شخص ما يرقد ميتاً
على بعد مسافة منك، فسوف تذكر كل أسباب موته المحتملة،
وأنت على يقين من أنك ذكرت السبب الحقيقى بينهم.
بيد أنك لا تستطيع أن تثبت أن السيف أو أن تأثير البرد هو
سبب موته إن لم يكن المرض أو لعله يكون السم،
لكننا نعرف أن ما حدث له هو شئ ما من ذلك
القبيل.. وهكذا يتعين علينا نظير هذا فى مسائل أخرى عديدة.

فالنيل على سبيل المثال يرتفع فى فصل الصيف ويفيض على السهول،
وهو النهر الوحيد الذى يمتد فى أرض مصر كلها.
لقد دأب هذا النهر على رى حقول مصر عند بداية فصل الصيف،
وهذا يرجع إلى أن الرياح الشمالية الشرقية فى فصل
الصيف تعترض مصبه، والتى تُدعى فى ذلك الوقت من
العام بالرياح الموسمية، وهى تهب عكس التيار فتحجزه،
وتدفع الماء لتملأ المجرى وتجبرها على الركود.

لأن هذا الهبوب، بلا ريب، الذى دفع كوكبة القطب
الشمالى الباردة، يهب عكس مجرى الماء.
ينبع النهر من بلدة ذات مناخ حار رطب فى أقصى
الجنوب، ويرتفع عالياً عند منتصف النهار[1] بين سلالات
من البشر سود الإهاب[2]جراء حرارة الشمس اللافحة.
من المرجح أيضًا أن حشداً كبيراً من الرمال (فى قاع النهر)
يعوق المصب عندما يبلغه التيار،
عندما يوجه البحر بفعل الرياح الرمال للداخل؛
وعن طريق تلك الرمال يصبح مصب النهر أقل حرية
كما تغدو الأمواج أقل سهولة فى الانحدار إلى أسفل.
ويُحتمل أيضًا أنه فى ذلك الفصل توجد أمطار أكثر غزارة
عند منبعه، لأن الرياح الموسمية الآتية من الشمال الشرقى
تدفع بعدئذ جميع السحب فى تلك الجهات.
ومن المرجح أيضًا أن عندما تأتى الأمطار معًا مندفعة
إلى أقاليم الجنوب، تدفع السحب هناك لتحتشد فى
نهاية المطاف فوق الجبال الشاهقة فتضيق عليها الخناق.
ربما يولد النهر بسبب قمم الجبال الأثيوبية شاهقة الارتفاع،

---

(١) المقصود هنا بعبارة " منتصف النهار " – "media dei" – هو المنطقة الجنوبية الوسطى.

(٢) أى ذوى بشرة سمراء.

حيث تسطع الشمس على سائر الأشياء بأشعتها
المذيبة للثلوج البيضاء لتنحدر فى فيضان على الوديان.
دعنى أوضح الآن، بأي طبيعة تتميز تلك
البقاع التى يُطلق عليها البحيرات الأفيرنية[١]..
وقد أُطلق عليها اسم أفيرنا فى المقام الأول بسبب
كونها مهلكة لجميع فصائل الطيور،
لأنه عندما يحوم أي فصيلة ذات رياش فوق تلك الأماكن،
غافلاً عن سربه فيطوى أشرعة أجنحته، فإنه ينقلب رأساً
على عقب وهو يمد أعناقه الخائرة وسرعان ما تسقط على الأرض –
إن كانت طبيعة المكان تحته تسنح بالوقوع،
أو فى الماء، فى حالة ترامى أطراف بحيرة أفيرنوس تحته.
وهناك موضع مماثل يقع بالقرب من كوماى[٢]، حيث تغصّ الجبال
بالدخان الخانق المشبع بعنصر الكبريت اللذّاع وتزخر بالعيون الساخنة.
كما أن هناك موضعاً آخر داخل أسوار مدينة أثينا، فوق قمة
القلعة[٣] ذاتها، على مقربة من معبد الربة بالاس ابنة تريتون[٤]

---

(١) أفيرنوس هو اسم قديم لفوهة بركان بالقرب من مدينة كوماى فى إقليم كامبانيا غرب مدينة نابولى. داخل هذه الفوهة توجد بحيرة أفيرنوس التى اعتقد الرومان أن بها بوابة العالم السفلى والجحيم.

(٢) كوماى: مستعمرة إغريقية قديمة تقع فى الشمال الغربى لمدينة نابولى بإقليم كامبانيا، وهى مقر العرافة سيبوللا.

(٣) المقصود هنا هو الأكروبوليس بأثينا، وقد شُيد فوقها معبد الربة مينرفا (أثينة) الربة الحامية للمدينة.

(٤) تريتون: إله بحرى، وابن الإله نبتونوس إله البحار من الحورية أمفيتريتى، نصفه العلوى لبشر ونصفه السفلى ذيل سمكة، والتريتونية هو لقب من ألقاب الربة مينرفا.

وهى الربة مينرفا المفضالة[1]، إلى هذا المكان لا يتوجه أبداً الغربان ذوو النعيق الأجش فى طيرانهم، ولا حتى عندما يتصاعد دخان القرابين من المذابح..

على هذا النحو تفرّ بحذر ولكن ليس من غضب مينرفا العارم الذى
جلبه عليهم تدخلهم فيما لا يعنيهم[2] - كما تغنَّى المنشدون الإغريق -
لكن بسبب طبيعة المكان ذاته الذى يحدث هذا التأثير.

فى سوريا أيضاً، كما يُقال، يوجد مكان آخر - يُرى بوضوح -
مثل هذا المكان، فبمجرد أن توجه الحيوانات ذوات القوائم الأربع
خطاها هنالك، فإن تأثير ذلك المكان يجعلها تتساقط على الأرض
بعنف، كما لو كانت قد قُدِّت على غرة قرابين لآلهة العالم السفلى.

بيد أن سائر هذه الأمور العجيبة تجرى بمقتضى قانون طبيعى،

---

(١) كانت للربة مينرفا مكانة مهمة عند الرومان، وهى تجسد التفكير والحساب والإبداع. ولذلك اعتبرها فارو تجسيداً للعقل المنظم للكون، وحيث إنها ربة عذراء ووالدها هو كبير الآلهة جوبيتر فقد ساواها الرومان بالربة الإغريقية أثينة، ونقلوا إليها كل أساطيرها.

(٢) ذات مرة حاول الإله هيفايستوس اغتصاب الربة أثينة التى كانت تريد أن تظل عذراء، قاومته الربة بشدة لكن شهوة هيفايستوس كانت جامحة لدرجة أن تساقطت بعض قطرات من منيه على الأرض فحملت ربة الأرض جايا وأنجبت طفلاً اسمه إريختونيوس، أشفقت الربة أثينة على المولود وقررت رعايته فوضعته فى صندوق وأعطته إلى بنات الملك الأثينى كيكروبس أجلاوروس وهيرسى وباندوروس وطلبت منهن ألا يفتحن الصندوق، وفى أحد الأيام دفع الفضول أجلاوروس وهيرسى إلى فتح الصندوق فوجدن طفلاً له ذيل ثعبان، أصاب الذعر الفتاتين فألقين بنفسيهما من قمة أكروبوليس، رأى الغراب الأبيض ما حدث فأبلغ الربة أثينة بما حدث من الفتاتين غضبت الربة من الخبر السيئ الذى حمله إليها فحولت لونه من اللون الأبيض إلى اللون الأسود، ومنذ ذلك الحين صار لون الغراب أسود، كما حذرت الربة الغربان من الطيران فوق أكروبوليس.

ويبدو واضحاً من أى مصدر تأتى هذه الأسباب التى تؤدى إلى ذلك؛
لذا ليس هناك من داعٍ إلى الاعتقاد فى وجود بوابة لمملكة أوركوس[1] هنا،
أو ننغمس فى تصور ما هو أبعد من ذلك بأنه ربما تجتذب آلهة
العالم السفلى الأرواح من هذه الأماكن إلى مرابض نهر أخيرون[2]،
كما يُعتقد غالبًا أن الأيائل مجنحة الأقدام تجذب بواسطة زفير
فتحات أنوفها فصائل الوحوش الزاحفة من جحورها.
فلْتعلم كم يبتعد كل هذا فى تعارضه عن السبب الحقيقى؛
إذ إننى أسعى الآن للتحدث عن أمور حقيقية.
فى بادئ الأمر أؤكد الحقيقة نفسها، كما كنت أردد مراراً
من قبل، أن فى الأرض توجد ذرات من شتى ضروب الأشياء،
يصلح الكثير منها للغذاء، ويكون ناجعاً للحياة، والكثير
الآخر يمكن أن يصيبنا بالأمراض ويعجل بالموت.
وقد عرضت آنفاً فيما يتعلق بالحيوانات المختلفة ومادة الحياة
حيث تكون بعض المواد أكثر ملاءمة من الأخرى؛ ويرجع
ذلك لطبائعها غير المتشابهة وتركيبها المتباين عن بعضه

(١) أوركوس: انظر الكتاب الأول صـــ :١٣٧ حاشية ١١ أعلاه.

(٢) أخيرون: نهر فى منطقة إيبروس فى الشمال الغربى لليونان، ويفيض فى البحر الأيونى، وفى الأساطير الإغريقية اعتبره الإغريق لأحد أنهار العالم السفلى الخمسة. انظر أعلاه للكتاب الأول صـــ:١٨١ حاشية ٣٩.

البعض، وتفاوت الأشكال الأساسية للذرات الأولية.
يلج الكثير من الذرات الضارة الأذنين، ويشق الكثير الآخر
لنفسه طريقاً داخل فتحتى الأنف ذاتها مزعجاً وشائك الملمس،
والحق أنه ليس بالقليل ما ينبغى أن نتحاشى لمسه أو ما يتحتم
الإعراض عن رؤياه أو ما هو غير مستساغ تذوقه.
ألا ليتك تلاحظ أيضًا كيف أن للكثير من الأشياء تأثيراً
بالغ الضرر على الإنسان لكون الذوق يمجها ولكونها خطيرة؛
حيث إن لبعض الأشجار ظلالاً جد خطيرة
لأنها غالبًا ما تسبب ألماً بالرأس
إن اضطجع المرء على العشب أدناها.
هناك أيضًا فوق جبال هليكون[1] العظيمة أشجار
عُرفت بقتل البشر بفعل رائحة أزهارها الكريهة.
عساك أن تدرك أن السبب فى كل هذه المواد ينبع من التربة،
لأن الأرض تحتوى على الكثير من ذرات الأشياء العديدة
متحدة بطرق مختلفة ويتحرر كل منها على حدة قبلما يمضى
فى سبيله. وعندما يقتحم فتحتى الأنف دخانٌ لذّاع يأتى من ضوء

(١) يقع جبل هليكون فى ثيسبياى بإقليم بيوتيا، انظر الكتاب الأول صـــ :١٣٨ حاشية ٣١ أعلاه.

ليلى أُطفِئ مؤخراً، يفقد المرء الوعى على الفور،
لذا يتهاوى فى المكان نفسه ويخرج الزبد من فمه بفعل ذلك المرض.
تحمل الرائحة الثقيلة – للمادة الزيتية التى يفرزها القندس – المرأةَ على أن
تخور قواها متهاويةً فيسقط التطريز الجميل من يديها الرقيقتين،
وذلك إن استنشقتها فى وقت الحيض.
ويوهن الكثير من الأشياء الأخرى القوة العضلية فى الجسد
بأسره ويزعزع الروح فتتراجع إلى أعمق منازلها بالداخل.
كما أنه إن كان عليك الانتظار طويلاً فى حمام فاتر الماء
بمعدة ممتلئة، كم يكون من السهل أن تنهار
فى وسط الحمام مغشياً عليك بفعل بخار الماء !
وما أيسر أن يزحف دخان السنط المخدِّر ذو الرائحة
النفاذة إلى المخ، ما لم نكن قد تناولنا سلفاً جرعة من الماء !
لكن عندما تهيمن الحمى الحارقة على الجسد،
فإن رائحة الخمر تغدو ذات تأثير ضربةٍ قاتلةٍ.
أو لم تلحظ أيضًا أن الكبريت ينشأ فى الأرض
ذاتها برائحته الكريهة عندما يتكاثف القطران؛
وعندما يتعقب الناس عروق الفضة والذهب،

ينقبون بواسطة معاولهم أوغل أماكن دفينة فى الأرض،
يا له من دخان خانق الذى ينبعث من أغوار سكابتنسولا[١]!
وما أبلغ المضار التى تتسبب فيها مناجم الذهب عن طريق بث أبخرتها!
لشدة ما تؤثر فى قسمات أولئك الذين يعملون فيها وتحيل لونهم!
ألم تلحظ أو تسمع من الآخرين بالفترة الوجيزة التى تُستغرق
لهلاكهم وكيف تنفد طاقاتهم الحيوية،
لمن يحتمل مثل ذلك العمل المضنى لضرورة بالغة؟
ولذلك تشع الأرض كل هذه الأبخرة وتنفثها
فى رحاب الفضاء المتأهب لاستقبالها.
هكذا يجب أن تشع أقطار أفيرنوس أيضاً، على الطيور، هذه
القوة المميتة للبخار الذى يتصاعد من الأرض متجهاً نحو الهواء،
فيسرى سمه فى جزء معين من حيز السماء،
لذا فبمجرد أن يشقّ الطائر طريقه بجناحيه نحو ذلك المكان،
فإنه يتعثر هناك متأثراً بالسم غير المرئى،
ولذلك يسقط مباشرة رأساً على عقب إلى حيث يتصاعد البخار.
وعندما يهوى الطائر هناك فإن قوة هذا البخار نفسها

---

(١) هو منجم شهير فى العالم القديم بمنطقة ثراقيا وقد تحدث عنه هيرودوتوس، الكتاب السادس، فصل: ٤٦.

تنتزع من سائر الأعضاء ما بقى من حياة.
وبطبيعة الحال؛ يبدو أنها تسبب لهم فى بادئ الأمر نوعاً من الدوار؛
لكن بعد ذلك، عندما يهوى الطائر فى برك السم نفسها،
فى ذلك الموضع يجب أن يسلم الحياة أيضاً
لأن هناك كماً هائلاً من الأبخرة السامة يحاصره.
كما يحدث أحياناً أن هذه القوة وبخار أفيرنوس
يطردان الهواء الذى يقع فيما بين الطيور والأرض،
وهكذا يكون ذلك الجزء (من الغلاف الجوى) المتروك لهذا
السبب فارغاً تماماً. وعندما تصل محلقة فوق هذا المكان،
سرعان ما يبدأ خفقان أجنحتها فى التوقف ويصبح بلا جدوى،
وتتبدد كل قوى الأجنحة من جميع الجوانب؛
لأنها فى هذه الحالة عندما لا تستطيع أن تجد محطاً أو عوناً
لأجنحتها، تجبرها الطبيعة بالتأكيد على الهبوط إلى الأرض
بفعل أوزانها، وهكذا – وهى تغوص خلال الجزء الفارغ تمامًا –
تُزهق أرواحها من خلال جميع فتحات الجسد.
فضلاً عن ذلك تصبح مياه الآبار أكثر برودة فى فصل الصيف،
لأن الأرض تبدأ فى الجفاف بفعل الحرارة وسرعان ما تصرف
ذرات الحرارة التى تحتوى عليها إلى الهواء.

وعلى ذلك تستنزف الأرض حرارتها،
وتصير المياه الجوفية فى الأرض أكثر برودة.
وعلى نحو مضاد عندما تُحاصر الأرض بأسرها مرة أخرى بواسطة
البرد وتتقلص، والحق أنها تتجمد، فالذى يحدث، بطبيعة الحال،
أنها بذلك التقلص تحبس فى الآبار أي حرارةٍ موجودة فيها.
وبالقرب من معبد آمون[1] يُقال بوجود نبع هناك
حيث يكون بارداً أثناء النهار، ودافئاً فى وقت الليل.
يتعجب الناس أيما تعجب من هذا النبع ويعتقدون أنها حرارة
الشمس الشديدة تحت سطح الأرض تجعلها تغلى بدورها،
عندما يخيم الليل على الأرض بدجى بهيم،
لكن هذا الافتراض يتعارض تمامًا مع السبب الحقيقى.
لأن الشمس عندما تلامس سطح الماء المعرض لها تكون
غير قادرة على جعل الماء دافئاً فى الجزء العلوى له،
على الرغم من أن الضوء العلوى يحتوى على مثل هذا القدر
الهائل من الحرارة، كيف يتسنى لهذه الشمس نفسها أن تؤثر فى
الماء الموجود تحت سطح الأرض الضخم وتجعله يغلى خلال الأرض

(١) آمون: أحد آلهة الأساطير المصرية القديمة، كان له معبد شهير فى واحة سيوة اشتهر بالنبوءات مثل معبد دلفى باليونان.

ويتشبع بالحرارة الشديدة؟ وعلى نحو خاص عندما تستطيع، بكل
أشعتها المستعرة، بالكاد من جعل دفئها ينفذ خلال جدران المنزل.
كيف يتحقق ذلك إذن؟ لا جدال أن الأرض المحيطة بالنبع
تحتفظ بقوام أكثر مسامية من الأراضى الأخرى،
وهناك الكثير من ذرات الحرارة يقع بالقرب من كتلة الماء.
لذا عندما يغمر الليل الأرض بفئ مفعم بالطل،
يصبح باطن الأرض مباشرة بارداً ويتكاثف.
وبذلك يحدث أن التربة، كما لو كانت قد عُصرت بقبضة اليد،
فتطرد كل ذرات الحرارة التى تحتوى عليها إلى النبع،
وذلك هو الذى يسبب الملمس الدافئ للماء والتشبع بالبخار.
بعد ذلك عندما تسطع الشمس فإنها تقلل من كثافة الأرض
بفعل أشعتها فتجعلها مسامية لتشوبها الحرارة النافذة،
عندما تعود ذرات الحرارة الأولية إلى مساكنها
السابقة يرتد دفء الماء كله إلى الأرض.
ولهذا السبب يكون النبع بارداً أثناء النهار.
هذا بالإضافة إلى أن الماء يتأثر بأشعة الشمس عند بزوغ
الفجر وتقل كثافته بفعل حرارة أشعتها النابضة؛
ولهذا السبب يستعيد ذرات الحرارة؛

حتى يتخلص الماء من البرودة التى يحتوى عليها،
وتذيب الحرارة الجليد وتفكّ أغلاله.
هناك أيضًا نبع بارد [١]، عندما توضع فوق مائه
نُسَالة كتان[٢] كثيراً ما تعلق بها النار وتقذف باللهب للخارج،
وعلى هذا المنوال تضئ الشعلة وتتوهج بين
الماء، حيثما تطفو يحدوها النسيم.
حقًا لأن فى الماء يوجد الكثير جدًا من ذرات
الحرارة ومن أعماق الأرض ذاتها يجب أن تجيش
ذرات النار من قاع النبع وتنفث خارجه
فتخرج إلى الهواء معًا على شكل بخار،
ومع ذلك لا تكون بالغة الكثرة، حيث ترفع من درجة حرارة النبع.
هذا بالإضافة إلى وجود قوة كبيرة تجبر ذرات الحرارة على الانطلاق
خارج الماء والتبدد للخارج لتجتمع معًا على سطح الماء.
إن هذا مثل نبع أرادوس[٣] الذى يتدفق فى البحر، حيث يتفجر

(١) الإشارة هنا إلى نبع موجود فى دودونا وهى منطقة بإيبروس اشتهرت بمعبد زيوس الذى يتفجر بجواره نبع ماء عذب، ولهذا أطلقوا على زيوس في هذه المنطقة لقب إله النبع.

(٢) أى قطعة من قماش الكتان.

(٣) أرادوس: مدينة ساحلية فى شمال فينيقيا.

منه الماء العذب ويفرق موجات الماء المالح من حوله؛
وفى الكثير من البقاع الأخرى يقدم
البحر للبحارة الظماء ارتواءً فى الوقت المناسب
عن طريق انبجاس ماء عذب فى قلب ماء البحر المالح.
وبهذا النمط تتمكن تلك الذرات عندئذ من الاحتراق خلال
ذلك النبع وتشع ذاتها للخارج خلال مشاقة الكتان،
وعندما تمتزج هناك أو تعلق بجسم الشعلة فإن
النار تنشب فيها فى لحظة، لأن نسالة الكتان والشعلة
كذلك تحتوى على كثير من ذرات النار الدفينة فيها.
ألا ترى أيضاً، لو أنك تدنى فتيل مصباح أطفئ
مؤخراً من مصباح ليلى، فإنه يشتعل قبلما
يلامس اللهب، ويحدث الشئ ذاته بالنسبة للشعلة؟
ويتأثر الكثير من المواد الأخرى أيضًا بمجرد الحرارة فيشتعل
على مسافة قبلما يغمس فى النار ويكتنفه اللهب عن كثب.
هذا إذن هو ما يجب أن نتصوره يحدث فى ذلك النبع.
عند هذا الموضع أتحوّل إلى مناقشة بأى قانون
طبيعى يحدث أن المعدن يمكن أن ينجذب بواسطة ذلك

الحجر الذى يطلق عليه الإغريق حجر المغناطيس نسبة إلى موطنه،
لأنه قد تم اكتشافه داخل تخوم بلدة مغنيسيا[1].
يحار الناس فى أمر هذا الحجر، لأنه كثيراً ما
يجعل سلسلة من حلقات صغيرة تتدلى منه.
وربما ترى أحياناً خمساً أو ينيف على ذلك قد
نُظمت فى سمط تتأرجح بفعل النسيم العليل،
حيث تتدلى الواحدة من الأخرى تباعاً
تتأثر كل منها بقوة الحجر التماسكية؛
لمثل هذه المسافة تمتد قوته نافذة (خلال نسق الحلقات).
وفى مثل هذه الأمور عليك وضع عددٍ من الحقائق
قبلما تتمكن من تقرير قاعدة أولية لذلك،
لذا كان لزاماً علىَّ الاقتراب إلى الحد الأقصى من الموضوع عن طريق
ملاحظات استهلالية؛ إننى ألتمس منك آذاناً مصغية والتفاتاً مواتياً.

---

(١) تقع مغنيسيا المقصودة هنا فى منطقة ليديا، وهى غير مغنيسيا الواقعة فى منطقة أيونيا. لقد أثار حجر المغناطيس اهتمام الفلاسفة منذ فجر الحضارة الإغريقية. فسَّر ثاليس قوة المغناطيس بأنها روحاً تقبع داخل الحجر. شرح إمبيدوقليس وديموقريطوس وبعدهم إبيقوروس هذه الظاهرة عن طريق نظرية "الفيض" فى خلق العالم. ويرى بعض القدماء أن لوكريتيوس تأثر هنا بما جاء فى محاورة إيون لأفلاطون (Plato , Ion 533d-e).

فى المقام الأول فإن سائر الأشياء، التى تتراءى لنا
من الضرورى أن ينبعث منها فيض مستديم وسيل
من الذرات التى تسترعى أنظارنا وتجتذب الرؤية.
ثمة فيض متواصل ينبعث من أريج بعض الأجسام،
وذلك كما تشيع البرودة من الأنهار، والحرارة من الشمس، ومن المحيط
موجات المد والجزر العظيمة التى تلتهم الجدران المتاخمة للساحل.
ولا تكف الأصوات المتعددة عن المروق عبر الهواء دون انقطاع.
كما تصيب الرطوبة مالحة المذاق فى أكثر الأحيان الفم،
عندما نسير بجانب البحر وعندما نرى الشيح مشوباً
بالماء على مقربة منا، سوف تمس المرارة (سقف الحلق)،
لذا ينطلق من كل مادة سيل متعدد الصور يختلف من مادة
لأخرى ويترقرق فى كل الاتجاهات حولها،
لا توان أو توقف يعوق انبعاثه، لأننا باستمرار
ندركه بحواسنا، ونكون عرضة فى كل الأوقات للاطلاع
على كل هذه الذرات المنبعثة أو استنشاقها أو سماع صوتها.
دعنى الآن أكرر الحديث عن كم المسام التى تتألف منها جميع

المواد؛ الأمر الذى أوضحته أيضًا بالجزء الأول من القصيدة[١].

لأن فى الحقيقة، على الرغم من إدراك أن هذا يقبض على
ناصية الأمر، بيد أن فيما يتعلق بهذا الموضوع،
الذى نحن بصدد مناقشته، من الضرورى فى البداية ترسيخ
مبدأ أن لا شئ يُدرك بالحواس إلا ويتألف من مادة يشوبها الفراغ.

فى بادئ الأمر نجد أن الكهوف الصخرية الناتئة
تنضح بالرطوبة وتنظف بقطرات متتابعة.

وعلى نحو مماثل يرشح العرق من جميع مسام سطح الجسد،
وتنبت اللحية وينمو الشعر على كل أعضاء الجسم وأطرافه..
ويتوزع جميع الغذاء فى الأوردة، فيمتد ليغذى
أقصى أطراف الجسد حتى الأظفار.

والبرودة أيضًا والحرارة الدافئة التى نشعر بهما تمران فى
البرونز، ونحس بهما على نحو مماثل وهما يمران خلال
الذهب والفضة عندما نرفع الأقداح المترعة.

كما تمرق الأصوات فى المنزل خلال الجدران الحجرية
القابلة للاختراق، وتتسرب الرائحة خلالها والبرودة وحرارة
النار، التى تملك القدرة على النفاذ حتى فى مادة المعدن.

---

(١) انظر الكتاب الأول، أبيات (٣٢٩ – ٣٦٩) أعلاه.

حتى درع السماء الذى يحدنا ليس بكتيم ضد هجوم زوبعة لعناصر
من الخارج، وفى الوقت نفسه ضد قوة المرض، عندما تنسل من الخارج؛
وترتفع الزوابع من الأرض لتسكن عندما تستوعبها السماء، وبطبيعة الحال
تشق لنفسها درباً فى كل من السماء والأرض من مسافة، نظراً إلى
أنه لا يوجد شئ إلا ويتألف من قوام مسامى تمتزج فيه المادة بالفراغ.

هذا بالإضافة إلى أن كل الذرات التى طُردت
من الأجسام لا تتسم بقوة التأثير نفسها فى
الحواس، أو تتلاءم مع جميع المواد بالمنوال نفسه.
فالشمس على سبيل المثال، تستخلص الرطوبة من الأرض فتجعلها
جافة، لكنها تذيب الجليد وتجبر الثلوج، المتراكمة
عالياً على قمم الجبال، على التلاشى.
وعندما يتعرض الشمع لحرارة الشمس يتحول إلى سائل.
وعلى نحو مماثل ستذيب الحرارة البرونز وتصهر الذهب،
ولكن كلاً من الجلد والأنسجة العضلية تتغضّن وتتقبّض..
هذا ويجعل الماء السائل المعدن المستخرج حديثاً من النار أكثر صلابة،
ويلين الجلد والأنسجة العضلية بعد تقسيتهما بالحرارة.
ويمثل الزيتون البرى طعامًا شهياً للغاية للجديان ذوات اللحى،

كما لو كان قد مُزج حقًا بالأمبروسيا وغُمس فى النكتار[١]؛
مع أنه لا يوجد نبات أشد مرارة للإنسان من هذا الطعام.
كما أن الخنزير يحجم عن زيت المردقوش ويجفل بوجه عام
من كل ضروب المروخ، لأن ما يبدو فى بعض الأحيان أنه
يجدد نشاطنا يمثل للخنزير الأهلب[٢] سماً زعافاً.
غير أنه من ناحية أخرى؛ على الرغم من أن الوحل يمثل لنا
القذر الأشدّ تنفيراً، فهذا الشئ نفسه يكون جذاباً للخنزير
على نحو بالغ يجعله لا يكتفى من التمرغ فيه.
يبقى شئ آخر، يبدو من الضرورى ذكره
قبلما أتطرق إلى الحديث عن موضوعى الأصلى.
لأنه يوجد عدد يفوق الحصر من المسام فى الأشياء
المختلفة فلا بد أنها قد حُبيت بطبائع غير متشابهة،
فلكل شئ خصائصه والصور التى يحتوى عليها.
لأنه فى الحقيقة توجد حواس مختلفة فى الكائنات الحية،

---

(١) كان للآلهة نوع خاص من الطعام والشراب تتناوله بالإضافة إلى الطعام والشراب الذى يتناوله البشر. ذلك النوع الخاص من الطعام والشراب هو الذى يمنح الآلهة الخلود. يقول هوميروس إن طعام الآلهة الخاص هو الأمبروسيا، وتحضره إلى زيوس يومياً جماعات اليمام من مناطق واقعة فى أقصى الغرب. أما شراب الآلهة الخاص فهو النكتار وهو نوع من النبيذ الأحمر تنتجه ربة الشباب هيبى خصيصاً من أجل الخالدين.

(٢) **الأهلب**: ذو الشعر الكثيف.

فإن كلاً منها يدرك من تلقاء ذاته الشئ الملائم له؛
فنلاحظ أن الصوت ينفذ بواسطة حاسة خاصة ومذاق العصارة
بواسطة حاسة أخرى، وبواسطة حاسة ثالثة يتم اشتمام الروائح.

....

....

فضلاً عن ذلك نلاحظ أن مادةً ما تنفذ خلال الصخر،
وأخرى خلال الخشب، وثالثة تمر فى الذهب،
وتجد مادةٌ ما سبيلها خلال الفضة وأخرى خلال الزجاج؛
وذلك لأننا نرى الصور تتدفق خلال الزجاج، والحرارة فى الفضة،
ويُلاحظ أن الشئ يمر بسرعة أكبر من غيره فى الطريق نفسه.
كن متيقناً من أن سبب هذا التفاوت أن طبيعة الممرات تجبر الشئ
على المرور فى دروبها المتشبعة، كما عرضنا القليل قبل الآن،
بسبب التفاوت فى طبيعة وتركيب المواد.
ولهذا السبب، وبعد أن رُسخ لجميع هذه المبادئ جيداً
وأُعد جميع الفروض المتعلقة بهذا الصدد ومُهدت أمامنا،

على هذا الأساس يصبح من السهل الوصول إلى نتيجة محددة
وأن نستنبط الباعث وراء اجتذابه[1] مجموعة من الحديد إليه.
يجب أن تتطاير أولاً تلك الذرات نفسها الكثيرة من هذا الحجر
(المغناطيس) والتى بهبوبها تشتت جميع الهواء،
الواقع بين حجر (المغناطيس) وبين المعدن.
عندما تفرَّغ هذه المساحة، ويُترك مكان كبير فى
المنتصف شاغراً، فإن ذرات المعدن تنزلق
مباشرة إلى الفراغ الواقع بالمادة، ويعقبها
المجال المغناطيسى ذاته يعقب ذلك ويمر فى هذا الطريق.
والحق أنه لا توجد مادة تحتوى على ذرات أولية متماسكة على نحو
صميمى هكذا، ولا شئ يرتبط عن كثب معًا ويتماسك على
نحو أشد من مادة المعدن القوى بقوامه البارد العنيد.
ولذلك السبب سوف تقل دهشتنا، عندما أؤكد، أن مجموعة من
ذات الذرات – المنطلقة من المعدن إلى جسم ما – لا يمكنها أن تتحرك
فى الفراغ دون أن يعقبها المجال المغناطيسى كله؛
وهكذا يحدث، وتواصل الحركة، حتى تصل إلى الحجر

(١) أى حجر المغناطيس، ومن الملاحظ أن لوكريتيوس ابتعد كثيراً عن الحديث عن المغناطيس، ثم يعود إليه هنا ليشرح السبب فى هذه الظاهرة وهى انجذاب معدن الحديد إلى حجر المغناطيس.

المغناطيسى ذاته وتعلق به عن طريق خطوط منحنية غير مرئية.
ويحدث الشئ ذاته على جميع الجوانب؛ أينما يتشكل
حيز فارغ، إما على جانبى حجر المغناطيس وإما بأعلاه
حيث تتجه أقرب الذرات مباشرة إلى الفراغ؛
لأنه يتم اقتحامه عن طريق هبوب ذرات من اتجاهات أخرى،
ولا تستطيع بسبب انطباقها أن ترتفع فى الهواء.

لهذا ينبغى إضفاء (هذه العملية أيضًا لجعله أيسر،
بواسطة عامل مساعد لحركة الذرات هذه) –
أى أن، بمجرد أن يصبح الهواء أقل كثافة أمام المجال
المغناطيسى ويصبح الحيز الواقع بين المغناطيس ومجاله أكثر
خواء، فالذى يحدث عندئذ هو أن سائر الهواء الواقع خلف المجال
المغناطيسى يدفعه للأمام مباشرة ويسوقه من دبر،
لأن الهواء المحيط بالأشياء يشق طريقه دائمًا بينها؛
لكن الهواء المحيط بالمعدن يدفعه للأمام فى تلك اللحظة التى يدنو منها
من المغناطيس، إذ إن على أحد الجوانب يوجد حيز شاغر ممهد
لاستقبال المعدن. يتسلل هذا الهواء الذى أنا بصدد الحديث عنه،
برشاقة خلال الفراغات العديدة فى المعدن ليلحق بذراته بالغة الدقة

فيدفعها ويستحثها، مثلما تدفع الريح سفينة بواسطة الشراع.
فضلاً عن ذلك؛ يجب أن تحتوى الأشياء جميعاً على الهواء
فى مادتها، لأنها تتكون من قوام غير ثابت
ويكتنف الهواء كل شئ ويحده.
وعلى ذلك فهذا الهواء المتوارى فى أعمق أجزاء المعدن،
دائمًا ما يموج بحركة متململة وبهذا المنوال يهدم
بلا ريب المجال المغناطيسى ويقلقله من الداخل..
وبالمنوال نفسه يتحرك المجال المغناطيسى، بطبيعة الحال،
فى ذلك الاتجاه حيث يقذف بنفسه للأمام ويعضد الفراغ تأثيره.
أحياناً أيضًا تتحرك مادة المعدن مبتعدة عن هذا الحجر المغناطيسى،
كما لو كانت تفر منه ويعقبها المغناطيس بدوره.
لقد رأيت حديد ساموثراقيا[١] يتراقص، كما رأيت فى
الوقت نفسه برادة الحديد تبدو حرونة فى جفنة من البرونز،
وذلك عندما يلتصق حجر المغناطيس فى أسفل الجفنة ..
وهكذا يبدو أن الحديد متلهف على الفرار بعيدًا عن حجر المغناطيس.
بلا شك عندما ينبعث السيال من البرونز

(١) ساموثراقيا: جزيرة يونانية فى شمال بحر إيجه، قيل إن أهلها كانوا أول مَنْ استخدم قطعاً من الحديد كتعويذة أو "حجاب" يمنع الحسد عمن يحمله.

أولاً ويشغل قنوات برادة الحديد المفتوحة،
ينبعث بعد ذلك الفيض من حجر المغناطيس ليجد
سائر ما فى برادة الحديد حافلاً ولا يجد منفذاً
يسرى عبره كما كان يحدث من قبل؛
لذا يلجأ إلى ضرب مادة برادة الحديد بفيضه ويشق لنفسه طريقاً
خلالها؛ وبذلك المنوال تتنافر برادة الحديد عنه وتتحرك خلال البرونز
الذى لولا وجوده لكانت برادة الحديد هى الأكثر انجذاباً للمغناطيس.
لا تترك نفسك لتشعر بالدهشة، لأن فيض هذا المغناطيس
ليس بمقدوره دفع أشياء أخرى أيضًا للأمام.
لأن بعض المواد تظل راسخة بفضل أوزانها الخالصة، مثل الذهب؛
والبعض لأنه يسوده قوام بالغ المسامية، يجعل السيال
المغناطيسى ينفذ إليه بلا مقاومة، فلا يمكن دفعه إلى أى اتجاه؛
فى ذلك النوع تبدو مادة الخشب مثالاً واضحاً.
وتقع مادة الحديد بفضل طبيعتها فى منتصف الطريق بين الاثنين،
حسبها فقط إضفاء بعض ذرات من البرونز، وعلى ذلك،
تذعن للفيض المقبل من أحجار المغناطيس.
مع أن هذه الخواص لا تنطبق على المواد الأخرى،
بيد أننى تمكنت من إيجاد مخزون لا بأس به من أمثلة مماثلة حاضرة

لدىَّ، سأورد ذكرها عن أشياء أخرى تنطبق مع بعضها البعض.
أولاً ترى أن الأحجار تُثبّت معًا فقط بواسطة الملاط.
والخشب من ناحية أخرى يُلصق بواسطة المادة الغروية المعدّة بمهارة
معينة من الثيران[1]، لذا غالبًا ما تنفلع مجموعة من الألواح الخشبية
بفعل شرخ قبلما تنحل رابطة الالتحام الغروى..
ويكون الخمر عرضة للامتزاج بماء النبع،
بينما يأبى ذلك القطران الثقيل وزيت الزيتون الخفيف.
ويتحد اللون الأرجوانى لمحار البحر مع مادة الصوف فقط،
لذا لا يستطيع أبداً الانفصال عنه، ولو حاولت جاهداً أن
تعيد اللون الأبيض إلى الصوف بواسطة فيض الإله نبتونوس[2]،
ما استطعت لذلك سبيلاً ولو غسله اليم كله بجميع مائه.
أليس هناك سوى شئ واحد فقط يلحم الذهب بالذهب،
أو لم يلتحم البرونز بالبرونز عن طريق القصدير؟
ألستَ فى حاجة إلى أمثلة أخرى بالغة التباعد والالتواء
لبلوغ الهدف؟ ليس علىَّ بذل مجهود أكبر فى هذا الصدد،

(١) طبقاً لبلينيوس الأكبر (التاريخ الطبيعى، ٢٨، ١٧، ٢٣٦) كان أجود أنواع الغراء يستخرج من مناطق معينة من جسم الثيران خاصة الأذن والأعضاء التناسلية.

(٢) نبتونوس هو إله البحار عند الرومان ويقصد بفيضه مياه البحر.

لكن من الأحرى أن يشتمل بإيجاز،
على الكثير من الموضوعات الطويلة فى كلمات قليلة:
عندما يقع تركيب الأشياء فى مثل هذه العلاقة فيما بين كل منهما،
كى تُملأ الأماكن الشاغرة لهذا المتلقى الأماكن المليئة من ذلك
والمواضع الفارغة لذلك بالمليئة لهذا، فهذا يكون أفضل التحام.
كما يُفترض، أن بعض الأزواج يمكن أن تُحمل فى تطابق
كما لو كانت، على سبيل المثال، تتصل بواسطة حلقات وخطاطيف؛
وهذا بالأحرى ما يحدث بين حجر المغناطيس والمعدن.
سأوضح الآن طبيعة الأمراض وكيف تتمكن قوة الوباء
من الانتشار (فى الهواء)؛ حيث تنتشر جائحة مباغتة
مهلكة بين الجنس البشرى وفصائل الحيوانات.
فى بادئ الأمر، قد عرضت فيما مضى أنه توجد ذرات
معينة للكثير من المواد التى تحفظ وجودنا،
وعلى الوجه الآخر يجب أن يوجد بالضرورة عدد لا يحصى
من الذرات الأخرى المتطايرة التى تكون وبائية وقاتلة. وإن اتفق
أن تجمعت فإنها تخل بتوازن الهواء الجوى، فيغدو فاسداً ووبائياً.
وتتفشى بقوتها جميع هذه الأمراض والأوبئة؛

إما من خارج (الأرض) عبر السماء مثل
السحب والسديم، وإما يحدث غالبًا أنها تنبع من الأرض
ذاتها، وعلى الرغم من أنها تصرفها فإنها تصبح
آسنة كونها ضُربت بآفة بفعل الأمطار وحرارة الشمس.
أو لم تر أيضًا أن تغير المناخ والماء
يؤثر فى أى امرئ ارتحل عن موطنه
لوجود تفاوت عظيم بين المواد؟
فما مقدار التباين الذى نفترض وجوده بين مناخ بريطانيا،
ومناخ مصر حيث يميل القطب الشمالى للعالم،
وما مقدار الميل الذى ينحرف به على البحر الأسود، أو على مدينة
قادش أو يسقط عمودياً على أرض قبائل البشر السود الملوح إهابهم؟
وكما نرى يجب أن تتنوع هذه الأقطار الأربعة
بمقتضى الرياح الأربعة وأقطار السماوات الأربع،
لذا يبدو لون بشرة قاطنيها أو مظهرهم مميزاً إلى
حد بعيد، وأيضًا قابلية التأثر بأمراض بعينها.
ينشأ داء الفيل، على سبيل المثال، على ضفاف نهر النيل
الممتد فى وسط مصر ولا يوجد فى بلدٍ غيره.

وفى إقليم أتيكا[1] تُهاجم الأقدام بداء النقرس وتُصاب الأعين
في المقاطعات الآخية. فاختلاف الأقطار لا يلائم الأطراف
والأعضاء المتباينة؛ ويمهد تنوع المناخ السبيل لذلك.

لذا عندما يدور الغلاف الجوى الغريب علينا
فإن الهواء غير الصحى يزحف،
مثل السحاب أو السديم الذى ينحدر فيخل بنظام
السماء أينما يحل ويحملها على تغيير طبيعتها؛
وعلى ذلك، فغالبًا عندما يحل بسمائنا (هذا الهواء الفاسد)،
فإنه يختلط بهوائها ويصيبه بالعدوى فيجعله مطابقاً له وغير مناسب لنا.
وهكذا فإن هذه الجائحة الجديدة أو الوباء إما أن
ينقض فجأة على الماء وإما أن يحط على المحاصيل الزراعية،
أو على أى طعام آخر للبشر أو مرتع للحيوانات،
أو أن يمكث كوباء معلق فى الهواء ذاته،
وعندما نتنفس فإننا نستنشق الهواء الملوث به،
وبطبيعة الحال يجب أن نتشرب هذه العناصر الغريبة فى جسدنا.
وعلى نحو مماثل يهاجم الوباء الماشية

---

(١) إقليم أتيكا: منطقة تقع فى وسط بلاد الإغريق حيث توجد مدينتها الكبرى أثينا.

غالبًا فيُسقم حتى ثغاء الحملان الكليل.
ليس هناك اختلاف بين كوننا نرتحل إلى أجواء
غير مناسبة لنا بتغيير الغلاف الجوى المحدق بنا،
أو أن الطبيعة من تلقاء نفسها ترسل علينا هواء
فاسداً أو أى داء آخر غير مألوف لنا،
الذى بمجرد حلوله يتهددنا بالعدوى.
ذات مرة أصاب هذا النوع من الأمراض والحر
المميت الحقول الحزينة فى مملكة كيكروبس(١)،
فأفرغ الطرق من الناس، وأخلى المدينة من قاطنيها..
وقد نبع فى بادئ الأمر من قلب مصر،
ثم اجتاز مدى شاسعاً من الهواء والمسطحات المائية،
وفى النهاية حل المرض بكل شعب بانديون(٢).
وبعد ذلك استسلموا فى جماعات لحصار المرض والموت.
فى البداية شعروا بأن الرأس تشتعل بالحمى،

(١) كيكروبس: أحد ملوك أثينا الأسطوريين، قيل إنه قد حكم المدينة لمدة ستة وخمسين عاماً، وكان أول من جعل زيوس كبيراً للآلهة، وفى عهده ايضًا صارت أثينة الربة الحامية للمدينة.

(٢) بانديون: بانديون الأول هو ابن الملك إريختونيوس ووريثه فى حكم أثينا. وهناك بانديون الثانى ابن الملك كيكروبس ووالد الملك أيجيوس والد البطل الأثينى ثيسيوس.

والعينين ملتهبتان وحمراوان.
والحلق يبدو قاتماً من الداخل وينزف
دماً وتسده القروح فتغلق طريق الصوت،
واللسان، ترجمان العقل، مغطى بالدم المخثر
يوهنه المرض، فتشق عليه الحركة، ويجف ملمسه.
بعد ذلك عندما يملأ المرض المميت الصدر ذاته
مرورًا بالحلق، فإنه يغمر الفؤاد الحزين للمرضى،
وعندئذ حقًا فإن كل حدود الحياة تتداعى.
وتنبعث عند التنفس رائحة كريهة خلال الفم،
كالرائحة المنبعثة من جثث نُبذت لتتعفن.
وعندئذ ومنذ ذلك الحين تكون كل قوى العقل قد وهنت،
وكذلك الجسد بأسره وأصبح الآن على أعتاب الموت ذاتها.
وكان ألم الاضطراب النفسى ذا معاناة
لا تُحتمل، وامتزجت الشكوى بالأنين.
وكثيراً ما يُلح الجشوء ليلاً ونهاراً فيسبب تشنجاً
فى أوتار العضلات من حين لآخر، ويقلص الأطراف،
فتتوقف تمامًا عن الحركة، فيضنى أولئك الذين قد استنزفهم الألم.

مع أنك لم تتمكن من الشعور بأى جزء بجسدك
وهو يشتعل بأي حرارة زائدة على السطح،
فإنك بالأحرى تشعر بالدفء يمتد لليدين وفى ذات
الوقت يتحول الجسد كله إلى اللون الأحمر بفعل القروح
الملتهبة، كأنما قد مسته النار اللعينة.
بيد أن الأعضاء الباطنية للمرضى تستعر بالحرارة التى
تنفذ حتى العظام، ويضرم اللهب فى المعدة كأنه فى تنور.
ومهما كانت الأردية خفيفة أو رقيقة السمك لا يمكن أن تصلح أبداً
لأجسادهم، لكن الراحة تكون دائمًا فى تعريض أجسادهم للهواء البارد.
يغوص بعض المرضى، بأجسادهم الملتهبة بفعل الطاعون،
فى جداول المياه الباردة حيث يقذفون بأجسادهم عارية فى الماء.
ويثب الكثيرون بسرعة من أعلى جدر آبار
المياه وقد فغروا أفواههم قبلما يبلغوا الماء..
هناك ظمأ جاف لا يرتوى، وهو يدفعهم إلى أن يغمروا أجسادهم
فى الماء وهو يجعل الماء الوفير مساوياً لقطرات ضئيلة.
لم تكن هناك راحة من الألم؛ فكانوا يسقطون على الأرض
من الإنهاك، ويتحدث المعالجون المحيطون بفراش المريض

بصوت منخفض فى ذعر لا يوصف، وبلا انقطاع يدير المرضى
بسرعة أعينهم الشاخصة والملتهبة جراء الطاعون ولا يعودها الكرى.
علاوة على ذلك؛ فإن علامات كثيرة للموت ظهرت آنذاك،
فالأفكار فى الذهن مشوشة فى أسى وخوف،
والجبين مقطَّب، وملامح الوجه هستيرية ومرعبة،
والأذنان مشوشتان ويملأهما الطنين، والمريض يلهث
بسرعة أو يكون التنفس خاتراً على فترات متباعدة،
ويتصبب فيض من العرق المتلألئ الذى يقطر على العنق،
وثمة مخاط طفيف، مخضل باللون الأصفر
مالح المذاق، يُلفظ بصعوبة من الحلق عن طريق سعال أجش.
وفى اليدين تختلج أوتار العضلات وينتفض الذراعان،
ومن القدمين تسعى البرودةِ تدريجياً لأعلى
على نحو عديم الرفق. وفى نهاية المطاف تضيق
فتحتا الأنف، وتستدق أسلتها، وتغور العينان،
ويصبح الصدغان مجوفين، والجلد بارداً وجافاً،
وتنفرج الشفتان وتتهدلان، ويصير الجبين متوتراً وناتئا.
ولا يمضى وقت طويل بعد ظهور تلك الأعراض حتى يتجمد

الجسد جاسئاً فى موت. فى الشروق الثامن لضوء الشمس
أو على أقصى تقدير التاسع[1] يسلمون الروح.
وإن نجا شخص لبعض الوقت من خطر الموت،
فإنه – بعدئذ بفعل القروح الخبيثة والقيح الذى
يخرج من الحشا – يذبل ويكون الموت فى انتظاره،
أو أن يخرج من ثقبى الأنف المختنق
دم فاسد مصحوباً بألم عنيف بالرأس؛
وحينئذ تنحسر كل قوى الجسد. فضلاً عن ذلك،
فإن من يبقى على قيد الحياة يصاب بسيولة حادة
بالدم، ثم ينفذ المرض إلى أوتار العضلات
والأوصال وأعضاء الجسد التناسلية ذاتها.
ويُقْدِمْ بعض المرضى، بفعل الخوف الشديد من دنو أجلهم،
على استئصال العضو الذكورى المصاب كى يظلوا على قيد الحياة،
والبعض الآخر رغم كونهم دون أياد أو أقدام يتشبثون
بالحياة، وآخرون يفقدون أبصارهم؛
فإلى حد بعيد يستولى على هؤلاء الناس رعب عظيم من الموت.
كما أن هناك الكثيرون الذين يسقطون فريسة للنسيان،

---

(١) أى فى اليوم الثامن أو التاسع.

للحد الذى معه لا يعرفون حتى أنفسهم.

١٢١٥ على الرغم من ترك الجثث فوق الجثث تمتد أكواماً دون دفن،
فإن فصائل الطيور الجارحة والحيوانات المفترسة
تفر هاربة منها، حيث تدرأها الرائحة البشعة، فإن حدث
أن نهشت إحدى الجثث، فإنها تكون قد آلت إلى موت سريع.
مع ذلك لا يمكن رؤية أى طائر فى تلك الأيام
١٢٢٠ على الإطلاق، أو أن تلوح من الغابات ليلاً فصائل
الوحوش البرية منقبضة النفس. فمعظمها قد أصيب بالطاعون
ومات. وأول من تأثر منهم بالمرض هم الكلاب، تلك
المخلوقات الوفية التى تناثرت فى كل الطرقات تسلم على
١٢٢٤ مضض الروح التى سلبها الوباء من أجسادهم.
١٢٢٦ لا يوجد علاج للوضع العام يمكن أن يعوّل عليه؛
لأن الدواء الذى يمنح إنساناً ما حق استنشاق
نسيم الحياة ورؤية أقطار السماء،
يمثل هلاكاً للآخرين ويعجل بموتهم.

١٢٣٠ بيد أن ما يدعو للرثاء على نحو أشد بين كل تلك الظروف
الأخرى، والأمر الأعظم كمداً، هو أن يرى المرء نفسه قد

سقط فريسة للمرض، كأنما قُضى عليه بالموت،
فيرقد حزين الفؤاد خائر العزم تمامًا،
لا يفكر سوى فى الموت حتى يسلم الروح على
البقعة نفسها هناك؛ لأن عدوى المرض الذى لا يشبع
لا تكف عن الانتقال من ضحية لأخرى،
فأضحى وكأنه يتفشى بين أغنام صوفية أو قطعان للماشية
ذات القرون. لقد كان هذا أحد العوامل الرئيسية فى تراكم جثث
الموتى فوق بعضها، لأن من كانوا يفرون من عيادة مرضاهم،
فإن بعد ذلك بقليل كان الإهمال المنتقم يعاقب
الراغبين فى الحياة بإفراط والخائفين من الموت بميتة
قبيحة وسيئة، وقد هُجروا وحُرموا من العون.
أما أولئك الذين مكثوا بجانب المرضى، فقد ماتوا بسبب انتقال
العدوى أو الإجهاد، لأن حياءهم قد دفعهم إلى عيادة المرضى
فاختلط صوت الإشفاق على المرضى بصوت شكوى المنهكين،
فتلقى أكثر الأنفس نبلاً حتفها بذلك المنوال
دون مشيعين للميت ويكون التناحر على الأسبقية هو المراسم
الجنائزية الوحيدة، فجثث الموتى على المحارق، وهم يتبارون
على دفن ذويهم؛ يعودون منهكين من البكاء والعويل؛

وبعدئذ فإن معظمهم يعكف فى فراشه مريضاً من الحداد.
لم يكن بإمكان أحد أن يوجد فى مثل هذا العصر
إلا وقد هاجمه المرض أو الموت أو الحزن.
فضلاً عن ذلك؛ فى ذلك العصر فإن راعى الأغنام وقائد
قطعان الماشية وأيضًا سائق المحراث المنحنى الشكل مفتول
العضلات كانوا يشعرون بالإعياء، فاحتشدت أجسادهم داخل
الأكواخ فى معزل مستسلمين للموت بتأثير الفقر والوباء.
ولعلك ترى أحياناً أجساد الوالديْن تتمدد
هامدة فوق أجساد أطفالهما الخالية من الحياة،
وعلى النقيض يسلم الأطفال الروح فوق أجساد الوالديْن الممددة.
مُنذ مدى ليس بالبعيد امتدت هذه المحنة من الريف إلى
المدينة، لأن الحشود المصابة بالطاعون من القرويين جلبته
فى نزوحها من جميع الأقاليم تحمل بذور المرض.
وقد شغلوا سائر الطرقات والمساكن؛ لذا – بسبب الحرارة
الخانقة – أضحت أجساد الضحايا ملقاة فوق بعضها.
وهناك من دفعهم الظمأ إلى الذهاب إلى عيون
الماء فاختنقوا لتوقف تنفسهم بسبب انغماسهم

المفرط فى ارتشاف الماء العذب،
ولعلك ترى الكثيرين فى الأماكن العامة والطرقات
أجساداً شبه ميتة بأطراف خائرة القوى،
ملوثة بالكدر ومدثرة بالخرق حيث يهلكون بسبب
درن أجسادهم، لا شئ يغطى عظامهم سوى الجلد،
وذلك الذى وُرى الثرى بقروح عفنة وانتشار الكدر.
هذا بالإضافة إلى أن الموت قد ملأ سائر
مقدسات الآلهة بالأجساد الموات
واكتظت معابد الآلهة بالجثث،
من كل من كهنتها وزوارها.
لا تُراعى عبادة الآلهة الآن أو قدسيتهم،
أكثر من هذا؛ فشدة الحزن تغلبت على الاعتبارات
الدينية. اختفت من المدينة شعائر الدفن التى عن
طريقها دأبت الشعوب المتدينة دائمًا على الدفن؛
لأن الشعب كافة كان فى فزع ويأس، ويدفن كل
امرؤ صديقه كيفما تسنح الظروف.
فمباغتة الحدث والفقر يحملان على الكثير من الأفعال

عديمة التقوى؛ حيث يضعون ذويهم وسط العويل على
مجموعة من الحطب ويضرمون فيها النار،
ويتشاجرون كثيراً، وهم ينزفون دماً غزيزاً ١٢٨٥هـ
فى سبيل عدم التخلى عن موتاهم.

قائمة المصادر والمراجع

- Adams (J.N.) , The Latin Sexual Vocabulary ، London.1982.
- Adkins (A.W.H.) ,"Lucretius 1.136-139 and the Problems of Writing versus Latini", Phoenix 31 (1977), pp.145-158.
- Algra (K.A.) & Koenen (M.H.) & Schrjvers(P.H.)[editors], Lucretius and his Intellectual Background , Amesterdam Royal Netherlands Academy of Arts and Sciences 1997.
- Alioto (Anthony) , A History of Western Science , Prentice Hall 1987.
- Allen (W.Jr.) ,"On the Friendship of Lucretius with Memmius" , Classical Philology 37(1938) , pp.167-181.
- Amory (A.) , "Obscura de re lucida carmina: Science and Poetry in De Rerum Natura" ,Yale Classical Studies 21 (1969) , pp.143-168.
- Andrushko (Valerie) , "Prehistoric Trepanation in Cuzco region of Peru: A view into an ancient Indean Practice", American Journal of Physical Anthropology , 137 ,1st Sebtember 2008.
- Arragon (R.F.) , "Poetic Art as a Philosophic Medium for Lucretius" , Essays in Criticism 11 (1961) , pp.371-389.
- Asmis (Elizabeth) , "Lucretius' Venus and Stoic Zeus" , Hermes 110(1982) , pp.458-470.
- ------ , "Rhetoric and Reason in Lucretius", American Journal of Philology , 104(1983) , pp.36-66.
- Bailey (C.), Tuti Lucreti Cari De Rerum Natura Libri Sex , (3 vols.) ,(Monumental edition , with translation and vocabulary) , Oxford 1947.
- ------ , Epicurus the Extant Remains , (text with English translation and commentary) , Oxford 1926.
- ----- ,The Greek Atomists and Epicurus , Oxford 1928.

- Bergson (Henri) , Philosophy and Poetry , The Genius of Lucretius , New York , Philosophical Libray 1959.
- Berrios (G.F.) & Mohanna(M.) , "Durkheim and French Psychiatric Views in Suicide During The 19th Centry, a conceptral History ", British Journal of Psychiatry 156 (1990) , pp.1-9.
- Betensky (Aya) , "Lucretius and Love" , Classical world 78 (1980) , pp.291-299.
- ----- , The Literary Use of Animals in Lucretius' De Rerum Natura and Vergil's Georgics. A dissertation: Yale University 1972.
- Bitsori(Maria)& Galanakis(Emmanouil) ,"Epicurus' Death", World Journal of Urology 22 (2004) , pp.466-469.
- Blake (J.A.) , "Death by Hand Grenade:altruistic suicide & Life-threatening in combat" , Suicide & Life-threatening Behaviour 8 (1978) , pp. 46-59.
- Blickman (D.R.) , "Lucretius, Epicurus, and Prehistory" , Harvard Studies of Classical Philology 92 (1980) , pp. 157-191.
- Boyance(Pierre) ,"Lucrece et son disciple" , Reveu des Etudies Ancienne 52 (1950) , pp.225-240.
- ------ ,"Epicure , La poesie et la Venus de Lucrece" , Reveu des Etudes Ancienne 64 (1962) ,pp.404-410.
- ------ , Lucrece et l'Epicurisme , Paris 1963.
- Bright(D.F.) , "The Plague and the Structure of the De Rerum Natura , Latomus 30 (1971) , pp.607-632.
- Brown(P.Michael) [editor] , Lucretius , De Rerum Natura III , Warminster: Aris & Phillips , 1997.
- ------ , Lucretius: De Rerum Natura I , Bristol Classical Press 1984.
- Brown(R.D.) ,Lucretius And Sex. A Commentary on De Rerum Natura IV.1030-1287 , with Prolegomena , Text and Translation , Leiden: Brill 1987.
- Bruce Gross , Forensic Examination , Summer 2006.

- Campbell(Gordon) , Lucretius on Creation and Evolution. A Commentary on De Rerum Natura Book Five Lines 772-1104 , Oxford 2003.
- Cini(G.E.) , "La posizione d egli 'Italiki' nello stemma Lucreziano, Atti e memorie dell' Accademia Toscana la Colombaria 41(1976) , pp.115-169.
- Clark(Robert David) , Natura creatric: The Matter of Meaning in the De Rerum Natura , a dissertation , Colombia University 2000.
- Classen (C.J.) [editor] , Probleme der Lukrezforschung, Hildesheim: Olms 1986.
- ------ , "Poetry and Rhetoric in Lucretius" , Transactions of the American Philological Association 99 (1968) , pp. 77-118.
- Clay(D.),Lucretius And Epicurus,Ithaca ,Cornell University Press and London 1983.
- ------ , "The Sources of Lucretius' inspiration" , in Etudies sur l'epicurisme antique , pp.203-228.
- Cleary(Vincent J.) , "The Poetic Influence of the De Rerum Natura on the Aeneid" , Classical Bulletin 47 (1970) , pp.17-20.
- Colman(John),Science and Poetry, A Study of Lucretius' on The Nature of Things ,a dissertation , Boston College 2006.
- Commager(H.S.),"Lucretius Interpretation of the plague", Harvard Studies of Classical Philology 62 (1957) pp.105-118.
- Costa(C.D.N.), Lucretius De Rerum Natura V , Oxford 1984.
- Dale(F.R.), "Caesar and Lucretius" , Greece & Rome 5 (1958) , pp.181-182.
- Dalzell(A.),"A bibliography of work on Lucretius,1945-1972" , Classical World 66(1973),pp.389-427; 67(1974), pp.65-112.
- ------ ,"Language and Atomic Theory in Lucretius" , Hermathena 143(1987) , pp.19-28.

- ------ ,"Lucretius and The History of Epicureanism" , Transactions of the Amarican Philological Association 751(1948) , pp. 22-23.
- De Lacy(P.),"Lucretius and the History of Epicureanism" , Transactions of the Americam Philological association 79 (1978) , pp.12-35.
- Diels(H.) , De Rerum Natura , Berlin 1923.
- Dupont(F.) , Daily Life in Ancient Rome (translated by Christopher Woodall) , Oxford 1992.
- Edwards(M.J.) ,"Lucretius , Empedocles and Epicurean Polemic" , Antike und Abendland 35(1989),pp.104-115.
- ------ , "Aeternus Lepos:Venus,Lucretius and the Fear of Death" , Greece & Rome 40(1993) , 68-78.
- Englert(W.) , Lucretius , On The Nature of Things , Newburyport ,Mass:Focus 2003.
- Ernout(A.) & Robin(L.) , Lucrece,De Rerum Natura , commentaire exegetique ,2nd ed. , Paris 1962.
- Esolen(Anthony M.) ,Lucretius , On The Nature of Things, De Rerum Natura , Baltimore:Johns Hopkins University Press 1995.
- Farrington(Benjamin),"Lucretius And Memmius" , Anales di Filologia Classica 7 (1959) , 13-31.
- ----- , "The Meaning of Voluptas in Lucretius" , Hermathena 80 (1952) , pp.30-31.
- Feeney(D.C.),"Wild Beasts in the De Rerum Natura" , Prodentia 10(1978) ,pp.15-22.
- Fenves(P.),Arresting Language:From Leibniz to Benjamin, Stanford 2001.
- Fisher(Helen), Why we Love,the nature and chemistry of Romantic Love , London 2004.
- Fitzgerald(William),"Lucretius'Cure for Love in the De Rerum Natura" , Classical World 128(1984) , pp.73-86.

- Fordyce(C.J.),Catullus , Oxford 1961.
- Foster(J.), "Aeneidea: A Lucretian Echo in the Aeneid IV", Proceedings of the Virgil Society 11 (1971-1972) , pp.77-79.
- Fowler (Don) , "Lucretius and Politics", in M.Griffin & J. Barnes [eds.] , Philosophia Togata , Oxford 1989 , pp. 120-150.
- ------,"Lucretian Conclusions"(in D.H.Roberts et al. editors:Classical Closure:Reading the End in Greek and Latin Literature , Princeton 1997) , pp.112-138.
- ------, Lucretius on Atomic Motion , A Commentary on De Rerum Natura 2.1-332 , Oxford 2002.
- Frindlander(P.) ,"The Epicurean Theology in Lucretius' First Prooemium (Lucretius 1,44-45) ,Transactions of American Philological Association 70(1939),pp.368-379.
- ------ ,"Pattern of Sound and Atomistic Theory in Lucretius" , American Journal of Philology 62 (1941) , pp.16-34.
- Fromm(Erich) , The Art of Loving , Harper Perennial 1956.
- Furley(David J.),"Variations on Themes from Empedocles in Lucretius' Proem" , Bulletin of the Institute of Classical Studies 17 (1970) ,pp.55-64.
- ------,"Lucretius the Epicurean:on the history of man (in Furley , Comic Problems,Cambridge1980),pp.206-222.
- ------ ,"Lucretius and the Stoics , Bulletin of the Institute of Classical Studies 13(1966) , pp.13-33.
- Gain(D.B.),"The Life and Death of Lucretius" , Latomus 28 (1969) ,pp.545-553.
- Gale(Monica) , Lucretius and the Didactic Epic , London Bristol Classical Press 2001.
- ------ , Myth and Poetry in Lucretius , Cambridge 1994.
- ------ [editor], Oxford Readings in Classical Studies: Lucretius , Oxford 2007.

- Gelder(E.) ,Psychiatry ,Oxford 2005.
- Gerlo(A.) , "Psuedo-Lucretius" , Ant. Class. 25 (1956) , pp.41-72.
- Gillespie (S.)&Hardie(P.)[eds],The Cambridge Companion to Lucretius , Cambridge 2007.
- Gillis(Daniel J.),"Pastoral Poetry in Lucretius",Latomus 26 (1967) , pp.339-362.
- Goar(Robert),"On the End of Lucretius'Fourth Book" , Classical Bulletin 47(1971) ,pp.75-77.
- Goodwin (J.) , Lucretius , London: Bristol Classical Press 2004.
- ----- , Lucretius:De Rerum Natura VI ,Warminster: Aris and Phillips 1991.
- ------ ,Lucretius:De Rerum Natura IV , Warminster: Aris and Phillips 1981.
- Gordon (C.) , A Bibliography of Lucretius, London: Hart-Davis 1962.
- Gordon(P.),"Some Unseen Monster:Rereading Luvretius on Sex" (in D.Fredrick[ed.],The Roman Gaze: Vision , Power and the body , Baltimore 2002),pp.86-109.
- Green (William M.), "The Dying World of Lucretius", American Journal of Philology 63(1942) , pp.51-60.
- Grimal(Pierre),"Lucrece et l'hymne a Vanus" , Revue des Etudes Latines 35(1957) , pp.184-195.
- Hadot (Pierre) , Qu'est que la philosophie antique ? , Gillimard 1995.
- Hadzsits (G.D.), Lucretius and His Influence , Lighting Source Incorporated London 2006.
- ------ ,"The Lucretian Invocation of Venus" , Classical Philology 2(1907) , pp.187-192.
- Hawton(K) & van Heering(K) ,"Suicide" , Lancet 373 (April 2009) , pp.1372-1381.

- Hermann (Leon),"Catulle et Lucrece" , Latomus 15(1956), pp.465-480.
- Holms(B.),"Daedala Lingua: crafted speech in De Rerum Natura", American Journal of Philology 126 (2005) ,pp. 527-585.
- Howe (Herbert M.) ,"Amafinius , Lucretius and Cicero ", American Journal of Philology 72(1951) ,pp.57-62.
- Humphries(Rolfe),Lucretius , The Way Things Are: The Rerum Natura , Indiana University Press 1968.
- Hutchinson(G.),"The Date of De Rerum Natura , Classical Quarterley 51(2001) , pp.150-162.
- Johnson(W.R.),Lucretius and The Modern World,London: Duckworth 2000.
- Jones(H.), The Epicurean Tradition , London: Routledge 1989.
- Kay(Paul) & Kempton(Willett) ,"What is the Spir-Whorf Hypothesis ?", American Anthropologist , New York series 86 (1984) , pp.65-79.
- Keen(R.),"Lucretius and His Reader" , Apeiron 19(1985) , pp.1-10.
- Kennedy (E.J.) ,"Doctus Lucretius" , Mnemosyne 4 , 23 , (1970) , pp.366-392.
- ------, Lucretius De Rerum Nayura Book III , Oxford 1977, Cambridge 1981.
- Kennedy (Duncan F.), Rethinking Reality,Lucretius and the Textualization of Nature, Ann Arbor: University of Michigen Press 2002.
- Kleve(Knut) &Longo (Auricchio) , "Bony from the Garden of Epicurus",Papyrologica Lupensis1(1992),pp.211-226.
- Kleve(Knut), "Lucretius in Herculaneum ,BCPE 19(1989) , pp.5-57.
- ------ , "What Kind of Work Did Lucretius Write , So 54 (1979) , pp.81-85.

- -----, "The Phiolosophical Polemics in Lucretius , Entretiens Hardt , 24(1978),pp.39-71.
- Kollman(E.D.) , Lucretius' Criticism of the Early Greek Philosophers , Studi Classici 13(1971) ,pp.79-93.
- Konstan(D.),Friendship in the Classical World ,Cambridge 1997.
- ----- , Some Aspects of Epicurean Psychology , Leiden: Brill 1973.
- Koves-Zulauf(Thomas), Reden und Schweigen , Munich 1972.
- Kristeller(Paul Oskar) ,Renaissance Thought and the Arts, Collected Essays,Princeton University.Press , 1980.
- Larrimore(Mark Joseph) , The Problem of Evil , Blackwell 2001.
- Latham(R.E.)&Goodwin(J.) , Lucretius , On The Nature of The Universe , Harmondsworth: Penguin 1994.
- Lee(J.H.W.) , Titi Lucreti Cari De Rerum Natura Libri I-III, Oxford 1992.
- Leonard(W.E.)&Smith(S.B.) , De Rerum Natura , Libri Sex, University of Winsconsin Press , U.S.A. ,1970.
- Leroy(L.) , "La personalite de Lucrece , Bull. Assoc. G. Bude 4 ser, 3 (1955), pp.17-35.
- Lloyd(G.E.R.) , Greek Science And Aristotle , New York 1973.
- Long(A.A.) , "Hellenistic Philosophy: Stoics , Epicureans , Sceptics ,(2nd ed.) ,Berkley and Los Angeles , University of California Press 1986.
- Lowenstein(O.E.) , "The Pre-Socratics , Lucretius , and Modern Science",(in: Lucretius, edited by.R. Dudley , New York ,Basic Books 1965) , pp.1-17.
- Luck (G.), "Was Lucretius Really Man ?" , Euphrosyne 14(1988) , pp.289-294.
- Mass (P.), Greek Metre (translated by H.Lloyd-Jones) , Oxford 1972.

- Malowski(T.) ,"Cicero , Philodemus , Lucretius" , Eos 66 (1978) , pp.215-226.
- Mascaro (Juan) , The Bhagaved Gita , Penguin Classics 2003.
- Melville(Sir Ronald) , Lucretius , On The Nature of The Universe (with introduction and notes by D. and P. Fowler , Oxford 1997.
- Merill(W.A.),"Cicero's Knowledge of Lucretius' Poem" , University of Clifornia Publications in Classical Philology 2(1909) , pp.35-42.
- Miller (J.) & Inwood(B.) [editors] , Hellenistic and Early Modern Philosophy ,Cambridge 2003.
- Minadeo(R.) , The Lyre of Science: Form and Meaning in Lucretius' De Rerum Natura , Detroit 1969.
- Monet (A.)[editor], Le Hardin romain: Epicurisme et poesie a Rome , Melange offerts a MayottBollack , Villeneuve s'Ascq. (2008).
- Monica (R.Gale) , Myth and Poetry in Lucretius , Cambridge 1996.
- Monti(R.C.) , "Lucretius on Greed , Political Ambition and Society: De Rerum Natura 3,59-86" ,Latomus 40(1981), pp.48-66.
- Murley(Clyde) .,"Lucretius,De Rerum Natura: viewed as epic" ,Transactions of American philological Association 78(1947) ,pp.336-346.
- Munro (H.A.J.) , De Rerum Natura , Cambridge 1886.
- Nussbaum(M.C.) , The Therapy of Desire: Theory and Practice in Hellenistic Ethics , Princeton University Press 1994.
- ------ , "Mortal , Immortal , Lucretius on Death and the Voice of Nature" , Philology and Phenomenological Research(1989-1990) , pp.303-351.
- O'connor, Understanding Suicidal Behaviour , Leicester Books 2000.
- O'Keefe(T.) , Epicurus on Freedom , Cambridge 2005.
- Osler(W.) ,"The Humanities and the New Science",British Medical Journal ,5 July (1910) , pp.1-10.

- Perret (Jacques) , "L'amour de l'argent , l'ambition ,et la crainte de la mort (Lucrece III,59-86) in Melange offers a A.Ermout, Paris 1949 , pp. 277-284.
- Bertolote (J.M.) & Fleischmann (A.) , "Suicide and Psychiatric Diagnisis: A worldwide perspective", World Psychiatry 1(2002) , pp.181-185.
- Porter(Roy) , Madness – A Brief History ,Oxford 2002.
- Preaux(J.) , "Le jugement de Cicero sur Lucrece et sur Salluste" , Revue Belge de Philologie et d'Histoire 42 (1964) , pp. 57-73.
- Reinhardt (T.), "The Speech of Nature in Lucretius' De Rerum Natura 3.931-971", Classical Quarterley 52 (2001) , pp.291-304.
- Reinhold(F.G.), "Et invidus inbeccillis , Vigiliae Christianae 42(1988) , pp.47-58.
- Roller(D.W.) , "Gaius Memmius , Patron of Lucretius , Classical Philology 65(1970).pp.246-268.
- ------, "The Sources of Lucretius" , Liverpool Classical Monthly 12(1986) , pp.51-55.
- Robinson(Daniel N.), An intellectual History of Psychology, University of Wisconsin Press 1995.
- Rosler (W.) , Lukrez und die Vorsokratiker: doxo-graphische Problem im I Buch von: De Rerum Natura" , Hermes 101(1973) pp.48-64.
- Rouse (W.H.D.) , Lucretius De Rerum Natura (revised by Martin Ferguson) , Loeb Classical Library , Harvard University Press ,2006.
- Rubin(Zick) , "Measurement of Romantic Love", Journal of Personality and Social Pschology 16(1970) , pp.265-276.
- Saylor (C.F.) ,"Man , Animal , and Bestial in Lucretius", Classical Journal 67(1972), pp.306-316.
- Schrijvers (P.H.) , Lucrece et les sciences de la vie (Mnemosyne Supplementum)Leiden: Brill 1999.

- ------ , Horror ac divina voluptas: Etudes sur la poetique et le poesie de Lucrece , Amesterdam 1970.
- Schiesaro(A.) , Simulacrum et Imago: Gli argomenti ana- logics nel de rerum natura , Piso Giardini 1990.
- Scott(Wm.) , "The Physical Constitution of The Epicurean Gods" , Journal of Phylology 12(1883),pp.212-247.
- Sedley (David N.) , Lucretius And The Transformation of Greek Wisdom , Cambridge 1998.
- ------, "The Structure of Epicurus' On Nature", Cronache Erccolanesi 4 (1974) pp.89-92.
- Segal (Charles) , Lucretius On Death and Anxiety: Poetry and Philosophy , Princeton University Press 1990.
- ------,"Poetic Immortality and The Fear of Death: the second proem of the De Rerum Natura" , Harvard Studies of Classical Philology 92(1989) , pp.193-212.
- ------, "Dream And Poets in Lucretius" , Illionois Classical Studies 15(1990) , pp.251-262.
- ------ , "War , Death , and Savagery in Lucretius: The Beasts of Battle in 5. 1308-1349 ", Ramus 15 (1986) pp.1-34.
- Sellar(W.Y.) , Poets of The Republic ,Oxford 1889.
- Sandback(F.H.),"Poemata and The Poet's Death",Classical Review 54(1940) ,pp. 79-97.
- Serres (M.) , The Birth of Physics , Manchester Clinamen Press 2000.
- Shearin(Wilson Henry) , Atomic Politics: Speech Acts in Lucretius' De Rerum Natura(a dissertation), University of California Berkley 2007.
- Sikes (E.E.) , Lucretius , Poet and Philosopher , Cambridge 1936.
- Smith(M.F.),Lucretius , On The Nature Of Things ,Indiana- polis and Cambridge , Hackett 2001.

- ------, Lucretius' De Rerum Natura (with an English tranclation by H.D. Rouse),Loeb Classical Library 1975.
- Snyder (Jane M.) , "Lucretius and The Status of Women" ,Classical Bulletin 53(1976),pp.17-19.
- ------, "Lucretius' Empedoclean Sicily", Classical World 65 (1972) , pp.217-278.
- Stahl (William) , Roman Science , University of Wisconsin 1962.
- Stearns (J.B.) ,"Epicurus and Lucretius on Love" , PAPA 63 (1932) , pp.118-120.
- Stehle(E.M.),The Unity of Physics and Ethics in Lucretius (a dissaertation) , University of Cincinnati 1971.
- Sternberg (R.J.) , "A Triangular Theory of Love" , Psycho-logical Review 93(1986) , pp.119-135.
- Stone (Geo) , Suicide And Attempted Suicide , New York 2001.
- Striker (Gisela) , "Epicurus on the Truth of Sense Impressions" Archiv fur Geschichte de philodophie 59 (1977) ,pp.125-142.
- Tang Wang , Hellenistic Aesthetic and The Poetic Composition of Lucretius De Rerum Natura (A dissertation) , Indiana University 2002.
- Tatum(W.J.) ,"The Presocratics in book one of Lucretius' De Rerum Natura , Transactions of the American Philological Association114 (1984) pp.177-189.
- Taylor(L.R.) ,"Lucretius and the Roman Theater" , Studies in Honor of Gilbert Norwood by M.White , Toronto 1952.
- Tierny(L.M.) & McPhee(S.J.) & Papadakis(M.A.) ,"Current Medical Diagnosis & Treatment (in International edition, New York 2002,Lang Medical Books), pp.1078-1086.
- Townend (G.B.) , "The Fading of Memmius" , Classical Quarterley 28(1978) pp.267-283.
- ----- , "The Original Plan of Lucretius' De Rerum Natura , Classical Quarterley 29 (1979) , pp.101-111.

- Turner (Paul) , "Shelly and Lucretius" , Review of English Studies 10(1959) , pp.269-282.
- Vertue(H.St.H.) , "Venus And Lucretius" ,Greece & Rome 3 (1956) , pp.140-152.
- Volk (Katharina) , Carmen et Res: The Poetics of Latin Didactic: Lucretius , Vergil , Ovid (a dissertation) Princeton University 1999.
- Ward (Alya Jane) , Epicurus Transformed: Lucretius' Appeal to the Roman Audience (a dissertation) , Yale university 1990.
- Wardy(R.) , "Lucretius on what atoms are not" , Classical Philology 83(1980) , pp.112-128.
- Warren (J.) , Facing Death: Epicurus and His Critics , Oxford 2004.
- -----,"Lucretius *palingensis* recycled",Classical Quarterley 5(2001) ,pp.499-508.
- Weinstien (Raymond M.) , "Madness "(in George Ritzer [ed.],The Blackwell Encyclopedia of Sociology,Blackwell Publishing 2007),pp. 2693-2695.
- West (D.) , The Imagery and Poetry of Lucretius , Edinburgh Press 1969.
- ------ , "Lucretius Methods of Argument (3.417-614) , Classical Quarterley 25(1975) , pp.94-116.
- Wettstein(Howard) ,"Life And Death: Metaphysics And Ethics ", Midwest Studies in Philosophy ,volume xxiv, Blackwell 2000.
- Wilkinson(L.P.) ,"Lucretius And Love-Philtre , Classical Review 63(1949) ,pp.47-48.
- Williams (Gordon) , The Nature Of Roman Poetry , Oxford 1970.
- Wiltshire (S.F.) ,"Nunc Age - Lucretius as Teacher" , Classical Bulletin 50(1974) ,pp.33-37.
- Wiseman (T.P.) , "The Two Worlds of Titus Lucretius Carus" (in Cinna The Poet and Other Roman Essays , Leicester University Press , 1974) , pp.11-43..

- Wormell(D.E.W.) ,"Lucretius: The Personality of The Poet",Greece & Rome 7(1960) ,pp.54-65.
- Yapijakis(C.) , "Hippocrates of Kos and Asclepiades of Bithynia: Review" , Vivo 23[4] (2009) , pp.507-514.
- Zetzell(j.E.G.) , "Lucilius , Lucretius and Persius'1.1" , Classical Philology 72(1977) , pp.40-42.
- Ziegler (K) , "Der Tod des Lucretius" Hermes 61(1936) , pp. 421-440.

الشاعر فى سطور :

تيتوس لوكريتيوس كاروس "Titus Lucretius Carus"

واحد من أشهر الشعراء الرومان الذين عاشوا فى القرن الأول قبل الميلاد . نظم قصيدة تعليمية واحدة فى البحر السداسى الملحمى وهى قصيدة " فـى طبيعـة الأشياء "، رغب فيها إلى نشر تعاليم معلمه إبيقوروس بين المثقفين الرومان . وقـد قسم القصيدة إلى ستة كتب تتناول النظرية الذرية فى نشأة الكون . وتكمن أهمية هذه القصيدة فى أنها تطلع القراء على جميع مبادئ الفلسفة الإبيقورية، خاصة أن مؤلفات معلمه قد وصلتنا على هيئة شذرات، كما أنها تمثل حلقة الوصل بين دراسة المذهب الإبيقورى فى العصور الإغريقية والرومانية من ناحية والعصور الوسطى والحديثة من ناحية أخرى .

المترجمون فى سطور :

د. على عبد التواب على

- أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية فى بكلية الآداب – جامعة القاهرة .
- وكيل كلية الآداب لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة .
- حاصل على جائزة أينياس لأفضل ترجمة عن اللاتينية فى المركز الثقافى الإيطالى عام ٢٠٠٠ .

من أعماله المنشورة :

- ترجمة الكتاب الأول لرسائل هوراتيوس، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة ، العدد رقم (٥٩١) القاهرة ٢٠٠٣ .
- ترجمة الكتاب الثانى لرسائل هوراتيوس، المركز القومى للترجمة .
- ترجمة أوفيديوس "رسائل البطلات"، مشروع جامعة القاهرة للترجمة، عدد ٢٥.
- ترجمة " إليجيات تيبوللوس، مشروع جامعة القاهرة للترجمة، عدد ٢٦ .
- كتاب قواعد اللغة اللاتينية، القاهرة ١٩٩٩ .
- كتاب أساطير رومانية، القاهرة ٢٠٠٦ .
- الأدب اللاتينى فى عصرى الجمهورية وصدر الإمبراطورية : قراءة فى الأجناس الأدبية، القاهرة ٢٠٠٦ .

د. صلاح رمضان السيد

- أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية المساعد فـــى بقـــسم اللغـــات اليونانيـــة والإيطالية، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر .
- حاصل على جائزة أينياس لأفضل ترجمة عن اللاتينية فى المركز الثقـــافى الإيطالى عام ٢٠٠٠ .
- **سمن أعماله المنشورة :**
- ترجمة الكتاب الأول لرسائل هوراتيـــوس، المـــشروع القـــومى للترجمـــة، المجلس الأعلى للثقافة، العدد رقم (٥٩١) القاهرة ٢٠٠٣ .
- الأدب اللاتينى فى عصرى الجمهورية وصدر الإمبراطورية : قـــراءة فـــى الأجناس الأدبية، القاهرة ٢٠٠٦ .

د. سيد أحمد صادق

- حصل على دكتوراه الفلسفة من كلية الآداب – جامعة أثينا ١٩٨٨ .
- أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية فى قسم الدراسات اليونانيـــة واللاتينيـــة ، كلية الآداب – جامعة القاهرة .

من أعماله المنشورة :

- مدخل إلى الدراسات الرومانية .
- فرجيليوس وقضية الأصالة في الأدب اللاتينى ٢٠٠٩ .

- ترجمة موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي – النقد الأدبي الكلاسيكي، المشروع القومي للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٥ .

- مقال " بلاوتوس والمحاكاة الميثولوجية الساخرة لأبطال إلياذة هوميروس، مجلة كلية الآداب ٢٠٠٨ .

- مقال " إمكانية وراثة الطبائع في شخصية أوديسيوس : دراسة في ضوء المصادر الإغريقية واللاتينية، مجلة أوراق كلاسيكية ٢٠٠٧ .

- مقال " تأصيل التناص في التراجيديا الإغريقية، مجلة أوراق كلاسيكية ٢٠٠٧.

- مقال " الاغتصاب والإغواء بين القانون الأثيني وكوميديا ميناندروس ، مجلة أوراق كلاسيكية ٢٠٠٤ .

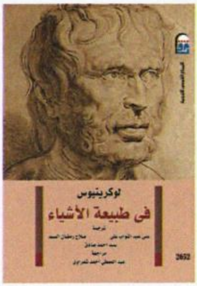
المراجع في سطور :

د . عبد المعطى أحمد شعراوى

- دكتوراة الفلسفة فى قسمى الدراسات اليونانية واللاتينيــة والــدراما – كليــة الآداب – جامعة بريستول – بريطانيا – مارس ١٩٦٧ .
- أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية فى قسم الدراسات اليونانيــة واللاتينيــة ، كلية الآداب – جامعة القاهرة .
- وكيل وزارة الثقافة ورئيس قطاع الثقافة الجماهيريــة – جمهوريــة مــصر العربية في الفترة من يونيو ١٩٨٥ حتى أكتوبر ١٩٨٧ .
- مقرر اللجنة الدائمة لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين – المجلس الأعلــى للجامعات لعدة دورات .
- عضو اللجنة العليا لقراءة النصوص المسرحية – البيت الفنــى للمــسرح – وزارة الثقافة المصرية (سابقا).
- رئيس تحرير مجلة الثقافة الجديدة – القاهرة – في الفترة من يوليــو ١٩٨٥ حتى ١٩٨٧ .

التصحيح اللغوى: كريمـــان البـــدرى

الإشــراف الفنــى: حـــسن كامـــل



يتناول هوراتيوس فى هذا العمل الكثير من قضايا النقد الأدبى مثل المغالاة فى حرية الإبداع التى تتجاوز أصول الفن، العناية بالجمال الجزئى على حساب الجمال الكلى، العلاقة بين بحور الشعر والأنواع الأدبية، قواعد الدراما وتاريخها ومراحل تطورها ، أنواع الدراما وسمات كل نوع ، موسيقى الدراما، وإنجازات الدراما الرومانية وأوجه قصورها، والإلهام والصنعة، ووظيفة الشعر ودوره فى خلق مجتمع متحضر، ضرورة أن يهدف إلى الإفادة والتعليم إلى جانب تحقيق المتعة، كما يشير إلى العلاقة بين الشعر والفنون الأخرى كالتصوير والنحت، وأهمية وجود الناقد النزيه للشعراء. هذا كما يتناول هذا العمل الكثير من عناصر السيرة الذاتية للشاعر التى تتناول مراحل عمره المختلفة .

تصميم الغلاف: هانى الشناوى